بخيتة

تصميم الغلاف

عبد العزيز محمد

المشروع الوطني للترجمة

14

الرواية العالمية

بخيتة

رواية

تأليف : فيرونيك أولمي

ترجمة : آلاء أبو زرار

منشورات الهيئة العامة السورية للكتاب

وزارة الثقافة - دمشق ٢٠١٩م

العنوان الأصلي للكتاب:

Bakhita

Véronique Olmi

Toman

Albin Michel-

بخيتة: رواية / تأليف فيرونيك أولمي؛ ترجمة آلاء أبو زرار. - دمشق: الهيئة العامة السورية للكتاب، ٢٠١٩م. - ٤١٦ص؛ ٢٥ سم. (المشروع الوطني للترجمة. الرواية العالمية -١٤-).

١ - ٨٤٣ ف أ و ل ب ٢ - العنوان ٣ - أولمي ٤ - أبو زرار ٥ - السلسلة

مكتبة الأسد

الإهداء

إلى لويس

وإلى بوني

"حتى اسمنا سيسلبوننا إياه... وإن أردنا الاحتفاظ به، فعلينا أن نجد في داخلنا القوة اللازمة، كي يبقى خلف هذا الاسم شيءٌ منا ومن ماضينا"

بريمو ليفي *"لو كان هذا رجلاً"*

-١-

من العبودية إلى الحرية

هي لاتعرف ما اسمها، ولاتدري بأية لغة هي أحلامها. تتذكر بضع كلمات باللغة العربية والتركية والإيطالية، كما أنها تتكلم بعدة لهجات بعضها آت من السودان وبعضها الآخر آت من البندقية! الناس يقولون إنه "خليط"؛ *فهي تتكلم خليطاً، ومن الصعب فهمها؛ مما يتوجب إعادة كلامها بعبارات أخرى لاتعرفها*. تقرأ اللغة الإيطالية ببطء يملؤه الشغف. توقّع بخط مرتجف شبه طفولي، وتعرف ثلاث صلوات باللغة اللاتينية، إضافةً إلى أناشيد دينية تدندنها بصوت منخفض، ولكنه قوي.

لطالما طُلب إليها أن تروي قصة حياتها، لذلك فقد أعادت سردها مرة تلو الأخرى، منذ البداية؛ فالبداية هي التي تعنيهم بقسوتها! قامت بلهجتها *"الخليط"* بسرد قصتها وعلى هذا المنوال تنشطت ذاكرتها؛ روت حسب التسلسل الزمني الأحداث الأكثر بعداً والأكثر ألماً!" *قصة عجيبة*"؛ ذلك هو عنوان كتيب حياتها الذي أصبح مسلسلاً في صحيفة، ومن ثم تحول لاحقاً إلى كتاب. هي لم تقرأه قطّ؛ فقد سردت قصتها على مسامعهم، وهي تشعر بالفخر وبالخجل في آن معاً. خشيت ردود أفعالهم، وأحبت أن يحبوها

من أجل قصتها، تلك بكل ما تجرأت على سرده، وبكل ما سكتت عنه بتحفظها، وبكل مالم يرغبوا في سماعه، وبكل ما لم يفهموه، وبكل تلك الأمور التي لم تخبرها لأحد قط. *"قصة عجيبة"* استعادت ذاكرتها من أجل هذه القصة إلا أنها لم تتمكن من تذكّر اسمها، لم تتذكره على الإطلاق؛ لم تعرف أبداً ما كان اسمها، ولكن ليس ذلك هو الأمر المهم لأنها لم تنس أبداً تلك الفتاة التي كانت عليها عندما منحها أبوها اسمها. احتفظت في داخلها بتلك الطفلة كنوع من الحنين إلى الطفولة؛ هو حنين إلى تلك الطفلة التي كادت تموت في العبودية إلا أنها نجت بحياتها؛ إنها تلك الطفلة التي لم يستطع أحد أن يسلبها إياها!

عندما ولدت، ولدت معها أختها التوءم. كانتا طفلتين متشابهتين فبقيت نسخة عن أختها دون أن تدري أين كانت، يكفي أنها تعيش بقربها. كانتا منفصلتين وملتصقتين في الوقت نفسه فهما قد كبرتا وهرمتا متباعدتين، ولكنهما متشابهتان. كانت تشعر ليلاً بوجود أختها، وتشعر بذلك الجسد الذي تفتقده بالقرب من جسدها، تشعر بأنفاس أختها. كان أبوها أخا زعيم القرية في أولغوسا بإقليم دارفور؛ أما اسم تلك القرية والمنطقة، فالآخرون هم الذين أخبروها به، وهو الذي روى لهم قصتها؛ فقد بحثوا في الخرائط وفي التواريخ والأحداث ووجدوا هذه الأسماء. إذاً في قرية أولغوسا، قام والدها بإخراجها هي وأختها إلى ضوء القمر لمنحهما الحماية، وقتها قال للقمر وللمرة الأولى اسميهما اللذين كانا يذكّران دوماً بالكيفية التي جاءتا بها إلى العالم، والتي سيتذكرهما العالم بها على الدوام. هي تعرف

أن هذا ماجرى تماماً، هي تعرفه دون أدنى شك، وستعرفه طوال حياتها! عندما تتأمل الليل، تفكر دوماً بيدي أبيها الممدودتين، وتتساءل: في أي جزء من هذا المدى الواسع يوجد اسمها؟!

في مساء أولغوسا كانت الشمس تنحدر خلف مرتفعات الحجارة، ويعود الرجال والقطعان، وتمكث حيوانات الماعز تحت الأشجار، ويشكل نهيق الحمير مصدراً موسيقياً نشازاً. لم تكن الأرض في ذلك الوقت باردةً بعد؛ كان سكان قريتها يتحلقون حول النار ويتكلمون بصوت عال كأنهم حشد متجمع في أسواق صغيرة. كانت تجلس على ركبة أبيها مسندةً رأسها على كتفه؛ وأختها التوءم تجلس على ركبته الثانية، وتخاف مثلها من الأمسية المقبلة. وكان صوته عند حديثه يجعل جسده يهتز اهتزازةً طويلة، اهتزازة ذات رائحة وموسيقى ودفء. لطالما فكرت بهذه الأمسيات، وبخوفهما الطفولي المحمي هي وأختها. كانت تغلق عينيها، وتستعيد ذلك الحزن المجهول العصي على التفسير. لم تمتلك اللغة التي تمكنها من قول ذلك، فالكلمات التي تعرفها كانت ملموسة وقاسية، وتستطيع أن تعطي كل شخص ما يناسبه من تقاطيع معينة وشكل خاص به؛ فمن حولها لم يكونوا يقولون شيئاً عمن رحل وعمن بقي. كان بالإمكان أن نقرأ في عينيها التناقض الموجود بين قوتها وبراءتها؛ فهناك دوماً في نظرتها شيء يدلّ على ما فقدته، وعلى ما سمحت لها حياتها الخاصة أن تستعيده؛ إنها حياتها التي احتفظت بها كهدية لنفسها.

لا بدّ أن وجه أمها كان جميلاً، بما أنها هي جميلة، وبما أنها تقع دوماً تحت الاختيار بسبب جمالها. لا بدّ أن أمها فارعة الطول عريضة الأكتاف

والجبهة، سوداء العينين ببريق أزرق كنجمة مزروعة في منتصف الليل؛ مثلها تماماً. كانت تشم رائحة شواء الذرة، وتستشعر الحلاوة المرة في عرق أمها وحليبها؛ كانت تشعر بما تقدمه لها، وتعرف أن أمها تشم تلك الرائحة لأن هذه الأخيرة كانت تعود أكثر من مرة لتقطع أنفاسها. كان من الصعب عدم ملاحظتها وتلقي صدمة هذه الرائحة دون تذوق لذة الحليب. كان ذلك مهولاً ولكنه من الجيد أيضاً التعرض لهذا البريق الذي تتلقاه بلحظات بمنتهى البساطة؛ الأمر يشبه لغزاً يخلو من الألم! أحد عشر طفلاً أنجبتهم أمها مات منهم أربعة، وخُطف اثنان آخران.

كان عمرها خمسة أعوام عندما حدث لها ذلك للمرة الأولى، ربما خمسة أعوام أو ستة أو سبعة كيف لها أن تعرف؟ فقد ولدت عام ١٨٦٩ وربما قبل هذا العام بقليل، لاتدري؛ فالوقت بالنسبة إليها شيء مجهول، فهي لا تحب كتابة الأرقام، ولا تقرأ الساعة على الحائط؛ إنما تقرؤها في الظل الذي تلقي به الأشجار. أولئك الذين طلبوا منها أن تروي قصتها من *البداية* قد استنتجوا عمرها حسب الحروب التي اندلعت في السودان. وهذا العنف الذي ستلاقيه لاحقاً بما أن العالم هو نفسه في كل مكان؛ هو عالم خلقته الفوضى والانفجار، فهو يتقدم في الوقت الذي ينهار فيه!

كان عمرها قرابة خمسة أعوام؛ وتلك هي نهاية العالم بالنسبة إليها! إن فترة ما بعد الظهر تلك تجلب ضوءاً لم يعد موجوداً قط؛ إنه فرح هادئ يخفق دون أن يلحظه أحد؛ لا أحد يعلم أنها موجودة. كانت تعيش هذا الفرح كالعصافير النشيطة، وفي منتصف ذلك النهار في قريتها، كان الأطفال يلعبون في ظل شجرة الباوباب، وهذه الشجرة أشبه بشخص مقرب إليهم،

فهي المركز والسّلف الذي يمنحهم الظل ونقطة الاسترشاد. يخلد كبار السن إلى النوم في هذه الساعة من النهار بينما يقوم الرجال بقطف ثمار البطيخ من الحقول، وتقوم النسوة لدى خروجهن من القرية بضرب ثمار الذرة البيضاء فتصدرن موسيقا هادئة تعبيراً عن قرية آمنة تزرع حقولها، إنها صورة عن فردوس مفقود ستحتفظ بها في داخلها لتقنع نفسها أنها ما تزال موجودةً؛ فقد أتت من ذلك المكان حيث البراءة المذبوحة، حيث الطيبة والراحة. هذا ما أرادته، أن تنحدر من حياة عادلة على غرار أية حياة قبل أن تختبر الألم.

غادرت أختها الكبيرة كيشمه قرية زوجها لقضاء فترة بعد الظهيرة في منزل أهلها. تبلغ أختها الرابعة عشرة من عمرها تقريباً. لم تحضر معها طفلها الرضيع فقد تركته عند حماتها لأن الطفل يعاني من حمّى؛ إذن ستعود لبضع ساعات تلك الفتاة ابنة أهلها. دخلت عند أختها التي كانت تقيل في كوخ النساء؛ إنها حزينة لكونها تعيش بعيداً عن أهلها، وتنتمي إلى زوجها لا إلى أبيها؛ ولكنها فخورة بإنجابها طفلاً. ثدياها مليئان بالحليب، قبل أن ترقد قدمت القليل من حليبها لأختها، وقد واسى ذلك كلتا الأختين.

كان غناء النساء اللواتي يضربن أكواز الذرة البيضاء يشبه أزيز الحشرات. كان عمرها خمسة أعوام، وتلعب بالقرب من والدتها بحصاتها الصغيرة؛ تلعب مثلما يفعل باقي الأطفال، تخترع لعبة، تمنح حياةً للأشياء وللحجارة وللنباتات، تمثّل وتتخيل. كانت تلك اللحظات هي الأخيرة في براءتها، فبعد ذلك قرعت المعرفة أبوابها بشكل مفاجئ، وقلبت حياتها رأساً على عقب كما يقلب الكف. كانت أمها تنشد بشكل أبطأ قليلاً من باقي

النسوة فهي تحس بالتغيير، وتذهب أفكارها إلى مكان آخر، وإنها تفكر في ابنتها التي ستصبح قريباً مثلها. لقد أتت ابنتها البكر في فترة بعد الظهيرة، وقد أنجبت طفلاً وستنجب طفلاً ثانياً وثالثاً، تلك هي حياة المرأة المتزوجة. يبوح غناؤها البطيء بفخرها، وبقلقها المخبأ وبحنانها.

في الخامسة من عمرها كانت تخاف من الأفاعي، وكان أخوها يرسم على الرمل شرائط طويلة بطرف عصاه، ويضحك عندما يراها تصرخ؛ إنها لعبة وخدعة من أخيها الكبير، ستظل في مخيلتها تربط بين أخيها والأفعى، وستظل تتحسّر على هذه اللعبة الظالمة، وتتأسف على عيني أخيها اللتين كانتا تراقبان هلعها، وهو يضحك حتى قبل أن ترتعب؛ تلك النظرة الساخرة التي كان يرمقها بها أخوها الذي كان لا يوليها اهتماماً كبيراً. في فترة بعد الظهيرة في ذلك اليوم، عندما رأت أثر الثعبان الذي ربما لم يرسمه أخوها، وعندما سمعت حفيفه المدوي المجهول المصدر، لم تفهم الأمر، إلا أنه في اللحظة نفسها توقفت النساء عن قرع أكواز الذرة البيضاء، ورفعن رؤوسهن وصرخن كما لو أنهنّ كنّ في مواجهة الخطر، وركضن يلاحقن الثعبان. التقطتها أمها دون أن تنظر إليها كما لو كانت تلتقط علبة صغيرة، وانتزعتها كما تنتزع عشبةً وركضت بها لاهثةً، من ثم نسيتها وتركتها هناك فجأة في القرية التي تغيرت معالمها وسط ألسنة النار، وسارعت الخطا نحو كوخ النساء حيث تنام كيشمه وأختها التوءم. ظلت وحيدةً وسط النيران والموتى شاعرةً بخوف الهجران. نادت أمها، صرخت باسمها، ولكنّ صرختها تاهت في ضجيج النيران الغاضبة، وبين تخبطات الرجال الذين يضربون بمناجلهم وبالملاط أماكن النيران، ويسكبون دلاء المياه، بينما كان

الدخان يلف القرية ويخنقها. سعلت الفتاة الصغيرة ونادت أمها ولكن لم ينجدها نحيبها، ولا ذراعاها الممدودتان.

عندما وصلت أمها إلى كوخ النساء بحثت عن كيشمه لكنها لم تجد سوى أختها التوءم وحيدة وعلى قيد الحياة، هزتها وقبلتها وضمتها لصدرها. كانت حركاتها مذعورة وغير متزنة؛ تصرخ بالصغيرة: *أخبريني ماذا رأيت؟* وتعيد كلامها بصوت حاد وتأمرها بنحيب هيستيري: *أخبريني ماذا رأيت؟* لكنّ الصغيرة ظلت صامتة، كانت الأم تعلم ما رأته ابنتها وتعلم ما الذي جرى؛ فهي نفسها قد ولدت في الحرب، وتعرف منظمة العبودية وتعلم لماذا سبيت ابنتها وبماذا وأين ستخدم. كانت تريد أن ترى في رواية صغيرتها الصورة الأخيرة لابنتها، *أخبريني ماذا رأيت!* هذا يعني: *أخبريني أنك رأيت أختك أيضاً!* لكن الصغيرة ظلت جامدة، ولم تنبس ببنت شفة، إلاّ أن نظرتها قد تغيرت، حملت نظرتها معرفةً جديدة، ولم تكن تمتلك بعد الكلماتِ التي تنقل تلك المعرفة.

وصل الغزاة بعد ظهر ذلك اليوم على عجالة محمّلين بالنيران والبنادق والسلاسل والمناجل والأحصنة، أخذوا معهم كل ما يستطيعون حمله لا سيما صغار السن؛ أخذوا الصبية الصغار من أجل الجيوش، والفتيات من أجل المتعة والخدمة المنزلية، أنهوا الأمر سريعاً فهم معتادون على الغزو ويعرفون القرية، مستعينين بمن عاونهم بإرشادهم على الطريق، وهم أناس قد يكونون من قرية مجاورة؛ فهم يعرفون ماسيجدون فيها.

وصل رجال ونساء أولغوسا إليها متأخرين، حاول صبيتهم وفتياتهم الهروب أو الاختباء، ولكن تم العثور عليهم فجُرحوا، أو قُتلوا وضاعت

أصواتهم في الزفرة الكبرى لألسنة اللهب. كانت هناك جثث ممزقة الأوصال ومحروقة، وأناس يحتضرون، ويتأوّهون في برك كبيرة من الدماء. كانت قطعان الماعز تائهة، والكلاب تنوح والعصافير خرساء. كانت الأكواخ مهدمة والمذاري مكسورة، وهذه دلالة على مرور الغزاة. كانت النيران ما تزال تنتقل من جهة إلى أخرى، وهي تحمل توقيع تجار العبيد.

ظلت القرية في حالة فوضى عدّة أيام كحقل ألّمت به عاصفة هوجاء، لم تستطع العثور على أختها التوءم ولا على المكان الذي تعيش فيه؛ فقرية أولغوسا كانت تمتلئ بالجرحى المتأوهين ولم تتوقف هذه الحال، بل ظل الألم يتكرر ويعود مثل نداء بطيء ويائس، لم تتعرف بالناس الذين عاشت معهم. قام السكان بجمع الجثث، وبإحصاء المفقودين، واكتشفوا جثثاً لعجائز مقطوعي الرأس، ولأطفال مبتوري الأطراف، واكتشفوا حالات السلب والنهب التي تمت. فالحقول أتلفت، والأبقار نفقت، ومياه النهر تلوثت بالجثث المنتفخة، فانعدم كل شكل من أشكال الحياة. خدشت النساء أنفسهن حتى سالت دماؤهن، وضربن جباههن أرضاً مصدِرات نواحاً لم تسمعه إحداهن قط؛ بينما أخذ الرجال رماحهم وطبولهم ورحلوا ليلاً. جاء الساحر وقدم قرابين، وبعد عدة أيام عاد الرجال دون أن ينظروا إلى زوجاتهم فقد كانوا يغضون الطرف حتى أمام أبنائهم؛ ذلك لأن رماحهم وأقواسهم لم تفعل شيئاً أمام البنادق والمتفجرات سوى أن تثبت وجودهم العاجز؛ ياللسخرية!

ظلت القرية فترة طويلة تحتفظ برائحة الجثث والقش المحروق، وما انفكّ الرماد يتطاير في الهواء لأيام عديدة قبل أن يتوارى مع الرياح. عندما

اختفى الرماد كان كل شيء قد انتهى فعلاً؛ ومع ذلك كان أثر جسد أختها البكر لايزال يرسم خطّاً على الرمال أمام كوخ النساء كثعبان هو أضخم من جذع شجرة الباوباب؛ كانت ترى ذلك الأثر كل الوقت حتى عندما كان الآخرون يمشون فوقه. حتى عندما حوّل المطر الأرض الحمراء إلى كتلة من طين. كانت ترى صورة غياب أختها المفاجئ والصامت الذي هو إنذار لها. وكانت تحتفظ بداخلها بخوف صامت، فتنتحب وحيدةً دون أن تسمعها أمها؛ إنه خطر من نوع جديد، وهو فقدانها لحماية والدتها؛ تلك التي لم تعد تتعرّفها قد تحولت لامرأة قلقة عصبية لاتستطيع النوم.

مما لا شكّ فيه أن أهالي أولغوسا قد ترددوا في ترك قريتهم، ولكن التجار وبما أنهم أصبحوا يعرفونها، وسيعودون إليها بالتأكيد؛ فكروا في من هربوا من قراهم قبلها وتركوها للغزاة، في من هجروا مزارعهم، وفقدوا قطعانهم، وهاجروا إلى مكان آخر لم يصلوا إليه قط؛ حيث عُثر عليهم موتى من الجوع على أطراف التلال وفي السهول والغابات؛ لذلك فقد آثر أهالي أولغوسا البقاء والعيش مع خوفهم من الذهاب بحثاً عن الخشب أو الماء، ومع خوفهم من ابتعاد أطفالهم عن القرية، أو من أن تبدو نساؤهم أجمل مما ينبغي. عاشوا مع خوفهم من عودة البنادق والمتفجرات سريعاً إلى قريتهم نهاراً أو ليلاً. لقد أصبح فرحهم غير مؤكد ومعكراً بسبب الحرب والعجز وبسبب هذه الريبة الجديدة التي تعتريهم إزاء الغرباء أو حتى إزاء أولئك الذين هم ليسوا غرباء، ولكن يمكنهم تحديد مكانهم دونما أدنى خطأ.

تتذكر دوماً أن أمها قد أنجبت الكثير من الأطفال؛ فهي كانت محاطةً بأطفال يمسكون يدها وقدمها، ويرفسون بطنها، ويمصّون ثدييها، وينامون

على ظهرها. كانت كشجرة محاطة بأغصانها؛ تلك هي الأم، أم الصغار جميعهم، أم محبة وشاملة، تعكس صورة كل النساء اللواتي منحن الحياة لأطفالهن، تبقى فتية وخصبة مع الوقت وتظل محبة وقوية؛ إنها الحب الممنوح بلا شروط، الحب المطلق والشهيد، *إنها العذراء النائمة*.

حاولت أن تحتفظ بالصور الجميلة عن هذه الأم، تلك الصور التي تعود إلى ما قبل الغزو. تتذكر يوم العيد عندما رأت جسدها المنقوش بالأحمر واللامع بالزيت، فتشبه شعلة ممتدة على طول الرمل، كانت جميلة كامرأة أجنبية. يلحقها أطفالها ممسكين يدها ومصدرين ضحكات خجولة. كانت القرية دوماً مليئة بالأطفال. تكبر المرأة وهي تحمل طفلاً على ذراعيها، وآخر على خصرها، وثالثاً على ظهرها، ورابعاً ممسكاً يدها. تمضي المرأة عمرها، وهي تستقبل كل هؤلاء الأطفال، وتكبر وهي تحملهم، وتظلّ على هذا المنوال دون توقف. كان الأطفال ينطلقون ويتبعثرون ويركضون عراةً، وهم يطلقون صرخاتٍ حادةً وضحكات وبكاءً مفاجئاً في الوقت الذي يولد فيه أطفال آخرون.

كانت تتذكر ذلك العيد عندما جدّلت أمها شعرها بلآلئ حمراء وصفراء وزرقاء، وأحاطت خصرها ومعصميها باللآلئ نفسها الحمراء والصفراء والزرقاء التي تعود لأجدادها، وتدل على قبيلتها، وعلى هويتها تماماً كالرسم على الأجساد والوجوه والوشم على الأجفان، وتصفيفات الشعر والتزيينات هذه. إنها ألوان تعود إلى ذاكرتها كقطع من الطفولة، تعود لتطفو على السطح من جديد، وتريد أن تفكر بها. أخذت أمها كل الوقت لتحضيرها هي فقط لذلك العيد، وعندما انتهت من تحضيرها قالت لها:

أنت جميلة. فهي رأت ابنتها كجوهرة تمتلكها هي وحدها، وأقسمت يومها أن ابنتها ستشبهها مع الوقت، ستشبه هذه الشعلة الحمراء التي يتبعها الأطفال.

في العامين اللذين أعقبا الغزو اعتقدت أنها ستتزوج، وستنجب أطفالاً، وستملأ الفراغ الكبير الذي تركته أختها البكر. واعتقدت أنها ستصلح الأسى، هذا ما ظنت أنها ستفعله؛ ستصبح مصلحةً للأسى من أجل أن تتوقف أمها عن أن تكون تلك الأم التي تقع، تلك المرأة التي تترقب وتأمر صغارها عشر مرات في اليوم بعدم الابتعاد، وبعدم التحدث إلى الغرباء، وبعدم اللحاق إطلاقاً بمن هم ليسوا من أهل القرية، وهذا ينسحب حتى على النساء والمراهقين؛ إنها لازمة لم تعد تسمعها فهي نشيد الأم الجديد.

بلغت الآن السابعة من عمرها، وهي تعلم أن أختها البكر وفتيات وصبية آخرون اختفوا وراء الهضاب ليصبحوا عبيداً وسبايا. لا تعلم ماذا يعني ذلك بالضبط؛ إنها كلمة تعني لها غياب الأشخاص واحتراق القرية، هي كلمة لا يأتي من بعدها شيء؛ تعلمتها وتابعت حياتها على غرار الأطفال الصغار الذين يلعبون دون أن يدروا أنهم سيكبرون ويتعلمون.

أصبح عمرها سبع سنوات، وأصبحت ترعى الأبقار قرب النهر؛ لم تذهب إلى هنالك وحدها مطلقاً؛ فالابتعاد ممنوع، ولكن هم بحاجة إليها والأمر يروق لها. يعجبها أن تحتل نفسها مكانة ما، وأن تحظى بطابعها الخاص أيضاً. يقال إنها مرحة وتتمتع بالمزاج الجيد طوال الوقت ولا تلتزم بالوقوف في مكان واحد. أمها تقول إنها "رقيقة وطيبة" حتى عندما تشعر

بالحنق وتغضب، تحاول أن تشبه ما تقول والدتها عنها "رقيقة وطيبة"؛ كان ذلك يوقفها قليلاً ويدفعها نحو التعقل؛ إنها تتمتع بخيال واسع بحيث تخترع كل يوم قصصاً ترويها للأطفال الصغار؛ هي قصص تمثلها بغرض إعطاء بعد لها، وذلك من خلال الحركات وتأثيرات الصوت. يروق لها ذلك، نظرات الصبية، وهم ينتظرون تتمّة القصة، وصرخاتهم التي تعبر عن الرعب وأيديهم الموضوعة على أفواههم، وضحكاتهم التي يصدرونها للترويح عن أنفسهم. كم تحب أن تمنحهم هذه اللحظات الخيالية! وكم تفخر بإخراج مشاعرهم الخفية من خوف ورجاء!

أصبح عمرها سبع سنوات، أطاعت أمها التي طلبت منها ذات يوم بعد الظهيرة الذهاب للبحث عن عشبة توجد على أطراف القرية، لم تذهب وحدها فقد رافقتها صديقتها التي تدعي سيرا. كانت تذكر ذلك الاسم الرقيق، لم لا "سيرا". مشت وهي تؤرجح يديها، وتغني أغنيتها الصغيرة: "عندما يولد الأطفال في ليون"، هي أغنية اخترعتها وتغنيها للأطفال الصغار. تتكلم الأغنية عن امرأة عجوز تتذكر أنه في القديم كان الأطفال يولدون يملؤهم الوبر، ولهم أسنان يفقدونها عندما يكبرون ليصبحوا بشراً حقيقيين. عندما تخترع تتحول إلى روح، إلى طفل ضائع، إلى حيوان برّي، وينطفئ خوفها الداخلي دوماً بفضل النهاية السعيدة للقصة.

في منتصف ذلك اليوم، كانت صديقتها سيرا تمشي بالقرب منها؛ كانتا تمشيان بكسل بعض الشيء في طريقهما للبحث عن هذه العشبة التي طلبتها أمها. هناك جو من الخمول فالريح هدأت والسماء فقدت حدتها، وبسبب هذه العذوبة في الجو، ربما كانت هي وسيرا غير عابئتين وغير متحفظتين!

رأتا رجلين ولم تتوجسا منهما خيفة، فهما لا يحملان أي بنادق وليس معهما أحصنة. ليسا سوى رجلين جاءا من قرية ليست ببعيدة؛ هما من القرى المجاورة ليس إلا.

هما أيضاً كانا من ضحايا الغزو وفقدا كل شيء؛ ربما يرغبان في الاستعاضة بإحدى هاتين الطفلتين عن طفلة أخذها النخاسون سبية ويأملون استرجاعها! ربما أصبحا بدورهما من أنصار الاستعباد! إنهما هاربان من قرية تعرضت للغزو ويبحثان عن النجاة. من جهة أخرى، الفتاتان وحيدتان وفتيتان، والفتاة الصغيرة تباع بمبلغ أعلى من صبي صغير. الأطفال الأغلى ثمناً هم الذين تتراوح أعمارهم بين السابعة والعاشرة. رأى الرجلان أنها جميلة، لاحظا ذلك منذ البداية، ذلك الجمال الذي ينبثق ويبدو غالي الثمن، هذا الجمال الأنثوي. ابتسما وألقيا التحية بلهجة ليست بغريبة عنها؛ ثم انتظرا قليلاً برغم عدم صبرهما، فقد انتظرا وهما يتكلمان بصوت منخفض واتفقا على الخطوة التي سينفذانها؛ لن يفعلا سوى خطوة واحدة فهما لم يعودا شابين، أما الفتاتان فتبدو عليهما الصلابة وستدافعان عن نفسيهما كنمرتين شرستين؛ إذن الأقل خطراً هو أن يهاجما واحدة فقط، بالطبع ستكون الفتاة الأجمل. اتفقا على أن يتحدث معها أحدهما لكي لا يرعباها، وسيظل الآخر مترقباً ليتدخل في حال قاومته الفتاة.

طلب الرجل من سيرا الابتعاد، ثم عاود وطلب منها الابتعاد أكثر، فتراجعت سيرا دون أن تستدير، استمرت بالتراجع بينما ظلّ هو يشير لها بالاستمرار بالابتعاد، وهي تطيعه. توقفت بالقرب من النهر؛ اندهش

الرجلان من سهولة الأمر، فالفتاتان لم تعترضا مع أنهما قريبتان من القرية، وبصرخة واحدة من إحداهما ستتلقيان النجدة على وجه السرعة. طلب منها الرجل المشي في الاتجاه المعاكس نحو شجرة الموز، لكنها لم تتحرك فقد بدا عليها الضياع وشيء من الغباء. أشار إلى شجرة الموز طالباً منها الذهاب إليها لإحضار حزمة من الموز، لكنها لم تفهم، فظلت تنظر إلى الشجرة تارةً وإلى صديقتها تارةً أخرى. كانت سيرا تركض قفزاً دون توقف، وهي متسعة العينين. بدأ الرجل بالتكلم معها بنبرة أشد حدةً. "إنه غريب عن قريتنا" فكرت بذلك. مرّت تلك الفكرة بذهنها كالسهم، بينما كانت صديقتها تركض بسرعة كبيرة، ظلت عيناها مسمّرتين عليها وتملؤهما الدموع. سقطت أسيرة لسلسلة الخوف التي انتقلت من الرجلين إلى سيرا، ومن هذه الأخيرة إليها. كانت أذناها تطنان، وعيناها تعلوهما الغباشة. كشّر الرجل فرأت أسنانه الصفراء وابتسامته التي نفد صبرها، بينما كان الآخر واقفاً يضع يديه على خصره وينفخ بقوة فهو مغتاظ منها. نظر الرجل بترقب، فالقرية كانت على مقربة، ويمكن لأي شخص أن يمر، فالوقت الآن بعد الظهيرة، وهو وقت عودة الرجال مع القطعان. إن هذه الفتاة الصغيرة جميلة، ولكنها غبيّة. شعر الرجل بالوقت يهرب منه، ويثقل كاهله؛ إنها لا ترى حزمة الموز ولا تستطيع الكلام، ولا ترغب في الصراخ ولم تحاول الفرار، فهي تشعر بأنها تنزلق وتقع في مكان ما لا تعلم كنهه، وضع الرجل قبضتيه بقوة على فمها وثناها نصفين. نظرت لها سيرا ورأت جسدها يتمرغ في التراب. كان المكان ساكناً وهائجاً في الوقت نفسه، فالرياح توقفت عن الصفير، وتغطت السماء بغيمة واسعة وثابتة. ألحّ الرجل بطلبه،

فنظرت إلى الشجرة التي طلب منها بلوغها، فنفّذت الأمر دون أن تعلم السبب. توجهت نحو الشجرة فلحق بها الرجلان ولقياها بحذر تحت شجرة الموز. كان قلبها يخفق كقرع الطبول التي تطلب تجمع الناس. قام الرجل الذي يضع يده على خصره بإخراج خنجر ووضعه على حلقها، وغطى فمها بيده الأخرى قائلاً: "إن صرختِ فسأقتلك!" كانت يده كبيرة جداً، فغطت كامل وجهها، وكانت رائحته كريهة، ومازال قرع الطبول يضرب في رأسها وصدرها وبطنها، بينما كانت رجلاها ترتجفان. لم تدرِ ما الذي أثار غضب الرجلين فقد أخذا يتحدثان بحدة في لهجتهما، بينما كان الخنجر يضغط بقوة على رقبتها. فكرت أنهما ربما يلتهمان الفتيات الصغيرات كما يلتهم قومها الغزلان. جرّاها كغزالة ميتة، كانت عارية كباقي أطفال قريتها. تقدما وهما يجرانها وأخذت أولغوسا تبتعد وتنهار أسرع مما تنهار عادة تحت النيران.

مشت معهما حتى حلول الليل، ولم تسمع صوت أحد من رجال قريتها يتبعهم. لم تسمع صوت قرع طبل قريتها النائية، ولم تشاهد أباها القوي المرعب. تابعت المسير طويلاً وأخذ النهار يغيب، وهي مازالت تنتظر ظهور ذويها؛ فهم سيقلقون عليها، ويسرعون الخطا ويركضون حتى يجدوها؛ لكنهم لم يأتوا، فشعرت عندها بخوف مباغت لاكتشافها ما سببته، فتخيلت النيران تلتهم قريتها، وفكرت أنه لهذا السبب، لم يأت أحد لنجدتها؛ فهم يأخذون طفلاً، ويحرقون القرية لينشغل السكان بالتصدي للدمار؛ هذا ما فعلته، لقد عصت، وسببت الكارثة ولم يعد مجدياً أن تنادي أمها، وتمد لها يديها من جديد، ما من أحد يسمعها.

انتظرت وطال انتظارها ومشت طويلاً، وحلّ الليل، وتتالت الأيام. لكنها لم تروِ هذا كما لو أنها لم تتذكر شيئاً مما حدث، أو كما لو أن هذا *لم يحدث على الإطلاق*. ليس ذلك "قصة عجيبة"، فلكي تتمتع قصة ما بالروعة، يجب أن تكون البداية مرعبة بالطبع، لكن يجب أيضاً أن يبقى الحدث السيّء مقبولاً، وألا يخرج أحد ملوثاً سواءً أكان من يروي القصة أم من يسمعها. هبط الليل وكانت وحيدةً مع الرجلين؛ كيف يمكنها أن تروي شيئاً لم ترغب يوماً في أن يحدث لها؟

استمر المشي يومين وليلتين؛ لم تدرِ أين يقع النهر الكبير! وأين هي القرى التي كانت موجودة خلف الهضاب؟ حاولت حفظ الطريق بالاتجاه المعاكس، والعودة إلى ديارها. كانت خائفة وتحاول حفظ الطريق. كانت ضائعة واستمرت بالحفظ؛ ساقية صغيرة، حظيرة وأربع عنزات، كثبان وبعدها أدغال وبئر ثم شجرتا موز وشجر العليق، كلب أصفر، حمار ثم حماران، نخلة صغيرة، رجل عجوز جالس، أشجار الأكاسيا، ثم كثبان، حقل ذرة بيضاء يليه طريق من الحصى الأسود، فيل يقف خلف شجرة باوباب، أعشاب خضراء، حجارة حمراء، ثم بدأت من جديد... حماران، عجوز جالس، أشجار الأكاسيا، كثبان. تعثرت ووقعت، ثم رأت الساقية الصغيرة والحظيرة. نهضت من جديد فرأت بئراً وجملاً، ثم رأت القمر. ترددت وهي تنظر للنجوم على شكل الكلب والعقرب والنجمات الثلاث الأخوات. استمرت بالحفظ: حماران... لا إنهما نخلتان صغيرتان ثم حقل الذرة البيضاء. سمعت عواء الضباع الحاد وانقلب الحر برداً لدى حلول

الليل، وأصبحت الرياح باردةً وسريعة، واختفى المشهد من أمامها، فهي الآن وسط مكان لامرئي!

وصلوا إلى مدخل قرية حيث كانت طريق معبدة في التراب، وبعض الخيم وكلاب نحيلة. شعرت بصدى حياة من بعيد، هناك رجلان يقفان ويتحدثان فيما بينهما بصوت منخفض ودون حماسة. ألقيا التحية عليهم واستدارا ليكملا حديثهما؛ فقد اعتادا على رؤية أطفال مخطوفين، فهم في كل مكان وزمان ومنذ الأزل، لم ينظرا إلى الفتاة الصغيرة ولم يبديا أي شفقة أو فضول، إنه مساء اعتيادي بالنسبة إليهما!

فتح الخاطفان باباً وألقيا بها في الداخل، وقعت على أرض قاسية ومجمدة. أغلقا الباب من جديد بقفل كبير؛ شعرت برهبة بالغة، ولم يبق في ذاكرتها سوى كلمة "ماما"، إنه الشيء الوحيد الموجود حقاً لديها. هذه الكلمة تسكن رأسها وصدرها وجسدها بأكمله، اختلطت هذه الكلمة بالألم وبالخوف الكبيرين اللذين تعرضت لهما. كما اختلطت بما لم تفهمه، إنه الاسم الوحيد الذي تبقّى لها؛ ينقصها اسم آخر، إنه اسمها. في الليلة الأولى سألها الرجلان عن اسمها فخافت من النظر إليهما؛ كانت تطرق بنظرها وتراقب الخنجر اللماع والبارد. ما اسمها؟ بم كانت أمها تناديها؟ ما هو اسمها؟ بم كان يناديها أبوها وهو يتحدث إلى القمر؟ وضع أحد الرجلين يده على فخذيها النحيلين والمجروحين بسبب أشواك الأكاسيا طوال الطريق. ما اسمها؟ لقد تركت اسمها بالقرب من النهر، تركته تحت شجرة الموز. سألها الرجل: كيف أتيت إلى العالم؟ ولكنها لم تدرِ كيف أتت إلى

العالم. أخذت تبكي ذعراً، وحده اسم والدتها ظل في ذاكرتها، إنه في كل مكان، ولكنه لا يجدي نفعاً.

رماها الرجلان في الغرفة المقفلة، فلم تكن تميز النهار ولا تشعر بحلول الليل فلا شمس تدخل إليها ولا قمر ولا نجوم. بالكاد كانت تميز العالم في الخارج من خلال ثقب بالغ الصغر في أعلى السقف. ظلت هناك قابعة لوقت طويل، ربما لشهر فقد كان وقتاً بلا إيقاع، وقتاً لا تميزه إلا من خلال الضيق، ندهت أمها لكنها لم تأتِ إليها. رجتها بحنو، وطلبت السماح: "آسفة، أعتذر، آسفة لن أعيد الكرة، عاقبيني، استعيديني، آسفة". أحياناً كانت أمها تظهر لها في أحلامها وفي هذيانها. كانت تجليات أمها تعود لتربطها بذويها. هل تستيقظ ليلاً لتراقب أمها؟ هل تترجى أباها ليأتي ويجدها؟ هل ستلعنها أمها لأنها وسعت من جرحها العميق الذي يؤلمها؟

أحياناً كان يخطر لها أنها ستظل في هذا المكان بقية حياتها، مع الرجلين الخاطفين اللذين كانا يدخلان إليها مساءً مع القليل من الخبز والماء، ومع عنفهما أيضاً. ستكبر على هذه الحال، هل هذا ممكن؟ هل سيحصل هذا فعلاً؟ أن تبقى منسيةً من العالم، ماخلا هذين الرجلين هنا؟ ألاّ توجد سوى من أجلهما؟

إنها في الليل، وما من شيء تجده بعده انتهاء هذا الليل سوى تكراره. كانت تشعر بالجرذان وبالقمل في شعرها، كل شيء غير مرئي ويهددها، إنها متسخة ومرهقة وتحمل جسداً جديداً مليئاً بالألم والعار؛ فالآن لا أحد يقترب منها إلا لكي يسبب لها الأذى! وجود أي شيء حولها يشكل لها تهديداً. سيتطلب ذلك منها وقتاً طويلاً كي لا تقفز عندما يقترب أحد منها،

وكي لا تفزع من أي يد تمتد إليها ومن أية نظرة ترمقها بثقة. سيتطلب ذلك منها وقتاً طويلاً لكي تهدئ من روعها عندما تقع فريسة للنظرات حتى في أثناء الفرح أو النوم.

كانت تنام مثنيةً كالجنين، تمصّ إبهامها، وتنشد أحياناً أغنيتها: "عندما يولد الأطفال في ليون"، واضعةً يدها على صدرها لكي تشعر به يهتز كما كان يهتز صدر أبيها. كان صوتها يرتجف كما ترتجف الشمس في هواء منتصف النهار. كان جلدها يتمزق بسبب قرصات الصراصير وعضات الفئران التي ترسم على جسمها علامات محرقة، فتتحسسها بأصابعها.

ذات صباح قررت أن تهرب، فقد وجدت في داخلها القوة لامتلاك الأمل، وللإيمان بشيء وللعصيان. مضت أيام وهي تكشط التراب عند الثقب في الجبس الموجود في أعلى الجدار. كانت تقف على رؤوس أصابعها وتمطّ جسدها، وتكشط بكل استطاعتها؛ إنها قصيرة ونحيفة لكنها قررت أن تكشط الجدار كل الوقت وكل يوم، وهكذا سيكبر الثقب وستعود لدارها. اكتشفت في داخلها قوةً صلبة وعنيدة، إنها تلك الرغبة في الحياة التي نسميها غريزة البقاء. يوجد في داخلها دوماً شخصيتان: الأولى تخضع لرحمة الرجال العنيفين، والثانية تتحفظ على ذلك بشكل غريب، وترفض هذا القدر، فحياتها تستحق شيئاً مختلفاً، وهي تعلم بذلك.

استمرت بالحفّ والحكّ على طول الأيام، وهي تردد "ماما، ماما" هذا الاسم الذي احتفظت به. مشت على إيقاع هذه الكلمة التي ترددها، والتي أصبحت نظامها. وسرعان ما كانت الدماء تسيل من أصابعها حيث تتشكل القشور الجافة على بشرتها، ومن ثم تتمزق. كيف يمكن لهذا الثقب

أن يكبر، بأية وسيلة؟ ذات صباح قامت بإلقاء فئران في الثقب لكي تساعدها في الحفّ؛ ولكن تلك التي لم تقع خرجت من خلال الثقب دون أن تقضم شيئاً من الجدار، بينما أصدرت الفئران الأخرى التي عادت لتقع أصواتاً حادةً مسببةً لها المزيد من الذعر. "حوّلني إلى قزمة صغيرة!" هذا ما طلبته ذات مساء من القمر الذي لا تراه. "أخرجني من هنا!" أخذت تبكي، وشعرت بأنها تختفي وبأنّ الحياة قد هجرتها، من ثم انتصبت واقفةً، فهناك شيء شدها وأيقظها من اليأس. أخذت تنظر إلى هذا الثقب وتحدثت إليه فهو أصبح صديقها، وعدوها في آن معاً! كحيوان تحاول ترويضه، أو كروح تحاول مناجاتها؛ فهي تبقيه أمام عينيها حتى عندما تغمضهما، وتحتفظ به في رأسها حتى وهي نائمة. ظلت يوماً كاملاً تحك الجدار بشعرها، فتقطعت خصلات منه، ولكن الثقب لم يكبر. في كل يوم، كانت تقف على رؤوس أصابعها، وتقيس بيديها حجم الثقب؛ إنه ثلاثة أصابع ليس أكثر.

عندها وجدت طريقة أخرى لإنقاذ نفسها: إنها القصص؛ الآن ستروي القصص لنفسها. كانت تتخيل أحياناً الأطفال الصغار أمامها يستمعون إليها؛ استعادت بذاكرتها أعينهم المليئة بالخوف والأمل. كانت قد بدأت بقصة، ولم تنتهِ منها، ولم تدرِ أين توقفت! كل شيء يهرب منها، تغلبت عليها الحمى فأخذت تغوص في عالم الماضي حيث سمعت صرخات الرجال مساءً، وهم يعودون بالقطعان. استرجعت نداءات أمها كي تأتي لتأكل. استرجعت الأصوات المتهدجة للعجائز الذين يتحدثون عند مغيب الشمس. سمعت ورأت كل شيء؛ وضعت كل هذا حولها، فحولت العقارب والجرذان والنمل إلى أشخاص تحبهم، ومنحتهم أسماءً، وأخذت

تنظر إليهم وهم أحياء. هذه الحقيقة البديلة أنقذتها من الموت لفترة من الزمن، ومن ثم عاد إليها اليأس فرأت أين هي في الحقيقة، هي لم تعد شخصاً، فأخذت تصرخ كحيوان مهجور، تصرخ وتبكي بين الحلم والنوم، وتسافر بين الخيال والواقع، بين الطفولة ونهاية الطفولة. شدت قبضتيها، وهي ترى الثقب في السقف كعين تراقبها من الأعلى، ولن تخلصها أبداً.

ذات صباح فتح أحد الخاطفين الباب وجرّها خارجاً، فشعرت بالضوء كسكين في عينيها. هناك أصوات رجال وجلبة كبيرة بلغة تختلف عن لغة قبيلتها؛ فهمت سريعاً أن هؤلاء ليسوا من أهالي قريتها. كانت خيبة الأمل حادة تماماً كالشمس؛ شعرت بأيدي الرجال تتحسس جسدها ففتحت عينيها فرأت إبراً بيضاء ترقص في عيينها ولا شيء غيرها. رفع أحد الرجال جفنيها وقال إنها مريضة، بينما رفع أحد الخاطفين ذقنها بيده، وأجبرها على فتح فمها، وإظهار أسنانها. أحدهم رمى لها عصا كي تركض وتجلبها. في البداية لم تفهم الأمر ولم تذهب لإحضارها، فصفعها الرجل وعاد ورمى العصا من جديد. فركضت وعندما وقعت بصق الرجل. لم تعد قدماها تحملانها؛ وقفت على طرفي هضبة مثنية فهي لم تفهم ما يجب عليها فعله، كانت مذعورة؛ لم تدرِ ما يريدونه منها. أخذوا يفحصونها في كل مكان؛ آلمها ذلك ولم تعرف لماذا دوماً يسبب لها الآخرون الألم. بكت من عدم الفهم هذا، وبكت من وهن العزيمة. أثير حنق النخاس، وأظهر للبائع عضلات الصغيرة في ربلتيها وذراعيها، وأكد أنها جميلة مكرراً كلمة *جميلة* (باللغة العربية)؛ إنها الكلمة التي تدل عليها. عاد الرجال إلى حديثهم ولشجارهم وضحكاتهم المليئة بالغطرسة. اعتادت عيناها النور، فرأت أن

هناك رجالاً ونساءً يقفون خلفهم في مجموعة تنتظر! لم تدرِ شيئاً، سمعت المساومة تجري بلغة لا تفهمها. هل ستعود إلى سجنها؟ تمنت للحظة لو كان هؤلاء الرجال مرسلين من أبيها، ثم رأت المال ينتقل من يد الرجال إلى يد خاطفها، رأت القطع النقدية بوضوح؛ إنها لا ترغب في العودة إلى السجن، ولا أن تبقى مع النخاسين. إنها تفضّل الرحيل مع هؤلاء الناس، *ترغب* في الرحيل معهم. سمعت وفهمت بعض الكلمات التي تقول إنها تبلغ *السابعة من عمرها تقريباً*، وإن اسمها *بخيتة*. وضع الخاطف المال في محفظة صغيرة، ودفعها نحو المجموعة التي تنتظرها. كانت مرعوبة إلا أنها تركت سجنها؛ لم تعلم أن "*بخيتة*" اسمها الجديد معناه "المحظوظة"! لم تدرِ أنها سُبيت من قبل نخاسين مسلمين؛ في الواقع أنها لا تعلم أبداً ما يعني كل هذا!

رُبط العبيد بعضهم ببعض، مشى ثلاثة رجال في المقدمة تقيدهم السلاسل من رقابهم، وربطت هذه السلاسل بأعناق رجلين آخرين. مشت ثلاث نساء في الخلف تقيدهنّ السلاسل من رقابهنّ، وربطت هذه السلاسل برقبة امرأتين أخريتين. كانوا جميعهم عراة، مثلها، وهناك أيضاً فتاة صغيرة تكاد تكبرها قليلاً، ليست مقيدة، وقد وضعوها لتمشي بقربها. كانتا تمشيان بين حارسين وهما تختتمان قافلة المشي. نظرت إلى لموكب، كان الحراس يمسكون بالسّياط والبنادق. وكان العبيد المقيدون يمشون دون شكوى، هم لم ينظروا إليها ولن يفعلوا. ستظل طوال حياتها تبحث عن نظرة من أساءت معاملتهم الحياة أو العمل أو الأسياد. لقد دخلت إلى عالم منظم، هو العنف والرضوخ. عمرها سبعة أعوام وبرغم العنف فقد ظلت متنبهةً. لم تكن تعرف أنه يمكن للمرء أن يمشي وهو مقيد، ويتعرض لجلدات

السوط. ولم تكن تعلم أنه يمكن أن يجري هذا للناس، ولا تعرف ما اسم ذلك. سألت الفتاة الصغيرة عن اسمها.

- صه..... أجابتها الصغيرة

- من هؤلاء؟

كررت سؤالها بصوت أكثر انخفاضاً، لكن الفتاة الصغيرة أشارت إليها أنها لا تفهم كلامها؛ فهي لا تتحدث بلهجتها. أشارت إلى هؤلاء الشبان الذين يمشون أمامهما وسألت:

- هؤلاء! من هم؟

أطرقت الصغيرة بنظرها محاولة أن تفهم كلامها، ثم أجابت فجأة:

- *عبيد.*

ثم أشارت إليها قائلةً:

- أنت *أمة*

باغتها الضيق كالصفعة. *أمة*، وأختها أيضاً أمة، هذا ما جرى معها. *أَمَة* تلك أسوأ مصيبة قد تحصل. *أَمَة*، مثل كيشمه، ومثلها هي. فجأة أصبح ذلك واقعاً، ويحصل أمام عينيها؛ سألت نفسها للمرة الأولى: "هل كيشمه هنا؟" وستظل تسأل نفسها هذا السؤال طوال الوقت.

استعادت ذكرى ضياعها في دخان القرية، وهي تنادي أمها التي لا تسمعها. أخذت تنظر إلى الشابات المقيدات، وتذكرت صوت أمها وهي تقول: "*أخبريني ماذا رأيتِ!*" الآن أمها تسأل هذا السؤال عنها هي.

أخذت تنظر إلى لأجسام الفتية المنحنية منذ الآن، وإلى الندوب على ظهورهم، وإلى أقدامهم الممزقة. أما كلمة "عبد" فهي كلمة تعبر عن الرعب الذي يتجلى أمامها. أشارت الفتاة الصغيرة التي إلى جانبها، وقالت بصوت منخفض: "بيناه، بي-ناه". ثم أشارت إليها هي بدورها، وطرحت عليها سؤالاً لم تفهمه، لكنها تكهنت بما هو. أرادت أن تجيب عن سؤالها، لكنها لا تعرف كيف؟ لقد مضى وقت طويل منذ أن تكلم معها أحدهم، فأصبحت أية لغة بالنسبة إليها لغة غريبة. ترددت ونظرت إلى العبيد ومن ثم مررت أصابعها على عينيها الرطبتين، ومسحت مخاطها بذراعها المتسخة، وقالت للمرة الأولى وهي تشير إلى نفسها: "بخيتة".

في الأيام التالية كان لديها انطباع بأنها قد اجتازت الأرض كلها بسهولها وصحاريها، بغاباتها وبمجاري المياه القاحلة، وبمستنقعاتها النتنة. اجتازوا شقوقاً وأخاديد في الأرض المحفورة. تسلقوا جبالاً ذات حجارة حارقة تتحرك تحت أقدامهم، وتوقِع الرجالَ المحمّلين أثقالاً على ظهرهم كالحمير، حجارتها تخبئ تحتها أفاعي تفح رافعةً رأسها. كانت تردد اسمها الذي تكرهه محاولة أن تتعرف بنفسها؛ "بخيتة، لا تصرخي لدى رؤية لسان الأفعى المتراقص". "بخيتة، لا تلتقطي يد بيناه عندما تسقط على الصخور".... مع هذا الاسم الجديد كانت تخشى ألا تتعرف إليها الشمس والقمر. كانت تحاول أن تهتدي إلى هذه الحياة الجديدة، لكنها لا تدري أين يذهب هؤلاء القوم وماذا سيجري؟ هي تعلم أن قريتها تبتعد، ولا تعرف هذا المكان؛ فكل ماهو أمامها تراه للمرة الأولى. كان الهواء ساخناً يلسع فخذيها بضربات من الرمل فيظل الألم طويلاً كالإبر على جلدها، كعضات نملات خفية. أيام تمرّ

وتمتلئ فيها السماء بالغيوم ككرش كبير رمادي يغطي رؤوسهم، ولكن لا أحد يتحدث إلى المطر، ولا أحد يتلو الصلوات والأناشيد لكي تهطل الأمطار؛ لذا فقد ظلوا مع عطشهم بمنأى عن السماء.

لم تعد في سجنها فهي، في العالم الواسع والمتغير، تنظر بإنهاك ولكن بفضول لما حولها. كانت ترى عصافير ذات أجنحة حمراء وزرقاء تغرّد من بعيد وتتلاقى، وسرعان ما تختفي كما لو أنها محيت من السماء بلمحة واحدة. هل تطير هذه العصافير نحو أمها؟ هل تستطيع أن ترى الأشياء نفسها مرتين؟ هل تستطيع هي أن ترسل لها أفكارها؟ فهي تبحث عن أمها في كل ما تراه؛ في صباح باكر ذات يوم رأت صقراً يطير براحة في السماء، كان يفرد جناحيه فيبدوان كيَدٍ هادئة. سبب لها هذا الهدوء موجة من البكاء، فهو يشبه أمها قبل حدوث الكارثة الكبيرة! رأت أزهاراً تطير راقصةً في الهواء، وأخذت تتساءل عما تريد رقصتها أن تخبرها به، لكنها لم تتنبأ بالأمر. أمها تعرف ذلك، أمها تعرف كيف تقرأ الطبيعة. رأت شجرةً قلبتها الحيوانات البرية، كانت أغصانها المزروعة في الأرض تبدو كالخدوشح أخذت تتذكر غصن شجرة الباوباب المنحنية إلى الأرض التي كان يجلس عليها أطفال قريتها وهم يلعبون، وكانت أمها تجلس عليها ناظرةً إلى شروق شمس الصباح. سمعت صوت حيوانات تركض إلا أنها لم ترها؛ كانت خطوات العبيد ترتجف تحت أقدامهم، فتذكرت أمها وهي ترقص، هي لم تنسها ولكن ظل التعب والألم يقبعان خلف هذه الأفكار. أخذ لعابها يسيل عطشاً، وبكت حزناً وهي ترى النساء المقيدات، ولم تكن أختها الكبرى من بينهنّ. كانت حلوقهنّ تصدر صوت خرير الماء، وهن يكتمن سعالهن

فيصدرن حشرجة، ويتعثرن بخطاهن ويحركن أيديهن بلا توقف، فترتجف أصابعهن في نهاية أذرعهن. كانت أعناقهن مجروحةً ومنتفخة، وتحاول أصابعهنّ أحياناً دفع السلاسل فتكررن هذه الحركة طوال الوقت، لكن بلا جدوى، فتتوقفن عن فعل ذلك، ومن ثم تعاودن الكرة. كان هذا يضحك الحراس ويغيظهم في الوقت نفسه! كانوا يقولون إن هؤلاء النسوة محظوظات بأن أيديهن محررة. لم يكن ذلك يدوم طويلاً، فسريعاً ما كانوا يستخدمون سوطهم وعصيهم أو مدياتهم، أو يلقّمون بنادقهم فترتعب النسوة. إن تعثرت إحداهن، فإنها تسبب وقوع الأخريات، فتحدث فوضى عارمة، وتزيد السلاسل من اختناقهن، فتسمع الصريخ والبكاء. يجب دوماً التفكير بالمقيدات الأخريات؛ بالنسبة إليها، هي تفكر بأختها الكبيرة، هل تتعرض للأمر نفسه؟

أدركت أنها منذ أن تم اختطافها، لم تقم بسفرة قصيرة؛ فهي مشت طويلاً ولم تعد تحاول وضع علامات كالهضاب والجبال والكثبان والسهول والغابات، إنها لا تستطيع حفظ كل هذا! إنه العالم بأكمله، وهي تكتشفه وترى اللهجات تتغير، وتتغير معها المناظر الطبيعية وأشكال الأكواخ والحيوانات في الحظائر وفي السهول، وأشكال وجوه الرجال والنساء والعلامات على جلودهم؛ فبعضهم كان موشوماً، وبعضهم الآخر كان مليئاً بالندوب لم تكن قد رأت شيئاً كهذا من قبل، كان ذلك جميلاً ومرعباً في آن معاً! كان بعض الناس طويلاً ونحيلاً كالأشجار العالية، بينما كان بعضهم الآخر قصير القامة فيبدو كالأطفال العجائز، وجميعهم لهم عادة المسير في قوافل. تقتفي قراهم أثر العبيد المتنقلين من زريبة إلى أخرى،

فتنتشر هذه المراكز في كل مكان في البلد الذي يجتمعون فيه، حيث تقوم بالاحتفاظ بالعبيد وتفرزهم من أجل التجار الكبار الذين يمتلكون العاج والأسرى. سيقودونهم لاحقاً نحو الأسواق الكبيرة؛ ففي هذه القرى التي يمرون منها تنعقد أحياناً صفقات بشكل مفاجئ. أولئك الذي لا يملكون عبيداً يبيعون عبداً سرقوه، أو أحد أفراد أسرتهم؛ فقد رأت بخيتة هذا مرة في هذه القرية التي هجرها سكانها بسبب الجوع؛ إذ قدم شاب متضور من الجوع للبيع فتاة تشوه شكلها من شدة النحول. عندها بصق الحراس أرضاً، ماذا يظنهم؟ قام الحراس بصفع الفتاة الصغيرة بضربة واحدة وسرعان ما تهاوت أرضاً، ما دلهم على أنها لا تساوي شيئاً! لم تفهم بخيتة أن هذه الصغيرة كانت أخت الشاب، فشرحت لها بيناه الأمر، وأصرّت على أن تصدقها. فسدّت بخيتة أذنيها! أحياناً تسبب المعرفة في هذا العالم تعباً كبيراً. بعد ذلك بلحظة تغير حال بخيتة للعكس، فأرادت رؤية وسماع كل شيء حتى ما لم تفهمه؛ أرادت حفظ الكلمات العربية وحفظ ما تراه، ما يفعله الجوع والبؤس بالرجال. رأت الغضب ينبثق من الخوف، ورأت الكره ينبثق من اليأس. تلقت كل هذا دون أن تتمكن من تسميته؛ إنه مشهد الإنسانية، هذا الصراع الذي يمزق البشرية جمعاء.

اكتشفت أن الجميع يشتري ويبيع العبيد، وليس أسوأ أنواع البؤس امتلاك المرء عبداً أو اثنين، فهي ترى العبيد في الحقول والمنازل يعملون كحدادين ومحاربين وفلاحين، إنهم -في كل مكان- منتشرون كالوباء. عندما يقوم الحراس بشراء العبيد من جديد بحيث يكونون بعمر فتيّ دوماً، فإنهم يتحققون من أسنانهم وأعينهم وجلودهم وأجسادهم من الداخل

والخارج، ومن عضلاتهم وعظامهم. يقومون بإلقاء العصيّ لهم ويجعلونهم يدورون ويقفزون ويرفعون أذرعتهم ويتكلمون أيضاً. أحياناً يضربون النساء اللواتي يبكين، وينتحبن لدى افتراقهن عن صغارهن، أو اللواتي لا ينتحبن بل يفتحن أفواههن ويحبسن أصواتهنّ في أعماقهنّ في صمت مطبق. كانت بخيتة تنظر إليهن، وتفكر بطفل أختها كيشمه، هل كانت فتاةً أو صبياً؟ إنها مرهقة ومذهولة بسبب هذا القدر من النوائب. فهي في هذه القصة مجرد "*عبدة*"، ولن تخرج من هذه القصة المرعبة على الإطلاق. استمرت بالمسير وهي خائفة أيضاً لأن التاجر يشتري ويهجر على قارعة الطريق. هو يهجر أولئك الذين بارت سوقهم، من يسعلون أو يعرجون أو ينزفون أو يقعون. أما هي وبيناه فقد احتفظ بهما. هي تريد أن يحتفظ بهما فمن دونه سيصبح الوضع أسوأ. هي على الأقل تعرفها. أن تكون مهجورة من قبل الحارس لا يعني أن تكون حرة بل على العكس، إنها تعلم ومنذ أن سُبيت أن الآخرين يمكنهم امتلاكها والاحتفاظ بها أو بيعها من جديد. فهي كانت تخاف من أن تنجرح أو تمرض، أن تبدي تعبها أو عطشها. كانت تتبع القافلة التي يسير الرجال في مقدمتها، بينما تمشي النساء في الخلف؛ هي تمشي مع بيناه بين حارسين. كان عبارة عن خط مسير طويل من العراة واليائسين الذين يجوبون العالم بكثير من اللامبالاة. هي التي قدمها والدها للقمر، هي التي لم تكن الأرض تسعها، ها هي ذي اليوم لم يعد الكون يحميها، فالعبيد يمشون ولا يسكنون مكاناً، فشعبهم لم يعد موجوداً، وأصبحوا جزءاً من هذا الشتات ومن هذه الشهادة؛ الرجال والنساء يمشون بعيداً عن أراضيهم وغالباً ما يموتون خلال مسيرهم. يقوم الحراس

ليلاً قبل النوم بسحب السلاسل والقيود الملتفة حول أعناق الرجال والنساء ويضعونها حول أقدامهم، فيربطون بالسلاسل كل اثنين معاً ويصبحان مثل بخيتة وبيناه المقيدتين من أرجلهما، ويفعلان كل شيء معاً. يفعلان ذلك بكثير من الخجل ولا يجرؤان على النظر بعضهما إلى بعض، بالكاد يتحدثان فيما بينهما؛ وفي المساء يجعلهما الضيق يضحكان فيكتمان هذه الضحكة. وفي المساءات التالية يضحكان قبل القيام بما يفعلانه معاً في حراثة الأرض، حتى وإن كانت هذه الضحكات أكثر تصنعاً، وأقل صدقاً؛ فهي تضيف القليل من الكرامة إلى خجلهما. تعلمت بخيتة أمراً ستحتفظ به لبقية حياتها كلباقة أخيرة، وهو المزاح الذي اعتمدته طريقةً للدلالة على وجودها، وعلى حنانها أيضاً.

حاولت خلط لهجتها بلهجة بيناه وكان هذا صعباً، فمزجتا بعض الكلمات العربية، ولكن الكلمات العربية النادرة التي تعرفانها كانت تدل على العنف والقسوة وغير مستخدمة لمن يرغبن في سرد قصصهن بعضهن إلى بعض! كانتا ترغبان في سرد قصصهما في الماضي؛ كل منهما ترغب في إخبار الأخرى كيف كانت حالها في صغرها (عندما كانت أصغر مما هي عليه الآن)، وبالتالي بالبقاء مرتبطةً بحياتها، وامتلاك قصتها الخاصة بها بأحيائها وأمواتها. فهمت بخيتة أن بيناه سُبيت قبلها بفترة قصيرة، وأنها هي أيضاً تريد أن تجد أمها. أخبرتها أن أختها لم تُسبَ من قبل النخاسين، بل ماتت وهي تضع وليدها. ولكي توضح لها ما تقول أخذت تمثل الولادة والطفل والموت، لكن بخيتة لم تفهم كل شيء! كانت تنظر إلى هذه الفتاة الصغيرة، وتفكر في الأطفال الذين كانت تروي لهم قصصاً. فقد رأت في

عيني بيناه نظرة الانتظار نفسها التي كانت لديهم، فعدلت عن إخبارها عن أختها التوءم وعن أبيها وعن قطيع الأبقار الذي كانت تقوده بالقرب من الساقية، أو عن أخيها الذي كان يرسم درب ثعابين على الرمل. وعندما سألتها بيناه عن اسمها الحقيقي، عضّت على شفتيها وشدت ذراعها لكيلا تبكي. بيناه تعرف أن اسمها الأصلي "أواذير" فقالته لبخيتة كما لو أنه سر لا يجب عليها تكراره. في الليلة التالية نامتا تمسك الواحدة بيد الأخرى. عندها شعرت بخيتة بقوة لاشك بها كتيّار قوي، وكان هذا الشعور جديداً عليها: وهو أن تتشارك مع غريبة حباً لم تعد قادرة على منحه لأولئك الذين تفتقدهم.

ذات يوم تحت حر الشمس الساطعة، وصلت القافلة إلى مدينة الطويشة التي لم تعد نفسها كما كانت؛ تم شراء بعض العبيد، ومات بعضهم الآخر، وظلت الضباع والنسور تلحق بالقافلة طوال الطريق منتظرةً أن تتغذى على العبيد، أؤلئك المرضى الذين أقصاهم الحراس، والذين يحتضرون تحت الشمس، أو الذين يتوقفون عن التنفس أو يقعون فجأة أرضاً، أو أولئك الذين يتوسلون للحرّاس فيتلقون منهم ضربةً قاضية بطرف العصا ويُتركون هناك أرضاً. تركت القافلة على الأرض هياكل عظمية متكسرة كعيدان من خشب منظفة وبيضاء. اختبرت بخيتة تجربة الموت بلا طقوس ولا دفن، إنه موت تجاوز حدود الموت، هم ليسوا أناساً موتى؛ بل هو نظام حياة. كانت تخشى عواء الضباع وطيران النسور الثقيل. كانت تجهل أن هذه الحيوانات لن تعود لتحطّ في هذه الأمكنة، ولا في هذه الآثار الكبيرة التي تتركها القوافل وراءها، فهي قد شبعت من لحوم

العبيد الذين قضوا نحبهم، وسيظلون في الصمت الكبير يتركون آثاراً شبيهة بركام الجثث.

بعد ثلاثين يوماً من المشي، وصلوا إلى الطويشة، هذه المدينة المركزية الحدودية الأخيرة التي تفصلهم عن دارفور والكردفان. قاد صائدو العبيد إلى داخل الزريبة أسراهم الذين لن يأخذوهم إلى الساحل، إنها مدينة التجارة غير الشرعية والتهريب. عن طريقها تتم المتاجرة بالمخصيّين وبالعبيد الذين يُستبدلون أو يُباعون عبر وسطاء. ويتم تهريب العاج والرصاص والبضائع والمرايا والعطور. تلتقي في هذا المكان القوافل الكبيرة منها والصغيرة، فهو وجهة كبار التجار أو قطّاع الطرق؛ فكل شيء يتم تقييمه ويتم وزنه ويقدر ثمنه.

كانت هناك أكواخ من القش، وأخرى من الحجر ممتدة على الهضبة حيث يعيش السكان. بينما يتم الاحتفاظ بالعبيد في أسفل الهضبة في أكواخ كبيرة بلا نوافذ. لدى وصول بخيتة إلى الطويشة، كانت تجهل أنها تندرج ضمن منظمة محكَمةٍ خاصة بالعبيد. كانت قافلتها مراقبةً من قبل حارسين غليظين أسودين كخشب الأبنوس، أسودين مثلها ومثل خاطفيها لكنهما أيضاً من العبيد. كان الرجال العسكريون مسؤولين عن المعسكر ومن دونهم لا يمكن لشيء أن يتم؛ فهم محسودون ومحميون لامتلاكهم في الطويشة مزارع ونساء وأطفالاً وعبيداً أيضاً من الشباب الفتيان الذين اختطفوا، أو تطوعوا بإرادتهم للخدمة فيشعرون نحو أسيادهم بالعرفان الكبير. هم ليسوا سوى جنود أطفال يعرف بعضهم بعضاً حق المعرفة، ذلك لأن الأمر يستدعي وجود الثقة والتنظيم والتدرج بالمستويات. نزل بعض

الأهالي من الهضبات وأتوا بدورهم لرؤيتهم؛ كانوا يقولون شيئاً بلغتهم لم تفهمه بخيتة، كان هناك أطفال ينظرون إليها دون دهشة لأن ذلك يجري طوال الوقت. حيث يتم فرز العبيد قبل الذهاب إلى السوق الكبيرة. فجأة خيم الهدوء وانتصبت الأجسام، وعادت لتنحني، فقد وصل المرشد الإسلامي أو الفقيه لتوّه. كان يتعين على بخيتة أن تغض بصرها، إلا أنها لم تفعل فقد انجذبت فجأة إلى طفل رضيع نائم بين ذراعي أمه وهي من أهالي الطويشة. كانت ترغب في لمس قدمي هذا الرضيع. تخيلت بعقلها أنها تخرج من صف العبيد وتترك القذارة، وتتوجه نحو الحياة الأكثر رقة وحداثة. بالكاد لاحظت الفقيه بهيئته التي تشي بالاحترام والخشوع، وهو يتّشح بأكمله بالسواد، وبلحيته الطويلة المنسدلة إلى صدره. راقبته وهو آت يبحث عن الصبية الصغار. كانت تصدر من بين الصفوف المنظمة للعبيد صرخات ونواح وأصوات جلدات من السوط وترجيات. انتشر الخوف كمرور الهواء. انغمست بخيتة في تأمل قدمي هذا الرضيع، كم هما بالغتا الصغر! كانت قد نسيت كم هي جميلة هذه القدم الصغيرة بأصابعها المتناهية الصغر، وأظافرها التي تكاد تكون شفافة، انثناءاتها وانحناءاتها وجلدها الرقيق! نسيت هذه القدم الطفولية، هذه القدم التي لم تمشِ قط. تابع الفقيه اختياره، وهو يعلم أن من بين العشرين صبياً الذين اختارهم في ذلك اليوم، سينجو فقط اثنان من عملية الإخصاء. وحدها الندرة تستحق الثمن ولا شيء يجلب الثمن أكثر من صبي مخصيّ. كان الهواء ثقيلاً والنسيم يحرك التراب الجاف بكسل. مدّت بخيتة يدها نحو قدمي الرضيع، فتراجعت أمه صارخةً، فقام حارس بجلد الصغيرة بالسوط. خيّم صمت قبل أن تبكي، وبكى الصغير بدوره بعد أن استيقظ على صرخة أمه. لم تبكِ بخيتة بسبب

السوط الذي فاجأها بألم حارق، بل بكت على أطفال قريتها، على رضيع كيشمه، وعلى طفولتها التي اختفت؛ شعرت بشدة نفسية دون أية مواساة. ابتعدت الأم مع رضيعها، وتبع الصبية العشرون الفقيه، فهو سيقوم بنفسه بإخصائهم وهو أمر استثنائي يتباهى به، لأنه عادةً ما يقوم اليهود بهذه العملية، ولا يتوجب على أي مسلم أن يقوم بها، لكن المُخصين ندر وجودهم فقام الفقهاء بتنفيذ الأمر بأنفسهم. أصبح إقليم دارفور في غرب السودان المقر الجديد للاتجار بالعبيد، فهو مرتع لكل الأشرار، وفيه ينطوي العنف داخل العنف واللاإنسانية في الإنسان.

أجهشت بخيتة بالبكاء، ورأت من بين دموعها التي كانت تحرق عينيها المليئتين بالغبار، شابةً أَمَةً تشدّ شعرها وهي تصرخ. شرحت لها بيناه قائلةً: "هذا أخوها"، وأشارت لخط سير الصبية الصغار الذين يتبعون المرشد الكبير. لم يكونوا مقيدين بالسلاسل بل أمسكوا بأيدي بعضهم بعضاً وتقدموا بهدوء. أخبرهم الفقيه أنه قد اختارهم لقدر كبير، لحياة نخبوية إلا أنهم لا يفهمون العربية. فقط تقدموا بلطف؛ لأنهم رأوا العقوبات التي نزلت بمن عصى الأوامر؛ لذا آثروا البقاء هادئين. أدار واحد منهم -برهة من الزمن- رأسه نحو الفتاة التي فقدت رشدها، وألقى لها نظرةً خاطفة بحنو من بعيد.

بعد ذلك أصاب العبيدَ شيء من العصبية، وأخذوا يرتعشون من التعب تحت الشمس الحارقة، ويستندون بعضهم إلى بعض، فيتألمون من شد السلاسل على أعناقهم. خشي الحراس من فساد بضاعتهم، ففتحوا القيود لسحب السلاسل من الأعناق ووضعوها في أرجل العبيد. فتحوا

أبواب الأكواخ الكبيرة المدورة، وساقوا النساء أولاً في كوخ خاص بهنّ، بينما وُضع الرجال في كوخ آخر قائلين إن الزنى ممنوع. لكن العبيد لم يفهموا هذه الكلمة، ومَن منهم لديه القلب القادر على الحب؟! ومن منهم يتحلى بقوة تخوله الاقتراب من أنثى؟ إنهم ليسوا على قيد الحياة؛ بل هم على قيد النجاة!

سرعان ما فهمت بخيتة أن الوجود في كوخ هو أسوأ من البقاء خارجاً، فاستعادت هذا الشعور بالضيق، وتذكرت الأيام التي قضتها في السجن الذي زجها داخله خاطفوها. كانت هنا العقارب كبيرة بحجم اليد والجرذان التي تشبه الثعالب الصغيرة. جذبت بيناه إلى عمق الكوخ، وأمسكت الواحدة بيد الأخرى، وبدأت تغني أنشودتها الصغيرة: "عندما يولد الأطفال في ليون" لم تكن تنطق الكلمات، بل ألحان كانت تخرج من شفتيها الجافتين. كانت تغني دوماً الألحان نفسها، وتحاول -أكثر من مرة- أن تهرب بخيالها، لكن كل من حولها كان يصرخ أو يتأوه. والعالم المحيط بها أقوى من خيالها، فلم تنجح بالهروب من الواقع! شعرت ببيناه قبالتها، كانت منهكةً وهادئة وقد أسندت رأسها على كتفها، وقالت لها: "أحب أنشودتك الصغيرة". لم تفهم العبارة بل فهمت الإحساس واستمرت منذ تلك اللحظة على هذا المنوال في حياتها: أي أن ترتبط بالآخرين عبر حدسها، فهي ستكتسب القدرة على استشعار ما يصدر عنهم من خلال الصوت والخطوة والنظرة، وأحياناً من خلال حركة يقومون بها.

أخذت تحدق بالنسوة اللواتي تعيش معهن، فمنهن من كانت هنا من قبل وهناك النسوة الجديدات اللواتي أتت معهن. هن في معظمهن شابات،

كما توجد أخريات صغيرات السن، كانت كل منهن تنظر إلى لثانية وتبحث عن قريباتها، وتسأل عن الأخبار في مزيج من اللهجات واللغة العربية، ومن ثم تستدير خائبة الأمل ومتعبةً لتلقى مصيرها في البيع. كانت تطغى رائحة القيء والغائط والعرق والصديد والبول ودماء الحيض. كلهنّ نمن على الأرض نفسها دون أن تدري واحدة منهن متى نامت وأين سيذهبن؟ وماذا سيفعلون بهن، وكم من الوقت سيستغرق الأمر؟! جاء أحدهم يبحث عن المريضات منهن فأخرجهن، ولم يعدن من جديد. من ثم جاء أحدهم للبحث عن النساء العجائز فخرجن ولم يعد أحد يراهنّ. نوديت الفتيات الشابات فخرجن لبضع ساعات، وعدن بمشية مترنحة كالثملات، وهن يتحدثن عن رغبتهن في الانتحار؛ روت بعضهنّ قصصاً مرعبةً لم يفهمها أحد، ولم يرد أحد تصديقها بعد فهمها. سمعت بخيتة قصة تلك الامَة التي لم تتمكن من اللحاق بقافلتها، فربطها البائع بشجرة من عنقها ليتأكد أنها لن ترى الراحة وأن أحداً لن يستفيد منها بشيء. لم تسمع اسم هذه الشابة الأمَة، لكنها فكرت بأختها فهي تعلم أنها أيضاً غيرت اسمها. ما اسمها الآن يا ترى؟ هو اسم إسلامي لكي تصبح مسلمة، وأيضاً لكي يتم خلطهن فلا يتمكن أحد من إيجاد ذويه. خلطت البطاقات فأصبحن ينتمين فقط إلى هذا القطيع. تحدثن عن إماء تركهن الشاري الذي لم يعد يملك غذاءً لهنّ مقتولات بمذراة في رقابهن. تحدثن عن إماء تعرضن للطعن أو للقتل بالرصاص، وعن أمَة رُمي رضيعها للتماسيح فقفزت خلفه لإحضاره، وعن تلك الأمَة الحامل التي بقر الغزاة بطنها بعد أن تراهنوا على جنس الجنين! لم تعد بخيتة تريد سماع كل هذه القصص التي بالكاد تفهمها،

إضافة إلى ما خيّم على الكوخ من حذر وحقد ومن جنون استحوذ على بعض النسوة. شعرت بخيتة بالحنين إلى كيشمه، وسرعان ما أصبحت باقي السجينات مثلها يعتريهن الحنين؛ فهناك تلك التي تحك وجنتيها حتى سالت دماؤها، وتلك التي تضرب رأسها بجدار الصلصال، وهناك أخرى لم تقل كلمة بل كانت تهمهم وتتأوه! والأسوأ من ذلك تلك التي تشخر، وتلك التي تضحك وهي تبكي، وهذه الفتاة الصغيرة التي أتت تحبو نحوها رافضةً التحدث إلى أحد أو فتح عينيها. شعرت بخيتة بضربات قلب الطفلة التي اعتادت أن تدق على ذراعها بإصبعها. ربما هي تهدهد لنفسها، وربما تتبع إيقاع قصة أو ربما فقدت صوابها، لايمكنها أن تعرف؛ إنها كعصفور صغير جالس على القليل من القش، تصنع مساحة صغيرة جداً من الدفء لتجد القليل من الراحة؛ عيناها مغلقتان قبالة بخيتة، تتنفس بعيداً عن الخوف. لم تكن بخيتة تعرفها ولا تعرف اسمها ولا من أين أتت ولا كيف وصلت! يبدو أن عمرها أربع أو خمس سنوات ربما. شعرت بخيتة أن جميع السجينات يرغبن في تقليد الطفلة الصغيرة. وضعت يدها على رأس الصغيرة، وشعرت بدمها ينبض على صدرها، فهدأت بدورها. تجرأت على التفكير بما هو غال عليها، وعلى استرجاع وجه أمها وضحكتها وصوتها ورائحتها، وعلى تذكر هذه الحياة الأخرى عندما كانت تناديها.... عندما كانت تناديها... ولكن ماذا كان اسمها؟ وما اسم أختها التوءم؟ وما اسم أخيها الكبير؟ وما اسم صديقتها؟ ما أسماؤهم جميعاً؟ بحثت مطولاً، ومن ثم خلدت إلى النوم بينما ظلت الفتاة على صدرها تتنفس بعمق.

استيقظت في الصباح جفِلةً، فقد أتى الديك ليصيح للمرة الأولى، وسمعت الأذان للصلاة، فانسحبت فجأة من حلم عنيف، ملون وغير متسق. كانت تعرق وقلبها يخفق في حلقها. شبكت الصغيرة فخذيها بفخذي بخيتة، كانتا نحيلتين وملوثتين، كان حاجباها معقودين وفمها دقيقاً، كانت مشدودةً كعشبة جافة. مما لا شك فيه أن لديها أيضاً اسماً إسلامياً لا يشي بما كان عليه الكون لدى ولادتها. لكن آباء الفتيات لم يتلفظوا عبثاً بالعهود قبالة القمر، فقد كانوا رجالاً أقوياء وطيبين، وهي على ثقة بأن اسمها المنسي يحيا في مكان آخر وهو محمي. أخذت تميّز صاحبات الأجساد النائمة في الرائحة النفاذة وفي الضجيج الصادر عنهن، وقررت أنها تريد حقاً أن تسمى بخيتة، قررت هذا وقبلته! بخيتة، *أمَة*، أو الأمَة على غرار باقي النساء والفتاة الصغيرة النائمة بين ذراعيها. قالت *نعم*، ومن ثم عادت إلى لنوم، وتسللت إلى حلم رأت فيه أمها تحتضنها. أخذت تبحث عن كلمات لتخبرها أنها تحبها ولتطمئنها، لكنها تحبها طالما أنها لا تجد تلك الكلمات؛ ذلك لأنه ما من كلمات تعبر عن ذلك الحب.

بعد عدة أيام أخرج العبيد من الكوخ، ليس فقط بغرض العمل والخدمة وإمتاع الرجال، بل أخراجوا جميعاً رجالاً ونساءً وشباناً وأطفالاً. رُمي الموتى، أما المرضى ، فقد بيعوا بسعر بخس للبائعين الجوّالين قبل أن يخسروا ثمنهم. وبقيت النخبة وهم الشباب والأطفال الأصحاء والأشداء. خرجوا إلى نور النهار ليجدوا رائحة العجين المخبوز والذرة المشوية، وليسمعوا أصوات النباح ورغاء الماعز، ونهيق الحمير، ونداءات وأصوات أهالي القرية؛ إنها الحياة بجمالها الباهر. سمعت بخيتة صخب الرياح بين

أوراق شجر الباوباب، فكان هذا أقوى من أن تمسك الدموع في عينيها! هي لاتدري لِمَ يسبب لها كلّ ما هو جميل هذا القدر من الألم! لماذا تعصر قلبها هذه الفوضى في الأوراق المتمايلة؟ دفع الحراس العبيد ووضعوهم جميعاً في صف واحد، وسرعان ما استولى عليهم الخوف. سمعت من بعيد بكاء الفتاة الصغيرة التي كانت تنام بين ذراعيها، وكان يعلو على أنينها صوت الرياح التي تبعثر أوراق أشجار الباوباب. إنه غناء مفخم وغير متناسق. كان الطقس حاراً، وكل واحد من العبيد يشعر في داخله بانعدام عزيمته إزاء فكرة الرحيل من جديد أو المشي، دون أن يموت.

سيتم تحديد من يتوجه إلى الساحل نحو السوق الواسعة؛ أي الخرطوم، حيث يعيش التجار الكبار الثلاثة الذين سيتقاسمون المتاجرة. حتى ذلك الوقت لم يكن العبيد سوى بضاعة تتناقل من يد إلى يد، ومن وسيط إلى وسيط. وبهذا بدأت وجهتهم النهائية تقترب أكثر فأكثر. خضعوا للمعاينة من جديد، وتم تقييمهم وترحيلهم بمجموعات. قام المسؤولون الأشداء بإدارة العمليات وكان الفقيه موجوداً أيضاً، فتمت المناوشات والمجادلات والكلمات التي لا تنتهي. كانت بخيتة تعلم أنه يجب ألاّ تفتح عينيها على اتساعهما، وأن عليها أن تمشي بلطف لتعتاد الأمر من جديد، كما يتوجب عليها عدم لمس أقدام الأطفال الرضع، أو عدم النظر إلى الكبار في وجوههم أو أن تتكلم مع بيناه، أو أن تبدي تعبها أو تطلب الماء. كانت تعلم كيف يجب أن تقف، إلا أنها تخشى كثيراً من أن يتم إبعادها عن بيناه. كانت قدماها ترتجفان، ومن وقت إلى آخر كانت أصابعهما تتلامسان كأنهما تقولان: "*لن أترك يدك*". شاهدتا الشبان والشابات يرحلون الواحد تلو

الآخر والقافلة تتشكل، فقد وقع الاختيار عليهم وسيرحلون وسيبدأ المسير من جديد، عادت المفاتيح والقيود والسلاسل تقيدهم الواحد تلو الآخر. أما هي وبيناه، فقد فكرت لو أنها افترقت عنها فستصاب بالجنون كتلك الفتاة التي رأتها في الكوخ. فكرت أيضاً بأمها التي كانت تقول: "فتاتي الصغيرة لطيفة وطيبة"، فهي مازالت ابنتها الصغيرة، ومازالت لطيفة وطيبة. لم تصب بالجنون ولن تصاب به. رأت الفتاة الصغيرة التي كانت تنام بين ذراعيها تتعثر في مشيتها وهي ترحل رافعة وجهها بنظرة ضائعة تبحث عن امرأة تتعلق بها. رحلت المجموعة مخلفةً غيمة من الغبار في النور الذي يعمي الأبصار.

لدى ابتعاد الضجة الناتجة عن قرقعة الحديد والسوط والأوامر، لم تعد تسمع سوى نباح الكلاب التي تتبعهم ومن ثم نباح الكلاب التي عادت. لم يكونوا كثيري العدد ممن بقي في الزريبة، ومن بينهم كانت هي وبيناه. ظلتا معاً هذه المرة أيضاً، وربما فقط ليوم أو اثنين، لكنهما مازالتا معاً. ربما كان هناك الكثيرون من الأطفال في القافلة التي رحلت للتو! كم هو معقد أمر هذه البضاعة القيمة التي تبطئ مسير البعثات! تم وضعهما على جانب الطريق بانتظار موكب آخر. كانت تلك مفاجأة لا تصدق، فما حصل لهما هو بمحض المصادفة. شعرتا بفرح كبير وبرغبة في الصراخ والتصفيق، وبرغبة في القفز في المكان، وبأن ترتمي كل منهما بين ذراعي الأخرى، وبأن تشعر بجسمها النحيل وبعظامها التي تعود إلى فتاة صغيرة، وبرائحة الرطوبة والبول والغبار، رائحة العجائز اللواتي لم تناسبهن هذه القوة الناجمة عن تلك السعادة! طبعاً هما لم تفعلا ذلك، فقط غامرتا بأن تتعلق

الواحدة بالأخرى، ولكن دون إظهار علامات خارجية بالتعلق ودون إظهار إنسانية زائدة.

قادهما الحارس معاً وحبسهما من جديد، هما الاثنتين. أخذتا تتكلمان دون أن تفهم الواحدة منهما لهجة الأخرى. بل فهمتا ألمهما دون متابعة القصة فعلياً. روت كل منهما للثانية ما قامت بعصيانه، وتحدثت عن قريتها وأهلها وأجدادها وإخوتها وأخواتها وأقربائها وأسلافها وموتاها. تحدثت عن كل أولئك الذين ينتظرونها؛ فأصبحت هذه القصص واقعية من جديد وغير منتهية، كما لو أن كل واحدة منهما قد تركت وراءها حياةً مديدة. قامتا أحياناً بتطويع كلمات الآخرين، وقد بدا هذا أحياناً محبطاً وغير مفهوم وأحياناً أخرى بدا ملائماً ومتفجراً؛ لذا فقد استمرتا بترديد الكلمات الغريبة. وعندما كانتا تسكتان وتقبعان وحيدتين مع كل ما باحتا به، كان الحزن يغمرهما بقوة لدرجة أنهما ذات صباح في غمرة جنونهما قامتا بتنفيذ الأمر؛ فقد قررتا ذلك وقالتا إنهما ستذهبان للقاء عائلتيهما؛ إنها علامة على الطيش وعلى الشباب والحياة. لقد عزمتا على الهرب!

ظلتا لثلاثة أيام تتحدثان عن قريتيهما، وتحلمان بهما وبهروبهما. فهما تنتميان إلى عالم لم يختفِ بما أنهما تتذكرانه وترغبان في العودة إليه، وفي العودة أدراجهما والوصول إلى نقطة الانطلاق. أخذت بخيتة تتخيل نفسها بين ذراعي أمها، وهي تحتضنها وعيناها مغمضتان، استشعرت رائحة حليبها وعرقها المحلّي، تخيلت هناك أختها هي الأخرى التي انتظرتها وبفضلها لم تغادر القرية كلياً، فجزء منها أصبح *أَمَةً* بينما ظل الجزء الآخر حراً، وفي كل مساء تلجأ إلى لجلوس على ركبتي أبيها. إن العاطفة هي أشبه بمحرك

ومثبط في آن معاً، فبخيتة قد انجرفت في التيارات المعاكسة للحلم وللضيق وتساءلت إن كانت أولغوسا مازالت موجودة، وفيما إذا كان رحيلها قد سبب باحتراق قريتها، وفيما إذا كان السكان لم يهربوا من هذا المكان الذي أصبح بالغ الخطورة. وتساءلت: هل تظل الأماكن موجودةً عندما نهجرها؟

قريتيهما قريبتان من بعضهما، وأن أسرتيهما تقطنان سويةً، وأن إيجاد واحدة منهما يعني إيجاد الثانية. كانتا تعملان نهاراً في مزرعة الزريبة وسط باقي العبيد من النسوة العجائز الصامتات المنهكات، تحت رقابة حارس ومقيدتين بالسلاسل. ومع ذلك فهما تعرفان أنهما ستجدان وسيلة، فالهروب يبدأ من الفكر. في المساء أخذت بخيتة تغني أنشودتها الصغيرة، وعلمتها لبيناه في عمق الكوخ المليء بالصور والأناشيد، وبقصص عائلتها وبالأقاصيص الصغيرة أيضاً. روت الفتاتان كل هذه القصص سواء تلك التي تحكي عن ساحر يزيّن الفتيات، أو تلك التي تحكي عن الأم المتوحشة. إضافةً إلى ألعاب الحصى ولعبة القمر. وبتلك الطريقة عاد عالمهما إلى الحياة واقتربتا منه. إن عالمهما سيتغير، بل هو قد تغير فعلاً.

تم الأمر في أمسية حيث عاد الحارس من الحقل محمّلاً عربته كاملةً بأكواز الذرة، كان معكر المزاج وعلى عجلة من أمره، فأخرجهما من الكوخ وأمرهما بفرز الذرة، ذلك لأنه يتعين عليه بيع الذرة قبل حلول الليل. لم يكن من مصلحته أن تتلكأا بالعمل ولكي تسرعا أزال سلاسلهما. سمعتا صوت السلاسل تقع، ثم شعرتا بأقدامهما تتحرك على الأرض وبكعوبهما تتراقص إلى الخلف ومن ثم استطاعتا الوقوف بثبات والالتفات. استطاعتا

التحرك دون أن تجرح الواحدة منهن الأخرى. كانت سيقانهما رخوتين كشعلتين، كان بإمكانهما الهروب. الأمر الذي جعلهما ترتجفان بقوة. شعرتا ببعض الخوف، لأنهما تعلمان أنه يجب تنفيذ الأمر الآن. لم يكن من داع للحديث فيما بينهما. يجب أن تطيعا الأوامر، وتفرزا الذرة لكيلا تجلدا بالسوط، وفي الوقت نفسه يجب أن تدَعا الذرة وتلوذا بالفرار! كانت أيديهما ترتعش، وهما تفرزان الأكواز، وتنظران من حولهما. سريعاً وكعصفورتين أدارتا وجهيهما وشاهدتا الذرة والقرية، وعادتا لرؤية الذرة وطريق القرية. هناك ضجيج وروائح العالم الذي يتنفس. هناك ذرة، العالم يفتح لهما ذراعيه ويغلقهما من جديد. نظرتا من جديد للذرة. دخل الحارس إلى كوخه وتركهما وحيدتين سويةً دون سلاسل. سمعتا الأذان للصلاة، ولم يعد ذلك الصوت يخيفهما، فهو مجرد صوت يأتي مع الرياح في السماء من مكان آخر.

استعاد قلب بخيتة إيقاعه في الخفقان كالطبول، تماماً كما شعرت لدى اختطافها خلف شجرة الموز؛ إنه النداء نفسه يقرع في أذنيها ويجر الجسد بلطف، إنه يخبط ويصر بلا توقف، ويعود ليخبط، ويصرّ حتى أصابها بالدوار... لم يعد بإمكانهما فرز الأكواز المراد بيعها وتلك المراد إعطاؤها للبهائم. قامت كل منهما برمي الأكواز كيفما اتفق، لا يهم أين، ونظرتا إلى باب كوخ الحارس، مازال مغلقاً. راقبتا بانتظار اللحظة المواتية لتركضا. كان الأطفال يلعبون على الهضبة مطلقين صرخات وضحكات في المساء الذي يحلّ، والحمير تنهق منتظرةً غذاءها، والكلاب تدور حول الرجال الذين أتوا لإطعامها؛ إنها فرصة كبيرة لهما أن تكون الكلاب جائعة. توجد تلك المرأة بالقرب من البئر، ملأت جرتها ورفعتها ووضعتها على رأسها،

وظلت مكانها لم تبرحه؛ فبدأت بيناه بالبكاء لأن تلك المرأة بقيت بالقرب من البئر بلا سبب وحيدة مع تعبها وكسلها. مازال باب الحارس مغلقاً. مر رجل بالقرب من كوخه، تردد قليلاً ولكنه لم يقرع الباب في النهاية بل رحل حاملاً مسبحةً في يده يحركها بسرعة كبيرة. نظر الرجل إليهما ثم غادر يؤرجح قامته الطويلة الملتوية، ثم غادرت المرأة البئر، وحلّ الظلام، ولم يعد هناك من أحد. كان نهيق الحمير مازال يقطع السكون، وكان ذلك يشبه صوت قرون البقر التي كان ينفخ فيها الموسيقيون. كان ذلك موتراً ويشبه صافرة الانطلاق؛ لذا، دون أن تتحدثا أو تنظرا كلّ منهما إلى الأخرى، رمتا كوز الذرة الأخير، وأمسكت الواحدة يد الثانية، وأسلمتا أقدامهما للريح.

ركضتا بأسرع ما استطاعتا. فقد حل الليل واختبأ القمر خلف الغيوم، فهما محميتان في الظلام؛ ركضتا على أرض بلا سماء وبلا نور. كانت أيديهما مشدودةً ومرتبطةً ببعضهما، وأنفاسهما تصفر كالمزمار، ركضتا حتى لم تعودا تفكران بأنهما تركضان، ودون أن تشعرا بتعب أو بخوف؛ فقط ركضتا نحو الأمام هاربتين. *لن أترك يدك.*

وصلتا إلى غابة كان من المستحيل الركض سريعاً فيها وسط الأشجار والجذور، فأبطأتا من خطاهما، كانت الأشجار تمتلئ بالطيور التي تصيح ليلاً. سمعتا صوت أجنحتها بين الأغصان ترفرف سريعاً، وبشكل فوضوي. توجد قرود تصرخ بحدّة. كانت الأشجار باسقةً ومرصوصةً وقريبةً بعضها من بعض. كانت أغصانها تعلو نحو السماء وتتنفس الهواء. مشتا بسرعة لوقت طويل، ثم توقفتا وهما تجدان صعوبة في التنفس،

وتتعرقان بغزارة كالمطر، وكان فمهما حاراً وجافاً. لم تدريا أين هما؟ ولا أي اتجاه ستسلكان؟ كل ما عليهما هو أن تتابعا المسير.

مشتا في الليل الذي كان بمنزلة عالم جديد مليء وثقيل، لكن في نهاية هذا العالم هناك أمّاهما بانتظارهما. لم تعودا تشعران بأقدامهما فقد تجاوزتا حدود التعب والألم وكل تفكير. فجأة ظهر نور، وميض لمع من عمق الغابة، إنها شعلة مرّت من بين الأشجار دون أن تحرقها. كانت الشعلة ممسوكة بيد ترفعها عالياً وبثقة. فعادت الصغيرتان للركض من جديد، وأقدامهما تعلقان بالجذور. وفجأة أنيرت الغابة بالضوء، فقد ظهرت المزيد من الشعلات في كل مكان كما لو أن من يتبعهما قد أشعل المزيد منها بنار شعلته، فانتشرت في الغابة وفي السماء هذه الألوان المتراقصة من الأصفر والأحمر. أحاطت الحرب بهما فأخذتا تركضان وتقعان، وتُجرحان وتنهضان. وقبيل أن تتلقفهما النيران استسلمتا لكل شيء فقد انتصر الحريق. توقفتا وكانت قدما بخيتة الداميتان ترتعشان كما لو أنهما تُجلدان بالسوط. استعادت تنفسها ونظرت فرأت الغابة غارقة بالظلام، ولم تعد هناك نيران، ومن المؤكد أنها لم تكن هناك نيران من الأصل. وحده الخيال كان يهددهما بينما كان الهذيان يلاحقهما. سمعتا الأصوات الأخيرة للطيور يرد بعضها على بعض، وسمعتا الصوت الأخير لأوراق الأشجار، ومن ثم صرخات القردة وأخيراً هدأ كل شيء.

كانت بخيتة وبيناه فتاتين تائهتين، فقد دارتا حول المكان واخترعتا الحريق، وفي مطاردتهما الخيالية عادتا من حيث جاءتا. قبعتا في الغابة الساكنة بصمت وحيرة، تمسك الواحدة منهما يد الأخرى، إلا أنهما على قيد الحياة. لم

تجزعا لدى سماعهما صوت الخطوة الهادئة والبطيئة تقترب منهما، فقد ظنتا أنهما مازالتا تتخيلان، ولكن سرعان ما رافق الخطوة التي تقترب منهما صوت زئير عميق ومتعب؛ إنه حيوان مفترس صبور ولا يخطئ فريسته. دفعت بخيتة بيناه نحو شجرة فتسلقتها الفتاة الصغيرة بسهولة بدافع من خوفها وتبعتها بخيتة. ستتذكر طوال حياتها تلك الليلة لتصبح قصة صغيرة أو أسطورة تفخر بها بقليل من الانزعاج. إلا أن هذه القصة ستقودها إلى توحش حقيقي تمكنت من مواجهته في وطنها السودان. لاحقاً سيحب الأطفال أن تروي لهم هذه القصة طوال الوقت؛ إنها قصة الحيوان المفترس الذي كان سيأكل الفتاتين الصغيرتين الهاربتين. سيحبون تخيل بخيتة كفتاة صغيرة نائمة على شجرة كالقرود والعصافير.

ولكن ما لن ترويه للأطفال هي تأوهات الصغيرة بيناه الجزعة... ما لم تتحدث عنه هو فصل الشتاء في البندقية حينما كانت تعوي الذئاب على الهضاب المحيطة، وصوت بيناه يناديها، وهي لم تنقذها.

أيقظتهما الغابة صباحاً مع زقزقة العصافير التي كانت تجعل الأشجار تبدو كما لو أنها هي من تنشد، إضافةً إلى نداءات وصرخات الحيوانات في الصباح الذي حل لتوه بصخبه وخصوبته واستمراريته. كان النور بالكاد يمرعبر الأغصان المتراصّة. وفي الأعلى كانت الأوراق تكتسب لوناً شفافاً كالماء. هدأت روح الليل فمنحتهما فرصةً جديدة؛ إنه الصباح الأول لهما بلا سلاسل وبلا حراس، إنه اليوم الأول.

قطفتا فاكهة لم تعرفا كيف تفتح، ولا تدريان ما اسمها. استقبلهما العالم وقدم لهما الغذاء، إنه أمر تتذكرانه جيداً، عالم خال من الخطر. دفعتهما

لهفتهما لإيجاد أمّيهما للمشي من جديد قرابة ساعتين، فخرجتا من الغابة، ووصلتا إلى السهل الواسع. كان المكان متسعاً وجديداً فرغبتا في الركض على هذا السهل إلا أنه كان مغطىً ببروزات صغيرة. يقال إن الأرض كانت تغلي من الحرارة، فتركت هذه الحروقات آلافاً من النتوءات لذا فإن المشي صعب، وسرعان ما يوجع الأقدام. كما توجد هناك شجيرات مليئة بالأشواك التي تندفع نحوهما بفعل الريح فتمر فوق أقدامهما وتجرحها. لم يكن باستطاعتهما تفاديها فمشتا برغم كل شيء. مشتا بينما كانت السماء ترتفع لتسلّط أشعتها الحارقة نحوهما؛ إنه الطريق المؤدي إلى لقاء أم كل منهما، فما عليهما سوى سلوكه والتحدث عن تلك الأم طوال الوقت، الأمر الذي خفّف من قلقهما. ستقص بخيتة على أمها ما رأته وما فعلوه بها، وستسامحها هذه الأخيرة. استحوذ هذا السماح عليها طوال هذا اليوم المليء بالأشواك وبالحَر، فهي تقطعه من أجل والدتها.

أخذت الشمس تنكفئ، وتسلل المساء حاملاً معه الحنين والهواجس. توقفتا عن الكلام فهما تتقدمان محملتين بالخيبة دون أن تبوحا بذلك، إنهما تائهتان ومترددتان. فجأة سمعتا في الوقت نفسه صوتاً، إنه صوت بشري فتجمدتا مكانهما. وقفتا تبحثان عن مصدر الصوت. كان السهل خالياً من الشجر وهما تشبهان نقطتين سوداوين في صفحة الغسق. اقترب الصوت منهما، فتوارتا خلف بعض الشجيرات والأشواك وقبعتا تراقبان. وصل الصوت تملؤه كلمات غاضبة ومتوعدة، لقد وجدهما الحارس فقد حملت الرياح صوته إليهما. أمسكت الواحدة منهما يد الأخرى، وبدأت بيناه بالبكاء ويدها ترتجف بقوة في يد بخيتة، كما لو أن أحداً يحاول أن يباعد

بينهما. أصبح الصوت قريباً جداً، إنه صوت السوط الذي يزرع الخوف فيهما حتى وإن صمت. يأتي هذا الصوت دوماً للبحث عن بخيتة ويباغتها حتى وهي نائمة مؤكداً أنها لا يحق لها أن ترتاح. يأتيها صوت السوط، وهي تصلي مؤكداً أنها لا يحق لها أن تأمل شيئاً. كان الصوت موجوداً هناك في السهل الذي ظنتا أنه صحراء خالية. جلستا القرفصاء خلف الأشواك عالمتين أن الحراس يرونهما، ولكن لم يكن بوسعهما أن تقفا، ولا أن تترك كلّ منهما يديّ الأخرى. أطرقتا برأسيهما وانكمشتا تنتظران. كانتا في موقعهما في أكثر لحظات القذارة والعار التي مرت بحياتهما، ربما يكون الآن الحارس فوق رأسيهما بصبره وغضبه. أغلقتا أعينهما بقوة حتى الارتجاف، وعضتا على خدودهما فتمزق فماهما من الداخل وهما تسمعان التأوهات والشكوى والسعال الحاد. تعرفت بخيتة صوت أزيز سعال نسوة من حناجرهن الملأى بالبلغم، إنهم العبيد، لقد مر العبيد من قربهما، لقد عاد العبيد أدراجهم.

كانوا يتقدمون وسط الصخب الثقيل الصادر عن السلاسل، يجرون أقدامهم ويضربون الأرض من ألمهم، إنه صخب النار التي تقرقع وتفور وسط الرياح؛ إنه خط السير الطويل المليء بالمنهكين والمحتضرين، بصرخات الألم وبالشفاه المحروقة وبالعيون العمياء وبالجلود الممزقة. لم تكن تبدو كقافلة تمر، بل الأمر أشبه بشخص واحد وبألم واحد يحط خطوته على السهل فيسحقه.

راقبتا العبيد وهم يمرون ويختفون وخمد صوت الحارس. في ذلك المساء شهدتا مرور البؤس من أمامهما وتفادتاه.

كان البقاء في السهل يشبه أن تظلا بمتناول اليد ومكشوفتين للعيان، لذا كان عليهما الابتعاد عن آثار مسير القافلات. لم يكن لديهما نقطة

استرشاد سوى الغابة، فعادتا إليها محبطتين ومرعوبتين من الظلام. عادتا أدراجهما آملتين أن تقودهما أقدامهما إلى مكان ما. ولكنهما لم تكونا تعرفان التكهن بالطريق من السماء ولا من الأرض، فتبعهما ظلّاهما على غير هدى.

تألمت بيناه من أسنانها فأخذت تئن ماسكة خدها بينما لم تعد بخيتة تشعر بشيء. لم تعد تتألم لأن جسدها تجاوز حدود الألم ووصل إلى طريق مسدود. سارتا حتى أصبح الليل دامساً، ودخلتا أخيراً إلى الغابة التي كانت مستقيمة ومرتفعة كمملكة عملاقة. ولم يكن ذلك مواساة لهما بل سبب لهما تشتتاً كبيراً. لم تتمكن بخيتة من تعرّف الأرواح الصالحة، كانت تراقب الليل محاولةً تذكر ما كانت أمها ترويه لها عن العالم. كانت تخاف أن يمحو الليل ذكرياتها وأن يجعلها تختفي من الوجود. يمكن أن يحصل كل شيء. لقد حصل بالفعل كل شيء، ذلك الليل....! لم تمتلكا الشجاعة الكافية لتناما من جديد على جذع شجرة فلديهما الآن هاجس السقوط؛ لذلك فقد استسلمتا لثقة عمياء، نامتا على الأرض، بينما ظلت بيناه تتألم من أسنانها. حفر الرمل ندوباً على أقدام بخيتة، فكان الألم يضرب وصولاً إلى قلبها، إنه الجزء الأصغر منها الذي لم يزل على قيد الحياة. تمددت على الأوراق القاسية والجافة بلا حراك، بلا خوف وبلا حزن. تراخت ولكن فجأة حدث شيء، سطع نور لطيف، وامتدت يد إلى داخلها، وانتزعت منها ألمها المعنوي والجسدي، احتضنتها هذه اليد دون أن تدفعها كستار منسدل عليها! تنفست دون أن يؤلمها شيء، وعاشت للحظات دون أن تشعر بالذعر. انتظرت هنيهة مشدوهة تتساءل كم سيدوم ذلك، فاستمر الأمر فجلست

مكانها. كان ذهنها متّقداً، وترتجف بسبب حرارة مرت بجسدها، فاستسلمت لتلك الحرارة.

روت لاحقاً ما حدث معها في تلك الليلة في كتيب *"القصة الرائعة"* واصفة "لقاءها مع ملاكها الحارس". لم تذكر وقتها ليلة المواساة تلك، فقد كان ذلك لغزاً وأملاً كما أنه كان رغبة في الحياة، أو فجوة تمر منها القوة البشرية الأخيرة مع التأكيد الساطع والعنيف على عدم البقاء وحيدة.

في اليوم التالي كانتا أقل شعوراً بالأمن وأقل براءةً، مشتا طويلاً وخرجتا من الغابة، ولم تلقيا السهل الذي اجتازته القافلات، بل كان هناك سهب بدا لهما واسعاً. احتفظت بخيتة على مدى نظرها بذكرى ذلك السهب، كما لو أنه محيط بأمواج منخفضة لا منتهية. كان السهب مستمراً بالدوران فتعودان إليه من جديد بمسيرهما معاً. فقدتا كل نقطة علام، فسبّب ذلك الدوار لهاتين الفتاتين الصغيرتين.

كانتا تتعثران بالنباتات دون أن تشتكيا، وكانت الرياح تدفعهما للوقوع، ثم تتركهما لتعود من جديد لتصفعهما بازدراء كبير. كانت الأعشاب تجرح أقدامهما وأفخاذهما ولكنهما استمرتا بالمشي تحت السماء الواسعة التي لا تدل على شيء. لم يكن المشهد يتغير أمامهما؛ فالأعشاب هي نفسها تحت السماء الخالية نفسها! مشتا بأعينهما المحترقة وشفاههما الدّامية. شعرت بخيتة بجسدها ينكمش بفعل العطش والجوع؛ شعرت بأن العطش قابع في عضلاتها وتحت جلدها، وأنها قريباً ما ستفقد الإحساس بأي شيء.

فجأة ظهرت الحقول أمام ناظريهما؛ لم تصدقا في البداية المنظر، فكل شيء أصبح ضبابياً وخيالياً، فظهور هذه الحقول فجأة كان كالوهم! هناك ساقية سمعت بيناه صوتها قبل أن تراها؛ إنه صخب يضج بعكس اتجاه الريح. ضجة محدودة المدى تختلط بلهاثها العالي. بينما بخيتة لم تسمع ذلك الصوت، هي قد تموت بلا بيناه ولن تقوى على تصديق ما ترى. كان خرير الماء يتخلل صخب الرياح. شربتا مطولاً واستمرتا بالشرب حتى بعدما روتا عطشيهما، شربتا حتى رغبتا في القيء. شربتا كفرسين غير حذرين. شربتا واغتسلتا وهما تشعران بتسرب الماء الفاتر إلى جسديهما، وامتزجت دموع العرفان بمياه النهر. كانت لحظة من الماضي جاءت لتخبرهما أن طفولتهما ليست ببعيدة جداً. كم ستكون مفاجأة كبرى لأسرتيهما لدى لقائهما، وكم سيكون هذا الفرح عارماً إلى درجة الألم!

استأنفتا المشي واستعادتا الرغبة في التكلم وفي سرد القصص من جديد عن أولئك الذين ستلقيانهم؛ الأحياء منهم والأموات، الآباء منهم والأجداد. كانت بخيتة تعرف قصص بيناه. كان يبدو لها أنها فهمت بعض القصص بشكل كامل، عن أختها التي علمتها بيناه المشي واسمها ميند، وعن القط الصغير الذي أعطاها والدها إياه واسمه شا (القط). لطالما رغبت بيناه أن تغني لها بخيتة أنشودتها الصغيرة "عندما يولد الأطفال في ليون". امتزجت ذكرياتهما المفهومة وغير المفهومة بعضها ببعض، كما لو أن الواحدة منهما أهدت بعضاً منها للأخرى لتمتلك المزيد من هذه الذكريات. ولكن احتفظت كل منهما لنفسها بوجه وبصوت والدتها مع أمل قوي جداً

موجود في تنهداتهما. يجب ألاّ تعودا سريعاً طفلتين صغيرتين، بل يجب عليهما الثبات والتحلي بالشجاعة والقوة.

كان اليوم التالي سعيداً فهو اليوم الثالث منذ هروبهما، وأصبحتا قريبتين جداً. قطعتا الغابة والسهب الذي مر به العبيد واجتازتا الأعشاب المتحركة والسهب، وأصبحتا الآن أمام حقول وحيوانات ورجال تعمل. هناك مظاهر للحياة، وقرى فابتعدتا بدافع من غريزتهما. ظلتا تراقبان البائعين الجوالين مع حميرهم الصغيرة المحملة بالبضائع أو مع عجولهم العجفاء التي ينتظرونها، وهي آتية من بعيد فهم يبيعون الأقمشة والبصل والخرز والخواتم الحديدية أو النحاسية، وأحياناً يبيعون البشر العجائز أو الذين يمرضون كثيراً أو الضعفاء الذين لا يتحمل النخاسون عناء شرائهم. إن امتلاك عبد للبيع يزيد عند صاحبه من قوة تجارته، فمن لا يبيع عبداً يعتبر من أكثر الناس فقراً. بدأتا بفهم هذا، راقبتا أيضاً العبيد المقيدين والرجال الوحيدين، فقد أخذتا من الحيوانات حذرها وحدسها، تقدمتا وهما تراقبان من بعيد. سارتا بمحاذاة هذا العالم الذي يجذبهما ويثير فضولهما! تساءلتا من منهما سترى أشجار قريتها تظهر أمامها أولاً؛ فجأة نكزت بيناه بخيتة بكوعها وقالت:

- أليست هذه أمك؟ أمك، هناك؟

لم تدرِ بخيتة أين تنظر، فأشارت بيناه إلى امرأة تحمل على خصرها طفلاً يغني وعلى ظهرها طفلاً آخر نائماً.

- إنها هي أليس كذلك؟ إنها أمك؟ أليست أمك؟

لم تكن المرأة تشبه أم بخيتة بشيء لا بالطول ولا بالوجه ولا بلون البشرة. وماذا ستفعل أم بخيتة هنا أصلاً في هذه القرية التي لا تنتمي إليها؟ أشارت بخيتة إلى قطيع من البقر وقالت لبيناه:

- تلك هي بقرات قريتك. أليس كذلك؟ بقراتك هناك! انظري!

صمتتا وشرعتا تبكيان من الإحباط والخيبة، كما لو أن إحداهما لم تكن تبذل أي جهد في التعرف إلى ذويها! كما لو أن الواحدة منهما مسلوبة العزيمة! أرادتا السؤال عن الطريق، ولكن لم تجرؤا على التوجه بالحديث إلى الغرباء. أرادتا طلب المساعدة لكن لا تكادان تفتحان فمهما بالحديث حتى يفهم الناس أنهما ليستا من هذا المكان. ولكن لماذا لا يوجد في أي مكان، ولا في أي هضبة أو حظيرة أو حقل أو عابر سبيل مجرد علامة صغيرة واحدة تدل على أسرتيهما؟ عالم كبير ولكن ما من شيء يخصّهم فيه. بعد ثلاثة أيام من المشي ومن الشجاعة لاشيء قريب من حياتهما. استمرتا بالمشي وسريعاً ما رافقهما الظلام وقادهما بلطف نحو ليلة طويلة أخرى في العراء. فجأة ظهرت قرية أمامهما فتسمرتا مكانيهما من الدهشة.

- إنها هي! قالت بيناه.

نظرت إليها بخيتة وقد قبض الضيق على حلقها ليخنقها.

رددت بيناه بسعادة: "إنها هي! إنها هناك! لقد وصلنا!" إنها نيران قرية بيناه، نيران الأهالي الساهرين مشتعلة من بعيد. بالنسبة إلى بخيتة كان الأمر مختلفاً فمنذ ليلة الغزو أصبحت صورة القرية مع النيران وألسنتها تعني لها شيئاً آخر. أمسكت بيناه بيدها والضحكة بادية على محياها مليئة

بالانفعال وتحاول إخفاءها، وركضت ساحبة يد بخيتة التي كانت ترى أنه لا يجب عليهما الذهاب، لكنها استسلمت لحماس بيناه فتبعتها برغم إرادتها، فهي أيضاً تريد أن تصرخ قائلة "أمي"! ومن الممكن أن يتحقق ذلك. من الممكن أن تهدر كأنها تهرب إلى لملجأ الأخير، وكأنها تنشد أغنية النصر، تنادي "أمي" بكل النغمات، نداءً يشبه الأمر! لذا فقد ركضتا وخرقت النيران جدار الظلام وعندما توقفتا لحظة لالتقاط أنفاسهما. اقترب رجل منهما، فتراجعتا بدافع من غريزتيهما، ونظرتا إليه بكل ما تستطيعان من حذر وتحدّ.

- أتشربان قليلاً؟

اقترب كلب أصهب يلاقي صاحبه الذي مد إليهما إناءً ترددتا في أخذه، ورفضتاه على مضض. أصر الرجل مادّاً ذراعه إلى أقصى ما يمكنه فتلقفت إحداهما الإناء منه. شربتا الواحدة تلو الأخرى، وكان ذلك منعشاً أكثر من استحمامهما في النهر. جعلهما ذلك تهدأان وتطمئنان فانحلّ التعب عليهما مرةً واحدة. في هذه اللحظة من الراحة أعادتا الإناء إلى الرجل وهمهمتا "شكراً" ورحلتا. أمسكت الواحدة يد الثانية وسارتا ببطء بكسل وبطيش نحو النار. حل الليل حاملاً معه البرد، وسطعت النجوم، وانتشرت في السماء كما لو أنها ترحب بهما. إلا أنها كانت بعيدةً وغير منتظمة. اصطبغ القمر باللون بالبرتقالي وكان ليلتها بدراً كبيراً فبدا كأنه الشمس. سريعاً ما تدرج الكلب في مشيته بالقرب منهما فالتصقت كلّ منهما بالأخرى، ظل بالقرب منهما حتى صفر له صاحبه. لكنه لم يكن كلباً مطيعاً فاضطر الرجل إلى المجيء لإحضاره. نكزه بضربة من قدمه وطلب شيئاً من الصغيرتين

بلهجة فهمتاها بصعوبة. أخذ يشير بيديه وبعينيه وبنبرة صوته وطرح عليهما سؤالاً، ولكن ما هو السؤال؟ لم تحب بخيتة صوته، بينما فهمت بيناه مقصده وردت مشيرة إلى النار التي تُضرم من بعيد:

- هناك!

بدا الاندهاش على الرجل:

- الآن؟

سحبت بخيتة بيناه من ذراعها:

- نعم هناك!

أشار الرجل إلى أن النار بعيدة. لكنهما لم تأبها فأخذ يمثل لهما أن الجو بارد وأن الليل قد حل ولكن لم تأبها، فأشار إلى الجراح في أرجلهما فلم تأبها، فأشار إلى الليل وعوى بحنجرته مقلداً صوت حيوان ضارٍ، كيف يعرف ذلك؟ كيف تكهن بأنهما تعرفان الحيوانات الضارية، وأن هذا ما جرى حقاً معهما؟

- لسنا خائفتين؛ قالت بخيتة.

- جيد جداً. أجاب الرجل مبتسماً ثم جمع قبضته إلى خده للدلالة على النوم وأشار إلى كوخه:

- ستنامان فيه وغداً تذهبان إلى هناك.

رفضتا وتابعتا المسير، لكن النيران كانت حقاً بعيدةً، ولم تغمضا أعينهما عنها، واعتبرتا أنها قريبة نظراً لعناد الأطفال الذي تملكهما. فجأة

أصدرت بخيتة صرخة رعب وتراجعت منطويةً على نفسها بفعل الخوف! لم تفهم بيناه ما الذي يجري، ركض الكلب ليسبقهم وعاد حاملاً بفمه ثعباناً. لكن بخيتة ظلت تنوح. فضرب الرجل كلبه ففتح فمه ورمى الثعبان الذي تم افتراس نصفه بعيداً. بكت بخيتة فوضع الرجل يده على كتفها.

دخلتا إلى كوخه فقدم لهما الرجل الطعام والشراب. كان بالقرب من كوخه حظيرة للماعز فسمعتا رغاء الماعز والتيوس المغلق عليها في الحظيرة ليلاً. جلس الكلب على العتبة لحمايتهما من الحيوانات والأفاعي فاعتقد أنه هو من يحرس القطيع، إنه كلب صالح. طلب منهما الرجل راعي القطيع أن تخلدا إلى لراحة قليلاً في كوخه وما إن تشرق شمس الصباح حتى يقودهما بنفسه إلى القرية التي كانت تشتعل نيرانها هذا المساء. ماذا؟ غداً؟ والدتاهما؟ هل فهمتا؟ هل وافقتا؟ والدتاهما؟ لم يرد أن يجبرهما على ذلك لأن بإمكانهما معاودة الرحيل إن أرادتا. لم تقويا على الرفض فنامتا كل منهما قبالة الأخرى. خلدتا إلى لنوم مباشرةً فقد وصلتا إلى نهاية ما باستطاعتهما فعله وإلى أكثر ما يمكنهما عيشه.

عندما أيقظهما الرجل في منتصف الليل، لم تدريا أنه منتصف الليل، فظنتا أن الصباح قد أتى، وأن الرجل يوقظهما ليقودهما بنفسه إلى قرية بيناه. كان الطقس بارداً. استيقظت الفتاتان من النوم وهما ما تزالان في عالم الأحلام، لكنهما رأتا الكلب وتعرفتا به، كان يزمجر مكشراً عن أنيابه. استيقظتا كما لو أن أحداً ألقى دلواً من الماء المتجمد على وجهيهما. سمعت بخيتة بيناه تصرخ ومن ثم شعرت بالسلسلة حول كعبها. حاولت بيناه الركض فوقعتا كلاهما أرضاً. صرخت بيناه محاولةً أن تزحف، ولكن يديها

كانتا مربوطتين بالأرض المجمدة. التقطت بخيتة يدها وسحبتها نحوها، وعانقتها بقوة. بكت بيناه بين ذراعيها بينما لم تنبس بخيتة ببنت شفة، ولم تبد أية دهشة أو ألم فهي لم تعد تخشى شيئاً، بل أصبحت أعلى وأبرد من النجوم الشاحبة في ضوء القمر، فسرحت بعيداً إلى خارج حدود هذه الليلة، وظلت بيناه في حضنها متعلقة بها.

تركت ذكرى ماشهدته كل من بيناه وبخيتة في هذه الحظيرة إحدى أقوى صدماتها النفسية. فكانت أشبه بتنبيه استيقظ في نفس بخيتة وسيرافقها في كل مخاوفها ولياليها، وستزورها ذكرى النيران المندلعة في أولغوسا والسجن الذي زجهما فيه خاطفوهما، وهذه الحظيرة. تلك كانت ثلاث هُوىً وقعتا فيها لتسلكا ممشى الجحيم. بعد أن قيدهما الراعي بالسلاسل قام بسجنهما في هذه الحظيرة، بعد تلقيهما الدعسات والرفسات والعضات من قطعان الماعز والتيوس التي داستهما، وتمادت لتخنقهما وتضربهما، ولتترك عليهما الآثار التي تتركها عادة على الطرقات. إضافةً إلى هذه السلاسل المحكمة على أقدامهما والتي تحفر ربلتيهما. لم تكن بيناه الصغيرة تتحرك سوى عندما تبكي ولم تمتلك بخيتة الكلمات لمواساتها؛ فلم تتكلما بل تلامستا فقط بالأيدي. كانتا تنامان فقط في اليوم الذي يخرج فيه قطيع الماعز والتيوس من الحظيرة، فتستلقيان على الأرض غير المريحة، بينما كانت الرائحة المنبعثة منهما تثير لديهما الرغبة في التقيؤ. كانتا تنامان بأطرافهما الصغيرة، يمزقهما العطش والجوع، ولدى غروب الشمس كانتا تسمعان أصوات عودة القطعان وثغاء الماعز يقترب مسبباً لهما ضيقاً كبيراً ولسعاً كالإبرة. لدى تضارب التيوس مع بعضها كانتا تتلقيان بدورهما الضربات

من قرونها فتبكيان من كل هذا الظلم. وبرغم معاملتهما كالحيوانات وسوء معاملة الحيوانات لهما، وحبسهما ودهسهما وتقييدهما، إلا أن شخصيتيهما وأحلامهما، بل طفولتهما، كلها أمور ظلت حيةً فيهما.

ذات صباح جاء الراعي لإحضارهما فجرهما خارجاً. لم تدريا كم من الأيام والليالي قد أمضتا في الحظيرة. هل هي ثلاثة أيام؟ يومان؟ ثلاثون؟ إنه كابوس لا قيمة للوقت فيه. كانتا قد تشوهتا خلال هذه المدة بسبب العنف، لأنهما كانتا تحت رحمة رجل قاس وساديّ ومتخلّف. لدى خروجهما من الحظيرة كانتا تشبهان امرأتين عجوزين أكثر من كونهما فتاتين صغيرتين. كان جلدهما متهتكاً ومقطعاً ومتسخاً. أمسكت كل منهما يد الثانية، منحنيتين ومكسرتي الأظافر. خرجتا إلى لنور مقسومتين؛ نصف بشري ونصف حيواني مع الإذعان والإرهاق نفسهما. سحبهما إلى الخارج ولم تقاوما، لم تفكرا ولم تستبقا حدوث أي شيء، لم تفعلا سوى الطاعة. لقد أدركتهما العبودية من جديد كما لو أن أي شكل آخر للحياة قد اختفى، وبقيت الحقيقة الوحيدة هي العبودية.

قام التاجر الذي أراد الراعي بيعهما إليه بلمسهما مكشراً، ففهمت بخيتة أنهما لا تساويان شيئاً، ولكنهما شابتان *وهذه أفضل ميزة لبيعهما*. فمن السهل إعادة تأهيل الأطفال *وامتلاكهم حسب ذوقنا*. أجلسهما الرجل القرفصاء، ومن ثم أوقفهما وأعاد الكرّة، ولمسهما في مناطقهما الحساسة، فشعرت بخيتة بالخجل لكونها متسخة جداً، وتلك كانت إشارة على أنها مازالت حية. عندما أزال الرجال السلاسل لرؤيتهما تمشيان. وقعت بيناه أرضاً فصرخت بخيتة باسمها، صرخة حادة كصوت الحصى، ذلك لأنها

أصبحت مليئة بالتراب وبالحصى، ولأنه على هذه الحال سيتم شراؤها دون صديقتها. نظرت بيناه إلى بخيتة وهي على الأرض كما لو أنها تراها من بعيد، كما لو أنها تبحث عن ذكرى تخصّها. كان ضوء النهار يعمي أبصارهما، وبخيتة تمد يدها إليها، بينما تنظر بيناه إليها دون أن تبدي أية حركة. رفسها الراعي برجله على ظهرها لكي تنهض، فتلوّت وأدارت وجهها قليلاً نحو السماء مغمضةً عينيها وبقيت مكانها. ظلت بخيتة تمد يدها إليها، فهي مازالت ترغب في سماع قصة الصغيرة ميند التي علمتها بيناه كيف تمشي، وتريد أن تغني لها المزيد من أنشودتها الصغيرة. هي تعلم أن بيناه لو امتلكت القوة لتنهض لعاودتا الحياة معاً. وإن تم اختيار واحدة دون الأخرى فإن هذه الأخيرة ستعود للحياة مع الماعز والتيوس؛ ستعيش معها وحيدةً وهذا ليس أمراً ممكناً. ليس من الممكن العيش وحيدةً مع الراعي. بدأ التاجر يفقد صبره فهناك عبيد خلفه ينتظرون. يرتعشون من التعب والغضب ومنهم من يبكي لأنه تم أسره منذ فترة قصيرة. جُلدوا بالسوط بلا توقف حتى وإن ظلوا واقفين بلا حراك ينتظرون، ظلوا يتلقون الجلدات. كانت بخيتة تسمع همهمة الحراس بكل جلدة من السوط الذي كان يصفر قبل أن يضرب الجلد مصدراً صوتاً رطباً. سمعت بكاء كل من الرجال والنساء، وحاولت أن تنسى ما تسمع. انحنت نحو بيناه ووشوشتها: "أواديو"، وهو اسمها المحبب في طفولتها. فتحت بيناه عينيها طالبةً الغفران من بخيتة، لكنها لم تتمكن من طلبه منها فلم تعد تقوى على ذلك، ها هو ذا كل شيء قد انتهى. توقفت مكانها وعيناها تطلبان السماح، ومن ثم تنغلقان وحدهما، إنه استسلام بالغ الرقة. عندها نسيت بخيتة وجود التاجر والراعي والحراس والسوط، وفي الحقيقة هي لم تأبه بهم، وعزمت على إنقاذ صديقتها

فلمست كتفها ومدت إليها يدها بحزم، تلك اليد التي لطالما أمسكتها بيناه، بهذه القوة.

- لا تتركيني.... قالت بخيتة.

ابتسمت بيناه بقليل من الأسى التي تعانيه

- لا تتركيني وحيدةً...

ترددت بيناه، وأرادت أن تبتسم لها، ولكن لم تستطع.

- تعالي لو سمحت....

ضرب التاجر بخيتة التي تراجعت، وقال كلمات غاضبة، وعاد ليضربها، فوضعت بخيتة يدها أمام وجهها، وعندما توقف عن ضربها أنزلت يدها ببطء فوجدت أمامها بيناه واقفةً. فقد نهضت من سقطتها منتظرةً معاينتها. استدار التاجر نحوها وبصق أرضاً، وكشر وهو يتلمس عظامها وبطنها، ثم ربت على فخذيها ورفع جفنيها وعندما أمسك بذقنها ليرى داخل فمها، تراجعت بيناه، فقد كانت أسنانها تؤلمها جداً، وكانت وجنتها وحلقها يحترقان ألماً. فتح التاجر فمها واسعاً فبدا أنه كان يريد شقها لنصفين، وذلك من خلال فمها. ثم أقحم أصابعه داخل فمها وسحب. كانت بيناه أشبه بحصان صغير: عيناها مذعورتان كأعين الخيول عندما تخاف. همهمت وتراجعت ولكن التاجر أمسك فكها بحزم. قام بانتزاع اثنين من أضراسها الخلفية الطاحنة ورماهما أرضاً وعاود حديثه مع الراعي. بصقت بيناه خيوطاً من الدماء، ومررت بخيتة يدها على ظهرها وأرادت أن

تخبرها أنها ستصبح أفضل حالاً من دون هذين الضرسين المتضررين، لكنها التزمت الصمت، وبكت لأن الأمر انتهى، ولن تعودا مطلقاً لرؤية أمّيهما. نظرت من حولها لكن من المؤكد أنه في هذا اليوم المشرق ليس هناك من سبب أن تكون هناك نيران بانتظارهما في أي مكان. لقد انتهت اللقاءات أو الأمل بلقاء ما: إن العالم بالغ الكبر، وفقير جداً ومليء بالجشع. وهكذا هنا وسط محادثات التاجر مع الراعي، وسط الترتيبات والخلافات، ومن بين نواح الرجال والنساء ورغاء الخواريف وصياح الديكة، من بين كل هذا الركام، من هناك سمعت بخيتة من بين العبيد صوت طفل رضيع يبكي، فخطر ببالها فوراً أنه من الممكن أن تكون أمها موجودةً من بين العبيد. استدارت بحركة واحدة نحوهم، وأخذت تبحث عن أمها بنظرها. كانت عبارة عن قافلة صغيرة تأملت الجميع بسرعة كبيرة وسرعان ما فهمت أنها قد أخطأت لأنها ليست هنا، ومع ذلك لم تنسَ الأمر؛ فهي ستظل طوال حياتها وحتى آخر يوم من عمرها كلما سمعت صوت رضيع يبكي، تظن أنه في حضن أمها؛ حتى عندما تتجاوز أمها عمر الأمومة أو حتى بعد وفاتها، فكل طفل يبكي سيكون في مخيلتها في حضن أمها ينتظر مواساتها!

سمعت بيناه هي أيضاً صوت بكاء هذا الطفل الأصغر عمراً من كلتيهما، فهما في عمر الأخت الكبرى، في عمر الأمهات الصغيرات في قريتها. إن هذا الرضيع أضعف من كلتيهما. تمخطت بيناه بأصابعها، وتحاملت على نفسها لكيلا تبكي أبداً. استمر الرضيع بالبكاء. أظهرت بيناه أنها تستطيع أن تقف ثابتة كفتاة كبيرة، وأخذت تتنفس بصعوبة، فقد كان

ألم فمها قد اجتاح وجهها كاملاً، ولكن هذا الرضيع أخذ يذكرها بأوامر التاجر. هذا الصغير حديث الولادة ينتمي إلى القافلة لذلك يتوجب عليهما كفتاتين بعمر سبعة أعوام الذهاب إليه أيضاً.

تم شراؤهما معاً هي وبيناه هذه المرة أيضاً. ومشتا هذه المرة أيضاً بلا سلاسل بين الحراس؛ رحلتا وتابعتا طريقهما. *لن أترك يدك.*

سارتا مع هذه القافلة فوق أرض السودان المفتوحة نحو السماء الواسعة والمدنسة بالمقايضات والتهريب. مشتا وفهمت بخيتة أن وقت الهروب هو مجرد وقت ضائع وأنها تنتمي إلى عالم العبيد، إلا أنه ما زال يوجد بصيص من الأمل يمكّنها من التماسك في الحياة. فمن الوارد أن يمروا عبر قريتهم، ومن الممكن أن يلتقوا بكيشمه، فهم لن يمضوا حياتهم على الطرقات. سينتهي المسير يوماً، وسيحدث شيء مختلف يوماً ما، ولن يكون هذا الشيء أسوأ مما هما عليه، فالأسوأ قد حدث فعلاً! تبعت بخيتة طريق القافلة الطويل المتعرج والخطير كرسومات الثعابين التي كان يرسمها أخوها لإخافتها، فقررت أنها لن تعود لتخاف مرة أخرى من الثعابين؛ فالثعبان الذي جعلها تصرخ ليلاً وهي مسجونة في كوخ الراعي، سيكون هو الأخير؛ فعدم الخوف من الثعبان هو هزيمة له. طمأنها هذا القرار على نحو غريب، فاندهشت من نفسها، وأرادت أن تخبر بيناه، لكن الكلام ممنوع، وهما لا تقويان أصلاً على الحديث. كل شيء مركّز على المشي وعلى الشجاعة الواجب امتلاكها لمتابعة المشي. وبرغم هذا السجن الذي جعلها في مرتبة أقل من الحمار، كانت هذه الرغبة التي اجتاحتها كوعد قطعته على

نفسها ألا وهو أنها ترغب في الحياة. هذا التفكير ملكها وحدها ولا أحد يمكنه سلبها إياه. رأت العبيد المتروكين للصقور والضباع، ورأت العبيد الذين لا يمكن بيعهم وأولئك الذين تم بيعهم بثمن بخس للفقراء. لم تدرِ إن كان يمكن بيعها مقابل المال أو بالماعز، أو بأربع دجاجات أو بالملح أو بقدور من النحاس أو بقلادات أو بمآزر أومقابل دَين أو خراج. هي لا تفهم مقابل ماذا قد يتم تبادلها لكنها تعلم أمراً واحداً: هي لا ترغب في الموت وحيدةً على قارعة الطريق، لذلك فقد أطاعت الأمر، ومشت وركزت جهودها؛ إنها برفقة بيناه وقد نجت من الحظيرة والراعي، وهي تمشي ولديها صديقة وحياة أخرى خاصة بها تتعلق بها بقوة أكبر من تعلقها بهذه الحياة.

لكن ما زال هنالك ذلك الطفل الذي يبكي، فأمه لا ترعاه جيداً، فهي صغيرة السن، وهو طفلها الأول. لقد خشيت كثيراً من أن يتوقف الحليب عن السيلان من ثدييها عندما أضرمت النيران في كوخها، هذا ما فهمته بخيتة من بين الأحاديث المتبادلة في القافلة. لقد أضرم النخاسون النيران في قريتها تماماً كما فعلوا في قرية بخيتة. في الحقيقة القصة هي نفسها، فالعنف يتكرر في كل مكان حيث نيران البنادق والمشاعل، النيران التي تشتعل في الأكواخ بمن فيها، النيران التي تأتي على الحيوانات والأشجار والحقول، إنها النيران التي تهب سريعاً لتسبق الحياة نفسها.

ذلك الرضيع الذي ظلّ يبكي حتى إنه للحظة ما، منع بخيتة من التنفس، ولم تعد تقوى على السير بتوازن ولم تكن وحدها التي تعاني، إنه

ذلك الطفل الموجود بين كل هذه السلاسل، بين كل هذه الصرخات والجلدات وكل هذا الصخب، لم تكن تسمع سوى صوته. حملته أمه على صدرها محاولةً هدهدته، لكنه كان يهتز بقوة إلى حد أنه كان يقفز في مكانه. كانت الأم وهي تهز طفلها تضغط على ثدييها محاولةً إخراج الحليب وأخذ الرضيع يلتقط الحلمات ويتركها، وهو يصرخ، ومن ثم يعاود الكرة فيعض بفمه ويضرب برأسه على صدر أمه، ويعود ليلتقط الحلمة، وسرعان ما يبكي من جديد. كان هناك حارس بالقرب منها، وهو رجل قصير القامة لحيم الجسد كقطعة من الحجر، قام بجلد الأم ليتوقف صراخ رضيعها: "أرضعيه، أرضعيه!" صرخ الحارس بها. كان شاباً ولكنه بعمر يسمح له بأن يكون أباً وربما فعلاً لديه أطفال، وفي الواقع أنه مرتبك من صراخ الرضيع. فكرت بخيتة أنه من الممكن أن يكون خائفاً فقد خُيّل إليها أنها رأت شيئاً من الخوف في قسوة هذا الرجل.

امتدت يدان نحو الأم ومن ثم عاودتا النزول. كانت النسوة ينظرن إلى الرضيع، ويُشحن بنظرهن بتقطيبة مليئة بالألم. بعضهن كن مزعوجات كالحارس وقلقات أيضاً، فهن يعرفن القصة المكررة والمخيفة المكتوبة مسبقاً، ثم ظهر ذلك الصبي الذي تبدو عليه أمارات الغضب، ولو أن الحارس كان قد رآه لكان أحرقه في مكانه، كانت لديه جمجمة محلوقة ووجه قوي عنيد ولطيف في الوقت نفسه. كان وجهه أشبه بوجه أخ كبير جاهز للقتال، إلا أنه يحمل أيضاً شيئاً من الحنان الرقيق الذي يثقل كاهله.

مشوا ساعة أو ساعتين، بعد ذلك وصلت القافلة إلى مكان قريب من حقول مزروعة، إذاً من المفروض ألا تكون القرى بعيدة عنها. أطلقت الأم ضحكةً صغيرة أشبه بالبكاء وهي ما تزال تهزّ رضيعها ظانةً أنها تهدهده، كانت تدير وجهها في كل الاتجاهات من شدة الذعر، وبالت تحتها فأخذ خط من البول يسيل على فخذها دون أن تشعر. أخذت تبحث في كل ماحولها وفجأة ركضت نحو الحارس فقد رأت الماعز فأخبرته أنها ستفعل ذلك سريعاً، ولن تؤخر القافلة عن مسيرها وستعود راكضةً إلى مكانها. دفعها الحارس بضربة من كوعه في صدغها، فابتسمت قليلاً فذلك لم يثنِها عن مأربها، ويقال إنها لم تر ما يجري، ويقال إنها فقدت عقلها. فهي كانت معهم وبعيدةً ومنفصلةً عنهم كثيراً. عادت إلى الحارس مع رضيعها الذي يبكي وأخبرته أنه لو أن ابنها كبر فيمكنه أن يستفيد منه كثيراً. نظرت إلى العبيد منتظرةً التأييد منهم، نعم إنها لفكرة جيدة، إن رضع الطفل الحليب من الماعز، فلن يموت وسيكون سعره غالياً. ولكن لم يعتقد أحد أنه بالإمكان أن تتوقف الحافلة لكي يرضع الطفل من الماعز. تفوه الشاب الغاضب بعنف ببعض الكلمات التي لم يفهمها أحد، كان صوته يرتعد من العنف، ويضرب بالحجر وينطفئ. لم يجلده الحارس فأعاد الشاب كلامه ثلاث مرات، كرر هذه الكلمات التي لم يفهمها أحد، كررها ثلاث مرات وهو ينظر إلى السماء، ولكن السماء لم ترسل له سوى الشمس الحادة. كانت بخيتة وبيناه تمسكان بأيدي بعضهما بعضاً، وهما خائفتان بحكم عادة الخوف البشري. كانت معدتاهما تتقلصان من فرط الذعر، فهناك نذير شؤم يطوف في الجو ويسممه. نظرت امرأة شابة يبدو أنها في عمر أمها، نظرت إلى الأم،

وقالت لها بصوت منخفض: "*آسفة*، عذراً" وهزت رأسها حزناً، ذلك لأن الأم الشابة التي هي في عمر أخت بخيتة الكبرى، أي في عمر الرابعة عشرة على الأكثر، لم تفهم ما الذي يجري.

مرت القافلة بالقرب من العنزة وأمام الحقول والساقية، وأصبحت بعد ذلك الأرض قاحلة وما زال الجميع يسمع بكاء الرضيع، كما لو أنه أنشودة قديمة. كان البكاء ممزوجاً بنواح أمه. ذلك الصوت كان يلف العبيد، ويصم آذانهم فسيطر عليهم شعور بالضيق. بدأ بعضهم بالبكاء بصوت منخفض شاعرين بعجز هذه الدموع التي لا تستطيع تغيير شيء. مشى الشاب الغاضب متجهاً إلى الأمام أكثر من الآخرين كما لو أن ذلك كان يساعده على احتواء نوبة غضبه. كانت عيناه تنظران إلى الأمام، ويصرّ على أسنانه كما لو أنه يحبس فريسته. لم يكن التعب بادياً عليه. فكرت بخيتة أنه يمكن أن يكون أخاً كبيراً جيداً وابناً كبيراً. ولكن النظر إليه سبب لها ألماً أكبر من استماعها إلى بكاء الأم وابنها. سيصلون قريباً وهناك شخص لطيف سيشتريها، شخص يقدم لها الحليب، هذا ما أخبرت بخيته نفسها به. لن تدوم هذه الحال طويلاً. بعد قليل رأت الهضبة، وهذا ما طمأنها. تغير المشهد الطبيعي أمام ناظريها وهذه كانت علامة جيدة، سيصلون قريباً إلى مكان آخر، ربما إلى قرية. ولكن الهضبة أصبحت جداراً وقد وصلوا إلى أسفل الهضبة، ولم يتغير المشهد من أمامها بل ظل كما هو. رفعت بخيتة رأسها لترى الهضبة كاملة، وكادت تقع فالهضبة كانت بالغة الارتفاع ومليئة بالحصى. يقال: إنها كانت صخرة كبيرة، وتكسرت لتصبح على هذه الشاكلة. مشوا عراة الأقدام على هذه الصخرة المتفتتة. نظرت بخيتة إلى الأم

التي كانت تمشي وهي تنظر إلى رضيعها، وقد خفّ بكاؤه قليلاً، بل كانت تتأوه رافعةً رأسها لتتلقى حريق الشمس التي كانت أشبه بشعلة مصوبة نحوها. كانت بخيتة وبيناه تدعمان بعضهما بعضاً، وتمسك كل منهما بذراع الأخرى أو بيدها أو بقبضتها، تمشي الواحدة منهما، وهي مطرقة برأسها. حتى الحراس وجدوا صعوبة في المشي فأخدوا يجلدون العبيد دون صراخ بل كانوا يصرّون على أسنانهم، وعندما يتوقفون للشراب كانوا يرون في نظرات بعض العبيد الرغبة في قتلهم. كان العطش يؤلم حتى في الأماكن التي لا تعرفها بخيتة، أماكن داخل جسدها أخذت تتقلص، وآلمتها رجلاها إلى درجة أنها أحست أنهما لم تعودا لها. نظر الشاب الغاضب إلى الرضيع وهمهم بصوت منخفض بينما انبعثت شرارات الغضب من عينيه.

عند الهضبة عاود الرضيع البكاء، فأوقف رئيس القافلة المسير فجأة فتعثر العبيد المقيدون وتضاربوا الواحد بالآخر، وصدرت عنهم ضجة الحديد الحار. صرخ الرئيس بالأم قائلاً: "أسكتي هذا الأبله!" نظرت إليه الأم بدهشة، ووضعت ثديها في فم الرضيع بيد مرتعشة. صرخ الرئيس معقباً: "لم أعد أحتمله، لم أعد أحتمله!".

بكى الرضيع بصوت أقوى، فحاولت بخيتة التكلم معه برأسها، وأرسلت إليه إشارات لتهدئته وهمست بكلمات لطيفة ومذعورة، بينما كانت الشمس تضرب بقوة لدرجة أن الهواء كان يهتزّ جاعلاً كل الأشياء تبدو وكأنها تطفو كما كانت قبلاً. اقترب الرئيس، وقال إنه سيجعل الرضيع يسكت، سيجعل طفلها الضعيف يسكت، لكن الأم لم تصرخ عندما أخذه منها.

لم تصرخ بل فتحت فمها مكشرة وجهها كله، فبدت وكأنها ترتدي قناع المحاربين. أين توجد القوة التي تخولها أن ترتمي على الرئيس لتستعيد طفلها؟ إنها صغيرة في العمر ونحيلة ولا يمكن التفكير في أنه باستطاعتها امتلاك الكثير من القوة، فكانت صرختها أقوى منها، وضربت رئيس القافلة على وجهه بعنف كبير. كانت قوية ولكن ذلك لم يكفِ لاسترداد طفلها. حاولت اللحاق به فقفزت واندفعت نحوه لكن الرئيس تراجع ضاحكاً وأمسك الطفل من قدمه لوح به في الهواء كما يلوح بحبل لالتقاط حيوان ما. تقيأ الطفل، وأفلته الرئيس ليضرب بصخرة. تشنج الطفل ونزفت عيناه، وأخذ ينتفض كسمكة أخرجت من النهر. ركعت أمَة على ركبتيها، وأخذت تصلي، وهي تنوح وبكت الأخريات، وهن ينظرن إلى السماء.

لم تفهم بخيتة ما يقولون ووجدت صعوبة بالبقاء واقفةً، شعرت بأن بيناه تمسك بيدها، شعرت بذلك ولم تشعر بأي شيء آخر. لم تفهم ما قالته الأم التي طلبت من الرئيس أن يقتلها هي أيضاً، ركعت وهي تتوسله: "اقتلني! اقتلني!". لم تعد بخيتة تفهم معني ذلك. الحياة والموت، هل يتوجب على المرء حقاً البقاء *هنا*؟ لم تفهم ماتراه. كان ما جرى صاعقاً حتى إنها لم تفهمه.

صرخت إحدى الإماء بالرئيس متفوهةً بكلمات غاضبة وفعلت أخريات مثلها، فاشتعلت شرارةً من الغضب وضج المكان باللهجات وبالصلوات وبالعصيان. فرفع الرئيس سوطه وجلد الأم حتى وقعت على ركبتيها، واستمر بجلدها حتى لم يتبق منها سوى جلد ممزق. فجأة التزم

الجميع الصمت، ولم يعد يسمع سوى صوت فحيح السوط والأنفاس المتسارعة الصادرة من الرئيس الذي تعرق وامتلأ بالغضب. انتفض جسد الأم، وتمزق تحت الجلدات واصطبغت الحجارة باللون الأحمر ورنت في السماء خفقات أجنحة الصقور التي نزلت إلى الصخور مقرقعة بصوت ثقيل وبطيء محركةً بأجنحتها الهواء الحار. انحنى الشاب الغاضب إلى الأمام وأخذ يتقيّأ فاضطر الرجال المسلسلون به لأن ينحنوا بدورهم، فبدوا كأنهم يركعون. أحس الشاب الغاضب بالضياع فثورته لم تؤدِ إلى شيء، وهو يعلم أنه لن يكون فخوراً بنفسه؛ فهو ذلك الشخص الذي لن يطلب منه أحد العون! *إلى الأمام!* أمر الرئيس بمعاودة المسير. بكت بخيتة بين ذراعي بيناه فهي لم تقو على إطاعة الأمر. نظرت إلى السماء راجيةً أن تقرأ إشارة في مكان ما، أرادت أن يأمروهم بحفر الأرض لدفن الأم وطفلها، كم رغبت أن يأمروهم بالغناء. أرادت لو يفعل الرجال أي شيء هنا بين الصخور. *إلى الأمام!* عاودت المشي كالآخرين وأطاعت، ولم تعد تدري أين هم الموتى؟ وأين هم الأحياء؟! لم تعد تدري في أي جانب هي الحياة.

بعد ثلاثمئة كيلومتراً من المشي وصلت القافلة إلى مركز السودان، وهو المركز الكبير للقافلات في العُبيد عاصمة كردفان. تعيش المدينة من تجارة اللبّان العربي الذي يتم جمعه من شجر الأكاسيا، ويحضره معه العبيد المتجهون إلى مصر وإلى البحر الأحمر. وصلت بخيتة إلى هذه المدينة وهي منهكة، واحتفظت منها بذكرى الضجيج. بعد عدة أشهر من المشي وصلت إلى الأسواق والأذان للصلاة والحشود من الناس والحيوانات، كل هذا شكل مفارقة عنيفة لديها. ستذكر من هذا المكان الضجة العميقة من قرقعة

الحديد وأصوات الناس، كما لو أن كل شيء يتكسر. كانت فوضى لم تفهم منها شيئاً. شعرت بالعطش وبالألم وتشنجت عضلاتها كلياً كما تتقلص الأوراق الجافة في شجر الباوباب، فتصبح قاسية ومحروقة. لم تعد ترى العبيد الذين مشت معهم بل شعرت بهم من حولها، ولمحت ظلالهم ولهاثهم الذي يتبع خطواتها ويتوقف عندما تتوقف! لقد تحولوا إلى حيوان واحد أسود ومنحن، حيوان وحيد وجريح. قضى ثلث العبيد نحبهم على الطريق، وظل وجود بيناه الشيء الواقعي الوحيد.

في سوق العبيد كانت أصوات الحيوانات شبيهة تماماً بصراخ البشر في هيجانها العنيف، فهذا يصفر، وذاك يقرع، وغيره ينادي في الهواء الرطب. كانت الروائح تختلط بين الطبخ والتبغ والروث والبهارات والخراف المشوية. كان كل هذا يضيّق الصدر، ويثير الاشمئزاز. كان الغبار منتشراً في كل مكان بسبب الأرض التي تحركها الرياح وأرجل الحيوانات، إضافة إلى لرجال الذين يجلسون القرفصاء بالقرب من بضاعتهم وقتاً غير محدود في انتظارهم الأبدي. تمتد المدينة ضائعةً بين الأرض الرمادية والغيوم الخالية من الأمطار، إنه مكان عبور مليء بالريبة وبالتهريب.

وجدت بخيتة نفسها مرمية في ذلك المكان مع عزائها بأنها قد وصلت، ومع ضيقها من أن تصبح جزءً من هذه الغوغاء. كانت تشعر بالعطش مثل باقي العبيد فهم منهكون ومرضى ويتساءلون: ما الذي سيجري؟ تم تقييدهم بالسلاسل، وظلوا ينتظرون ساعات تحت الشمس دون أن يعرفوا ما الذي ينتظرهم. ذهب حراسهم ليستعيدوا قواهم وليتحدثوا مع المسؤولين، وليمثلوا أمام الفقيه فيتم ترتيب أعمال اليوم. بعد

عدة ساعات قدموا المياه للعبيد الذين كانوا يعرفون أن ذلك لم يكن من منطلق إنساني، بل خوفاً من أن تضيع البضاعة، ومع ذلك فقد شكروهم. أخذ بعض الرجال يمرون من أمام العبيد، ويراقبونهم ويقيّمون بنظراتهم هؤلاء الواصلين الجدد. كان أحدهم رجلاً قوي البنية كثير التجاعيد ذا كرش ضخم منتفخ من تحت عباءته، اقترب من بخيتة، وهو يمسد شاربه فبدت منها خطوة صغيرة إلى الخلف، ولكن سريعاً ما صرف نظره عنها مأخوذاً بصبيين صغيرين نائمين الواحد قبالة الآخر. نظر إليهما للحظة وهو صامت ثم تراجع وابتعد بكل بساطة وهو مايزال يمسد شاربه.

كانت بخيتة خائفة كباقي العبيد، ذلك لأن شيئاً خفياً وفاسداً هناك يجري في كلّ نظرة وفي كل لقاء. ولكي تعتاد على خوفها أخذت تستلهم القوة من مراقبة الحياة من حولها. فهي تريد أن تفهم أين هي حقاً، هذا العالم المنظم من العبيد برجاله المسلحين الذين يمرون قبالتهم دون أن يوجهوا إليهم نظرة، وأولئك النسوة المحجبات المحملات بالأغراض اللواتي لا يمشين وحيدات. وهؤلاء الأطفال الجنود الذين يمشون ببنادقهم التي هي أطول منهم. من ثم رأت مرور أطفال آخرين أصغر عمراً وهم، على غرار أطفال أولغوسا، يقودون القطعان إلى الحظائر. لم ترغب في التفكير في قريتها أو في هروبها الفاشل، بل ركزت قدر استطاعتها على الحاضر، وهي مقيّدة إلى بيناه، وتمشي في ازدحام العبيد المنسيين تحت الشمس. كان التفكير بأسرتها يمنحها في الماضي القوة لكي تهرب، أما الآن فإن هذا التفكير يجلب لها أسىً بالغ الثقل على روحها.

منذ مغادرتها الطويشة علمت أن هذه المدينة ليست مكاناً وادعاً، فالجميع هنا تجار وحراس للعبيد، أو عبيد أو نساء أو أطفال للعبيد أو عبيد للعبيد. إنها حياة قائمة على التدرج بين الناس وجميعهم تحت إمرة الكاهن، وهو نفسه تحت إمرة التجّار الكبار. فالاحترام يحظى به الأغنياء ورجال الدين. هنا لا يحمل الرجال ما جمعوه من القرى المعرضة للغزو فحسب، بل يحملون أيضاً ما انتزعوه من الفيلة والحيوانات الضارية، فأضراسها وأنيابها وأسنانها الصفراء تُباع بأموال طائلة وبالذهب. يقوم هؤلاء الرجال بحفر الأرض والأشجار، كما أنهم يبيعون البشر والقرون والجلود والملح واللبان والنحاس فهم من ينهب هذا العالم. كانت بخيتة تسمع صخب الجموع التي تضرب الخشب لتصنع حظائر للحيوانات وللبشر المتساوين في سجنهم وبراءتهم.

بعد ساعات بدا أنها لن تنتهي، جاء الحراس لإحضارهم. حل المساء وهبط البرد حاملاً معه الظل الذي بقي يلازم بخيتة، كما لو أن اختناق النهار لا يمكن أن يتبعه سوى برد لاحد له. العنف يطغى على كل الأشياء دون أي تنازل. بدأ التاجر والحراس والمسؤولون بالفرز، فوضعوا النساء في جانب والرجال في جانب آخر، كما وضعوا الغنائم في جانب والأغراض عديمة الفائدة في جانب آخر. خشي العبيد من التفرّق فحياتهم على المحك من جديد. شرب الحراس الماء، ودخنوا التبغ، وأصدروا أوامرهم القاسية وغير المفهومة والمتناقضة. كانوا على عجلة من أمرهم فلم يعودوا يتحملون المزيد من الرعاية لهؤلاء العبيد، وقد تكبدوا عناءهم طوال كل هذه

الكيلومترات، ويكنّون لهم الكره بسبب هذا العمل الذي لا ينتهي؛ لذلك سيطر على المكان جو من الحنق والإحباط.

أخذ بعض الفضوليين يتابعون الفرز وكل ما يسببه من ضجة ومن فوضى. وتعرفت بخيتة من بينهم على الرجل ذي الشارب الرفيع والكرش الضخم. اقترب الرجل وتحدث للحظة مع المسؤول الذي يبدو أنه القائد العام؛ وسرعان ما أصدر أمراً بصوت حاد وبكلماته المختصرة فأطاعه الجميع بسرعة. أحضر الصبيين الصغيرين اللذين كانا نائمين قبالة بعضهما البعض قبل بضع ساعات من موعد النوم، فبدا عليهما الخوف. لطالما كان مخيفاً أن يتم اختيار المرء من بين الآخرين. تملكهما خوف غريزي من أن يجلدا بعنف، وخوف من أن يتم إبعادهما عن المجموعة، كما لو أن وجودهما معاً يشكل لهما نوعاً من الأمن. ولكن الرجل الذي كان مقاولاً صغيراً، أراد الصبيين معاً. أخرج ماله فدفعه المسؤول بغضب، لكنه عاد من جديد وبدأ بالشجار، وهي لعبة معتادة يمارسونها طوال الوقت. تأوه الصبيان الصغيران وهما ينظران إلى العبيد من خلفهما، فوالداهما ليسا موجودين بينهم، ومع ذلك فهما لا يرغبان في الافتراق عنهم. أخذا يحكان فخذيهما وذراعيهما ويشهقان وقد استولى الذعر عليهما. وأخيراً عندما حل الليل تقريباً، في هذا الوقت قبض المسؤول أجره وقدم للرجل أحد الصبيين. وقام بحذف الصبي من قائمته كإجراء اعتيادي فلن يرى التاجر الكبير شيئاً مما جرى. تابعت بخيتة المشهد وفهمت أن الصبيين شقيقان فتحضرت للصرخات والبكاء والمقاومة، ولكن الصبي الصغير الذي لم يتم شراؤه لم يقل شيئاً، بل أخفى وجهه براحة يده، وانحنى نصفين برفق وترك نفسه

يقع، وينثني على نفسه بلا أي ضجة. كان جسده يرتعش فوق الأرض الناعمة، ومازالت ذراعه تغطي وجهه، كان يرتعش ويهز الغبار. قام الحارس برفعه بحركة واحدة فالطفل لم يكن ثقيل الوزن، أوقفه على قدميه ورماه بين الرجال في مجموعة الغنائم فتلقفه عبد بين ذراعيه كما يتلقى كرة مرمية بيديه المفتوحتين. بدا لبخيتة أن الصرخة التي سمعتها من بعيد لم تكن صرخة حيوان ولا صرخة إنسان ولا صرخة الأخ الثاني، بل هي صرخة ألم صاف ينادي من وراء جدار الإنسانية؛ إنها صرخة الكائنات المتباعدة بعضها عن بعض، كل ما أرادت حفظه مما جرى هو مشهد الطفل الذي تلقته يدا العبد.

كانت ضائعة وتمسك يد بيناه التي تسحبها في مسيرها. التقتا بمجموعة النساء ذوات المزايا الجيدة. يجب تنظيفهن بدلاء كبيرة من الماء، يجب تغذيتهن وتركهن لتستعيد الواحدة منهن قواها. أما المجموعة الثانية فكانت تخص المرضى الذين سيتم علاجهم قبل أن يعرضوا على بعض البدو. أما المجموعة الثالثة فكانت تخص العجائز والضعفاء الذين تم دفعهم داخل حفرة، وفي هذه المجموعة الأخيرة كان يوجد الشاب الغاضب ذو النظرات الحارقة.

لدى رحيلهم من الهضبة بعد تركهم الأم وطفلها، تقيأ الشاب وأخذ يبكي كطفل صغير، لم يعد يشعر بغضب أو بعزة نفس أو بعمره، بل شعر بيأس شديد سبّب الخجل للرجال المقيدين معه. طلبوا إليه أن يتمالك نفسه. لكنه لم يكن يسمعهم، كان طويل القامة وتوجب عليه أن يكون مدرباً على الوقوف، لا سيّما أنه منذ مدة طويلة لم يعد ينام في كوخ أمه. كان يبكي وهو

يصرّ على أسنانه ربما كان يعاني من الحمى، حمى خطيرة جعلته يتجمد برداً من الداخل. اصطف الحراس لجلده كل بدوره حتى أصبح الأمر اعتيادياً. كان الجلد بالسوط موجهاً إليه وحده، ضربةً بعد ضربة كانت ترافق مسيره. كان يتقدم منحنياً ومثنيّ الركبتين ومباعداً ذراعيه عن جسده المكسر. بعد عدة كيلومترات من المشي كانت القافلة تنزل إلى الطرف الثاني من الهضبة، وبعد أن انفصل لحمه عن عظام أكتافه، وتمزق الجلد في ظهره، قامت جلدة بانتزاع عيني الشاب الغاضب الذي فقد إحساسه بالغضب منذ وقت طويل.

في مدينة العُبيد، خلال عدة أيام قُدم الشراب والطعام للعبيد. تم غسلهم وجزّ شعورهم أو ضفرها وتم التخلص من قملهم وتقليم أظافرهم وإلباسهم مآزر. وُضعت ضمادات على جراحهم وزيت النخيل تحت أقدامهم، وقُدمت إليهم الأعشاب المرة لشربها والجذور الأرضية لمضغها، وسُمح لهم بالنوم، فأصبحوا الآن مستعدين للبيع.

ذات صباح عُرض العبيد على الممشى الكبير، وكان يوم البيع يوماً منتظراً ومهماً. زُجّ العبيد في عنبر فافترشوا أرضاً غير مستوية، وقبعوا منتظرين بسلاسلهم وبصمتهم، فبدا عليهم الخضوع إلا أنهم مرعوبون في داخلهم. جلست بيناه إلى جانب بخيتة، لم تكونا الفتاتين الصغيرتين الوحيدتين، لكنهما كانتا الوحيدتن المتلازمتين طوال الوقت والجميع يرى ذلك كنصيب لصيق بهما. كان ضجيج الحيوانات والرجال الذين يتصايحون صاخباً يملأ المكان، إلى جانب قرع الطبول والأذان إلى الصلاة. إلا أن كل هذا كان صامتاً لدى بخيتة، اختفت روائح الجلود المدبوغة والقهوة

والنعناع والحديد المحروق. وقفت نصف عارية معروضةً للبيع لم تكن تسمع ولا تشم شيئاً من هذا الواقع. في الصباح الباكر حلّق خيالها عالياً كعصفور حرّ غريب عن مدينة العُبيد. أمسكت به براحتي يديها ورمته إلى أعلى ممشى العبيد، ورأته يرقص في السماء كشراع يضرب في الهواء، تبعته بفضول فقد كانت تمتلك هذه القدرة على التخيل في مكان آخر. تستطيع الهرب من جسد ينتمي إلى كل شيء لكي تعيش حياتها السرية. كانت جالسة في العنبر وتتخيل ذلك العصفور في الوقت نفسه. بالطبع هي تسمع أحياناً أصوات الرجال تقول "*جميلة*". كانوا يعاينونها ويتفحصونها وهي تتقدم وتفعل ما يطلب منها فعله كالعادة. تمت معاينتها من الأمام ومن الخلف، بسرعة وببطء بينما كانت تطرق بنظرها منزلةً رأسها بهدوء دون أن تبدي أي تعبير. كانت صبورة ومطيعة فقد كانت الأيدي التي تتلمسها أحياناً سميكة أو مبللة، وأحياناً كانت تشعر بإصبع واحدة تربت عليها، وتتفحص كل نقطة من جسدها كالمنقار. أخذت بخيتة تفكر بالسماء الصافية، فأضافت إليها غيوماً بيضاء من أجل عصفورها، فرسمت وأضافت صفات جيدة. طُلب إليها أن تتكلم فتكلمت الأمر الذي أضحك بعضهم فابتسمت. حطت بعض الذبابات على شفتيها فأغلقت فمها. قامت عصا بمباعدة قدميها عن بعضهما، فأضافت بمخيلتها عصفوراً جديداً في السماء جاء ليلتقي بعصفورها، فتساءلت عما يعنيه هذا. "*هذا ما يباع بشكل أفضل، بئس الأمر لك*". عادت إلى مكانها، ولكنهم استوقفوها من جديد فعادت لتتخيل العصفور الثاني، لكنها لم تتمكن من التركيز في رأسها وسرعان ما اختفى كل شيء.

بعد انتهاء عرضها للبيع تبدد خيالها وسمعت من يقول:

- بكم هذه الزنجية؟

أشار رجل في الزحام إلى فتاة شابة جميلة ممتلئة القوام قاسية الأفخاذ. كان الرجل الذي يسأل عن سعرها عبداً بدوره؛ كان جندياً مدججاً أتى في ذلك الصباح لشراء امرأة لترافقه في رحلة إلى الريف، وتخدمه في المنزل وتنجب له الأطفال. كان قد أنجب أحد عشر طفلاً من امرأتين غيرها فهو رجل محترم. مشت الأَمَة التي أشار إليها بين رجال الميليشيا، بينما أخذ الرجل يتباهى بقوته وبسيطرته. هي تعلم أنها إن أصبحت زوجة الجندي فهي ستنجب أطفالاً سيخدمون في الجيش، أطفلاً لا يتم سبيهم، وعدد قليل من العبيد يحظون بهذه الميزة. كان الجندي كبيراً في السن، نظر إليها بعينين نصف مغلقتين وبفم جاف. اقترب منها فشمت رائحة التبغ البارد والبيرة، تردد وطرق بلسانه على أسنانه ثم لمسها قليلاً، وفجأة طلب رؤية فتاة أخرى أصغر سناً، ربما في الثانية عشرة من عمرها تكون بالكاد تكونت بأنوثتها.

- تلك الفتاة هناك، إنها حبشية وهي أغلى ثمناً؛ قال التاجر.

عادت العبدة الأولى مع الأخريات، فهي كانت أقل جمالاً من الحبشيات اللواتي كنّ الأكثر والأشهر سمعةً. لم تكن شابة كفايةً لتتأهل للدخول في قسم الحريم، إلا أنها أجمل من أن تذهب للخدمة المنزلية أو لتعمل في المطبخ أو التنظيف، كما أنها أضعف من أن تعمل في المناجم وهي تنتمي إلى فئة العبيد ذوي القيمة. ربما قد يأتي جندي آخر لشرائها وربما ستنجب أطفالاً يبقون بالقرب منها طوال حياتها. ذلك هو الأمر الوحيد

الذي تفكر فيه، وهو الأمل الذي اخترعته، لأنه من الضروري أن يمتلك المرء أملاً ما، وأن يمنّي نفسه باحتمال وجود حياة ملائمة له. ولكن الجندي كان قد تفاوض فعلاً مع التاجر، وانتهت الصفقة سريعاً. فما إن طلب منها أن تمشي وتسجد حتى دفع ثمن الحبشية؛ فهي لم تكن الأكثر جمالاً فحسب بل كانت أكثر صحة وهو كان سعيداً بشرائها، وعزم على إحضارها إلى سريره منذ الليلة. اثنا عشر عاماً... ابتسم رغماً عنه. اقترب شاب مالك للأراضي ونظرإلى الجندي الذي سيشتري الأمَة، وتعرف إلى أصل الفتاة، وشعر بالاحباط قليلاً؛ فالجندي حتى وإن نزل السعر، وغن أعفي من الضرائب، لا يمتلك شيئاً ليدفعه؛ لقد يتمكن فقط من شراء فتاة صغيرة كونه ينفق كل مدخراته على الحقول، وما إن يدّخر بعض المال جانباً حتى ينفقه على تجديد المعدات، لذا لا يمكنه سوى شراء بعض العبيد العجائز الذين سيموتون بعد عدة سنوات. منذ أن قامت الحكومة البريطانية، تحت حكم غوردون باشا وبخدمة مصر، بمحاولة القضاء على تجارة الرقيق، أصبحت هذه الأخيرة في أوجها، وأصبحت عمليات التهريب كبيرة، ولم يعد المهربون يسلكون طريق النيل عبر القطارات لكي يحضروا العبيد أو العاج على طول النهر؛ بل أصبحوا يبحثون عن البضاعة الأكثر بعداً في أوغندا وفي جنوب السودان وفي جنوب إقليم دارفور. تعد دارفور مكاناً جيداً للتجارة ولكن الذهاب إليها يتطلب اجتياز الصحارى وقطع الأنهار التي من المستحيل قطعها، فمن يقوم بذلك يموت على طريق الذهاب أو الإياب. ذلك لايمنع من أن البلد ممتلئة بأناس للبيع، بينما هو لا يملك فتاة واحدة في سريره. عاد أدراجه صفر اليدين وهو يشعر بالسأم وبالغيرة. قام

التاجر بتوقيف بيناه، فهناك رجل غني يقوم بتنظيم حفل وقد أتى يبحث عن بعض الهدايا لضيوفه. نظرت بيناه إلى بخيتة، كيف السبيل إلى لبقاء معاً؟ طلبت بخيتة من عصفورها الخيالي أن يحمي صديقتها، تحدثت معه بكلمات بسيطة فهمها العصفور، كانت واثقةً من ذلك وتريده، فحلق العصفور فوق رأسها وفرد جناحيه ليلامسهما الواحدة تلو الأخرى. نظر الزبون إلى بيناه ولمسها قليلاً، كانت متعبةً فعلاً وجميلة، لكنها صغيرة في العمر ولا تدري شيئاً فلن تكون فعالةً... ليس الأمر أن ضيوفه لا يحبون الأطفال لكنه يريد أن يكون حفله القادم فاتناً وجامحاً بالرقص والغناء وبألعاب الغزل، بينما هذه الفتاة تبدو منذ الآن على وشك البكاء. أشار إلى أنه غير راض فقام الحارس باستعادة الفتاة. وقفت بخيتة مترنحة، وشعرت بحركة يد بيناه في يدها، فمزجت هذه الحركة مع منقار عصفورها ورأسه الدقيق، شكرته وخفضت رأسها بدورها. همهمت بيناه بصوت خفيض بسبب مواساتها وتعبها قائلةً: *"لن أترك يدك"*.

استمرت عملية البيع ساعات طويلة، وتحت حرّ لا نهاية له، ومع تعب العبيد الذين يكادون يقعون من شدته. كان الهواء محملاً بالضيق فالاسم الحقيقي لمدينة "العُبيد" هو الضيق، وثقل الألم الإنساني يحطّ بعبئه على كاهل المدينة لتصبح مدينة ملعونة. استمر البيع طوال اليوم مع العبيد الذين تم شراؤهم، ومع عبيد آخرين ظلوا معروضين. إضافة إلى العبيد الذين أبعدوا بعضهم عن بعض وسط توسلاتهم ولومهم الذي لا طائل منه. فكل ما يفعلونه لن يجدي شيئاً، هذا ما ستكتشفه بخيتة لاحقاً. ليس من المجدي أن تصرخ أو أن تبكي، فهو كالغناء الذي لا ينصت إليه أحد،

إنه "غناء المتفارقين". لم ينفك العبيد يشعرون بالقرف من أنفسهم إلى جانب رغبتهم في امتلاك جسد وبشرة ومصير مختلفين عما لديهم وقليلاً من الأمل، ولكن الأمل بماذا؟

حلّ المساء على سوق العبيد ولم يعد العصفور الأبيض سوى نقطة في السماء. كانت بخيتة على وشك فقدانه وأدركت أنها إن أرادت النجاة فعليها أن تجده لتدور على هامش هذا العالم، لكن تركيزها قد نفد. كان لعابها يسيل من عطشها، وعرقها يغطي صدرها وبطنها، بينما كانت أصوات المشترين تقترب مع أصابعهم، وتعلو أصوات المزايدات، وتمر النقود من يد إلى أخرى، هذا يصرخ وذاك يضحك، الكل ينادي بصوت عال، يهزأ ويتباهى ويتبجّح. ولم تزل بخيتة تسمع كلمة *"جميلة"* تتردد؛ إنها جميلة ولكن ما فائدة جمال فتاة صغيرة، إن لم يجلب الفخر لذويها، هي لا تفهم. ازداد الخوف مع التعب لدى العبيد الذين وقفوا جميعهم بلا حراك وبخنوع كما لو أنهم يقفون قبالة بنادق مصوبة نحوهم.

فجأة سمعت بخيتة بيناه تضحك بفرح بالغ، كانت هذه الضحكة أقرب إلى الذعر منها إلى الضحك. لم تفهم بخيتة الأمر فوراً، ثم رأتهم يزيلون السلاسل عنهما فأحدهم اشتراهما معاً. لقد اشتراهما دون أية براهين. كان رجلاً متمدناً، عربياً طويل القامة عريض المنكبين، يبدو شكله كالمربع تقريباً. كانت نظراته تلمع، وهو يراقبهما الاثنتين معاً كما لو أنه قد اكتشف لتوه اكتشافاً ممتعاً. شعرت بخيتة بحركة يد بيناه في يدها. بدت على الصغيرة ضحكة بلهاء وعصبية ورددت قائلةً: "نحن الاثنتان! كلانا معاً!"

كانت تلك نهاية اليوم فرحل العبيد الذين لم يتم شراؤهم إلى المخيم مع الحراس، ولم تتبعهم بخيتة وبيناه.

لم تفهم بخيتة فوراً معنى ذلك، ماذا ستفعلان مع هذا الرجل؟ لماذا اشتراهما كلتيهما؟ إلى أين يقودهما؟ ما من جواب! إنه موقف غامض. فكرت في نفسها بأن بيناه محقة فهما معاً ولا يجب التفكير بأي شيء آخر. مررت يدها بعطف على ظهر صديقتها فتقلص الظهر الصغير تحت تأثير المفاجأة، فابتسمت بيناه، ومن ثم أصدرت أنةً قصيرة لكنها صاخبة. نظرت إليها بخيتة، إنها تحبها وهي تعلم أن ذلك خطير ولكنها تحبها حقاً. نظرت إلى السماء، وشكرت العصفور الذي كان في تلك الأثناء يحلق عالياً ليبتلعه المساء.

خرجتا من الممشى برفقة حارس تاركتين السوق. منذ متى لم تمشيا خارج مسير قافلة ما؟ كانت المساحة مختلفة فشعرتا بأنهما تطفوان في هذه المساحة المشتتة. حياتهما تبدأ من جديد، تساءلت بخيتة في نفسها إن كانت ستلقى أختها في هذه الحياة الأخرى، فارتعشت من هذا الأمل الذي سطع نوره في قلبها.

اجتازتا طريقاً صغيراً ذا أرض مزروعة بأشجار الأوكاليبتوس الصغيرة، وبأشجار النخيل التي تهزها الرياح مساءً. رأتا جدراناً عاليةً حمراء لمنزل ذي نوافذ بلا زجاج ليسمح بضوء الشمعدانات الأولى بالمرور إلى الخارج. رأتا الفسحة الخارجية الواسعة، اقتربتا فبدا لهما المنزل كجبل عميق وغامض؛ أدركتا أنهما ستقطنان هنا وليس في كوخ أو في حظيرة، بل في هذا المنزل، ولكن ماذا ستفعلان في هذه المساحة الفسيحة؟

كانت تصدر من الحديقة روائح الإسطبلات والمداجن وأزهار المنثور. وكانت هناك قطة منزلية تركض على سقف بناء في عمق الحديقة، وهناك منزلان صغيران داخل الحديقة؛ بدا المكان شبيهاً بالقرية. كان الرجال والنساء يمرون مسرعين ببشرتهم السوداء مساءً، فيبدون كالظلال العميقة. هل ستعيشان مع هؤلاء الناس؟

على باب المدخل أسرع رجل أسود في خطاه أمام الرجل وانحنى قائلاً *"سيدي"*. كان صوته قبيحاً، حاداً وطفولياً. فتح باب المنزل على مصراعيه فدخلتا تتبعان السيد إلى الجبل العميق.

لحقتا به إلى الطابق الذي يضم القسم المخصص للنساء. أمسكتا بأيدي بعضهما، وهما تحطان رجليهما العاريتين على الأرض المسطحة والباردة. من الصعب المشي على هذه الأرض دون علامات، وشعرتا بالدوار لدى صعودهما السلم فقد بدا الأمر لهما كركوب إعصار وظنتا أنهما ستقعان، فرفعتا رأسيهما كي لا تريا الانعكاس على الأرض. كان هناك امرأة ترتدي الحجاب على صحن الدرج، أسرعت بخطاها نحوهما، وانحنت أمام السيد، وقبّلت يديه ومن ثم توارت. أما هو فقد تقدم دون أي نظرة أو كلمة، تقدم بمشيته فهو سيد المكان ومالك المنزل. استمرت كل من بخيتة وبيناه باللحاق به طوال الممر الطويل. تذكرت بخيتة الأفعى، وسمّته في داخلها "منزل الأفعى"، وستظل تتحدث عنه بهذا الاسم مستقبلاً، وستبقى دوماً في خشية منه. اجتازتا ممرات مكسوةً بالحصائر وغرفاً بلا أبواب، اصطفت أمامها أخفاف من الحرير. كانت النساء ينتظرن أمام الغرف؛ بينما تمر أخريات حاملات صحيفة وشمعدانات. وهناك النسوة ذوات الصدور

العارية قمن برفع تنانيرهن أمام السيد وأخفين وجوههن لدى مروره، أما النسوة اللواتي يرتدين الحجاب فقد أطرقن ببصرهن. كان الجميع يتنحى مرعوباً أمام السيد. اكتشفت كل من بخيتة وبيناه أشياءً غريبة وكثيرة في الضوء الخافت، فكانت هناك دواوين وأرائك ومقاعد وسجاد ومرايا. صرخت بيناه لدى مرورها بجانب ثعلب الصحراء ذي الشفاه المرفوعة عالياً. كانت عيناه حمراوين وفمه كبيراً ومفتوحاً تملؤه أسنان أشد حدة من الخناجر الصغيرة. لن تمر مطلقاً من أمام الثعلب المكسو بالوبر دون الظن من أنه سيستيقظ ويمزقها إرباً، فهو سيستيقظ في اليوم الذي ستكف فيه عن خشيته، تلك كانت أفكارها الصادمة.

بعد ذلك دخلتا إلى غرفة ابنتي السيد ثريا ورضية اللتين كانتا بالكاد أكبر عمراً منهما. كانتا مستلقيتين على أريكة عثمانية الصنع تأكلان الفاكهة بطرف أسنانهما. كانت الغرفة تحوي نوافذ بلا زجاج ولا خصاص، تطل إحداهما على الهضبة، وتطل الثانية على ساحة السوق التي يصل منها صوت رغاء الجمال وصهيل الخيول. أصبح الآن هذا العالم في الأسفل الذي يقع في قلبه سوق المتاجرة بالعبيد غريباً وبعيداً. فهنا يوجد نور لطيف منبعث من الشمعدانات، نور يرتعش وترقص من حوله البراغش. كانت هناك رائحة ليمون تفوح، رائحة حامضية قليلاً ومحببة. كان بالإمكان أن نرى عبر النافذة الثانية الأشعة الزهرية الأخيرة للشمس، للحظة فكرت بخيتة بكل أولئك الذين مازالوا مقيدين بالسلاسل، أما هي فقد نجت مع أنها لا تدري ممّ نجت!

نهضت كل من ثريا ورضية من مكانهما لدى وصول والدهما مصدرتين ضجة بأساورهما وبضحكاتهما الصغيرة. توجهتا نحو هذا الأخير

الذي بدا عليه الارتياح أخيراً، فقد كان صوته لطيفاً، وتلوح فيه السعادة. أشار إلى بخيتة وبيناه قائلاً:

- انظرا ماذا جلبت لكما من السوق!

هناك دوماً خفقة تشعر بها في قلبها، وعنفٌ يباغتها عند الحديث عنهما بهذه الطريقة، تلك النبرة التي تعبر أكثر من الكلام، هذه الدونية والتصغير لهما كما لو أنهما كانتا صمّاوين أو حمقاوين كلياً! هل ستقول الابنتان *جميلة* أيضاً، تلك الكلمة المقرونة دوماً بالمال؟

- *شكراً بابا*.

فهمت بخيتة هذه الكلمة فهي تعرفها وتجدها جميلة *بابا*. كم ترغب في قولها وفي ترديدها، إنها كلمة جيدة للمساء. رفعت عينيها قليلاً فرأت عبر النافذة الجبل المظلم، وهلالاً شاحباً انتصب على قمته ليعطي هدوءاً كبيراً يتناقض مع الحماس الموجود في الغرفة، فقد كانت الفتاتان تتحدثان بصوت مرتفع وتقفزان وتصفقان.

- إنهما سوداوتان! سوداوتان كلياً!

طلبتا إليهما المشي والدوران، ومرّرتا اصبعاً على ظهريهما وحكتا قليلاً. لمستا شعريهما المجعد مطلقتين صرخات مذعورة؛ هما ترغبان في امتلاكهما حالاً فهدّأ أبوهما من قلة صبرهما قائلاً:

- يجب تحضيرهما! فقد وصلتا للتو من السوق!

لم تنس بخيتة قط تلك الأثناء عندما بدأت الفتاتان بدلعهما: "بابا، اتركها لنا لنلعب بها قليلاً! باباااا.... رجاءً...."، تلك اللحظة التي دخل

فيها. دخل فتجمد كل شيء، حتى الهواء توقف عن الحركة وكما لو أن النوافذ قد أغلقت. اختفت ابتسامة السيد لدى رؤية ابنه سمير، ورمقه بنظرة جامدة، ولاحت على شفتيه تكشيرة ازدراء. فسمير بلغ الرابعة عشرة من عمره، ولم يعد يحق له الوجود بالقرب من النساء. مع ذلك فهو ينام أحياناً في سرير أختيه أو أمه أو بنات عمه. كاد يصبح رجلاً، وقريباً سيترك قسم الحريم لينزل إلى قسم الرجال. كانت عيناه مدورتين وكبيرتين وجاحظتين من محجريهما، أما وجهه فهو مليء بالبقع البنية وبالندوب الناجمة عن حمى الجدري. كان وجهه شبيهاً بساحة معركة، لم يغب قط عن ذاكرة بخيتة ولا حتى رائحته التي تجلب لها الذعر حتى بعد أن كبرت، وانتقلت إلى مكان آخر حتى لدى سفرها إلى قارّة أخرى. تلك الرائحة تشبه رائحة احتراق حيوان نافق مع فاكهة مرة المذاق. إنها رائحة تنبعث من الجلد إلا أنها تبدو كأنها منبعثة من داخل البطن، هي رائحة منسية وراكدة. صمت الجميع ليبوح الصمت بشيء ما! نظرت ثريا، وهي الأخت البكر، إلى أبيها بإلحاح. اقترب سمير ودار من حولهم دون أي كلمة مصدراً تنهدات مستفزة. شعرت بخيتة بالإحساس نفسه لدى شرائها، شعرت بذلك الخوف من تقييمها. قالت ثريا إن أخاها أيضاً سيحظى بالهدية. " أليس كذلك بابا، ألن يحظى سمير بالهدية هو أيضاً؟" لم تفهم بخيتة هذا الكم من الشجاعة فلا أحد يتحدث مع الأب بهذه الطريقة، لا أحد يطلب منه شيئاً. ظنت أن هناك شجاراً سيندلع فخافت. كانت تشعر بالخجل لوقوفها نصف عارية يغطيها العرق وغبار السوق. وخجلت من أن تظهر هذه العائلة عداواتها أمام غريبتين. كان الصمت ثقيلاً وفجأة التقطتها ثريا من ذراعها ودفعتها نحو سمير فارتطمت ببطنه الشحمي، وكانت رائحته نفاذة، وقالت:

- تلك هي الأجمل!

من ثم جعلتها تدور حول نفسها، وهي تتفوه بعبارات طويلة بسرعة كبيرة لم تفهمها بخيتة بأكلمها. كانت تدور كناموسة في النور، رأت الليل المعلق بالنوافذ، كان كل هذا السواد يدور من حولها، وراودها ألم في رأسها جعلها ترغب في القيئ. وعندما أوقفتها ثريا عن الدوران ظلت تشعر بالدوار كما لو أنها رقصت لوقت طويل رقصةً لا تنتهي ولا تهدف إلى شيء ولا إلى أحد، إنها رقصة الأسياد الإجبارية. سال العرق كثيفاً على وجه سمير مصدراً رائحة اللحم الميت، فرأت بخيتة هذا الخيط من العرق على الوجه المشوه، وعادت لتخفض نظرها. ذهبت ثريا لتدرّبها، فهمت ذلك دون أن تدري ماذا يعني هذا الأمر. بعد ذلك ستمنحها لأخيها سمير لتمضية لياليه معها قبل زواجه، لقد فهمت هذا أيضاً، وعلمت ما معناه.

وعلى هذا المنوال بدأت حياتها في خدمة الأسياد وكان هو السيد الأول. كان قائداً عربياً، رجلاً ثرياً يحب أن يشتري ويهرب، وهو يعرف العالم بأسره، والحيل جميعها. هو رجل عقد لوقت طويل صفقات مع الحكومة المصرية عندما كان الغزاة يدفعون لها الرسوم والضرائب، بينما الآن هو يقوم بالتهريب بالتعاون مع الحكومات الفاسدة، الأمر نفسه الذي أسهم في توقيف النخاسة. في بادئ الأمر حصد ثروةً من تجارة العاج، ويفخر بتأهيل شبان صغار خُطفوا من قراهم وأصبحوا شباناً بالغين في صفوف الصيادين غير الشرعيين الأكثر ضراوةً. لم يشارك في أي مذبحة، فهو لديه ملازموه الذين يقومون بذلك. رجال شغوفون يأمرون عبيدهم بسرقة العاج إضافةً إلى الأطفال والمواشي والأغراض وكل ما يمكنهم

سرقته بقوة السلاح. يدرك السيد ثمن كرة البليار أو قبضة سكين أو عقد. ولدى حدوث مجزرة كبيرة يستطيع أن يحتل كوخاً أو ضيعة أو قرية أو إقليماً أو أن يستولي على منطقة بكيلواتها من العاج عندما يطلبها منه ضيوفه فيخبرهم بكل التفاصيل؛ إنه وقت المجد والمغامرة.

سكنت كل من بخيتة وبيناه في المبنى المخصص للإماء، وهو يقع في عمق الحديقة. يقوم هذا المبنى بحجب المبنى الصغير المخصص للعبيد المتزوجين. لم تنس بخيتة قط الزوجين اللذين شهدت ولادة ابنهما الثالث، وهو ابن العبد إدريس والأَمَة منى. تولى السيد هذا الزواج حسب الشريعة الإسلامية فدخل الأولاد في رعايته. كانت منى قبيحةً وتخدم في المطبخ، وكانت موضع سخرية لدى اختيار إدريس لها كزوجة. كانت تدور الأحاديث الجانبية التي تشي بأنه سريعاً ما سيتزوج بغيرها، إلا أن إدريس لم يتزوج امرأة ثانية، وظلّ الرابط بينهما بنظر الجميع لغزاً، وموضع سخرية. كانت بخيتة تراقبهما يعيشان بكل عفوية كما نتنفس الهواء، يعيشان في مكان ترقى فيه الحياة إلى سمو الإنسانية، حتى وإن تملكهما خوف مستمر من أن يأتي السيد في يوم ما ليأخذ أحد الصغار، وألا يعودا لرؤيته إطلاقاً. كانا يلتقيان في المساء أحياناً ويذهبان ليتقاسما وجبةً وليطعما صبيتهما. وكانت منى على وجه الخصوص تنشد ترنيمات النوم للصغار لكي يناموا. كان ذلك موجوداً وهي تذكر أنها شهدته. أما المبنى الثالث المجاور لمبنى النساء، وهو المخصص للعبيد الرجال، فلم تقترب بخيتة منه يوماً. كانت تسمع أحياناً مشاجرات عنيفة، إذ كانت تجري فيه صراعات وتسويات حساب على مدى أمسيات عدة، ومن ثم يتوقف الأمر لبضعة أسابيع. كانت معظم

الشجارات تندلع في أيام رمضان التي كانت قاسيةً جداً. تتذكر بخيتة صرخة رجل مرةً أو مرتين في كل ليلة، ربما كان يصرخ في نومه؛ كانت صرخة يأس آتية من مكان آخر لتنادي أحدهم، ولكن لا أحد يستجيب له أو يزجره. يصرخ ومن ثم يعود الليل إلى سكونه.

عندما دخلتا في الأمسية الأولى إلى مبنى العبيد الذي كان مظلماً، وتعبق فيه رائحة الرطوبة القذرة والخضار المسلوقة والتبغ، بحثت بخيتة بشكل عفوي عن كيشمه. إن اختراق هذا الهدوء الكبير المليء بالنسوة يشبه السباحة في عمق النهر. إنه عالم سري صامت ومزدحم بأنماط مختلفة من الناس. قبل رؤية الفتاتين الصغيرتين، كانت جميع الإماء يعلمن أن السيد قد أحضرهما من السوق من أجل ابنتيه؛ فكان لديهن فضول لرؤيتهما دون أن يتوهمن كثيراً، لكن كلاً منهنّ لاتزال تملك ذلك الأمل اللحوح بأن تكون هاتان الفتاتان شقيقتيها أو ابنتيها أو حفيدتيها. وإن لم تكونا كذلك فقد تكون تعرفهما أو سمعت أحداً يتكلم عنهما. اقتربت النسوة منهما للمسهما كمحاولة للتعرف إليهما، ولسماع لهجتهما ولرؤية العلامات على جلدهما. أخذن يسألن: من أين جاءتا؟ ما القرى التي اجتازتاها ومن امتلكهما من الأسياد وفي أي زريبة تم وضعهما؟ وهل رأتا "أوت" تلك المرأة التي لديها وشم على شكل أجنحة على خديها، وأمل وهي فتاة صغيرة مع أختها التي تغني كالبومة الرنانة، أو كول ذلك الرضيع الآتي من بلد زاندي والذي تم سبيه بالطبع مع أمه التي كانت في مقتبل العمر. إضافة إلى العجوز أنيه الآتي من مابا، وهو رجل حكيم ذو ذراعين طويلتين ويدين معقودتين، هل رأتا هؤلاء؟ لم تفهما كل هذه الكلمات باللهجات المختلفة، وكل الكلمات العربية

والأسماء المجهولة وعجلة النساء. ربما هما التقتا بأوت وبأمل وبالرضيع وبالعجوز لكنهما لا تتذكران شيئاً عنهم. ربما سمعتا هؤلاء يمشون مع القوافل في مخيم الطويشة، وفي كل قرية اجتازتاها. تحولت الأسئلة لتكرار مضجر للأمل ولليأس، فهي حيوات سُرقت ومن ثم حلّقت، هم أطفال لم يعودوا يمتلكون شيئاً من الطفولة، هو انهيار لكل ترتيب زمني ولكل شيء طبيعي؛ فكيف بإمكانهما التعرف إليهم طالما أن كل شيء قد ضاع بمجرد انتمائهم إلى الآخرين؟ لم تملك بخيتة أية إجابة ترد بها على تساؤلات النساء، بل رددت اسم أختها بلهجة لا تفهمها محاولةً إخبارهن بأن أختها تبلغ السادسة عشرة من عمرها، وقد أتت من أولغوسا في إقليم دارفور وتدعى كيشمه. رفعت النسوة أكتافهن وانصرفن. لقد أتت من بعيد ولم تحضر معها سوى جهلها! أخذت بخيتة تفكر بالأم وبطفلها الذي تحطم على الصخور، هل كان يدعى كول؟ من أي بلد أتى؟ لن تروي هذه القصة مطلقاً لأحد. والشاب الغاضب الذي لم يعد غاضباً، لن تدع أية امرأة تعتقد أنه ابنها.

كانت بيناه تجلس في زاوية الغرفة منزلة رأسها، يملؤها الخوف، ولا تريد رؤية أحد، ولا أن يلمسها أحد يأمل بلقاء طفلته العزيزة. اقتربت بخيتة منها فوضعت الصغيرة رأسها على ركبتيها، فأخذت بخيتة تداعب شعرها بلطف مفكرةً بشيء آخر. فكرت أن كيشمه ربما توجد في هذه القرية، فهي تعرفها، وتشعر بها في أعماقها، ما من مجال للسؤال أو الشك، إنه أمر بديهي. إن وجود أختها يعطي معنى لوجودها هنا في منزل أسيادها الأوائل. كل هذه الطريق التي قطعتها كانت من أجل الاقتراب من كيشمه، فلا شيء يحدث عبثاً أو مصادفةً. لقد مشت كثيراً وأطاعت الأوامر، كثيراً

ووصلت إلى مكان جيد، فهي ستلقى أختها وستعود برفقتها إلى أولغوسا. غفت بيناه في حضنها فرفعتها بروِيّة ومددتها على حصيرة جلبتها إحدى النساء. تمددت على حصيرتها وأغمضت عينيها وأخذت تنشد "عندما يولد الأطفال في ليون" في قلبها مرددةً الكلمات والإيقاع بلغتها الأم لكيلا تنسى، ولكي تبتعد قدر المستطاع عما رأته هذ المساء، وعما فهمته. لكي تنسى سميراً ووجهه الغاضب، سميراً الذي دفعتها ثريا نحوه. "*جميلة*"، يا لهذه اللعنة!

أمضت بخيتة ثلاثة أعوام في خدمة سيدتيها الصغيرتين؛ فهي ممتنة لعيشها في الحريم بعد تحملها الكثير من أشكال العنف الجسدي والمشي والحبس والعطش والجوع. كان الحريم عالماً منغلقاً مليئاً بالسيدات والإمَاء، يعشن جميعهن معاً في هذه السجن، فلا يمكن لأية سيدة أن يراها رجل، أو أن تخرج وحدها خاصةً بعد مغيب الشمس. كما تقبل النساء المتزوجات تعدد الزوجات والمساكنات وأطفال الأخريات وما يسمى ب"*أم الولد*": وهن إماء متزوجات من أسيادهنّ، وينجبن الأطفال منهم، فيصبحن بهذا نصف حرائر، ونصف إماء. كانت الحياة شبيهة بمهرجان فيه أقنعة خادعة ذات وجوه تعبر عن فرح مصطنع، هي كحفل سرعان ما قد ينتهي. كانت بخيتة تقوم بأفضل ماعندها؛ فهي تريد أن يحتفظوا بها، وهم يحتفظون بها لأنهم راضون عنها، ويحبون وجودها. لكنها لم تفهم ذلك على أنه حب، فهي تعرف ما هو الحب الذي شعرت به مع ذويها؛ الحب هو العرفان والمشاركة والقوة، في حين أن حب سيدتيها كان نزوةً عابرة. كانت تعيش يرافقها شعور بعدم الهدوء وبالخضوع، وكان مشروع لقاء الأهل والهروب

مع كيشمه بمنزلة دواء لليأس وكهدف سري. هو أمر يقبع في أعماقها، ويجعلها فريدةً من نوعها.

كانت امرأة تدعى زينب تقوم كل صباح بتحضير بيناه وبخيتة للسيدتين الشابتين؛ كانت تصفف شعرهما وتعطرهما وتلبسهما. كانت زينب قد أمضت أربعين سنةً في خدمة السيد قبل أن تُعتق؛ كانت لاتزال ترى سيدها كوليّ لنعمتها، وهي من اقترحت أن تقوم بتحضير الفتاتين الصغيرتين. لم تكن تختلط مطلقاً بالعائلات الحرة التي تنتمي إلى طبقة اجتماعية أعلى منها. لم تكن تخرج من المنزل ولا تتحدث مع أحد قط، بل تظل جالسةً طوال النهار في زاوية الحديقة تدخن بغليون طويل، وتنظر بعينين صغيرتين نصف منغلقتين، وتفوح منها رائحة التبغ البارد والنعناع الذي تمضغه بعد كل مرة تدخن فيها، ورائحة بول القطط. كانت تفوح منها رائحة غامضة ونفاذة في كل حركة منها وهي تضع اللآلئ في شعر الأَمَتين الصغيرتين، والأساور النحاسية في أكعابهما وفي أيديهما. كان وجهها حازماً وحركاتها مباغتة، ولم تسمع بخيتة وبيناه صوتها قط. كانت التجاعيد تملؤها كجدة بخيتة، وكم أحبت هذه الأخيرة أن تروي لها قصة هذه التجاعيد كما كانت تفعل جدتها! فهو حدث مهم لكليهما، كالولادة والحرب والمعركة، فجدتها تعرف تاريخ أسرتها بأكمله: "أولئك الذين نراهم والأجداد وأولئك الذين ينتظرون أن ياتوا إلى هذا العالم"، هذا ما كانت تقوله لبخيتة، فالماضي يُمحى، والمستقبل متعلق بالآخرين. وكل يوم هو يوم من الألم والجهد. يجب أن تنال إعجاب السيدتين الصغيرتين وأن تلبي كل ماتريدانه وكل ما تتخيلانه؛ الأوامر والممنوعات والنزوات والتخيلات. عليها أن

تعيش لتطيع ولتنال الإعجاب، فهي تنهض في كل صباح من أجل هدف وحيد ألا وهو أن تنجو بيومها.

عندما بدأت بخيتة تعيش لدى السيدتين الصغيرتين في الحجرة الكبيرة ذات الدواوين العميقة والمليئة بالسجاد والمخدات والفرش الحريرية وهذه ال"شيلا" الموضوعة على الأرض والقنصليات المذهبة واللوحات المطلية بالخزف أو الفضة، في هذه الحجرة، كانت كل من ثريا ورضيّة تنام وتأكل وتلعب وتستقبل صديقاتها. عندما بدأت بالعيش في قسم الحريم، فكرت بخيتة بأن اسمها الجديد يلائمها فبخيتة يعني *المحظوظة* التي لن تعود لتمشي فوق الحجارة أو لتسجن مع الماعز أو لتنام في الأشجار. إنها حسب ما رددت بيناه بكثير من الدهشة لن تشعر حقاً بالجوع أو بالعطش. تحاول أن تكون "لطيفة وطيبة" كما علمتها أمها، إنها تتمير بأنها لطيفة وطيبة وتوجد بفضل ذلك، بفضل هذه الميزة، تريد فعل كل شيء بفرح لتبين لسيدتيها الصغيرتين أن ذلك يروق لها، تريد أن تطيعهما وأن تظهر لهما أنهما فعلتا الصواب بالاحتفاظ بها. كانتا تتمددان طوال الوقت بينما هي تهّويهما. كانتا تتحدثان وتنامان وتلعبان بالدومينو وبالورق، وتنامان بينما كانت بخيتة مستمرة بالتهوية. كانت تعتقد أنهما اخترعتا ذلك، وأنه ذات يوم خطرت ببالهما هذه اللعبة، وهي أن تعطياها المروحة الكبيرة لتهزها ببطء من فوقهما. وجدت أنها فكرة جيدة لأن الطقس حار جداً وكانت تتعرق كثيراً، لكنها لم تعد تشعر مطلقاً بالعطش على الأقل لوقت طويل، لكن ذلك لا يمكن أن يسمى عطشاً، ليس سوى ألم صغير. كانت تقوم بالتهوية وتحاول قدر استطاعتها ألا تتحرك وألا ترتعش أو تتنفس

بقوة، "لا تتنفسي كالفيل!" ذلك ما قالتاه وهما تضحكان. ومع أن زينب كانت تعطرها كل صباح، كانت تعلم أن رائحتها سيئة بسبب كل هذا العرق. لكن ثريا قالت إن هذا لأنها بالغة السواد مضيفةً: "وجميلة جداً أيضاً" *جميلة!* كانتا فخورتين بها فلدى مجيء صديقاتهما لرؤيتهما، كانت تظهر لهنّ كل ما يمكن للأمة أن تفعله،، كحركة القرد الصغير التي كانتا تفضلانها. كانت بخيتة تصدر صرخات حادة، وتحك ذراعيها، وتلتقط بفمها ما ترميانه في الهواء. أحياناً كانت تقوم بحركة الحصان الذي يصهل ويركض، وكانت صديقاتهما يصعدن على ظهرها؛ كلّ بدورها. كانت تفعل كل ما يطلب منها، كل ما ترغبان فيه. وعندما لا تكون عاقلة كانتا تضعانها في الزاوية. وإن أرادتا إمتاع صديقاتهما كانتا تطلبان إليها أن تغني وترقص كما يفعل أهالي قبيلتها، أن تفعل ذلك بكل قوة ومن قلبها. وكانت تفعل ذلك من كل قلبها لكنها لم تغنِّ قط أنشودتها الصغيرة "عندما يولد الأطفال في ليون"، فتلك الأغنية هي سرها الخاص بها ولا تريد أن يسخر منها أحد، وهو يضرب بيديه على المخدات، ويطلق صرخات ابتهاج. عندما تكون السيدتان الصغيرتان في رضا تام عنها، كانتا تأمرانها بالجلوس على يديها، وأحياناً كانتا تداعبان رأسها بقوة، وتضربانه بضع ضربات ترضيهما. كانت بخيتة تخشى تلك اللحظات فهي تخاف دوماً من أن تقوم الصغيرتان بضربات أقوى كما يتم الضرب على الجلد المشدود على الطبول، كانت تتخيل نفسها منهارة على الأرض بسبب هذه الضربات المتتالية، وعندها ستنزل عند قسم الرجال حيث تُروى القصص المرعبة عما يحصل للعبيد في أيام الأعياد، وما يحدث لهم لدى انتهاء الحفل من تعذيب وقتل، وعن

الأكياس التي ترمى في النهر، وهي ممتلئة بالنساء المخيطات سوياً؛ لذا فقد كانت هذه الضربات على جمجمتها كالمداعبات الخطيرة.

في طابق النساء كان هناك دوماً صبية، فهناك سمير الذي كان في البداية لايطلب شيئاً. فقط كان يطوف، وهو ويلتزم الصمت، وبالكاد ينظر إليها فهو يبدو أكثر انجذاباً لبيناه التي تسليه ببكائها كل يوم؛ إنه تحد تقليدي يضحكه كثيراً، فهي يجب أن تبكي كل يوم أمامه. كان انتظار هذه اللحظة يسبب توتراً كبيراً، فكانت أعصاب بخيتة مشدودة وتود لو تحل مكان صديقتها عندما يقوم سمير بجلدها أو بإهانتها وبإظهار أسنانها المكسرة، وصوتها الحاد، وخوفها من الحيوانات المحنطة للجميع من حوله. كان يغزها بإبرة من القش ويجبرها على امتطاء تمساح، كانت أحياناً تترجى، وأحياناً تصعد فوقه وهي تبكي. لكن كيف علم سمير بخوف بيناه؟ هل أخبرته زينب بذعرها كل صباح لدى مرورها أمام ثعلب الصحراء؟ ربما علم منها أو من غيرها، فالكل يعلم كل شيء يردد على الألسنة، والكل يسمع ويترصد فهذا أمر يسليهم جميعاً، العبيد والمخصيّون والنساء والخادمات والمعتوقون والسيدات؛ إنه عالم منغلق كسجن بلا قضبان. توجد إماء كثيرات في حجرة السيدتين الصغيرتين، يقمن بتقديم الطعام والأواني للشرب ويشعلن الشمعدانات. وفي المساء عند الجلوس على سطح المنزل يقمن بالغناء والرقص للسيدات الساهرات بضجر، حيث تجلس أيضاً زوجات السيد وأطفاله وعشيقاته يروين قصصاً ويحتسين القهوة. كانت الأيام والليالي تبدو بلا نهاية وكثير من الإماء ينمن أمام أبواب غرف

سيداتهن التي لا تغلق بالمفتاح أبداً. كن ينمن في الأروقة على الأرض ليكنّ مستعدات دوماً. عندما كانت السيدتان تأمران بخيتة وبيناه أخيراً بالذهاب إلى لنوم في مبنى العبيد في عمق الحديقة، كانتا تحظيان بمكانة مفضلة لدى ابنتي السيد، لكن ذلك كان يبدو عدائياً لهما، وذلك لأن النسوة اللواتي يعملن في المطبخ، واللواتي يعملن في حقول السيد لا يحببنهما، كانتا تنتظران أن ينتهي كل شيء... كل شيء سيمضي، وعندها حقاً ستفهمان معنى أن تكونا أمَتين. فأولئك النسوة يتلقين في كل يوم جلدات السوط حتى أصبحت أجسادهن مليئة بالجروح المفتوحة التي تحرقهن طوال الوقت، والألم يمضي تحت الجلد ليلاً نهاراً، ويجعلهن يفقدن الصواب. كانت بخيتة تخشى هذه المرأة التي تدعى مريم؛ فهي تنادي أولادها طوال الوقت وتركض وراءهم، وتزجرهم ولكن بحنان. تريد طوال الوقت أن تجعلهم يأكلون ويشربون إلا أنها لم تدرك يوماً أنها تتحدث في الحقيقة مع البط وتلحق به. لقد تم بيع طفليها الاثنين معاً جراء رهان خسره السيد. كانت بخيتة تفكر بكيشمه، هل تفتقد صغيرها؟ هي الآن أكبر عمراً بعامين. هل أنجبت أطفالاً آخرين؟ هل تركوهم لها؟ هل توسلت وغنت أنشودة الفراق التي لا تفيد شيئاً؟ عندما كان الضيق يتملك بخيتة، كانت تفكر باليد الحارة التي وضعت في داخل صدرها في تلك الليلة التي أمضتها في الغابة لدى هروبها. لم تدرِ إن كان ذلك أحدَ أجدادها، روحاً أم شبحاً؛ لا تعرف كيف تصف الأمر، فشرحه مستحيل لكنها تتوسل لكي تعود تلك اليد إليها. أحياناً كانت تعود لتحملها ليلاً إلى أعلى مدينة العُبيد، وربما إلى

خارج السودان وخارج إفريقيا كلها؛ إنها مساحة من السكون والراحة تسود في ذلك المكان، فتشعر من جديد بأنها لطيفة وطيبة تماماً كما كانت تراها أمها.

بعد قرابة عامين من وصول بخيتة إلى منزل السيدتين الصغيرتين، حدث أمران جللان في فترة سمتها لاحقاً "فترة المصيبة الكبرى"، لقد عانت من كابوسين متشابهين؛ الأول كان الخروج المرتقب إلى سوق العبيد برفقة السيدتين الصغيرتين، والحدث الثاني كان التحضير لزفاف سمير.

كانت بخيتة قد بلغت التاسعة من عمرها آنذاك، وكانت مرعوبة؛ فالسوق والزفاف يزودان الأسياد بالحماس العنيف نفسه، فكل منهم كان يبدو دوماً وكأنه خارج عن طوره. كبر سمير واقترب رحيله عن قسم الحريم، وسيتزوج من عائشة الموعودة له منذ ستة أعوام، والتي لم يرها من قبل. أخذت أمه تنوح، وتضم ابنها إليها دون تحفظ وبصخب. بينما هو كان فخوراً وخائباً ونافذ الصبر، فتارة ينوح كالطفل، وتارةً يظهر شيئاً من القسوة كملك عجوز.

تذكر بخيتة المعارك التي كانت تندلع كل عام في قريتها للاحتفال بالحصاد حيث كان الصبية الذين دخلوا حديثاً في عمر الرجال يتصارعون مع المراهقين من القرى الأخرى صراعاً أخوياً يشبه الرقص. كانت قريتها تشارك معهم بفخر، وكان أخوها يتفوّق على نفسه فهو كما تقول جدتها يمثل "الأجداد". هم أولئك الذين نراهم والذين ينتظرون مجيئهم إلى هذا العالم". كانت النسوة يتزينّ مع أطفالهن، ويقال إن شخصاً واحداً قوياً

وموقراً استطاع محاربة مئات آخرين مع احتفاظه برغبته القوية نفسها دون أن يتعب. أما في منزل الأفعى فإن التحضير لزفاف سمير يشبه التحضير للسوق الكبيرة، حيث يعمّ الفرح العنيف نفسه، ويتم التنظيم المتعب نفسه إضافةً إلى الأوامر والاتهامات التي تتلقاها منذ الصباح حتى المساء. كل شيء يتوتر كما لو أنهم ينتظرون حدوث انتقام ما، والكل يعيش في ذعر وخوف بالغين. في السوق الكبيرة يحب السيد أن يشتري ويبيع ويكسب، فيبحث عما يشتريه من رجال أو حيوانات أو عاج أو ذهب. يرحل لأيام طويلة، ثم يعود لينعزل ليجري حساباته، ويخرج وهو مهتاج بصخب ليجلد العبيد بقسوة فيعاقبهم ويعذبهم، ومن ثم يصعد إلى الحريم ليزعج نساءه. فمن أجل زفاف ابنه هو بحاجة إلى أشكال من الطيبة لا يمكن تجاوزها، كما يحتاج إلى ثروة حارقة، ومثيرة كالنيران. إلا أن الحسابات هي نفسها لم تتغير، والنوبات التي تعكر مزاجه وتقلباته النفسية هي نفسها لا يمكن السيطرة عليها؛ إنه السيد المطلق إلا أن الحال تنتهي به إلى عدم معرفة هو سيد ماذا! إن تزويج ابنه بشكل باذخ أو العودة من السوق بثروة أضخم، أمران يشكلان له النصر نفسه. لكن قبل أن يكون المرء منتصراً عليه أولاً أن يحارب؛ لذا فهو لايعرف الراحة.

امتزج الحدثان في ذاكرة بخيتة، لكن الحدث الذي حظي بالمكانة الأولى هو الذهاب إلى السوق الكبيرة. فهي كانت تسمع من مبنى العبيد ومن غرفة السيدتين الشابتين ليلاً نهاراً، أصوات تجمّع المسافرين الذين يمرون بمدينة العُبيد قبل الذهاب إلى الخرطوم. هناك المئات من الأجناس، رجال مع قطعانهم قد مشوا أياماً وليالي ولأشهر كاملة من أجل تبادل

البضائع والبيع والشراء. تعلم بخيتة أن الرجال يصلون محملين بالأغراض، وتعلم أنه يوجد "خشب الأبنوس" وأن أختها موجودة بين الأغراض الغالية، هي تعلم ذلك وهذا كل شيء؛ إنه أمر بديهي يمنحها الرغبة في الصراخ؛ فالانتظار أصبح أمراً مادياً يجتاحها. عندما ترقد ليلاً كانت تتخيل كيف ستعثر على أختها فتروي لنفسها لقاءها بكيشمه، هذا الحب الذي وجدته قد أعطى حياتها معنى.

قبل الخروج إلى السوق الكبيرة كانت طبعاً قد خرجت سابقاً لترى مدينة العُبيد مع السيدتين الصغيرتين وبرفقة العبيد المخصيين. إن الخروج مع عدد من العبيد هو دليل على الثراء فهما تختاران الإماء الأكثر جمالاً للخروج. كانت بخيتة أشبه بزينة جميلة. بحثت طبعاً عن أختها بين الجموع وأمام المنازل وفي الأزقة والبازار، وفي زاوية الجدران المرتفعة وعلى طريق المقبرة المحفوفة بأشجار السرو، تأملت كثيراً لكنها لم تلق شيئاً من هذا التأكد. اكتشفت الحياة في مدينة صغيرة بدت بالنسبة إليها كبيرة جداً. كان العالم يتخذ شكلاً جديداً، وهي لم تكن تملك دوماً الكلمات لكي تفهم ما تراه في هذا العالم؛ فهي ترى البؤس يجاور الثراء، وتشعر بهذا القدر الغريب مع الشحاذين والعبيد الخنوعين والفتيات الواقفات على أبواب الحانات، وحمّالي المياه والبائعين الصغار البائسين بأعدادهم التي لاتحصى. كانت تمضي مع السيدتين المحجبتين ومع المخصيين، فتبدوان كالعصافير الملونة التي تغرد وترفرف، كفراشات وسط القذارة. رأت الأطفال المهملين والمرضى والمعتلين وهم يموتون سريعاً دون أن يتذكرهم أحد باستثنائها، فهي لا تعرفهم بعد، لكنها لن تنسى هؤلاء الأطفال في شوارع العبيد،

وستلقاهم في أماكن أخرى مع أطفال آخرين وفي شوارع أخرى؛ فالبؤس موجود في العالم بأسره.

قررت كل من رضية وثريا اصطحاب بخيتة معهما إلى سوق العبيد؛ كانتا تتمشيان مع أمهما وبعض المخصيين وعدد من الخادمات. كانت بخيتة تنتظر هذا الصباح كما لو أنه يوم لقائها بكيشمه، هذا اللقاء الذي باحت به لزينب ذات صباح بصوت منخفض: " أختي موجودة في السوق" قالتها لها بالعربية باذلة جهداً، وهي تعلن بصعوبة "أختي" أختي الكبيرة، أختي كيشمه ستكون هناك، هل فهمت زينب ما قالته؟ بخيتة لها هي أيضاً أسرة؛ لها أحد يحبها وهو ليس ببعيد عنها، هذا ما أكدته بالعربية، لديها أخت كبرى وهي أم لطفل عمره سنتان، أجل وعندها أيضاً أخت توءم كما أن أباها هو أخو زعيم القرية، إنها عائلة كبيرة، يا الهي! لو أنها تعرف التحدث جيداً بلغة زينب لأخبرتها بكل ما تريد قوله، وهي تقوم بتزيينها وتعطيرها، ولأخبرتها بكل شيء، فلدى اقترابها من السوق الكبيرة، تخلت عن حذرها وحزنها وأصبح الأمل داخلها كبيراً حتى إنها كانت تتألق فرحاً رغماً عنها، وحاولت إخفاء ذلك لكنها لم تستطع.

ألغي ذهابها إلى السوق الكبيرة في الدقيقة الأخيرة دون شرح بالطبع وربما دون سبب، بمحض المصادفة أو بمكر، لن تعرف مطلقاً! رحلت السيدتان الصغيرتان، وبقيت بخيتة في قسم الحريم طوال النهار واقفة أمام نافذة حجرتها. وقفت في الفسحة المعرضة للشمس الحارة، وأخذت تنظر إلى الأسفل نحو المدينة التي لم تذهب إليها، نظرت إلى السوق الكبيرة حيث ستظهر أختها دون أن تلقاها.

وقفت تراقب من وقت شروق الشمس القاسية حتى غروبها، ظلت على السطح الذي ينوء تحت الحر العنيف حتى حلّ الظلام. كانت تشاهد الجموع الكبيرة من الناس، أولئك الذين يلتقون وهم يرتدون الكثير من الألوان مع الصراخ والغبار. أخذت تفرز الجموع، وتراقب وتفصل كيشمه عن كل هؤلاء الذين ليسوا هي. ظلت واقفة مستعدة ومنتبهة طوال اليوم في الحر والعطش والدوار. وبعد مضي ساعات من الصبر والأمل، رأتها في الجموع التي تزحف بخطاها ببطء، كيشمه موجودة هنا. مرت بضع لحظات من الدهشة، وسطع نور مفاجئ، إنها هناك في الأسفل تقريباً أمام المنزل ضمن هذه المجموعة من العبيد التي تتوجه إلى السوق. صرخت باسمها وتعرفت في هذه الصرخة على صرخات نساء أولغوسا بين ألسنة النار. سمعت صوتها كما لو لم تسمعه من قبل؛ كانت هذه الصرخة تعبر عن صوتها الذي صحا من سباته فتعرفت إليه مذعورة. استدارت كيشمه فاستعادت بخيتة ما ظنت أنها نسيته في أختها من قوامها وعينيها وفمها وطريقتها بالالتفات، إنها حية ومتيقظة. وقعت على ركبتيها، ومن ثم نهضت واستدارت من جديد نحو الصوت إلا أنها مقيدة إلى الآخرين الذين يسحبونها، فابتعدت وامّحى أثرها ولم تعد موجودةً.

أرادت بخيتة أن تنادي أحداً بين الجموع، أن تشير إلى أختها، أن تطلب المساعدة. نظرت إلى أختها وهي تختفي، وبقيت مكانها مأخوذةً بالرعب. تقدمت بعد ذلك على حافة السطح، وفتحت ذراعيها فلم تعد تخشى شيئاً، وتخلت عن حذرها، اندفعت نحو السوق الكبيرة كعصفور قوي. التقطتها يد وصفعتها بعنف فانهارت على تلك اليد. لم تكن الأمَة التي

أنقذتها تريد أن تتهمها السيدتان بالإهمال أو بالكسل؛ لذلك فقد أنقذتها من الموت، ثم تركتها مرميةً على الأرض بلا حراك.

ظلت بخيتة بعد ذلك وقتاً طويلاً شاردةً، ولاحظ سمير ذلك مباشرةً، إن هذه الفتاة قد فقدت حيويتها، وهو يرغب في إيقاظها وفي اختبار رجولته على هذه الفتاة الصغيرة قبل أن يتزوج؛ يريد أن يجرب قوته التي ستكون سنده وقانونه كرجل!

كانت بخيتة قد بلغت آنذاك العاشرة من عمرها تقريباً، وكادت حياتها في قسم الحريم تنتهي لكنها لم تكن تعلم بهذا بعد. ذات مساء طلبها سمير، فسمحت لها السيدتان الصغيرتان بلقائه. ارتدت المئزر الكبير، وذهبت إلى غرفته حيث ينتظرها.

طلب إليها الاقتراب بصوته، فظنت أنه يريد جلدها لحماقة ارتكبتها ولاتدري ماهي! فهناك دوماً حماقة قد ارتكبتها. ارتمت على قدميها، وسجدت قائلةً *آسفة* اعذرني أرجوك لا تجلدني. *آسفة*. أضحكه ذلك فدفعها بقدمه فوقعت أرضاً، ثم نهضت وشمت رائحته الشبيهة بمزيج من فاكهة مرة وحيوان نافق. شرعت تبكي بصوت خفيض، فصفعها لكي تتوقف أو لكي تبكي أكثر لا تدري! صفعها لكي يوقظها أو لكي يرهقها، صفعها لأنه اعتاد ذلك! كانت أسنانه تصرّ حتى آلمه صدغه. ظلت مطرقةً برأسها كما يجب أن تفعل فرأت الرسوم على السجادة، كانت حمراء وصفراء مع عصافير وأقمار. وجدت أنه من الغريب وجود أقمار وليس شموساً. تلقت الصفعات وهي تحاول أن تفكر بالرسومات، لماذا أقمار وليس شموساً. اقتربت أنفاس سمير منها فتراجعت، عندها صفعها بقوة كبيرة

جعلتها تقع على السجادة، فرأت العصافير والأقمار. زأر قائلاً إنها حمقاء، وارتمى فوقها، وتناول رأسها وضربه أرضاً، كما لو كان يريد سحقه وكسره إلى نصفين. إنه فوقها كجبل مليء بالحجارة التي تحوي أفاعي يملؤها الحقد، إنه يريد قتلها.

اختبرت سابقاً شعور مايجري بعد النهب والسرقة، شعور أن تضرب جسدياً معنوياً، شعور أن يتم سحق الروح والجسد معاً، إنها هاوية بلا نهاية وبلا نجدة، إنها جريمة لم تمت خلالها.

عندما انتهى السيد نهض وأمرها أن تنهض أيضاً، لكنها لم تتمكن من ذلك فقدماها كانتا ترتعشان، ولم تستطع النهوض. التقطها بيده ورفعها لكي تقف، لكنها كانت ما تزال ترتجف كما لو أنها ترقص مقرفصةً. لم تستطع أن تطيع أمره، ولم تتمكن من التنفس. كانت اللكمات تملأ جسدها كما لو أن أحداً مارس عليها السحر. ظل السيد يصرخ متلفظاً بكلمات لم تفهم بعضها، وفهمت جزءاً منها. قال إنها وسخة نجسة وعاد ليجلدها.

ظنت أنها وسخت السجادة لأنها وقعت عليها، كما أنها نزفت عليها من أماكن مختلفة في جسدها. ظنت أن السيد الشاب سيمزق سوطه أو سيكسر يديه أو قدميه من فرط قوة ضرباته. ظنت أن المنزل سينهار من قوة صرخاته. ظنت أن جسدها سينشق إلى نصفين، ظنت أنها النهاية، كما فكرت أنها تريد أن تعيش، فزحفت لتخرج من الغرفة. لحق بها السيد وهو يوسعها ضرباً في قدميها كما لو كان يدفعها. التجأت إلى غرفة السيدتين الصغيرتين ثريا ورضية اللتين كانتا ممددتين فوق فرش على الأرض، تأكلان من ضجرهما طوال الوقت، وتبصقان قشور العنب ونواة التمر. احتمت

بخيتة خلفهما طالبةً العون منهما، *النجدة... النجدة*، استمر سمير بجلدها وظلتا تأكلان.

تحولت بخيتة إلى لعبة مكسورة ووسخة، لذا سيتم طردها لاحقاً. وعندما يسألونها عن السبب وعما جرى بالضبط ستقول: "لقد كسرت مزهريةً"، إلا أنها ستقول الحقيقة لشخص واحد، إنها واحدة فقط ستخبرها بقصة الاعتداء عليها.

بعد الضربات التي تلقتها من سمير، نُقلت إلى قسم العبيد حيث ظلت مستلقيةً مدة شهر كامل على حصيرة محاولة النجاة بحياتها. لم يقم أحد بعلاجها أو بالتكلم إليها، بل كان الطعام يوضع مع الماء بالقرب منها دون الاهتمام إن كانت لمسته أم لا. كانت تنادي بيناه التي لم تأت. عندما فتحت عينيها لم ترها، ولم تشعر مطلقاً بيدها تلمس يدها، لم تعد تسمع صوتها. وعندما استعادت وعيها قيل لها إن السيد كان عليه دين في لعبة.

لن تتذكر أبداً منذ متى رأتها آخر مرة، وقد كان اختفاء بيناه كاختفاء اسمها، كقلب توقف عن النبض. لقد كانت بيناه فرصتها بالنجاة وبإنسانيتها، وحتى بعد تحررها وابتعادها ووصولها إلى عمر العجائز، ستظل بخيتة تحتفظ بها في داخلها طوال الوقت، وحتى آخر يوم في حياتها. فمعها حققت حلم كل عبد بالهروب والعصيان، كانت تمتلك تلك القيمة وتلك القوة.

في اليوم الذي استطاعت فيه بخيتة أن تنهض وحدها، اتخذت قراراً بأنها تستطيع معاودة العمل ولكن ما من مجال للصعود إلى الحريم، بل

أصبحت تعمل في المطابخ الموجودة في آخر الباحة، إنه مكان مليء بالقذارة التي لا يتصورها عقل، هو مكان لا تعرفه السيدات فهن لا يأتين إليه مطلقاً. الجدران مكسوّة بسواد الدهون والدخان المنبعث من الفرن إذ ما من مدخنة. القطط تتجول بين الصراصير والجرذان، والكلاب تأكل من المقالي نفسها. كانت بخيتة تنهض كل صباح قبل الأذان الأول للصلاة لكي توقد الفرن، وتغلي الماء، وتذهب لتحضر الخشب من المخزن، وكانت أحياناً ترفع نظرها نحو نوافذ السيدتين الصغيرتين ونحو السطح الخالي، لقد أصبح عالماً بعيداً ربما لم يكن له وجود. كانت تفضل النظر إلى السماء لتشهد ولادة النهار، وتسأل نفسها فيما لو كانت أمها في اللحظة نفسها جالسةً على جذع شجرة الباوباب المنحنية نحو الأرض، إن كانت تشاهد ولادة النهار مثلما كانت تحب أن تفعل؛ لكنها لم تجرؤ على التحدث معها؛ فلم تعد تملك أي وعد تقطعه لها، ولن تحظى لا بغفران أمها ولا بنهاية لآلامها؛ إنها تتقدم وحدها في هذا العالم الذي يعرقلها كل يوم كالريح العاتية؛ إنها تائهة في هذا العالم، وقد كان رحيل بيناه شبيه بفراق أحيا فيها جميع الفراقات الأخرى. يفضل بعض العبيد لتفادي هذا الألم، ألا يحبوا قط، أن ينسوا قلباً لا يقدم سوى الألم. كانت بخيتة تتحدث مع الدجاج والكلاب والعصافير ومع النجوم الأخيرة التي تتوارى في بداية اليوم؛ تتحدث مع الخشب الذي تجمعه ومع الماء والرياح، وتتساءل إن كان القمر يذكر اسمها! ويبدو لها أن المكان الأخير الذي يعم فيه السلام، وأن الملجأ الوحيد يوجد هناك في السماء في اللحظة التي يتنحّى فيها الليل تاركاً مكانه للنهار. بعد ذلك كانت بخيتة تعاود العمل كحمارة صغيرة عنيدة تطرق برأسها وتعمل وتطيع

طوال الوقت، وتتلقى الضربات دون أن تستفسر وتفهم سببها، ومن أمر بها ومن استحقها، ومن يقرر إيقافها أو معاودتها. كانت تتذكر يد بيناه في يدها، وبالشجاعة التي كانت تمنحها إياها قائلةً *"لن أترك يدك"*، ربما هذا أيضاً صحيح، فهي قررت أن يكون ذلك.

مرت الشهور على هذا المنوال في منزل الأفاعي حيث كل شخص يمضي يومه محتمياً بلامبالاته في خضم صخب الأوامر والضربات والفوضى الكبرى المليئة بالخوف. ذات يوم أرسل لها السيد لتأتي إليه، رافقها عبد مخصي إلى مكتبه في طابق الرجال. مرت من أمام الثعلب المحنط الذي كان يرعب بيناه، وفهمت أن هناك ماهو سيّئ بانتظارها في مكتب السيد، فمنذ أن صرخ سمير معلناً أنها غير طاهرة أراد السيد بيعها، وهي تعلم ذلك.

في ذلك اليوم كان جالساً مع رجل بلباس عسكري، تفحّصها ومن ثم خرجوا إلى الحديقة لكي يتسنى له رؤيتها في ضوء النهار، ولكي يشاهدها وهي تركض. ركضت وهي متعبة كثيراً إلى مكان غير محدد. ركضت في الحديقة الغنّاء الواسعة، وعندما توقفت أطرقت بنظرها أرضاً منتظرةً. مرت النقود بين الأيدي فمشت خلف سيدها الجديد مقيدة اليدين بسلسلة، ويمسك بها حارس. رحلت محاولة إحضار طيف بيناه معها، حاولت الاحتفاظ بعصفورها في قلبها تاركةً خلفها أياماً مليئةً بالشقاء والعار والآلام. أخذت تتذكر ابتسامة بيناه التي كانت تقول: "لسنا جائعات أو عطشات حقاً"؛ حملت معها هذا العرفان الطفولي.

تركت منزل الأفاعي دون أن تجلب معها شيئاً من متاعها، ولا حتى حجراً أو بعضاً من التراب أو حتى كلمة وداع أو نظرة، لا شيء على

الإطلاق، لا شيء سوى الخوف من المجهول وهذه النجاسة التي باتت واثقة من أن الجميع يراها في نظرتها المطرقة أرضاً، وفي تنفسها المنخفض، وفي صوتها الذي تغير فأصبح خافتاً؛ فهي الآن تغني نشازاً، إذ يخرج صوتها حاداً وشارداً. قلّ كلامها وأصبحت أكثر حذراً، وأقل ثقةً ولم تعد تتكلم بلهجتها بل أصبحت *مزيجاً*. لقد بلغت العاشرة من عمرها، ولاتدري كيف تكبر محافظة على طيبتها ولطفها؛ فهي أصبحت نجسة وفاسدة وفقدت براءتها. تحولت حياتها لما يشبه رقصة عكسية، كطوفان لماء عكر. كانت تبحث عن علامة في حياتها، فهي متعطشة لشيء لم تجده، تحتاج نصيحة أو كلمة حكيمة ولا تدري إلى أين تتجه.

كان الرجل الذي اشتراها جنرالاً تركياً يدير جيوشاً من العبيد في خدمة الحكومة التركية-المصرية التي كانت تحكم السودان تحت إمرتها. كانت ميليشياته من العبيد المجندين يحكمون سير النظام، ويقومون بجباية الضرائب، وسرقة المواشي، وخطف الناس.

كان منزل الجنرال فخماً وصارماً في الوقت نفسه؛ فهو عبارة عن مبنى أحمر اللون، مربع الشكل بنوافذ مغطاة بالشبك. كانت الحديقة قاحلة بلا أزهار ولا أشجار. أما البحرة فكانت ناضبة بلا مياه، بينما كانت أصوات الحمام في أعشاشها باردةً كأنها تشتكي. كانت الباحة مظلمة لا تستقبل أشعة الشمس. لم تسمع بخيتة في اليوم الأول صوت قرع الصولجان في المنزل وسرعان ما أصبحت تخاف من سماعه، ذلك لأن قرعه يعني أن الأسياد يشعرون بالغضب، وهذا الغضب يجب تهدئته بالأمر نفسه، فبعد قرع الصولجان يتم إنزال أحد العبيد إلى هذه الباحة لجلده.

كانت هناك امرأتان تحكمان في هذا المنزل، هما أم السيد وزوجته. تكنّ كل منهما الكراهية للثانية، وترغبان طوال الوقت في تغذية هذا الحقد، وتضرمان النار فيه، وتشعلانه كالرماد المدفون القابل دوماً للاشتعال. كان هذا الحقد ينهكهما ويحييهما في الوقت نفسه، فهما تستمتعان أحياناً بهذا الكره القوي لدرجة أنه يجمعهما؛ فإنه كرهٌ شبيه بمصلحة مشتركة، أو بمرض متفشّ. منح الجنرال هاتين السيدتين بخيتة، فأصبحت تعمل في خدمة زوجته حيث تعلمت كيف تصفف شعرها، وتلبسها، *"دون أن تلمسها مطلقاً"*. تعلمت استباق الأوامر والرغبات وتوقع الضربات وتقبّلها. تتكلم السيدتان اللغة التركية، أما العبيد فيتكلمون العربية. تعلمت بخيتة هذه المرة أيضاً أن تصغي، وأن تنتبه للنبرة وللحركة وللتعبير. وكانت تسعد في أغلب الأحيان لعدم فهمها الكلمات التي تتلفظ بها السيدتان؛ فهي تبدو كلمات عنيفة لدرجة أنها تندهش من عدم احتراق ألسنتهما تحت وقع فظاظتهما.

كانت "هوى" أمَة أكبر سناً منها بقليل، ربما تبلغ الثانية عشرة عاماً. هي من تحضّر بخيتة وتعلمها كيفية الاعتناء بالسيدة *دون أن تلمسها مطلقاً*؛ ففي الصباح عليها أن تخلع عن سيدتها ثوبها وقميصها وسروالها المخصصين للنوم، وتحل الرباط، وتعقد الحزام المذهّب، وتمرر عليها الجلابية المصنوعة من القطن الرقيق، وتدعها تنسدل بإحكام. وتنزع منديل الليل عن رأسها لكي تصفف وتجدل شعرها الطويل قبل أن تخبئه تحت منديل من الشاش المنشّى. ودوماً *دون أن تلمسها مطلقاً*، وتضع الحلق الماسي في أذنيها وخواتمها الضخمة، وعقدها المرصّع باللآلئ. وفي المساء

تفعل الأمر نفسه بشكل عكسي، فتساعدها على خلع ثوبها، وعلى ارتداء ثوب فضفاض طويل أبيض اللون فوق سراويلها القطنية، تثبته بوساطة حبل من الليف ودون أن تلمس خصرها؛ وعندما تطلب السيدة شدّه بشكل أقوى كانت تعلم أنها تطيل مدة الامتحان، وتزيد عليه بعض التقلبات المتكررة والمنتظرة. فكانت بخيتة تقف على أطراف أصابعها لتمرر على سيدتها قميصاً، وفوقه رداءان أو ثلاثة أردية بعضها فوق بعض، ومن ثم تعقد منديل النوم فوق رأسها، وتفلت جدائلها لتصل إلى آخر خصر سيدتها، *دون أن تلمسها مطلقاً*.

يتطلب كل هذا العمل صلابة منها، فهذه الاحتفالية لا يمكن تطبيقها دون أن يحدث تماس مع جسد أو بشرة السيدة. وهذا بمنزلة تعذيب من نوع خاص، كلعبة تتلذذ بها السيدة تنتهي دوماً بضربة على الصولجان، فيظهر عبد مخصي يسوق بخيتة إلى الباحة حيث يقوم عبد جندي بجلدها بكل قوة. تسمي السيدة ذلك ب "تسليم بخيتة للغربان"، أسوَد على أسوَد، وتيرة على وتيرة فالعبد يجلد العبد، والعبيد يطيعون الأوامر. وتسمع بخيتة الزنوج يعترضون فيما بينهم على هذه اللعبة التسلسلية. إنه تدرج في السجن؛ فهناك العبيد ذوو الدرجة العليا وغيرهم ذوو المرتبة الدنيا. بالنسبة إلى بخيتة فإنها لا تحتل المرتبة الدنيا بسبب أو بفضل جمالها.

ينام العبيد الخدم والمزارعون في مبنيين منفصلين، أحدهما مخصّص للرجال والآخر مخصص للنساء، وهما عبارة عن مبنيين مهدّمين تنبعث منهما رائحة القش الرطب والبول وتعج فيهما الجرذان، فتنقل لهم الأمراض إضافةً إلى الخوف الذي يسود. يعيش العبيد في خوف دائم ، يخافون من أن

يناموا في وقت يجب عليهم أن ينهضوا، ويخافون ألا يناموا فيصبحوا منهكين أمام العمل صباحاً، ويخافون من الجلدات التي توقظ ألم جلدات الليلة الماضية، ويخافون من الجلدات التي لا تأتي إلا كمفاجأة لهم، ويخافون من العبيد القدامى ومن العبيد الجدد، أولئك الذين يعرفون الكثير من الأمور وأولئك الذي يصلون مع براءة خطيرة، يخافون من النهار ويخافون من الليل، لأن زوجة الجنرال تأتي كل صباح قبل صياح الديك لكي تجلدهم ولا توفر أولئك الذين يعملون ليلاً، ويأتون ليتمددوا قليلاً على حصيرتهم، كما أنها تجلد الإماء الحوامل وأولئك الذين بالكاد استفاقوا من حلمهم، كما تجلد من هم ما زالوا يغطّون في النوم، ومن يعانون من الحمى، والعجائز الذين يتم رميهم فوراً في ركام القمامة. إضافة إلى لأطفال الصغار الذين ما زالوا يرضعون أو نياماً، تقوم بجلدهم كلهم بلا استثناء. قبل صياح الديك كل صباح تأتي زوجة الجنرال لتصرخ باستمتاع هائج: "عبيد! أيها الحيوانات!" فيتحسن مزاجها بعد ذلك!

كبرت بخيتة في هذا المنزل حيث كانت قليلاً ما تتكلم مع أحد، بل لم تكن تخاطب أحداً، وكانت تخشى أن تكبر لتصبح كهؤلاء العجائز المنهكين الجوعى الذين لا تعبر نظرتهم عن أيّ رغبة في الحياة أو في الموت.

ومع أن بخيتة مازالت تعيش في مدينة العبيد إلا أنها كانت تشعر بالبعد عن البشرية بأكلمها، فكيشمه ليست في أي مكان، وبيناه قد ضاعت بين جموع الأسرى. تحاول أن تتذكر قصصها ولغتها وأحلامها، لكنها لا تذكر سوى فتاة أخرى صغيرة بلا اسم. تحاول إعادة تشكيل وجه أمها لكنه يهرب منها. تحاول أن تستعيد ذكرى الأصوات في قريتها لكن لهجتها

ضعفت والشجاعة التي تتحلى بها في كل يوم أخذت تنفد من روحها. لا يمكن لأي حلم في الليل أن يُحيي فيها القليل من رقة الماضي في السنوات السبع الأولى من حياتها في داجو، لقد كانت أخت توءم رقيقة وطيبة تخشى آثار الأفاعي، وتسند برأسها على عنق أبيها مساءً عندما تتوارى الشمس خلف الهضبة. أغمضت عينيها يوماً ورأت قلبها عصفوراً بجناحين مطويين يخلد إلى النوم بلطف، أثارت هذه الصورة في داخلها شعوراً طيباً، فهي جميلة كهدية، وهذا يدل على أنها لم تمت؛ بل هي نائمة بكل بساطة وستستيقظ يوماً ما.

أمضت بخيتة في منزل الجنرال أربعة أعوام حتى بلغت الثالثة عشرة تقريباً، وذلك في عام ١٨٨٢. طالت قامتها على غرار أهالي قبيلتها، وأصبحت لينة ذات سواد عميق، واحتفظت عيناها اللوزيتان ببراءة مدهشة، كما لو أنهما بحالة تساؤل خجول. كان وجهها يتمتع بجمال لا تراه يثقل عليها، فوجهها دائري مكتمل مع وجنتين عاليتين تعطيان هيئة نبيلة تشي بالطيبة؛ هذا الوجه الرقيق، وهذا الجسد الذي يكبر في منزل تملؤه أنفس هائجة، هو أمر مؤلم كشجرة تنمو في حقل فاسد.

بلغت الثانية عشر تقريباً، وأخذ صدرها يكبر وكان الأسياد يرتدون الملابس بينما لا يرتدي العبيد سوى مئزر. كانت بخيتة ترغب في أن تختبئ وتصبح غير مرئية كالأرواح. كم تود ستر نفسها كالسيدات! فأن تكون عارية في أولغوسا كان أمراً طبيعياً كوجود عشبة في الرياح، في حين أن ارتداءها مئزراً بسيطاً في منزل السيد كان يشكل لها حرجاً دائماً.

كان الجنرال التركي يسمي ذلك *"لعبة الممسحة"* فهي كانت تمر من أمامه بسرعة تجعله يضحك في كل مرة، فتبدو كحركة ساحر تبهر في كل حركة. أول مرة لم تدر ما يجري، ناداها السيد فركضت نحوه وانحنت طالبة السماح. طلب منها النهوض، فنهضت وسرعان ما أمسك ثدييها الصغيرين، وضغط عليهما كما لو أنه يريد "عصر ممسحة" أو فصلهما عنها وانتزاعهما من لحمها. كان يريد إذابتهما لكيلا يعود إلى رؤيتهما من جديد. صرخت من ألمها وجزعها، كان ألماً حاداً ومفاجئاً. ظنت أن السيد قد ابتكر هذه اللعبة لأجلها هي بسبب ما تفعله وتمثله؛ لكنها لم تدرِ أن الأسياد لا يبتكرون شيئاً، فنساء كثيرات تعذبن بلعبة الممسحة منذ قرون عدة، ولو عرفت أنها ليست الوحيدة في هذه المعاناة، لكانت أرادت ذلك للسيد وليس لها.

يتحدث العبيد أحياناً فيما بينهم فيروون قصصاً مختصرة في لحظات سريعة كالوميض؛ وإن حصلوا يوماً على حصة سخيّة من الحساء، أو وجدوا وقتاً لرؤية غروب الشمس، أو رأوا دجاجة تبيض، أو تذكروا أغنية من ديارهم، ولأن حياتهم لا يمكن أن تنفصل عن العالم، لذا يجرؤون للحظة على الشعور بالجمال الذي يذكرهم أنهم ينتمون إلى ما هو حي. يتحدثون فيما بينهم بكلمات فقيرة وملموسة ونادرة، إنها مجرد لحظة مسروقة في غفلة من اكتشاف أمرهم. هي لحظة تموت كما أتت، هي هدنة بين معركتين، ومن ثم يرحل كل منهم وحيداً في صمته وماضيه، ويلتزم الصمت ليتابع مشقته.

في مساء خريفي، جلست بخيتة تحتضن قطة تبلغ بضعة أسابيع، فشعرت ببعض السعادة. تفاجأت من شعورها هذا، فرح عارم شبيه بالحزن طالما أنه يذكرها بالماضي؛ إنه شعور يذكرها بذلك الوقت عندما كانت تنتمي إلى ما هو حي. جلست "هوى" على الأرض بالقرب منها، عليهما العودة إلى المبنى لكنهما تسرقان هذه اللحظة لتتمتعا بقليل من المساء وبقليل من السماء والهواء العليل. هما شريكتان تتقاسمان كل يوم خدمة السيدتين والتمرين السادي لـ *"عدم لمسها مطلقاً"*، أحياناً تضحكان فيما بينهما من هذه العبثية. في ذلك المساء الخريفي، جلست بخيتة حاملة القط الصغير بين يديها، كان دافئاً كعنق شخص محبب، عندها اعترفت بخيتة لهوى مهمهمةً بفخر: "لقد هربتُ في السابق، أتفهمين؟ *فرار*، أتفهمين؟ هربت مع بيناه صديقتي، لقد هربت؟ فهمت هوى ما باحت به بخيتة التي أخذت تداعب القط الصغير شاعرة بلذة أن تروي قصة، وأن يسمعها أحد، وبهذا التشارك البسيط: "في الشجرة، نعم نمنا في الشجرة! مر الحيوان المفترس أمامنا! من تحت الشجرة!". ضحكت هوى قليلاً، وتنهدت وهي تتابع القصة، فروت بخيتة بصوت منخفض قصة هروبها المجنون. كانت تهمس إلا أن صوتها كان مسموعاً، وفي تلك الأثناء مرت زوجة الجنرال التي تتباهى بأنها لا تتكلم ولا تفهم العربية، ومع ذلك فقد سمعت وفهمت كل شيء.

قُرع الصولجان وأعطي الأمر بتنفيذ العقوبة.

ظلت بخيتة مدة عام كامل مقيدةً بقدمها ككلب مسعور. كانت تعاني ليلاً نهاراً من ثقل مؤلم في قدمها، ويحيطها ألم كالنار المشتعلة في خصرها وظهرها وذراعيها، وتمتد حتى عنقها وتلسعها بلا توقف. لم يكن صعباً

عليها فقط أن تمشي أو تصعد السلالم أو تنخفض أو ترتفع، بل كان صعباً عليها أيضاً أن تتوقف عن فعل أي شيء فجأة، وهذا هدف وضع السلسلة التي وُضعت لكي يكون اندفاعها مستحيلاً سواء أكان اندفاع الجسد أم اندفاع الروح؛ فالعبد لن يكون سوى فريسة من دون الحذر والغريزة.

أصبحت بخيتة بعمر الثانية عشرة تعرج في مشيتها، وتلهث كأنها عجوز بسبب هذه الكرة الحديدية المقيدة إلى قدمها. كانت خطواتها تصدر صوتاً فيراها الجميع آتية من بعيد. وإن تغاضى بعض العبيد عنها، فهناك آخرون يطلبون منها أن تصدر ضجة أقل في خطاها. عندما نزعوا لها السلسلة لعدة أيام من الغفران خلال أعياد الله، ظلت تعرج كما لو أن السلسلة كانت تحكم توازنها، فجزء من جسمها كان يحتاج إلى وزن السلسلة لكيلا تقع. لدى انتهاء أعياد الله أُعيدت السلسلة إلى قدمها فشعرت كأنهم قد قيدوها من داخلها؛ كانت سجينة في سجنها الداخلي، ومنقطعة عن كل شيء، كما أنها معرقَلة في مشيتها وتعرقل من حولها. فوجودها يزعج الآخرين الذين يتذكرون كل الشهداء الذين أرادوا نسيانهم والمشي الطويل بسلاسلهم في طريقٍ قادتْهم إلى هذا الجحيم. كان في كعبها جرح ملتهب يحرقها من الألم. تمددت مساءً على حصيرتها، وأخذت تتكلم مع كعبها، وتداعبه كأنه حيوان صغير. أخذت تواسي الجزء المعاقب والمعذب قائلة: إن هذه الحال لن تدوم، وإنها لا تريد أن تعرج وتصبح بلا فائدة، فالعبد الذي لا فائدة منه لا يُقدم له الطعام، وسرعان ما يتم التخلص منه. كانت هوى تنجح أحياناً بسرقة بعض جذور الزنجبيل فتقدمها لبخيتة التي كانت تمضغها وتسحقها وتدهن بها كعبها فيهدأ الالتهاب قليلاً. كانت بخيتة

تسترجع ذكرى جدتها، وهي تقطف الأعشاب وتعالج بها الجميع. حاولت أن تتذكر شيئاً، ولكن لم تستطع تذكر الأعشاب التي كانت تنمو في قريتها، ما اسم الأزهار والنباتات؟ لم تدرِ، ولكن هل عرفت أسماءها يوماً ما؟ بماذا احتفظت بذاكرتها من حياتها عندما كانت فتاةً صغيرة؟ ما الذي بقي في داخلها من حياتها في داجو في أقليم دارفور؟ كم لها من الأعوام في العبودية؟ إن الوقت يمر بلا نقاط علام، وهي تحاول أن تعد أعياد الله، وفصول هطول المطر، ولكن ذلك كان مشتتاً ومحبطاً. هي لا تريد البقاء مقيدةً بسلسلة، ولا تريد أن تكبر في منزل الجنرال التركي. هي لا ترغب أن تحمل بأطفال من السيد يوماً ما، وأن يحرمها منهم. لم تكن تعرف كيف تضع علامات في الزمن، فهذا الأخير يمضي ويجرها معه في حركته. كانت مخاوفها كالهاوية السحيقة، ولكي تنسى ألمها كان عليها أن تنحني على كعبها الذي يشبه كعب امرأة عجوز، وتتحدث إليه وتعالجه. دون أن تدري أو تنتبه كانت بهذا تجد وسيلةً للنجاة.

بلغت قرابة الثالثة عشرة من عمرها، وأصبحت فتاة شابة بثديين مشوهين وبعلامات واضحة على أمومة ممكنة، فخشيت أن يبدو الأمر واضحاً، وأن يعلم بأمرها السيد الذي لايغيب شيء عن نظره. إن كل ما ينتج عنها مثير للّوم، كل ما هي عليه وما تقوم به، وحتى ما تراه وتسمعه. فهي ليست مطلقاً في المكان المناسب وكل شيء يدينها.

ذات صباح شهدت هي وهوى شجاراً اندلع بين الجنرال وزوجته. كانتا في غرفة السيدة التي *لا يجب على بخيتة لمسها*، كانت مرتدية ملابسها ومصففة شعرها كما تحب أن تكون بمظهر ثري، وتضع طرحة بكل

الألوان. وقفتا مطرقتين برأسيهما وتضعان يديهما خلف ظهرهما بلا حراك، صامتتين تماماً كالسجاد والمخدات من حولهما تنتظران صدور أمر. في ذلك الصباح كان ضوء الشمس بارداً في مدينة العُبيد؛ فالشتاء حل باكراً ليجعل كل شيء شاحباً وحزيناً وبطيئاً. على عكس العادة لم تصرخ زوجة الجنرال بل هددته بكره بارد كمياه بئر في الشتاء. تلفظت بكلمات بالغة الفظاظة لدرجة أن الجنرال الذي يقود الجيوش ويأمر بالهجوم ويكدس الميداليات، هذا الجنرال أطرق برأسه تحت وقع هذه الكلمات كما لو أنه عبد، ثم رفع رأسه واقترب من زوجته، وعندما أصبح قريباً جداً منها، رفع يده لبرهة إلى أعلى مستوى وجهه، وكانت ترتعش من الغضب. سمعتا صوت أنفاس تختنق وزفرة حارة، ثم أنزل الجنرال يده ونظر إليهما هي وهوى. قريباً سيقرع الناقوس.

دفعهما جنديان إلى أرض الباحة، وبدأا بجلدهما. طال الأمر حتى ظنتا أنه سيستمر مدى الحياة. بعد هذ اليوم ستظل ندبة على فخذها كحفرة من اللحم المنزوع بفعل ضربات السوط. كان السيد يشاهد التعذيب وعندما هدأت نفسه فعلاً أعطى للجنديين إشارةً بالتوقف، فتوقفا.

نُقلت كل من بخيتة وهوى وقد فقدتا وعيهما وغرقتا بدمائهما إلى حصيرتيهما حيث بقيتا طريحتين لأكثر من شهر. لم يكن من الممكن أن تعيشا خارج أسوار الألم فقد تجاوزت الآلام عتبة وعيهما، فلم تعودا تفكران بشيء سوى أنهما تتألمان. لم تلقيا أية رأفة أو نجدة من أحد، لم يقم أحد بالنزول عند جسديهما المتوسلين، فهذا أولاً ممنوع، وثانياً لأن الرحمة يمكن أن تضعف العبيد الأكثر تحملاً، وهذا أمر خطير يمكن أن يكون قاتلاً. يتمتع جميع

العبيد الموجودين هنا بإرادة حديدية وقوة وتحمل كبيرين. هؤلاء العبيد نجوا بحياتهم، ولن يخسروا هذه المعركة بسبب تعاطفهم مع أَمَتين تعرضتا للجلد؛ فالتعرض للجلد أمر يومي واعتيادي. كثرٌ كانوا مثل بخيتة في ريعان الشباب خائفين لا يجدون أمكنتهم في المنزل، ولا يتمكنون من الثبات وهذا أمر لا يجب حدوثه. فكل عبد له مكانه وما من عبد تم شراؤه أو بيعه بمحض المصادفة. وما من عبد يعيش أو يموت صدفةً، أو يُجلد أو يُعنّف صدفةً. هم مخطئون كونهم يشعرون أنهم تحت رحمة عنف غير منتظر، فالأسياد يعتنون جداً بمنازلهم ويستطيعون فعل ذلك جيداً. ومع ذلك في الأعوام ١٨٨٠ كان هؤلاء الأسياد يجهلون خطراً يتربص بهم؛ فهناك رجل اسمه *المهدي "منقذ الإسلام"*، وهو رجل دين سوداني مناهض للاحتلال المصري وعد الشعب الخادم والمغتصب حقه بتحرير السودان وبإحياء الإسلام. كانت الحكومة التركية-المصرية تجهل مدى غضب الشعب وقوته، فلطالما كانت القوة لصالحه، وتنتمي إليه كما ينتمي الرجال. كانت هذه الحكومة تحكم وتقمع كما لو أن العالم بأسره سيظل دوماً في قبضتها المُحكمة، إلا أن هذا العالم يتصدع، وقريباً سينهار وينفجر.

خلال هذه الأشهر المليئة بالألم، كانت بخيتة ممددةً على حصيرتها، وهي ما زالت على قيد الحياة وفيها بعض القوة، لكنها كانت تعيش خارج حدود هذا العالم، محاصرة بالألم. كان جسدها يعمل على إنقاذ نفسه وعلاجها، وشيئاً فشيئاً أخذت تستعيد وعيها وسمعها. سمعت أن الأرض تهتز من تحتها؛ كان تهتز من أجسام العبيد المارين من أمامها، والذين ينامون في المكان نفسه، وعلى الحصيرة نفسها. كانت الأرض تحتفظ بآثار هذه

الأجسام وبتنفسها وحرارتها، مع دموعهم وثقل دمائهم. كانت تتذكر كل شيء، كيف كانوا مختلفين، فلا يمكن لأرواحهم أن تختلط، وكان لكل منهم الكثير ليرويه كالأماكن التي رآها والحيوانات التي يحبها، والأوقات التي يفضلها من اليوم، والطعام الذي كانت أمه تحضره له، والشخص الذي يحبه سراً والهبات التي مُنحت له، فالأرض تتذكر كل شيء. وهذه الأرض تقول لبخيتة إنّ هذا ليس عدلاً، فمكان العبد ليس صحيحاً، ولا يوجد على الأرض فتاة صغيرة مثلها، إذ لا يمكن الحلول مكانها. ربما هي لا تذكر جيداً وجه أمها وربما لم تعد تعرف رسمه على الرمال، لكنها لم تنس جسدها المستند إلى جذع شجرة الباوباب، وهي تنتظر شروق الشمس، وهذا أمر يحتسب لها. لقد تغير وجه أمها وسيتغير لاحقاً لكن يبقى حبها للصباح الوليد خالداً. ظلت بخيتة أياماً وليالي تستمع للأرض، وذات صباح نهضت من مكانها، تمايلت وهي تستند إلى جدران المبنى لتخطو بعض الخطوات، ونظرت أمامها، وجربت المشي على قدمها التي تؤلمها ذلك لأنه لا يجب أن تظل مريضة لوقت طويل، ولا أن تصبح أَمَةً بلا فائدة، ولا أن تموت. لقد تحدثت الأرض إليها، هذه الأرض المقدسة التي يبجلها أبناء قبيلتها، تحدثت معها ولهذا نهضت من رقدتها.

تقدمت بخطاها الضعيفة ولكن بإرادة قوية في عالم يقع على حافة الهاوية، فعصابات المهدي ازدادت رجالاً وعتاداً. جمع العبيد الجنود لدى السيد أسلحتهم، فالرجال الآن في طريقهم نحو معركة في سبيل بلدهم. اندلعت معارك دامية، وازداد العنف ضراوةً واختمرت الثورة. في تلك الأثناء في منزل الجنرال التركي كانت الحفلات عامرة، فقد تم شراء

أمَتين شركسيتين وعبد مخصي. في منزل الجنرال التركي كانت الحياة مليئة بالفساد والعجرفة.

استيقظت زوجة الجنرال ذات صباح وفي ذهنها فكرة جديدة أسعدتها كثيراً لدرجة أنها لم تستطع الانتظار؛ "إنهن جميلات جداً!" *جميلة*، نطقتها بالتركية. أخذت تنظر إلى ثلاث إماء وأشارت إليهن، وهي تصيح كما لو أنها نسيت شيئاً موجوداً أمام ناظريها. "جميلة!" صرخت بالتركية لحَماتها، وأشارت إلى الإماء الثلاث وهنّ بخيتة وهوى وأمَة ثالثة صغيرة العمر تبلغ السادسة على أكثر تقدير، وقد وصلت منذ وقت قصير، فلم يكن السيد قد منحها اسماً بعد ما زال ينده لها ب"يا بنت" أو "تلك التي لاتستحق اسما". لم يبدُ عليها أنها تفهم شيئاً مما يجري وما الذي تفعله هنا في قسم النساء، حيث تقدم بحماقة طبق الوضوء وإبريق الغرغرة، وتفرش الناموسيات حول الأسرّة وتجلب الفانوس والسيجار ومنفضة الرماد. كل هذا وعيناها مندهشتان لدرجة أنها تنسى أن تنزلهما أرضاً، فهما تبحثان عن بعض الرضا لكنها لا تجد شيئاً. أحضرها السيد ذات مساء من السوق مع ثلاث فتيات أخريات شاركن في حفلات الرجال. لم تكن الصغيرة "يا بنت" تتكلم العربية ولا التركية، ولم تدرِ بخيتة من أين هي، فلا شيء في تصرفاتها يسمح بفهم قصتها. لم تكن تشتكي؛ بل كانت لا تكفّ عن فتح عينيها الكبيرتين السوداوين كسؤالين خالدين فيبدو عليها أنها تنتظر شيئاً لم يأتِ!

أشارت زوجة الجنرال إليهن وهي تصيح "جميلة" بالتركية بنفاذ صبر شاركتها فيه حماتها التي وافقتها الرأي. اقتربتا من الإماء الثلاث اللواتي كانت أيديهن باردةً وأظافرهن طويلةً. بدأتا بتقييم جلودهنّ ومداعبتها،

وأحياناً بحكّها وأخذتا تصفقان؛ "ولكن لماذا لم تفكرا بذلك قبلاً!". تراجعتا لتنظرا إليهن ولتقيماهن بشكل أفضل. ظنت بخيتة أنهما ستبيعانهن معاً كصفقة. ظنت أنهن سيرحلن للخدمة في مكان آخر، لكنها كانت مخطئةً فلن يتم بيعهن بل ستقومان بتزيينهما.

ترغبان في أن تكونا فخورتين بهن، وأن تُريا صديقاتهما كم هنّ جميلات، وأنهما تمتلكانهن، وذلك من خلال علامات تقول هذا؛ رسومات وعلامات كرسم راية أو شعار، فهما لا تفضلان ماهو رائج كما يفعل بعضهم بإلباس العبيد، وتجدان أنه من المضحك ارتداء عبد ثياباً، كقرد يرتدي خفاً بقدميه. كلا، بالنسبة إليهما، تفضلان العبيد العراة الذين يغطون جلودهم برسومات. هذه الجلود السوداء التي تظهر ثراء أسيادهم.

اصطُحبت الإماء إلى غرفة لا يعرفنها؛ كانت مظلمة بستائر سميكة تغطي النوافذ وتمنع نور النهار، ويغطيها غبار كثيف. كانت بخيتة تنظر إلى هذا الغبار طوال الوقت الذي دام طويلاً. استُدعيت الواشمة وهي *الأفضل*، أتت وهي تحمل معها أوراقاً عليها رسومات لتراها السيدتان. كانت بخيتة تراقب الغبار الذي كان تحت عينيها المنخفضتين يبدو كرمل غير متحرك، رمادياً وثقيلاً. تفحصت السيدتان الرسومات لاختيار ما سترسمه الواشمة، وحارتا في الاختيار؛ فهناك الكثير من الخيارات وكلها جميلة، *"جميلة"* رددتا بالتركية. حقاً جميلة جداً. لم تكن بخيتة تدرك بعد نوع الخطر المتربص بها، لكن صوت قرع الطبول عاد يتردد في داخلها، وعلا صوته إلى أن اختفى من أمامها مشهد الغبار. كانت "يا بنت" تقف كعادتها لطيفة وساكنة تئن برقة، فلمست بخيتة أصابعها فالتقطتها الصغيرة بكل

قوتها. كانت أظافرها طريةً كمنقار عصفور صغير، وأصابعها متعرقةً من الخوف. تعلم بخيتة أنها تناجي أمها فشدت بيدها على أصابعها الصغيرة خوفاً من أن تفسدهما العبودية؛ فهذه الأصابع صغيرة جداً ولم تختبر سوى أمور قليلة. بعد ذلك فهمت بخيتة ماذا ستفعل السيدتان بهنّ!

اتفقت السيدتان أخيراً على الرسومات التي ستضعها الواشمة على الفتيات؛ "*سيكون هذا رائعاً!*" لكن فجأة عادتا لتختلفا، فعلت نبرة صوتيهما، وانهالت الشتائم فيما بينهما. خشيت كل من بخيتة وهوى من قرع الناقوس، وشعرتا بالضياع وبالذنب، فالحق يقع عليهما في هذا الشجار، وبهذه الحيرة لدى السيدتين. هما تتحدثان عنهما، إذن فهو خطؤهنّ. أخذت الصغيرة تبكي ورفعت وجهها المغطى بالدموع نحو بخيتة التي ابتسمت لها، وظلت ممسكة بيدها، فأرجحت يدها قليلاً نحو الخلف والأمام كأنها تلعب. أرادت بخيتة أن تهدهدها كلها، وأن تحملها وتضم وجه الصغيرة إلى عنقها، ولم تعد ترى أو تسمع شيئاً، كانت تتنفس رائحة بشرة الصغيرة فقط؛ من ثم عادت بخيتة لتقلق من جديد، وتساءلت أين سيكون الوشم في أي جزء من جسدها سترسم الواشمة. فهذا كان سبب الشجار الذي لا يمكن تهدئته بين السيدتين. استدعت السيدتان الجنرال ليأتي، عمن سيدافع؟ عن زوجته أو عن أمه؟ من سنربح منهما؟ سريعاً ما سُمع صوت قرع حذائه بمشيته الذكورية الغاضبة.

تمنت بخيتة أن تكون غباراً، تمنت لو كانت مكان الستارة على النافذة، تمنت حقاً أن تتحول إلى شيء جماد وألا تعود أمةً، أن تكون شيئاً حقيقياً.

دخل الجنرال الغرفة حاملاً معه الخوف، بيد أنه لم يلمسهن ولم يبق وقتاً طويلاً، وهدّأ كلاً من أمه وزوجته. تكلمت أمه أولاً شارحةً أنها تريد وشم وجه الإماء *أيضاً*، وسألت إن كانت محقة"، نظرت كل من بخيتة وهوى كلّ إلى الأخرى، لكن الصغيرة لم تفهم الكلمات بالتركية. تريد وشم الوجه "*أيضاً*". الآن رغبت بخيتة أن يظل الجنرال وقتاً أطول وأن يلغي ما سيجري. فبهذه الطريقة لن توجد صيغة اتفاق وسترحل الواشمة لتدعهما تفعلان شيئاً آخر أو تنشغلان بأمر ثان كالغناء أو الرقص أو اللعب أو الخروج إلى لسوق. استدار الجنرال نحو زوجته وصرخ بها: "لا مجال للنقاش! ليس الوجه!". تباكت أمه قائلةً إن أصدقاءها يرسمون على وجوه عبيدهم *أيضاً*، هذا الرائج حالياً. فردت الزوجة: "إن هذا يفسد كل شيء" وشدت بذراعيها على صدرها، ورمقت زوجها بنظرة تحدّ تشبه تهديداً عائلياً. كانت أصابع الصغيرة "يا بنت" ترتعش في يد بخيتة كحيوانات صغيرة تريد الهرب. فكرت بخيتة "آه يا أختي الصغيرة، لا تركضي!"، وفهمت أن ما سيجري سيكون فظيعاً فهي قد رأت سابقاً وشوماً ولطالما أخافتها، هذه الانتفاخات على الجسد بأكلمه الذي يبدو كأرض محروثة؛ يبدو الجلد كأن حيواناً مفترساً قد خدشه، مشوهاً ومنتفخاً ومحترقاً. "أوافقك الرأي!" هذا ماقاله الجنرال لزوجته، فقد وافقها في الرأي بألا يتم وشم الوجه "*أيضاً*"

عاد الناقوس ليقرع فأنزلتا إلى الباحة. تركت بخيتة أصابع الأمَة الصغيرة التي كانت تنظر إليها بعينين تملؤهما الأسئلة الفزعة، فغمزتها بخيتة

بجفنيها سريعاً لتقول لها *"لن أترك يدك"* وعلمت أنها فهمتها، وهي تعلم أيضاً أنها سترافقها إلى الشهادة، وتمنت لو تعتذر إليها من هذه الحياة.

كان بانتظارهما جنديان في الباحة، وهما رجلان قاسيا الملامح طلبت زوجة الجنرال من أحدهما تنفيذ الأمر: وهو وضع الأَمَة الصغيرة "يا بنت" على ظهرها أرضاً وتثبيتها. في هذه الأثناء أُحضر للواشمة دلوان فيهما طحين وملح.

لم تحمِ بخيتة الصغيرةَ "يا بنت" ولم تواسها بل نظرت إليها، كانت ترتعش حتى أن الواشمة اضطرت إلى إعادة رسوماتها بالطحين على جسمها ثلاث مرات. رفعت الواشمة عينيها إلى السيدة بنظرة لوم فأشارت هذه الأخيرة إلى لعبد بتهدئة الصغيرة "يا بنت"، فقام العبد بصفعها الأمر الذي جعلها تتجمد مكانها بضع دقائق. بدأت الواشمة بالرسم وكانت أصابعها ترقص تاركةً رسومات بدت جميلة بزخرفتها العربية. كانت حرفية ماهرة خلقت ضوءاً من البياض المرسوم على السواد فكان العمل فنياً، ثم أخرجت من مئزرها شفرة ومضت بها فوق رسوم الطحين حافرةً اللحم ثلاثاً وعشرين مرة في العمق. بدأت من البطن الذي انفجرت منه الدماء كما لو أن العجوز كانت تفجر ينابيع حمراء، ومرت بعدها إلى الذراعين والفخذين النحيلتين والقصيرتين. كانت الصغيرة تصرخ كحيوان بري، وغرقت يدا الواشمة وقدماها بالدماء، لكنها لم تهتم لذلك فقد استمرت بعملها حتى النهاية. وما إن انتهت من رسم الندب حتى قامت بفتح كل جرح وملئه بالملح، ثم ضغطت بقوة لكي يدخل الملح جيداً. بدأت صرخات الصغيرة تضعف وأخذت تصرّ على أسنانها، ثم همهمت وسكتت.

كان جسدها كأرض هائجة ومقلوبة رأساً على عقب، ثم أصبحت كحيوان وقع طريح الأرض بلا حراك. أفلت الجندي قبضته فقد انتهت المهمة. أشارت السيدة برأسها لكي يحملوا الجثة الصغيرة. نهضت الواشمة وجلبوا لها إبريقاً فغسلت يديها وشربت كأس شاي بالنعناع ودخنت قليلاً. ركعت بخيتة عند قدمي السيدة وتوسلت إليها أن تدعها وشأنها بينما أخذت هوى تنوح وتتوسل مثلها. نظرت السيدة إليهما بقرف وهي منزعجة، وقالت كلمات قاسية، ثم أمرت العبيد بجلدهما، فهي طريقة لتهدئتهما قبل الوشم. تلقتا جلدات تمنت كل منهما لو تفقد وعيها على أثرها، وألا تكون حاضرةً لما سيجري، وأن تنسى ما رأته وما سيحدث، لكنهما لم تفقدا وعيهما وعند انتهاء جلدهما، اقتربت السيدة من بخيتة ونظرت إلى عينيها بهدوء، وقالت لها بصوت منخفض:

- أنت! ستشاهدين حتى النهاية.

بدأت الواشمة بهوى، ورأت بخيتة ما جرى حتى النهاية، حتى حان دورها.

لم تحمِ بخيتة الفتاة الصغيرة وعندما خرجت من المبنى بعد أن قضت فيه شهراً، بحثت عنها في كل مكان؛ كانت تريد معرفة إن بقي منها أي شيء، أي شيء يمكن أن تضعه تحت التراب وتهبه إلى الأرواح لكن طبعاً فات الأوان، ولم يرغب أحد بالحديث عن الصغيرة "يا بنت" التي لم تستحق اسماً ولا مدفناً. عندها نظرت بخيتة إلى السماء قبل شروق الشمس وطلبت من النجوم السماح؛ لكن النجوم ظلت باردةً، فخفضت بخيتة عينيها، ثم طلبت السماح من الأرض لكن الأرض ظلت صامتةً. كانت

بخيتة آنذاك قد بلغت *تقريباً* ثلاثة عشر عاماً قضت منها ستة أعوام في العبودية، وعادت من جديد لعجزها وخوفها كما كانت في الأيام الأولى عندما قالت لها الصغيرة بيناه: "هذا ما يسمى بالعبودية" *عبيد*، وعندها فكرت بأختها قبل أن تفهم أنها هي أيضاً *أَمَة* كالأخريات لا أكثر ولا أقل؛ فجسدها يخضع لملكية حصرية للأسياد، أما قلبها فقد تحجر وروحها لا تدري أين تعيش. هي لم تحمِ الفتاة الصغيرة، كما أنها وجدت كيشمه ولم تستطيع اللقاء بها، وأضاعت بيناه. إنها تعيش في عالم مجنون يفترس نفسه، فجيش المهدي يتقدم وهي لاتعلم شيئاً عن الموضوع، وفي اليوم الذي خرجت فيه من المبنى لتلقى عالم الأحياء كانت شبيهة بمن تم انتزاعها من نفسها. كانت ندوبها منتفخةً برغم الملح وما زالت تنزف وتصدر رائحة كريهة. لقد تم تزيينها بمئة وأربعة عشر جرحاً على بطنها وصدرها وذراعها اليمنى. كانت هذه الأيام التي أمضتها في الألم بالقرب من هوى محاولة النجاة بحياتها، هي الأيام الأخيرة في محنتها لكنها لم تكن تدري ذلك. لقد أمضت ثلاثين يوماً تجاهد وتحاول التغلب على الألم وعلى الالتهاب والعطش الرهيب الذي سببه الملح المكدس في الندوب. في سباتها الشبيه بالغيبوبة، كانت بخيتة تجد نفسها دوماً تمضي في طرقات طويلة بلا ماء في القافلات، تمشي ساعات تحت الشمس محاولةً ألا تموت. فقد كان الجفاف في جسمها يسبب لها الدوار حتى وإن لم تتحرك. كان دماغها يتمايل، وكان التبول يسبب لها ألماً لا يحتمل. كان فمها جافاً ولسانها مغطى بالتقرحات. عانت من الحمى وأخذت تهذي فأضحى جسدها معلقاً بين الحياة والموت، ومن ثم تأقلمت مع ما جرى لها، مع هذا اللحم المجروح وهذا الجلد

المحروق والمنفوخ، ومع هذه الندوب التي ستظل ترافقها مدى الحياة، طالما يوجد فيها رمق للحياة. كان يوضع أمام حصيرتها كل يوم قدر من الماء، ولم تكن دوماً تقوى على التقاطه. لقد كلف عمل الواشمة كثيراً، ولم ترغب السيدتان أن تقضي بخيتة وهوى نحبهما، فهما احتفظتا بمفاجأة لصديقاتهما، وتعلمان بالضبط في أي طريق ستجعلانهما تمشيان لتعرضاهما في المدينة، ولأي قسم نساء ستصطحبانهما.

ليس لديهما الكثير من الوقت لفعل ذلك، فقد تابعت السيدتان حياتهما كما لو أنهما ملكتين، إذ استمرت زوجة الجنرال بجلد العبيد كثيراً كل صباح قبل الصلاة الأولى حتى انتهى هذا النظام ذات يوم عندما أعطى الجنرال أمراً بالتوقف عن جلد العبيد، ومن ثم غادر مدينة العُبيد. رحل لا أحد يعلم إلى أين، ولكن هذا الأمر الذي أعطاه بعدم توجيه ضربات السوط إلى العبيد، هذا الأمر كان مرعباً؛ فقد كان العبيد مذعورين ويشعرون بأن هناك شيئاً يتم تحضيره لهم، وأن شيئاً سيجري لهم. لقد تم التوقف عن جلدهم؛ ولكن ما الذي سيجري *لاحقاً*؟ لم تعتد أجسامهم على ألا تجلد. كانوا يرتعشون بانتظار الجلدات، فجلودهم جاهزة وفكرهم مرتاب؛ إنهم يراقبون الضجة وأصوات الخطوات كل مساء من المبنى ويتساءلون فيما بينهم: من سمع السيد يتكلم؟ من كان في السوق؟ من رافق السيدتين إلى المدينة؟ ماذا قال الضيوف والمخصيون وحمال المياه والخادمات والجنود؟ من يعلم أي شيء؟ ذلك لأن التوقف عن جلدهم يهدف حتماً إلى رفع سعرهم، فالسيد بحاجة إلى المال، ولكن لأي شيء يحتاجه؟ سيُباعون لكن لأية غاية؟ سيُفرقون عن بعضهم ويشتتون بلا رحمة. كانت الإماء

الحوامل ينتحبن ليلاً في سباتهن، وظل المتزوجون حديثاً ساعات طويلة دون أن يتحدثوا بعضهم مع بعض، وأخذت كل أم تنظر إلى صغارها بحب مذعور. فقد كان الليل يشهد تكرار الكلمات نفسها كأنها في مسبحة، عبارات الحب نفسها ستنتهي. أما العجائز فقد التزموا الصمت. لقد شهدوا كل شيء ولم يعودوا ينتظرون أو يتخوفون من شيء، إلا أن القرف كان بادياً عليهم. كان المرضى يتوسلون العاملات في المطبخ ليحضرن إليهم أعشاباً ومستحضرات تعجّل في موتهم، فهؤلاء يعلمون أنهم لن يرحلوا من منزل الجنرال، بل سيتركون في المبنى حيث سيموتون من الجوع والعطش؛ لذا فهم يحاولون اختيار موت أكثر لطافة. كانت كل من بخيتة وهوى تتحدثان بالعربية فيما بينهما فهي لغتهما المشتركة، وما يجمعهما ببعضهما لايمكن أن يروى. لديهما أجسام متشابهة ومشوهة بسبب الخدمة اليومية للسيدتين مع جلدات السوط والإهانات والتعب والخوف، إضافة إلى الصغيرة "يا بنت" التي قضت نحبها مثل كثيرين تحت وقع التعذيب الذي تمارسه الواشمة عليهم؛ قُدّمت قرباناً ولكن دون إله أو طقوس.

في يومٍ بعد الظهيرة، خلدت السيدة إلى النوم فتخلت بخيتة عن تهويتها للحظة واحدة. مررت قبضتها على جبينها لتمسح العرق. نظرت إلى يديها فكانتا كجناحين سوداوين مفرودين؛ نظرت إليهما وفجأة تذكرت أصابع بيناه وأصابع تلك الأمَة الشابة من الطويشة، وأصابع الصغيرة "يا بنت". شعرت بتلك الأصابع الطفولية توضع من جديد في يدها بكل لطافة كما لو أنها من ريش، ثم أخذت هذه الأصابع تتخذ شكلها، ثم ارتفعت وتمايلت كأنها ترقص. نظرت بخيتة إلى كفها المفتوحة، فكانت يد أختها

التوءم هي يد صديقتها نفسها، ويد الصغيرة نفسها من أولغوسا التي كانت بخيتة تروي لها القصص؛ جاءت كل هذه الأيدي لتحط على كفها، أتت كل الأيدي التي كانت تحبها أثناء حريتها. بعد ذلك شعرت بخيتة بيد أخرى تحط على يدها، كانت يداً كبيرة وناعمة تعرفت بخيتة بها من خلال دفئها العميق وإمساكها المطمئن؛ إنها يد أمها لامستها وانغلقت بلطف على يدها بسيطرة هادئة، عندها فهمت بخيتة أن أمها قد سامحتها. ضغطت بخيتة بلطف على القبضة ولم تعرف ما الذي سيجري في هذا العالم التائه ولكن الآن وإلى الأبد، هي تشعر بيد أمها في يدها، وتشعر بأن هذه اليد تقول لها: *لن أترك يدك*.

ظل العبيد على حالهم وبما أنهم لم يعودوا يتعرضون للجلد، كان بإمكانهم أن يثوروا ويتمردوا ويثأروا ويلوذوا بالفرار، لكنهم لا يعلمون ما الذي يجري؛ فلطالما كانت الحرب مشتعلة بين الميليشيات والجيوش في اشتباكات مستمرة، ويساق الرجال إلى الحرب إضافة إلى القرى والزرائب التي تُجتاح منذ وقت طويل، فهم ولدوا في قلب هذا العنف. إلى جانب أنهم جوعى وعطشى وما من مكان يذهبون إليه، فهم يتكلمون العربية بصعوبة، إنهم نصف عراة ومحطمون كلياً، ومازالوا يحتفظون بعضهم ببعض ويخافون من أن يفترقوا، فأخذوا يعملون بجهد أقل. صدف ذات مرة أن لمست بخيتة سيدتها بالخطأ، وهي تصفف لها شعرها، وعندما تراجعت منتظرة الضربات، سمعت صوت الأشياء ترمى أرضاً. فالسيدة أفرغت غضبها بكل ما يحيط بها ما عداها هي؛ ولكن الكلمات التي زأرت بها كانت موجهةً إليها، كانت كلمات مليئة بالغضب. ظنت بخيتة أن أحدهم قد سحر هذه

المرأة، لأن هذا الغضب الذي يعتريها نحو أمَتها شبيه بجبل تحاول حفره دون أن تتمكن من ذلك مطلقاً، كانت تبدو كأنها مقيدة بسلاسل خفية، ولكن بخيتة كانت تراها.

عاش العبيد على هذه الحال بضعة أشهر، كانت حياتهم تمر كالضباب البطيء وتمتلئ بالشك. وذات ليلة سمعوا حصان السيد يصهل بصوت أسوأ من صوت قرع الناقوس. استيقظوا جميعاً وخرجوا إلى الباحة. كانت تلك هي المرة الأولى التي يجتمعون فيها سوياً رجالاً ونساءً ومن كل الأجيال ومن مختلف القبائل. منهم من كان نائماً في المباني، ومنهم من لم يكن قد ترك الأسياد قبلاً، بل كان في خدمتهم ليلاً نهاراً، إضافةً إلى سائسي الخيل والشراكس والطباخين والمستشارين والحدادين والعبيد المقربين من السيد والعبيد المهملين. إنه مجتمع كامل سينهار في ليلة واحدة؛ قام العبيد الجنود بمساعدة السيد كالعادة. وقف العبيد الآخرون ينتظرون. بدوا كالليل في سوادهم. يقفون نحيلين في البرد القارس. وقف المتحابّون يمسكون بأيدي بعضهم وهم يصلّون، إلى جانب أولئك الذين اختبروا هذا الخوف القديم الصاعق، وأولئك الذين يقفون مستعدين، جميعهم كانوا بانتظار التضحية. سيبيعهم السيد لملكيات خاصة، فقد قام بصفقات، ووضع لائحات لمؤسسات. تم دفع العبيد وتفريقهم بعضهم عن بعض، كانت بخيتة تقف في آخر الباحة إلى اليمين بالقرب من برج الحمام، لم تلتق بهوى، فبحثت عنها بنظرها، لكن لم تميز أحداً من أحد. كانت تسمع في الليل أصوات صرخات متفرقة لأولئك الذين يلقون تحية الوداع مع كلمات سريعة يتوجهون بها إلى أحبائهم. أخذ السوط يفرقع في الهواء فامتزجت الدعوات بالتوسلات،

وصرخات الأطفال الحادة بنواح العجائز الغليظ، وبصرخات الأمهات اللواتي فقدن صوابهن. سطع نور من نافذة السيدة فرفعت بخيتة عينيها. كانت زوجة الجنرال تقف وحيدة في قسم الحريم، وتشاهد تجمع كل ما ستخسره دون أن تفهم هذا الظلم.

قرر الجنرال أن يعود إلى تركيا برفقة أسرته. فهم سيغادرون السودان على وجه السرعة. تمت التحضيرات في ذعر كبير، إذ كان يتوجب على الأسياد ترك كل ما يملكون في مدينة "العُبيد"، فخسروا ثرواتهم كما ينساب الماء من بين الأصابع، وغرقوا بذعر بالغ. لم يتبق لهم سوى القليل من العبيد، بالكاد عشرة عبيد. تحول إيقاع الأيام إلى فوضى عارمة. كانوا يشعرون بالانهيار دون نجدة. وفجأة لم يعد يعجبهم شيء، ولم يعودوا يحتملون شيئاً، لقد تبين لهم أنهم ما أحبوا هذه البلد قط برياحها المستمرة وبرطوبتها الزنخة وبلياليها المتجمدة، وبهذه الصحراء المحيطة بهم من كل جانب. بدا الأمر كأن منبهاً قد رنّ وجعلهم يفتحون أعينهم وينظرون إلى مكان معيشتهم. عندها رأوا العدائية والتهديد يحيط بهم، فهو عالم لا يتكلم بلغتهم ويتعامل بسوء مع عاداتهم. استعجلوا الآن الفرار لكي يعودوا إلى موطنهم ويستعيدوا أماكنهم.

بقيت بخيتة مع الأسياد؛ فهي لم يتم اختيارها نظراً لجمالها هذه المرة، بل بسبب حنكتها في خدمة زوجة الجنرال التي صنعت هذه الفتاة من خلال ما تحمل إلى الأبد على بشرتها الموشومة. هي من كونتها وصنعتها، فبخيتة ليست سوى فتاة من صنعها. سمح لها الجنرال بالاحتفاظ بها، بينما بيعت هوى إلى مالك زراعي كبير، وحصل السيد من بيعها على مبلغ مضاعف، إذ

كانت تنتظر طفلاً. لم يحتفظوا بأي امرأة حامل، فهم سيسافرون على ظهر الجمل إلى الخرطوم التي تبعد أكثر من ستمئة وثلاثين كيلومتراً إلى الشمال، وهذا يتطلب عبيداً أقوياء وفعالين.

لطالما شكّل الرحيل بالنسبة إلى بخيتة أملاً، ولم تفهم أن مغادرة "كوردوفان" بالاتجاه إلى الشمال بمحاذاة البحر الأحمر، يعني أنها تبتعد عن دارفور. عندما صعدت على متن الجمل ولدى رفعها على ظهر هذا الحيوان العملاق، خبأت ذعرها وتمسكت بكل قوتها ونظرت إلى العالم من الأعلى؛ إنها قريبة من الرياح التي ترقص بين الأشجار وتحرك الرايات وترفع الرمل والغبار؛ إنها قريبة من السماء. نظرت إلى البعيد فرأت الحقول والصحاري والمرتفعات. بدت مدينة "العُبيد" أصغر مما تعتقد. من أين أتت منذ أربعة أعوام؟ أين توجد دارفور؟ بالكاد كانت تعرف أنها تقع في الغرب وبالكاد كانت تعرف أين هو الغرب. تذكرت المشي غير المنتهي مع المناظر الطبيعية التي كانت تتغير ماحية وراءها آثار قريتها. لم تعد تدري أين ولدت! مع ذلك كانت مشاعرها جياشة كما لو أن اللقاء ممكناً، كما لو أنها منحت الآن الفرصة لتجد ذويها. كانت خائفة من إضاعة الوقت، عبست وهي تدير برأسها بكل الاتجاهات كعصفور يهم بالطيران، إلا أن الصحراء كانت تمتد أمام ناظريها على مدى هذه الأيام من السفر؛ لم يكن هناك سوى الكثبان الواسعة والمرتفعات الخالية والأفاعي المختبئة، والظلال الممتدة، والرمال الراقصة مغطيةً الأعين والفم وكل جزء من الجسد. كانت بخيتة على السرج تشعر بجرح فخذها الذي لم يلتئم بعد، كان الجرح مفتوحاً وينزف، خبأت هذا الجرح قدر استطاعتها، فهي تعلم أنهم سيتركونها على الطريق عند أول

علامة ضعف لها. كانت يقظة ومطيعة، لكنها ما زالت غارقة في التعب والعطش والألم، وما زالت تبحث عن أولغوسا.

كان الحر خطيراً فهو يحطّ بثقله على القافلة ليخنقها؛ لذا كانوا يرتحلون في أغلب الأيام ليلاً مهتدين بالنجوم. كانت الليالي باردة متجمدة، وهم يتقدمون ككتل متأرجحة على الجمال المتمايلة في مشيتها. كانت عصبية الأسياد توازي مستوى قلقهم، فترنّ أوامرهم في الليل ليرتطم صداها بالحجارة فتلتقي بصدى أوامر الأسياد القدامى الذين مروا من هذا المكان، وتلتقي بزعماء الحرب وبالعبيد وبكل حالات الهروب والانسحابات وعمليات التهريب والمقايضات؛ كل هؤلاء تستقبلهم الصحراء بسعتها ذات اللون الزهري والأزرق، وتستقبل قافلة رجال لم يجدوا الراحة. تستقبل هذه الظلال التي تعود لأناس يتأرجحون على متن هذه الجمال الأنيقة والشريرة، لأناس يحملون على أكتافهم عالماً ينهار بأكمله.

بحثت بخيتة عن قريتها فوجدت مدينة بانت لها بعد هذه الليالي من السفر؛ إنها الخرطوم ظهرت للعيان عند الفجر بإضاءتها الزهرية التي كانت تتراقص مع إيقاع الجمال المثير للغثيان؛ رأتها بخيتة بعينيها الممتلئتين بالرمل والنعاس. بانت لها المدينة من بعيد بأطرافها المنارة في الليل الممتد. لدى رؤيتها للحماس الذي سيطر على الأسياد، وعلمت أن شيئاً سيجري هذه المرة أيضاً.

لم يدخلوا القرية بل توقفوا عند أطرافها عند أول نزل لاقوه. تبعت بخيتة السيدات ونامت أمام بابهم على الأرض، جاهزةً لتطيع الأوامر المستمرة والمتبدلة التي أصبحت أكثر تفاهة وعبثية. ازدادت هيمنة عائلة

السيد، فقد عاد كل شخص إلى عادته. عادت زوجة الجنرال تصفع بخيتة سواء أقالت نعم أم قالت لا! كانت تسحبها من شعرها وتبصق في وجهها لتهدّئ من ثورة غضبها، وتهينها بالعربية لكي تفهم ما تقول بشكل أفضل، ولكي يسمع الجميع، وتظهر بتحدّ كبير أنها تتمسك بهذه الصبية الحمقاء، فهي تكرهها وتريدها معها في الوقت نفسه. كانت السيدة تبكي بعنف في سريرها المحاط بناموسية مثقوبة في ذلك الفندق الوضيع المليء بالناموس والصراصير. كان الجو رطباً ما يدفعها إلى الجنون، إضافةً إلى شعورها بالعار لعدم امتلاكها سوى أمَة واحدة في خدمتها. هل ستكون حياتها أكثر وضاعة من هذه؟

كانت بخيتة خائرة القوى فقد تحول جسدها إلى شبكة من الآلام، إلى جانب روحها التي تبحث عن كيشمه. كانت المدينة قريبة منهم، وتبدو كبيرة جداً، ويقال إنها تشكل التقاطع التجاري الكبير، ففيها يتلاقى كل شيء، ويعيش كل شيء. يقال: إن النيل يتحول فيها إلى نهر موحد يشبه النيل الأزرق والنيل الأبيض، كما يقال إن مصر أصبحت قريبة من هنا إضافة إلى البحر الذي يسمى البحر الأحمر. الكثير من الأشياء تقال، ولم يعد الثعلب المحنط الذي يفتح فمه مرعباً، بل هي الحكومة المصرية، من تحكم الأسياد. أما هي فإنها *أمَة* تسحبها العاصفة كما تسحب الرياح الرمل. كانت تنام على العتبة ودموعها تحرق عينيها وتغسلهما من الرمل. وزوجة الجنرال تصرخ في نومها، وتقول كلمات تركية مخلوطة بالعربية. كانت بخيتة تضغط على يدها متخيلة أنها تمسك يد أمها، ثم تضع قبضتها في فمها لكيلا تبكي بقوة، فتعود رغماً عنها إلى لأمل من جديد.

بدا اليوم الثاني يوماً عادياً كغيره من حيث الأوامر والضربات والجوع والعطش والألم، باستثناء السيد الذي فقد سيطرته وثقته العارمة، إنه رجل عسكري عصبي يبدو تائهاً كأنه في ساحة معركة واسعة. كثيراً ما كان يقوم بالحسابات مرة تلو المرة، بينما تبكي السيدة رغماً عنها، فقد تحول زوجها إلى عقرب صغير. *عقرب!* هذا ما كانت تردده وهي تتبعه *عقرب!* تقولها سواء أكانت تغطي وجهها بالحجاب أم حاسرة الوجه. تقولها طالما فقدت صوابها وأصبحت مجنونة، *عقرب!*، *عقرب!* علمت بخيتة من عبد أنهم سيباعون. ألن ترحل إلى تركيا؟ مرر السيد رسالة مفادها "*عبيد للبيع*". هل سيبيعهم جميعاً؟ إنه بحاجة إلى المال، إلى المزيد من المال لكي يعود إلى أنقرة. لم تكن السيدة سعيدة، فالسيد قد تحول إلى عقرب يلسع حتى نفسه. لقد خسر اللعبة، إنه في عجلة من أمره؛ فقد أفلس.

لم تعد تحتمل السيدة أن تعتني بخيتة بها، كانت تود قتلها ودفنها تحت التراب. أرادت رؤيتهم يدفنونهم جميعاً تحت التراب، إضافة إلى حماتها التي تساعد ابنها بانتصار لاذع. أخذت بخيتة ترتب الفراشي والقلنوسات والحجابات، ثم وقفت مكانها جامدة، وهي تشعر بأنها عديمة الفائدة. وقفت تحسب: إن لم يحتفظ بها السيد، وإن تم شراؤها، فهو سيكون السيد الخامس لها. أليس هذا جيداً؟ أخذت تفكر وتتذكر الخاطفَين اللذين كانا بالقرب من شجرة الموز. تذكرت الطرقات الطويلة التي مشتها ومراكز الفرز وهروبها مع بيناه. تذكرت الراعي والأفعى في فم كلبه، وتذكرت سميراً والسيدتين الصغيرتين والسكاكين والجلدات والخسارات. كانت صغيرة جداً عندما بدأ ذلك، أما الآن فهي تعرف الكثير من الأمور،

ولاتعرف شيئاً في الوقت نفسه! لقد تجردت من عاداتها ومعتقداتها، ولم تعد تعرف كيف تسوق قطيعاً إلى النهر، أو تدق موسيقا السورغو أو أن تغني بلهجتها. تساءلت: هل سأتعرف إلى اسمي لو نطقت به أمي؟ طرحت على نفسها هذا السؤال، وفجأة سمعت أحداً ينادي: بخيتة! بخيتة، اقتربي! هكذا تم الأمر، بهذه البساطة. تلزمها خطوة واحدة لتجتاز الحدود، كتوقيع واحد لإيقاف حرب. ما تمنت حدوثه منذ سنوات طويلة حدث في دقيقة واحدة. اقتربت بخيتة فقد تم شراؤها للمرة الخامسة؛ اشتراها رجل يدعى كاليستو لينياني، وهو القنصل الإيطالي في الخرطوم؛ هذا الرجل سيغير مجرى حياتها.

عندما مثلت للمرة الأولى أمام هذا السيد، سينيور لينياني، سجدت بخيتة واضعةً جبهتها على الأرض وباسطةً يديها إلى الأمام، سمعته يأمرها بشيء لم تفهمه. قبلت قدمي السيد الواحدة تلو الأخرى ثلاث مرات، لكن السيد كرر الأمر، وقال هذه المرة: *تعالي! انهضي*. نهضت مطرقة العينين وقلبها يرتعش خوفاً. كانت تائهةً في هذا العالم الجديد الذي ترتكب فيه مرة أخرى أمراً ممنوعاً. *"انظري إلي"* قالها بالإيطالية فلم تفهم، ثم شعرت بيد السيد تحط عليها. تراجعت بدافع من غريزتها، فأمسك بفكها وأجبرها على رفع رأسها؛ علمت أنه لا يجب أن تتراجع؛ بل عليها أن تطيع كل شيء، لكنها لا تفهم ما يقول. تكلم من جديد بالعربية: *"انظري إلي"* لكنها لم تكن تعرف كيف تنظر إليه؛ كيف تنظر إلى رجل يقف أمامها ناهيك عن أنه سيد! سيطر الذعر عليها ونظرت إلى عينيه، فلم تتمكن من معرفة ما تعبران عنه! عضت على خديها لكيلا تبكي خوفاً من أن تطرد منذ البداية. كانت تنظر

إليه، وهي تدري أنه من الخطأ فعل ذلك. ترك ذقنها وابتعد. هز برأسه عدة مرات كما لو كان وحيداً ومتأسفاً، ثم أشار إلى خادمة بالاقتراب، وقال كلمات غير مفهومة أيضاً، فاعتذرت بخيتة عدة مرات قائلةً *آسفة! آسفة.* لكن فات الأوان فقد قامت الخادمة، وهي امرأة بيضاء البشرة، باصطحابها خارجاً. تبعتها بخيتة منزلة وجهها أرضاً دون أن تعلم أين يعيش العبيد في هذا المنزل، وفي أي ساحة يتم جلدهم. مشت على طول الممر، ووصلت إلى غرفة مظلمة ورطبة ومغبرة. أشارت الخادمة إلى حوض استحمام نحاسي كبير وطويل وخالٍ، وشرحت لها أن عليها النزول في الحوض. لم تكن بخيتة تعرف هذا النوع من التعذيب، فأطاعت الأمر.

في ذلك اليوم استحمّت بخيتة، فقد ساعدتها الخادمة عائشة على الاغتسال. شعرت بخيتة بعذوبة الماء المناسب على بشرتها. تذكرت نقاء مياه النهر وألعاب الأطفال على ضفّته، وتذكرت أمها. ظلت ساكنةً مكانها رغماً عنها؛ فهي مندهشة وحذرة. عندما تسللّ الماء إلى شعرها المجعّد الذي صففته الخادمة، ظنت أنهم يحضرونها لحفلة مع الرجال، لكنها في داخلها كانت تشعر بأن الأمر مختلف. نظرت الخادمة إلى الوشوم وإلى جرح فخذها المحفور وإلى الندوب على ظهرها وقدميها المشوهتين، ولاحت عليها ابتسامة حزينة مقتضبة، ثم سكبت الماء بلطف على كتفيها وعادت الصغيرة لتفكر أنهم ربما لا يحضّرونها من أجل الرجال.

قامت عائشة بعد ذلك بمساعدتها على الخروج من الحوض، ووضعت عليها منشفةً لكي تجف وأشارت إليها لتنتظر، ثم عادت ومعها ثوب طويل أبيض ذو حواف حمراء، ومرصع باللؤلؤ. وقفت أمام بخيتة صامتةً،

وبلاحراك مثل بخيتة. وقفتا لبرهة تنظران بعضهما إلى بعض وما زال الثوب الأبيض ماثلاً بينهما. كان شعر بخيتة ينقط على المنشفة، وبدا لها أنها استنفدت دموعها فهي لم تبكِ من إحساسها بالعرفان. وحتى في هذا الوقت الذي وقفت خلاله بصمت أمام عائشة، لم تكن تعتقد أن هذا ممكن، أنه من الممكن أن ينظر أحد إليها دون أن يهددها بشيء؛ لذا فقد مدت يدها لتتناول الثوب وساعدتها عائشة على ارتدائه. مررت رأسها، وغطت الأكمام ذراعيها، وانسدل القماش على كتفيها وعلى بطنها ورجليها وجسدها بالكامل. لم يكن يخرج من قبة الرداء الأبيض سوى سواد وجهها كأنه نقش في الضوء، فهو نجا من الوشم بمعجزة. أخفيت كل علامات العار، فقد كان الرداء كحجاب من العفة، وللمرة الأولى منذ خطفها شعرت بخيتة بوجود شيء يخصها هي وحدها دون الآخرين؛ إنه جسدها الذي كان هدفاً للفائدة وللكثير من العنف، لقد استرجعت جسدها، وعادت لتخفيه عن الآخرين ليصبح سرها الأول.

على هذا النحو ومن خلال هذا الجسد الذي استعادته، فلن يعود إلى الجلد أو إلى الاستغلال، بدأت بخيتة تتعرف ببطء إلى عالم إنساني. أصبحت تمتلك شيئاً خاصاً بها؛ هي ملك للسيد ولكن هناك جزء من حياتها أصبح محمياً. تعلم أن ذلك يمكن أن ينتهي بين ليلة وضحاها لسبب لن تفهمه، بسبب قرار لن يُشرح لها أو وداع ليس من حقها أن تحظى به. كانت ترتدي أساور وتضع لآلئ في شعرها، فكان هذا أمراً لطيفاً وخطيراً في الوقت نفسه.

سألت عبيد القنصل والخادمات إن كان لديهم معلومات عن كيشمه، وعندما سألتها إحدى الخادمات عن علامة فارقة تمكنها من التعرف إليها، لم تجد بخيتة جواباً. ذوقها؟ صوتها؟ ضحكتها؟ وشومها؟ لم تعرف بخيتة شيئاً. اسمها الجديد؟ أطفالها؟ أسيادها القدامى؟ لم تدرِ بخيتة شيئاً عن كل ذلك؛ لذا فقد حاولت أن تعد وتحسب الوقت الذي مضى، وتقول لنفسها إن كيشمه ربما قد تزوجت من جندي، وتعيش في أحد المواقع التي لا تعد ولا تحصى في الخرطوم، أو ربما هي تعيش عند تاجر غني في قسم حريم واسع كما يقال إنه يوجد منه هنا، ترقص لكي تسلي السيدات أو تقوم بما هو أسوأ من ذلك... لا تريد التفكير بذلك؛ حاولت استعادة ذلك الحدس الذي كانت تمتلكه في مدينة "العُبيد" عندما *علمت* أن كيشمه كانت هناك في المدينة نفسها في مكان قريب منها، ولكن الحدس قد رحل، ولم تعد تستطيع أن تجزم أن أختها تعيش في قلبها أو في المدينة.

ذات صباح استدعاها السيد إلى مكتبه؛ إنه رجل دمث الأخلاق يتكلم بصوت منخفض ورقيق لدرجة تجد صعوبة في سماع ما يقول. كان وجوده شبيهاً بعدمه، فلطافته تمحو وجوده. سأل بخيتة عن اسم قريتها، طرح عليها السؤال باللغة العربية لكي تفهمه جيداً. كان سؤالاً مفاجئاً وحاداً وربما يودي بها إلى فخّ ما أو إلى خبرٍ سيئ. هل بالغت بحديثها عن كيشمه؟ هل حصل مكروه لقريتها؟ نظرت إلى الخارج، كان الوقت باكراً إلا أن الشمس قد ارتفعت وأصبحت الحرارة تهز الأفق من بعيد. لطالما سألت نفسها إن كانت النار مشتعلة هناك.

- النار؟ أية نار؟

إنها النار التي تندلع دوماً بعد خطف أحدهم، لكنها لم تجرؤ على البوح بذلك للقنصل. ظلت في مكانها خافضةً رأسها، وقلبها يرتعش، ويخفق من حدسها السيئ. أصرّ قائلاً:

- ما اسم قبيلتك؟ ما اسم عائلتك؟

همهمت قائلةً:

- لا أعرف، لا أعرف.

- لا تعرفين؟ ابذلي جهداً... أريد مساعدتك. أتفهمين؟ مساعدتك.

سمعت أن السيد رجل طيب، وأنه كثيراً ما أعتق العبيد؛ فهو يشتريهم لكي يعتقهم ويمنحهم الحرية. تساءلت عما يفعلونه ما إن يصبحوا أحراراً في الخرطوم.

- أخبريني ما اسم ذويك، قريتك أو قبيلتك!

رمقته بنظرة مذعورة. فهمت أنه يريد مساعدتها، وذعرت، لأنها لم تعرف اسم قبيلتها. تأملته وهو في مكانه على هذا المكتب الذي تنبعث منه رائحة الجلد والتبغ، بينما كان الهواء يتأرجح بفعل المروحة الكبيرة المعلقة في السقف التي تصدر ضجة بثبات. إنها لا تعرف اسم قبيلتها! كانت تظن أنها تعرف، لكنها لم تسأل نفسها قط هذا السؤال. هي تبحث عن ذويها، وهذا كل شيء، فهم موجودون لأنها تحبهم، ولأنهم ينتظرونها في مكان ما، ولأنها تشتاق إليهم وستلقاهم... ما اسم قريتها... ما اسم عائلتها؟! كان رأسها مليئاً بالأسماء العربية، وبالأسئلة الهاربة فعادت تقول:

- لا أعرف!

لم يبدُ متفاجئاً بل فتح درجاً وفرد أمامها ورقة كبيرة جداً غطت المكتب بأكلمه؛ أشار لها أن تقترب، وقال لها إنّ هذا بلدها، السودان. رأت اتساع هذا العالم الذي تنظر إليه للمرة الأولى

- لقد مشيتِ كثيراً. أين مشيت؟

أومأت بالإيجاب فهي مشت كثيراً لشهور ولسنوات؛ لقد مشت كثيراً، أجل.

- ولكن من أين بدأتِ المشي؟ قبل مدينة "العُبيد"، أين كنتِ؟ من أين أتيتِ؟ من أي نقطة؟

همهمت:

- نعم.

عاد ليقول بشكل أسرع وأكثر حزماً:

- هل هي الأماكن الصفراء أو الخضراء أو الرمادية؟ هل كان هناك جبال؟ مرتفعات؟ النيل الأزرق؟ أو النيل الأبيض؟ كنتِ في الغرب، أليس كذلك؟

كانت أصابعه تدق على الخريطة كما لو أنها ستخرج منها الرمال والماء. لم تفهم كيف يمكن لنهر كبير أن يكون رفيعاً هكذا، وتساءلت أين توجد النجوم والقمر؛ لم تفهم محتوى الخريطة! إنها تتذكر الصورة الأخيرة من قريتها عندما كان الرجلان يقفان قرب شجرة الموز. نظرت إلى الخريطة وكررت:

- لا أعرف.

لم ييأس القنصل، فسألها بصوت منخفض ولطيف:

- ما الحيوانات التي كانت في موطنك؟ عجول أو ثيران؟ حمير أو أحصنة؟ هل كنتم تغيرون قراكم دوماً؟ هل كنتم ترحلون، آه؟ كنتم تمشون؟ أكنتم تأكلون الحيوانات؟ ما الرب الذي كنتم تصلون له؟ ما اسم أجدادك؟

انفجرت باكيةً وأرادت الركوع عند قدمي السيد تترجّاه أن يتوقف، فهي كانت تمشي على حافة الفراغ، وهو يدفعها بأسئلته. لقد ضاعت وأضاعت ذويها. ناولها القنصل منديلاً وقليلاً من الماء، طوى خريطة السودان بكل أماكنها وكلماتها التي لم تعرف قراءتها. طوى هذه الأرض الخالية من السماء ووضعها في درج.

- أريد مساعدتك، ليس هناك ما يُبكي.

نظرت بخيتة إلى الدرج الذي وضعت فيه الخريطة وفيها أسرتها، وكل آمالها الميتة. أين هم؟ ولكن أين هم جميعاً؟ بكت وهي تضع يديها على وجهها. كانت تتألم أكثر من ألمها، وهي تتعرض للجلدات وللإهانات؛ كانت تتألم من نفسها. اقترب القنصل منها وهو يداعب شاربه مفكراً.

- الأمر بسيط. ستقولين لي أمراً واحداً ومن بعدها سأعرف أين أتجه. صديق يعرف لهجاتكم... الكثير من لهجاتكم.

لم تمض بخيتة يوماً وقتاً طويلاً في مكتب سيد، ولم يسبق أن طرح عليها أحد هذا الكم من الأسئلة؛ كانت منهكةً ويائسة ويملؤها الخجل.

- اسمك؟

- ماذا؟

- *اسمك، ما اسمك؟* (قالها بالإيطالية وبالعربية) اسم، ما اسمك؟

نظرت بخيتة إلى المنديل الأبيض في يديها السوداوين. طوته ببطء إلى نصفين ثم إلى أربعة ثم إلى ثمانية. توقفت عن البكاء. سمعت نفسها تتنفس كحمار صغير منهك. تضايق السيد عندها، وخاب أمله قليلاً بالطبع.

- ما اسمك؟

انحنت ببطء نحوه، ولكي تبدي له حسن نيتها، وأنها ليست جاهلة في *كل* شيء، قالت بصوتها الضخم بالإيطالية مؤكدةً على كل مقطع صوتي:

- *لا أعرف*.

ثم تراجعت إلى الخلف مغادرةً الغرفة.

خلقت هذه المقابلة بداية لحزن كبير في داخلها. لقد أدركت أنها فقدت لغتها الأم وسُرقت منها طفولتها، كما لو أنها لم توجد قبلاً. فلم تعد تستطيع تسميتها أو وصفها، ومع ذلك فهي تشعر بهذه الطفولة في داخلها ككيان حارق وحيّ أكثر من ذي قبل. تعلمت اللغة العربية بسهولة تعلّم الأطفال كما أنها منذ سبعة أعوام لم تسمع كلمة واحدة بلهجتها. تذكرت أختها كيشمه، هذه التميمة السحرية، هذه الطاعة، اسم أختها الذي بلا شك لم تعد تملكه. قالته للقنصل كأمل أخير ففهمت بعينيها الخائبتين أنه لا يعني شيئاً، بل ربما يكون أمراً مشتتاً أو وهماً هو أيضاً. عادت لتمضي ليالي طويلة من اليأس تنتظر حلماً أو حدساً، ولكن لم يزرها شيء أو أحد. لم

تعد تتعرض للجلد بل أصبحت ترتدي ملابسَ كالأسياد، وكان لديها انطباع بانهيار لا ينتهي. حاولت أن تنشد أغنيتها الصغيرة التي كانت بيناه تحبها كثيراً "عندما يولد الأطفال من ليون"، ترجمتها رغماً عنها منذ وقت طويل إلى العربية. أدركت أنها صارت تقول "أمي" بدلاً من "ماما"، و"أبي" بدلاً من "بابا"، إضافةً إلى الكثير من *"آسفة، آسفة، آسفة"* كاعتذار عن هذا الإهمال. عادت لتفكر بخريطة السودان وودت لو تعود لتراها من جديد، وأن تتعلم قراءة الكلمات المكتوبة في الأعلى، وأن تسأل عنها على الأقل. إنها تتذكر جيداً المناظر الطبيعية التي مرت بها، والمرعى والطفل الرضيع الذي تحطم على الحجارة. وتتذكر بيناه في مراكز الفرز. إنها تحمل في داخلها الكثير من الحيوات، فلِم أضاعت صور طفولتها في ذاكرتها؟ بذلت جهوداً هائلة لتذكرها. أخذت تستعيد ما كانت تحبه؛ النار المشتعلة للثرثرة، ركبتي والدها، أختها التوءم، جدتها. تذكرت قريتها واستعادت لقطات من الاحتفاليات كعلامات بعيدة، ورسوم الأفاعي وأخاها وعبارة "ابنتي الصغيرة لطيفة وطيبة". تذكرت أمها الكثيرة الأولاد، أمها التي تشبه الشعلة الحمراء. كانت بخيتة تقوم بهذا التمرين كل ليلة، تسترجع ذكريات ذويها آملةً أن تتذكر أسماءهم، لكنهم ظلوا حبيسي هذا الحب الواسع ومغفلي الاسم. كانت تمد يديها نحو كائنات لا يمكن التقاطها.

كانت كل يوم تساعد آنا المسؤولة عن المنزل، إنه عالم جديد اعتادته هذه المرة أيضاً. هناك اللغة الإيطالية التي كانت لغة غير مفهومة لديها بكلماتها الراقصة على عكس الكلمات التي تعرفها، فهي لا تلفظ من الحلق كالعربية بل تخرج من مكان آخر في الصدر، استغرقت بخيتة وقتاً طويلاً

لتعرف إن كان هناك علم يرفرف بالقرب من منزل القنصل، ولم تعرف بخيتة ماهو هذا العلم، فهو خال من الهلال الإسلامي. يختلط الرجال بالنساء في المنزل، كما أن النساء الإيطاليات يكشفن عن وجوههن ويمشين وسط الرجال، ويجتمعن معهم لتناول الطعام في غرفة مخصصة لهذا الأمر. هم يغسلون أيديهم في غرفة مستقلة، ولا يستعملون الأيدي في تناول الطعام، بل يقومون بذلك بوساطة شوك وملاعق، ويشرب كل منهم بكأس تخصه توضع أمام صحنه الخاص به. يتم الاطلاع على المطبخ يومياً حيث ينظف مرة تلو المرة. إنهم لا يصلون لله مطلقاً، والسيد غير متزوج سوى من امرأة واحدة لم يرها أحد قط، وهو ينام وحيداً كل ليلة في سرير متسع، ويقفل باب غرفته بالمفتاح. لا ينام أي عبد في غرفة السيد ولا على العتبة! لا ينام أي عبد في الممرات! بدا ذلك أمراً غريباً لها في الآونة الأولى، من الغريب ألا تجد أجساماً تعودت على أن تراها مفترشة أرض المنزل. لطالما سمعت بخيتة صوت الأسياد يدوسون على العبيد الممددين أرضاً في كل مكان، والذين يتجسسون عليهم ويحيكون القيل والقال في المنزل بأكلمه. يكره الأسياد هذه الأجساد الممددة التي لا يستطيعون المرور من خلالها، كما أنهم يحتقرون وجودها بينهم ومشاركتها حياتهم اليومية، هذه المشاركة التي يبحثون عنها وتسبب لهم الرعب. لم تتحرك المدينة حقاً لدى وصول الصحف المحملة بأخبار انتصارات جيوش المهدي والقبائل العربية التي ألحقها في جيشه، إضافةً إلى انضمام العبيد الجنود له. أصبحت حال البلد كما لو أن هذا الجهاد قد قام بثورة صغيرة، ذلك لأن قوات المهدي كانت قويةً بحق. منذ انتهاء المعاهدة التي أقرها غوردون باشا، يقوم الجيش

البريطاني من لوقت إلى آخر بأسر كبار التجار ومحاكمتهم في الخرطوم، ثم يعود ذلك الفساد إلى سابق عهده. كانت البنية التحتية في مصر في قبضة القوى الغربية التي تنامت ديون مصر معها لدرجة أن البريطانيين تولوا إدارة الضرائب فيها، فوقعت البلد تحت رحمة رجال البنوك والمقاولين الخبيثين. جاءت أوروبا بأكملها إلى الخرطوم فاجتمع الكثير من السادة ليتناقشوا في الوضع مخرجين الخرائط من أدراجهم، إضافة إلى سفراء فرنسا وإنكلترا وألمانيا والنمسا الذين التقاهم سيد بخيتة، كاليستو لينياني. أصبح لأوروبا جيوشٌ كاملة في الخرطوم حيث تحرك الجيش في مصر، واستمر المهدي في تقدمه.

تأقلمت بخيتة مع الأخلاقيات الجديدة ومع اللغة الجديدة من خلال قصص آنا التي قالت لها: إن زوجة سينيور لينياني تكتب لزوجها تترجاه بالعودة إليهم في هذا البلد الذي يتكلم الإيطالية واسمه "إيطاليا". أخذت تصف لبخيتة هذا البلد بالغ الجمال وبالغ البعد وبالغ الحرية، هذا البلد المشمس الخالي من الفصول المطرة. سألت بخيتة نفسها ماذا تشبه خريطة بلد بلا عبيد أو إماء، بلا زرائب أو عنف، ذلك المكان حيث كل الناس يشبهون القنصل وزوجته، زوجته الوحيدة، هل هي بلطافته؟ أخبرتها آنا أنها لطيفة حقاً وسعيدة لأن النساء في إيطاليا لا يتعرضن للطلاق حتى وإن لم ينجبن أطفالاً، ويمكنهن الخروج وحدهن بلا حجاب حتى بعد غروب الشمس، وهذا مالم تصدقه بخيتة، لكنها عذرت آنا لأنها تحب بلدها وبإمكانها الحديث عنه، أما هي فلا تحمل سوى رماد قبيلة بلا اسم.

ذات مساء جلست بخيتة بعد انقضاء يوم عملها على مقعد في الحديقة؛ أخذت تستمع إلى أصوات آخر العصافير وهي ما تزال تندهش من هذه الزقزقة التي تصدرها خلال الغروب. أنصتت إليها مغمضةً عينيها، كانت العصافير تقطع الليل، وشعرت بخفقان أجنحة العنادل ودوران الوطاويط والرياح الخفيفة حول شجرة النخيل، وسمعت نقيق الضفادع من وقت إلى آخر؛ فتحت عينيها فوجدت السماء بلون موحد أسود متراص. كانت النجوم الأولى قد بدأت تتقد صغيرة الحجم في بادئ الأمر كنقاط منسية، نظرت إليها وهي تكبر في الليل، واستيقظ في داخلها شيء ما في تلك الأمسية اليقظة. إن هذا البلد لجميل، كم هي جميلة أرض أسلافها وسماء السودان تلك! تساءلت: لم العالم بهذا الجمال؟ لمن ندين بهذا الجمال؟ هي تعرف قباحة الناس وتعرف العنف الناجم عن غضبهم المخيف؛ أما جمال العالم، فمن أين ينبع؟ هبط الليل على الناس حراً خالداً. أخذ هذا الليل يكلمها كما كانت تفعل الأرض متذكرة ألم العبيد الذين مروا من قبلها. فهمت بخيتة أنه يمكن أن تخسر كل شيء، لغتها وقريتها وحريتها، ولكن ليس ما منحت إياه. لا يمكن أن تخسر أمها على الإطلاق؛ فهو حب أقوى من جمال العالم؛ *إنه* جمال العالم بحد ذاته! وضعت يدها على قلبها، وبكت دموع المواساة، فقد خشيت كثيراً من فقدان هذا الحب.

بلغت الرابعة عشرة من عمرها لدى إنهائها عامها الثاني في خدمة القنصل. رأت عبيداً معتوقين يرحلون إلى قرية وجدوها في مهمة كاثوليكية، رأتهم يرحلون ومن ثم يعودون منهكين ونحيلين، ثم رأت بعضهم من جديد جالساً بشرود في زاوية الطرقات. كانت تطرق بنظرها

كي لا تسبب لهم الإحراج، وهي تتساءل إن كان ممكناً لهم أن يعيشوا حياةً أخرى! كانت تستمع إلى آنا تتكلم عن هذه ال "إيطاليا" الخالية من الميليشيات والأطفال المجندين والغزوات وحرب الشوارع.

كانت تخاف من الخرطوم، فقد شعرت فيها بالعنف الذي تعرفه جيداً، كما شعرت بعنف الفقر المدقع وعنف الثراء، هذا الخليط المجرد من الرحمة؛ إنها مدينة قذرة تجتاحها الصراصير والجراد الذي يرتطم بالمارة، قططها نحيلة وشرسة ككلاب الصحراء. كان الناس يعملون ويقضون نحبهم على قارعة الطريق، ويبولون قبالة الجدران الطينية. تضاعف عدد العبيد العاطلين وأصبح الجو مشحوناً بالذعر، فقد كان اسم المهدي يرن كضربة سوط في الهواء. كان *"السيد"* يتكلم بالإنكليزية مع السفراء الآخرين في اجتماعات مطولة تغطيها سحب الدخان. كانت بخيتة تسمع أصوات الرجال المليئة بالنعاس والغضب، فهناك شيء يفلت منهم وهم لا يستطيعون التخلي عنه. تولى البريطانيون السيطرة على البلد، وأصبحوا يحكمونه بعجرفة من لم يخسر شيئاً من الغزوات أو الغطرسة. أصبح السيد أقل لطفاً من ذي قبل، كما أصبح أكثر تدقيقاً للأمور، وأكثر هوساً بالتفاصيل كرجل فقد ثقته. ازدادت أعداد الرسائل "المترجية" الواصلة من زوجته، على حد قول آنا التي تعرف القراءة، ولا تحرم نفسها منها وهي تقوم بتنظيف مكتب السيد.

- عد بسرعة، كتبت له؛*"بسرعة"* كتبتها بالإيطالية.

سألت بخيتة: هل تتكلم بهذه الطريقة مع زوجها؟

- بالطبع؛ فهي إيطالية.

- النساء التركيات لا يتكلمن هكذا!

- على أية حال أعتقد أن السيد سيعود إلى وطنه، سيرحل. هذا ما أشعر به!

- سيرحل إلى مدينة "العبيد"؟

- إلى إيطاليا!

كانت تظن في بادئ الأمر أن كلمة "إيطاليا" ليست لها، بل هي كلمة تخص الآخرين ممّن يتمتّعون ببشرة بيضاء كدجاجة منزوعة الريش، تخص أولئك ممن يحلمون ويتفاخرون بسعادتهم! اعتادت على عصبية الأسياد، وقلة صبرهم، وهي تعلم أن آنا محقة بخصوص رحيل السيد؛ لقد توقعت ذلك، فهو يريدها أن تعود إلى وطنها وألا تتسول في الأزقة القذرة في الخرطوم. ولكن طالما أنها جاهلة وعاجزة عن ذكر اسم ذويها، فهي تعلم ما الذي ستؤول إليه حالها بعد رحيل القنصل؛ ستعيش في زقاق أو في قصر تعلم ما المراد منها فيه، عندها ستعود إلى ما كانت عليه في مواجهة العنف والعار؛ لذا ستقرر دون قصد في يوم ما أنها لن تدع أحداً قط ينزع عنها رداءها الأبيض. جلست في غرفة الغسيل تغسل الملاءات وأغطية الأسرة بأقمشتها القطنية السميكة التي يفضّلها الإيطاليون. كان الماء بارداً فنظرت إلى يديها وهي تدعك وتدعك دون توقف. دفعتها هذه الحركة كأغنية إلى الغرق في التفكير، وفجأة نهضت وقلبت حوض الرماد، ومسحت يديها بمئزرها وركضت إلى مكتب *"السيد"!* ركعت على ركبتيها إلا أن ذلك لم يعجبه، لكنها ركعت لأنها لا تملك الشجاعة لتتوسله، وهي واقفة أمامه.

- خذني معك... *سيدي*

لم يفهم ماتقوله. ظن أنها تريد العودة إلى ديارها، واعتقد أنها غبية قليلاً لعدم معرفتها بلغته، ولأنه على الرغم من طيبته يظن أن هؤلاء السود عبارة عن حيوانات شجاعة خاضعة! إنه يحب الحيوانات، ولا يرى ذلك أمراً مشيناً. هو يخاف من الركوع على القدم، ويجد في الأمر حركة جسدية غريبة لا يحتملها، فأجبرها على النهوض، وأخبرها أنه لم يعد لديه الوقت الكافي للبحث عن قريتها، فهو يتهيأ للرحيل وللعودة إلى إيطاليا. وقفت قبالته وكررت دون النظر إليه:

- خذني معك، *سيدي*.

هو يحبها بحق لكنه لن يتكلف عناء مرافقة العبيد له ما عدا صبي صغير وعد به أصدقاء أعزاء عليه كهدية، حتى آنا فهي تنتظر أن يرسل لها المال للعودة. لقد بدأ ببيع آخر ما لديه من عبيد لمالكين خاصين أو قام بعتقهم. وإلى جانب هذه المساومات كان يمضي أيامه بين التلغراف والصحف والاجتماعات، وحزم الأمتعة مع شعوره بمرارة الرحيل مهزوماً. طلب من بخيتة أن تجلب له القهوة.

اجتاحتها رغبة في مغادرة السودان؛ تحاول أن تعمل على نحو أفضل، وتعتقد أن *السيد* سيرى هذا التحسن في طريقتها بتنظيف الأرضيات، وبتلميع أحذيته، وبكيّ الشراشف. ولكن سريعاً ما أدركت أنه لا ينتبه لشيء فهو على عجلة من أمره، وهي تعلم ما يجري في داخله؛ إنه رجل لم يعد يعي ما يدور من حوله؛ فهو يحضّر لسفره، ولا يفكر بشيء سوى ذلك!

سيسافر إلى "سواكان" على ظهر الجمل عدّة أيام في الصحراء، ومن ثم سيركب سفينة بخارية كبيرة لكي يجتاز البحار، وهي الطريق الأغلى ثمناً لتجار العبيد، تلك الكائنات التي لا تحظى بأية أهمية. إلا أن بخيتة تظن أنها تحظى ببعض الأهمية، فقد باحت لها الأرض والسماء في ليلة كانت تنام في كوخ العبيد، كان القمر بدراً منيراً فأضاء الحصيرة التي كانت ترقد عليها. ليلتها مدت يدها في هذا النور، فبدا المشهد جميلاً كمفاجأة استثنائية؛ بينما كان الجميع نياماً من حولها. كانت وحيدة مع ذلك النور المنبعث من القمر الذي أيقظها، وعندما حل الصباح محمّلاً بالغيوم وجدت أنّ من الغريب أن يكون النهار أكثر ظلمةً من الليل، وفكرت بالأمر خلال يوم عملها، فكرت بأنها ترى ما لا يراه الآخرون! ساعدت في نقل الحقائب وفي حزم الأمتعة، وسمعت أصوات الجمال التي اشتراها *السيد* للتو، سمعته يتكلم مع سائس الجمال، ولم تفهم ما يقول، فقد كان يتحدث بلهجة عربية غير مفهومة... غادرت المنزل وتوجهت إلى الباحة؛ لم تركع ولم تطلب السماح، بل بالكاد خفضت عينيها، فقد تجرأت على أن تكون أَمَةً تقف بين رجلين، وهما سائس الجمال والسيد. شرحت للسيد بلغة إيطالية بسيطة أنه يجب لجم الجمال ليلاً؛ لا يجب مطلقاً ترك حيوان حراً في الليل، وأضافت:

- لقد سافرت سابقاً على ظهر الجمال، ويمكنني أن أساعدكم؛ خذني معك *سيدي*!

- تظنين أنه لا يمكن الاستغناء عنك الآن؟

- من الممكن للجمال أن تموت، أتعلم هذا *سيدي*؟ يمكن أن تقع وتموت، أنت تظن أنها لا تحتاج إلى المياه! ولكنها قد تقع وتموت.

- سأهتم بالجمال لا تقلقي!

شعرت بوجهها يحترق من وقع التوتر، وبجسدها يرتعش بعنفوان متحفظ.

- خذني معك، *سيدي!*

لكن ماذا ستفعلين يا بخيتة المسكينة في "سواكان"؟ أتعلمين ما هي "سواكان"؟

- خذني إلى بلدك، *سيدي*، إلى إيطاليا!

انفجر ضاحكاً وأشار لها بالرحيل، واستدار إلى السائس، ثم نظر إلى السماء برقة؛ كان بإمكانه أن يهينها لجرأتها؛ لكنه لم يفعل فهو رجل طيب!

رجتْه بخيتة ثلاث مرات، ثم شعرت في داخلها باليد الدافئة والمضيئة التي حمتها في ليلة هروبها مع بيناه، ففهمت أن الأمر نفسه هذه المرة أيضاً؛ أي أن عليها الهرب، يجب أن تركض بلا رجعة؛ إنها طريق جديدة وامتحان جديد يكمن في ترجّي السيد وإقناعه. تريد أن تحيا وتشعر في داخلها بقوة كبيرة؛ فهي الآن مرتدية الملابس، ومصففةً شعرها تماماً كفتاة حرة، وقد أعتقت نفسها! لقد منحت نفسها هذه الحرية وهذه الكرامة؛ *السيد* سيرحل غداً عند المغيب ليتجنب الحر. رأت الصبي الصغير الموعود به كهدية، وكان اسمه أندير، كان فزعاً كحيوان صغير أسير؛ لم يكن يطلب شيئاً، فقط كان ينظر من حوله، ويمص إبهامه عندما يعتقد أن لا أحد يراه، وأحياناً كان يبكي عندما يسمع صراخ الرجال؛ إنه رقيق وظريف وسيكون هدية جميلةً، ومما لا شك به أن *السيد* يدين بالكثير لهذا الصديق الذاهب إليه.

كانت أقل ثقةً بنفسها، وهي تقطع الممرات المؤدية إلى مكتب *السيد*، فقد كان قلبها يخفق بقوة فتضرب الدماء في أذنيها فتصمهما عما يحيط بهما! كانت ترتعش متجهة إليه وتعرج قليلاً بقدمها اليمنى كما تفعل دوماً في اللحظات الصعبة! استيقظ الألم في فخذها، وتسارعت أنفاسها. كانت تعاني أحياناً، هي الفتاة بارعة الجمال والظرافة، من هذه المشية البطيئة والصعبة التي سترافقها في كهولتها كما لو أن سلاسل غير مرئية عادت لتكبلها. دخلت الغرفة مختنقة الأنفاس وبلا مقدمات قالت للسيد:

- أنا أعرف كيف أعتني بالصغار؛ بالأطفال الصغار!

رفع رأسه مندهشاً وتأملها ملياً، إنها جميلة حقاً، المسكينة!

- أعلم بخيتة، أعلم!

قال ذلك وعاد لأعماله؛ كان يرتب أعلاماً صغيرة الحجم في علبة من خشب الأبنوس والصدف، كان يبدو كطفل يحنّ إلى أيام الطفولة ويأسف على أنه قد كبر!

- إنه بمنزلة هدية جميلة.

التفت إليها، مازالت هناك! يا لصوتها الحاد! لم يعتد عليه قط، وفي كل مرة يجعله صوتها يقفز من مكانه، ويختبئ، وأحياناً يجعله يضحك!

- أندير، إنه هدية جميلة! هو أضعف من أن يجتاز الصحراء.

هذه المرة انفجر ضاحكاً، إنها خبيثة كالثعلب!

- لا يابخيتة؛ لن آخذك معي! أنت تعرفين الصحراء والجمال والصبية الصغار، نعم تعرفين الكثير من الأشياء ولكن لا تعرفين ثمن ركوب سفينة بخارية، إنه مكلف جداً! إن ركوبها أغلى من العبد نفسه، أتفهمين؟

تكلم بسرعة كبيرة، فلم تفهم كل شيء ماخلا ضحكته ونظرته اللتين تشيان بالرفض. لم تركع بل ركضت، وارتمت عند قدميه، وانتحبت دون توقف! كا بكاؤها يجعلها تنتفض كأن هناك من يجلدها! جاء بكاؤها ليعبر عن سنوات طوال من الآلام التي تحملتها، ولم تعد تستطيع الاحتفاظ بها! لم تفكر بها؛ بل كل ما فعلته هو أن تنتحب؛ لقد فقدت كل شجاعتها وكل ثباتها؛ لم تعد جيدة لشيء أو لأحد! لقد أنهكها بكاؤها وأصبحت تود لو تموت!

أما هو فقد كان يكره النساء اللواتي يبكين، فكيف بأَمَة تبكي! تراجع وابتعد حتى وصل إلى النافذة، وأخذ ينظر إليها. كان جسدها يرتعش، وانزاحت قبة ردائها لتكشف عن كتفها. رأى الندبة الطويلة تهتز بقوة من انتحابها؛ إنها رسمة متعرجة ومرسومة بدقة، جعله هذا التعذيب الفني الممارس عليها ينتفض ويقول فجأة:

- حسناً.

لم تسمعه بل ظلت تبكي، وتختنق بدموعها. اقترب منها، وقام بحياء بتغطية كتفها، وأجبرها على رفع وجهها، وقال لها وهو ينظر في عينيها:

- أنا موافق على اصطحابك إلى إيطاليا.

كان الأمر بالنسبة إليها مفاجأة هزتها كلياً، وجعلتها تشعر بالتحرر والألم في آن معاً؛ فهناك شيء سيغير مجرى حياتها بأكمله؛ سترحل، ستعيش

في بلد الحلم الأبيض والشمس اللطيفة! ستعيش في مكان حيث لا تحترق القرى، حيث يكبر الأطفال في المكان الذي ولدوا فيه! تقطعت أنفاسها، فقد كان ذلك غير عادلٍ؛ هو غير عادل ولكنه جيد! لن تتمكن من إنقاذ كيشمه فقد فات الأوان، ولن تواسي أمها؛ عليها أن تقبل هذه الخيانة بأن تنقذ نفسها فقط! أخذها تيار من الأحاسيس المتناقضة؛ كان في داخلها شيء يؤكد أنها على صواب؛ سترحل وستنتزع نفسها من كل ما تعرفه، ومن كل أولئك الذين كانت تأمل لقاءهم من جديد. انتزعت نفسها من إمكانية أن تجد ذات يوم الاسم الذي أهداه أبوها إلى القمر، نادت أختها التوءم وطلبت منها أن تحمي مولدهما، وأن تحمل هذا القسم منها الذي مازال حراً ومرتبطاً بالأسلاف. لم تخدع نفسها بتوأمها، لقد تركت السودان بينما ظلت أختها فيه راسخةً في أرضهم وفي تقاليدهم ولغتهم، ستظل تعيش هناك إلى الأبد. طلبت من توءمها في مناجاتها أن تلفظ اسمها قدر استطاعتها، لكي يظل يرن في مكان ما في الرياح وفي الماء، ولكي يطير ويستقر فوق الحجارة، وفوق الحقول والحيوانات الأليفة. أخذت حفنة من التراب الأحمر ووضعتها في منديل. حزمت أمتعتها للمرة الأولى في حياتها؛ هي تعلم أن *السيد* لن يدعها تموت في الصحراء، لن يتركها عرضةً للضباع في حال مرضت. شعرت أنها محصنة كما أنها مسؤولة عن أندير؛ أندير الذي لا يعلم أنها تدين له بسفرها هذا؛ أندير الذي لا يدري شيئاً، ولا يفهم الإيطالية ولا العربية ولا التركية! إنه يتبع بخيتة ككلب صغير يملؤه الألم؛ كان يتساءل من أين أتى! فهناك الكثير من الأطفال الوحيدين، ولكن أين توجد الأمهات الوحيدات، لا أحد يراهن. لقد أنشدن أنشودة الفراق التي لا تفيد بشيء، ومن ثم لم يعد يسمعهن أحد. لقد أصبحن مجنونات بصمت؛ كان

أندير يتمتع بعينين كبيرتين ورقيقتين برموش طويلة جداً، وكان حزنه يشي بشخص لن يتمرد يوماً ما! نظرت إليه بخيتة، إنه صبي لن يتحول إلى شخص شرير أو إلى مجنون، فهو يحتفظ في داخله بسرّ العنف، كما أنه لا ينتظر شيئاً من أحد. لم يبدُ عليه أنه ابن السيد، فقد كان أسود البشرة غليظ الشفتين. مرّرت بخيتة يدها على رأسه فشعرت بنتوءات صغيرة. رمش الصغير بعينيه بسرعة عندما لمسته، ثم تصلب قليلاً، وابتسم لها، فكرت بخيتة أنه تم اختياره للسفر مع السيد لأنه يساوي ثمناً باهظاً. تعد الخرطوم أحد أهم مراكز الإخصاء، والطفل يحمل في داخله هذه الرقة الغريبة، وهذا الألم الذي لاحظته بخيتة، والذي سيظل خفياً عن الآخرين؛ سيصبح رجلاً بذكريات طفل لم يروِها لأحد، سيصبح كائناً بلا نسب!

كان كاليستو ليناني آخر أوروبي يجتاز الصحراء قبل سقوط الخرطوم في السادس والعشرين من شهر كانون الثاني عام ١٨٨٥. كانوا أربعة أشخاص: هو وبخيتة وأندير وأوغوستو ميكيللي صديق القنصل الذي يعرف السودان جيداً، فهو يدير فيها أعماله من أعوام طويلة. كانت زوجته تعتزم موافاته هناك إلا أنها لم تستطع، ذلك لأنها ضعيفة ويعتريها دوماً حزن تخبئه وتواريه عن الأنظار. كان أوغوستو ميكيللي يحمل في داخله هزيمة لم تمنعه من التمتع بالحياة ولم تلجم رغبته بالمغازلة. بعيداً عن زوجته كان يجد نفسه شاباً فتياً، أما بقربها فيشعر بالسوء والقلق حيال كل شيء، ويتحول لعجوز بعمر المئة.

سعد القنصل لاصطحابه بخيتة وفكر بأن زوجته ستفرح كثيراً بامتلاك خادمة إضافية في خدمتها، كما أن بخيتة تتحلى بحس عملي مدهش

مقارنة بعمرها. كانت تشعر بطمأنينة الأم وهي تحتضن الصغير أندير على متن الجمل. تطمئنه وتحميه من البرغش والذباب والرمال والعطش والشمس. وفي المساء تضع قبضتين من طحين الذرة في ماء مغلي وتحركهما بعصا وتطعمهم إياها هم الثلاثة. كان الحماران المرافقان لهما يحملان الكثير من الأمتعة والمؤونة والهدايا. كانا يتقدمان في الحر وهما مذعوران من قرصات الذباب. في المساء كانت بخيتة تغطي حوافرهما الدامية بالرماد. وفي الليل كانا ينهقان بقوة حتى إن القنصل كان يخشى من اجتذاب ابن آوى إليهم. كانت بخيتة تربت على جبهتيهما وتقرص أذنيهما فسرعان ما يتوقفان عم النهيق. ثم تشير إلى الصبي أندير لكي يحذو حذوها فيقوم هذا الأخير بقرص أذني الحمارين ويضحك مرجعاً وجهه إلى الوراء متفاجئاً هو نفسه من فرحه. كانت الجِمال في الليل تعض بعضها وتتعارك. كانت أصوات أفواهها تُسمع وهي تخر وتجتر. يقال إن الليل يجعلها تصر على أسنانها. كان *السيد* يطلب من بخيتة مساعدته في لجم الجمال كي لا تهرب بحثاً عن الغذاء. كانت ترتعش وهي تمرر السّيرَ الجلدي بين مقدمة الجمال ومؤخرتها. كانت خشخشة اللجام طوال الليل بلا توقف تمنعها من النوم. ومع ذلك فهي تحب الليالي الخطيرة في الصحراء. تحب عنف الطبيعة الذي يجمع البشر والحيوانات سوياً. تحب هذه الصلة الخطيرة وهذا الضعف في الحياة. إنها بلد تمشي وتهرب، ورغم ذلك فإن بطء إيقاع الحياة فيها يعدّ نوعاً من النجاة. إنها لبلد عنيدة وأرض منهوبة. رأت بخيتة في الواحات التي اجتازوها عبيداً يزرعون أشجار النخيل ويقطفون التمر، ويشربون من قنوات المياه. هم دوماً منحنون في كل مكان، في الحقول وفي مناجم الملح أو

مناجم الذهب أو الحجارة النفيسة، يبدون دوماً منحنين كما لو أنهم مقسومون إلى نصفين، صدورهم منحنية لتصل إلى ركبهم، وأقدامهم العارية متينة كالجلد القديم. هم أناس ذوو نفوس مفخخة وقلوب دامية. كانوا موضع سخرية ويقال إنهم لم يعرفوا يوماً التمرد ولا الكرامة، كما يقال إنهم كسالى ويجب جلدهم لكي يعملوا، وإلا فإنهم سينعمون بالسكن والمأوى دون حتى أن يشكروا سيدهم. في ليالي الصحراء، كان الصغير أندير ينام في حضن بخيتة التي كانت تسمع شخير الرجلين الإيطاليين تماماً كحماريهما. فتتردد بين الضحك والدموع. ويبدو أمراً بسيطاً جداً أن يعيشوا معاً وهذا شبيه بالانتقام؛ ذلك أنها تشعر بالحاجة إلى قول *آسفة*، لكن ولا تدري لماذا تقولها.

قطعوا من الخرطوم إلى سواكان قرابة ما يزيد على ثماني مئة كيلومتر، وكل ما رأته بخيتة كانت تراه للمرة الأولى. قطعت نهر النيل وأحبت قوته اللامبالية، وأحبت الماء الأحمر تحت أشعة شمس الغروب وانعكاس القمر الذي كان يضيء الليل، وأحبت لعبة الساعات، كل الساعات التي تمر على الماء الذي هو مصدر الحياة. أدركت أنه ما من رجل سواء أكان ملكاً أم باشا. سلطاناً أم حاكماً. قائداً عسكرياً أم رجل دين، لن يتمكن أحد من السيطرة على السودان بل هي وحدها الحاكمة. تمنت لو يجمعهم القنصل هم الأربعة على ضفة النهر ويقول لهم شيئاً ما، ولكنه كان بلا شك سيرفض الاقتراب من المراعي بسبب التماسيح وحيوانات فرس النهر التي كانت صرخاتها الحادة ترعبه كثيراً. طلبت منه أن يرسم لها على الرمال الطريق من

الطويشة إلى العُبيد، ومن العُبيد إلى الخرطوم على محاذاة البحر الأحمر إضافةً إلى رسمة النهر. كانت تتذكر دوماً الخريطة في الدرج، كم رغبت أن تفهمها! رسم القنصل خطوطاً طويلة فوق الرمال لم تنتهِ، وأضاف علامات بالغة الدقة لا تشي بشيء فبدت أيام مشيهم مبهمة كما لو أنها اختفت.

- هل فهمت يا بخيتة؟

- نعم.

- ما الذي فهمتِه؟

- أنني كنت صغيرة جداً.

ظنّ أنها حتماً لم تفهم شيئاً، وتساءل فيما لو أنه قد أسدى لها خدمة باصطحابها معه إلى إيطاليا. نظر إليها وهي تحتضن أندير وتهدهده بلطف. إنها ستجعله ضعيفاً بدلالها كما أنه لا يجب أن تحبه بهذه الطريقة. إنه يجد صعوبة في فهمها؛ فهي مطيعة وذكية في الوقت نفسه كما أنها تتمتع بحضور ملفت ومع ذلك تتخلى عنه. لو لم تكن خدومة وفعالة في العمل لكان لامها على كونها حالمةً وطموحة. ولكن زوجته ستقوم بتأهيلها على نحو أفضل، الأمر الذي لم يتمكن هو من فعله.

ذات يوم وصلوا إلى البحر الأحمر الذي اجتاحوه فغمرتهم راحة كبيرة غير مسبوقة فتحت أمامهم أبواب المجهول. اكتشفت بخيتة البحر وهي ممسكة بيد أندير. كانا في العمر نفسه في المرة الأولى لهما في مواجهة المحيط.

قال لها القنصل بحركة كريمة كما لو أنه يقدم لها البحر هدية مع السفر:

- إلى هنا سنتوجه.

- *أجل سيدي*..... همهمت بالإيطالية بلطافة.

- ألن تخافي على الأقل؟

كان يرغب بالضحك إلا أنها ظلت متسمرةً، ومازالت عيناها مأخوذتين بين الانتباه الشديد والرقة. ذات مساء قال عنها لأوغوستو إنها "غزالة الصحراء". فضحك الأخير ضحكة مكتومة.

- ماذا؟ ألن تخافي؟

لم تجب، لطالما خشيت البشر أكثر من خشيتها الطبيعة أو الحيوانات، ما عدا الأفاعي. ودّت لو تخبره أنها نامت مرة على أغصان شجرة مع القردة والطيور، وأنها ذات مرة نامت في حظيرة مع الماعز والتيوس، وأنه لولاها لعانى كثيراً في التعامل مع الجمال والحمير إلى جانب الرحالة الذين لا يعرف لغتهم والآبار التي لايستطيع اكتشافها، والعواصف الرملية التي هي أجدر منه في مواجهتها. فهو لا يعرف كيف يغطي نفسه ويتنفس في الوقت نفسه.

- *لا سيدي*، لست خائفة.

تعتقد أنه بإمكانها أن تثق بالبحر، وأنه ما من شيء يمكن فعله في البحر سوى الذهاب إليه. سترى وستنتظر ظهور إيطاليا بنسائها السعيدات

وأطفالها السعداء، وبالأزواج الذين يعودون محملين بالهدايا. وللمرة الأولى سألت نفسها عما ستفعله بين هذا العدد الكبير من الناس السعداء.

مكثوا قرابة شهر في نزل يقع في شبه جزيرة سواكان منتظرين الباخرة. علموا بسقوط الخرطوم وبموت غوردون باشا مقطوع الرأس على أدراج قصره، وبهروب العبيد وبموت عدد من المصريين، والكثير من الأهالي السودانيين في الخرطوم جراء نشوب حريق وانهيار في المباني. كانت بخيتة قد بلغت السادسة عشر من عمرها، وأدركت أنها لو بقيت هناك لاغتُصبت هي أيضاً على غرار المدينة. كانت تأتيها كوابيس عن مدينة الخرطوم المحروقة وتسمع أصوات أطفال الشوارع، وتراهم في حلمها يمدون أيديهم نحو أمّ لن تستجيب لهم. كانت تضم إليها بقوة الصغير أندير الذي لم يكن يعلم ما الذي هرب منه؛ فبالقرب منها هو لا يخشى شيئاً. لا يخشى أصوات الصراخ في النزل ولا الضجة في سواكان ولا صافرات البواخر، ولا الأوامر الهادرة ولا طيور النورس الجائعة، ولا خوار الثيران البرية التي تنبعث منها روائح الأعشاب الخبيثة، ولا الفحم المحروق ولا الطحالب ولا الأسماك النافقة. وقعت المدينة تحت عنف سكانها فأصبحت مليئة بعابري السبيل وبالمشغولين بأعمالهم أو بهروبهم. كانت بخيتة تشعر بكل هذا دون أن يشرح لها أحد شيئاً. رأت البحر كأنه نهر هائج من الغضب وعلمت أن هذا التوحش يقلق الجميع، فهي لمدينة ذات حجارة عالية تهتز رغماً عنها. أصبحت القوارب متخمةً بثروات السودان والهند ومصر، إنه عالم يقع بين عالمين. فهي مدينة مستقلة وتقع خارج أسوار الزمن. شعرت بخيتة بخوف الأسرة وبعنف الاستغلال. احتفظت بأندير بالقرب منها وحاولت أن

تعلمه شيئاً من الكلمات الإيطالية، قد يتعين عليه أن يعرف كيف يقول *"شكراً، عفواً ونعم سيدي، واعذرني سيدي"*، ولكنه لم يرغب في تعلم شيء بل احتفظ بتلك النظرة الحالمة والمتحفظة. كان يختبئ في حضن بخيتة كقط يجهل أين هو نائم. كانت تحميه من كل شيء حتى من النظرات. سمعت أكثر من مرة مجادلات هؤلاء الرجال الذين *يريدون* هذا الصبي المخصي. كانوا *يريدونه* ويندهشون وهم يسمعون رفض القنصل قائلاً: "لا، لن أبيعه. إنه هدية وعدت بها أحدهم. لا، سأصطحبه إلى إيطاليا فهو لصديق ولا يمكنني فعل ذلك بصديق... لا سأحتفظ به".

وهي... هل سيحتفظ بها أيضاً؟ كانت واثقةً من ذلك تماماً *فالسيد* رجل طيب وإن احتفظ بأندير فسيحتفظ بها بالضرورة، فمن سواها سيعتني به خلال السفر الطويل؟ قال: إن المسافة هي أربعة آلاف كيلومتراً وأضاف قائلاً: "إن المسافة طويلة، أتفهمين؟ لن تستطيعي إطلاقاً اجتياز أربعة آلاف كيلومتراً مشياً على قدميك". ابتسمت وهي تنظر للبحر... لن تستطيع مشياً... كان *السيد* يشرد في فكره أحياناً.

وفي يوم حان وقت الرحيل، أي الرحيل الفعلي. كان الازدحام شديداً في الميناء وفي الممرات فكان هناك رجال ونساء يمشون خلفها وأمامها. كانت تندفع في تيار هذه الأجسام التي تدهس وتزفر، وتضرب ما أمامها. أمسكت بقوة يد أندير الذي كان يبكي متعلقاً بردائها الأبيض. الآن انتهى كل شيء وستغادر بلدها. لقد انتهى كل شيء. تمنت أن يظهر أحد يصرخ قائلاً: *لا ترحلي!* أن ترى أحداً لا يحتمل هذا الوضع. سمعت الناس يصرخون *إلى اللقاء!* في كل اللغات. ولكنها لم تسمع أحداً يترجى قائلاً:

لاترحلي! تلفتت من حولها ونظرت من أعلى إلى الطرود المحمولة على الظهور وعلى الرؤوس والأكتاف، إنه عالم مشحون، عالم من الحبال والطين ومن الأوامر والطاعة. كان بعضهم يشير ليقول: *إلى اللقاء!*، أو *أنا هنا! اصعد إلى جانبي!*، وهناك آخرون يفترقون وغيرهم يلتقون. كان بعضهم يصفر والآخر يصرخ. كان يُسمع من المرعى صوت الكلاب تنبح حتى بُحّت. أخذت المياه تضرب السفينة والطيور تزقزق في الهواء الثقيل. إلا أن بخيتة لم تر امرأة تترجاها بعدم الرحيل، وتفتح ذراعيها لها لكي تعود. فهذه المرأة تعيش في الجانب الآخر من النهر، وهي لم تر البحر قط ولا تدري أن البحر موجود أصلاً وأن إيطاليا موجودة أيضاً. رحلت بخيتة وهي تغمض عينيها كي تراهم جميعهم بأفضل ما يمكنها من ذاكرة، لتستحضر وجوه ذويها. تذكرت وهي مغمضة العينين مشاهد من الطفولة التي أضحت بعيدة جداً عندما كانت كيشمه أختها الكبرى ترعاهم. هكذا كان نظام عالمهم، كان سالماً محمياً، تذكرت بخيتة كل هذا.

كان من الجيد بالنسبة لبخيتة أن يطول السفر لكي تتمكن من استيعابه. كان من الجيد أن يستمر السفر أربعين يوماً ليمروا ببطء من قناة السويس، هذا المضيق المأخوذ من الصحراء بين إفريقيا وآسيا، والذي يجمع بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط. كان من الجيد أن تمر أيام وليالٍ متشابهة لترى السماوات موصولةً بالمحيط، فتشعر بأنها لم تعد تساوي شيئاً. كانت تشهد في كل محطة احتفالية الوداعات واللقاءات. إنهم أناس ضئيلون يقفون على الرصيف ينتظرون ويتلاقون. كانت تراهم يتعانقون ثم يختفون. فيبقى المسافرون ينظرون إلى الضفة دون التمكن من رؤية من ودعوهم.

بقيت وجوههم في مكان آخر. عندها يمسك المسافرون بالحفر المتروكة على أكتافهم وبأعناقهم ففيها ماتبقى من الوداع.

شرحت على مر الأيام لأندير أنهما سيفترقان قريباً، وأنه سيذهب إلى منزل وهي ستذهب إلى منزل آخر. هل فهم أنهما لن يكونا لدى السيد نفسه؟ بدت على أندير الصدمة وصرّ على أسنانه ولاحظت أنه كان بإمكانه أن يصفعها إن أراد ذلك. لو لم يكن قد تماسك لكان صفعها. لم يفعل ولكنه كان كلما اقتربوا من الشواطئ الإيطالية قلّ تحمله للسفر؛ فقد كان يتقيأ ويتعرق من جبهته، ويتأوه ويرفض الطعام. في بادئ الأمر خافت بخيتة كما لو أنهم سيرمون هذا العبد الصغير الذي لا فائدة منه من على متن الباخرة. ولكن كاليستو لينياني كان يلومها فقط لعدم تمكنها من تهدئة الصغير. كانت مندهشة من أن رجلاً على درجة كبيرة من الذكاء والمعرفة لا يفهم سبب ألم صبي صغير. فهناك دواء بلا شك وهي تعرفه، لكنها لا تستطيع أن تعطيه إياه. لا يمكنها إخباره أنهما لن يفترقا. كان يقوم بحركات عنيفة في الليل، ففي أثناء نومه كان يرمي برأسه على صدرها ويقطع عليها أنفاسها وكانت تسمعه يبكي وينادي، وكم رغبت بمواساته ولكنها لم تواسِ أحداً من قبل. تذكرت الصغيرة "يا بنت" التي قضت نحبها بين يدي الواشمة. إنها رؤية تعود إليها دوماً لتسبب لها أكثر من مجرد تأنيب للضمير أو ألم. بل إن هذه الرؤية عبارة عن إدراكها لعجزها ولهزيمتها في مواجهة المصاب. كانت تداعب جمجمة أندير وتضم إليها جسده النحيل جداً إلى حدّ أنه يشبه قطعاً طويلة من خشب الأبنوس مجموعة بشكل سيئ. كان يتصرف بحماقة وطيش فظنت أن "العملية" قد أضرت بعقله.

ناما معاً على الأرض داخل قمرة القنصل وصديقه اللذين لم يخاطرا بتركهما في طابق العبيد والخادمات وقاطعي الطرق والمهربين بكل أنواعهم. كانت بخيتة تظل جالسةً في الشرفة القريبة من القمرة. لم تغامر بالسير في متاهات السفينة. كانت تراقب من النوافذ الصالونات وصالات الطعام، وتسمع أحياناً صوت العزف على البيانو. كانت تنظر إلى المحيط وتفكر بكل ما يوجد في الأسفل حيث العالم البارد والمظلم لا تصل أشعة الشمس إليه. كانت تدرك أنهم يبحرون فوق أموات قدامى. علمت بأن العبيد يمرون لكي يلتقوا بعوالم جديدة كما علمت أنه تم اقتلاع إفريقيا من نفسها. فالبنادق هي سيدة الموقف، وبرغم ذلك فهناك سماوات تواسيها ونجوم تقطع الليل كأمطار من النور وأقمار ضخمة تجعلها تظن أن السفينة اقتربت كثيراً من السماء. أصبحت بخيتة قريبة من قارة أخرى ومن حياة أخرى وهذه المرة كانت تعرف إلى أين تتوجه، إنها ذاهبة إلى منزل *السيد* حيث ستصبح في خدمة زوجته السينيورا لينياني في مدينة تسمى (بادو). كانت تبتسم للقنصل وهي تفكر بذلك، ولم تكن تدري أنه سيختفي قريباً من حياتها وإلى الأبد.

دخلت السفينة إلى ميناء (جنوة). كان دخولها –والضباب يلفّ الهضاب- بطيئاً وحزيناً يعبر عن الوداع النهائي للسودان. إنه فصل الربيع في نيسان عام ١٨٨٥. كان الهواء عذباً والسماء ذات صفاء شاحب يشبه الفجر. دفعت بخيتة يد أنذير المتعلقة بردائها. كانت تريد أن يتوقف عن حبها، كما أنها كانت تود أن تضمه بين ذراعيها وأن تقول له الكثير من الأشياء التي لم تكن تمتلك الوقت الكافي لتخبره إياها. لم تكن تدري إن كان

هناك من يموت من الجلد هنا في إيطاليا. كان أندير يمسك يدها ويصرخ بها بالإيطالية: *"نعم سيدي، شكراً سيدي، عذراً سيدي!"* فكان ذلك مفاجأة لها وأشبه بهدية لوصولها. لقد حفظ سراً ما سمعه منها وأخذ يردد: *"أجل سيدي، شكراً سيدي، عذراً سيدي!"* ابتسمت له ولكن المشاعر كانت تخنقها إلا أنها تماسكت. حملت الأمتعة ومشت خلف كاليستو لينياني وأوغوستو ميكيللي اللذين كانا هما أيضاً محمّلين بالحقائب. كانت تبدو على وجهيهما السعادة كمن عاد ظافراً بالنصر. كان رصيف الميناء مزدحماً كرصيف ميناء (سواكان). فقد كانت هناك أكياس حبوب مرميةً على الأرض وحمولات في الشباك، وعمال الميناء الذين يشتمون، إضافةً إلى المتسولين والأطفال الحفاة. كان عدم الفهم هو الصدمة الأولى لها فهناك أطفال حفاة في ميناء إيطالي. ظنت بخيتة أنهم أتوا من مكان آخر مثلها وأنهم يتمنون البقاء هنا في البلد الذي وصفته لها آنا، ذلك البلد المشمس والحر. كانت هناك امرأة على رصيف الميناء تنظر إليهم وتفتح ذراعيها. وتلك كانت الصورة الأولى التي التقطتها بخيتة عن ماريا تورنيا ميكيللي. إنها امرأة تفتح ذراعيها كالأم. اقترب أوغوستو من امرأته وضمها إليه بحياء قبل أن يطبع قبلةً على جبينها. كانت تظن أن أندير هدية موجهةً لها. رأت بخيتة ذلك بعيني المرأة الفرحتين. إلا أن شجاراً اندلع بين الزوجين؛ فهمت بخيتة بعضاً منه رغم أن ماريا وأوغوستو لم يكونا يتكلمان الإيطالية التي عهدتها. كانت ماريا ترمقهما هي وأندير وتنتظر شيئاً من زوجها. إلا أن أوغوستو رفع كتفيه بحيرة كطفل. عندها أشارت إلى العبدين وعيناها مليئتان بالدهشة وبالغضب. وقالت بصوت جاف وحاد:

- لم تجلب لي شيئاً، أوغوستو؟ لا شيء لي؟

- الصغير أتى هدية لأصدقاء القنصل، أما الفتاة فهي لخدمته الشخصية....

- وأنا، أوغوستو... ألم تجلب لي شيئاً؟ ولا أي عبد؟

- ماريا... لقد رحلنا ونحن على عجلة من أمرنا. لقد سقطت الخرطوم أنت تعرفين، إن الأخبار فظيعة.

- ما أعرفه أن كاليستو نفسه فكر بالهدايا، ولم يفكر فقط بإنقاذ نفسه. اقترب كاليستو لينياني وشرح لها أن العبور مع عبدين كان أمراً خطيراً ومكلفاً، وأنها معجزة أن يتمكنوا من الهرب في الوقت المحدد من الخرطوم، وأن يتمكنوا من النجاة لدى اجتيازهم الصحراء. ثم أضاف بصوت منخفض؛ أنه كان منذ وقت طويل قد وعد أصدقاء له بصبي مخصي، وهم عائلة من (جنوة) تنتظره في النزل. كما قال لها إنه سيغادر في اليوم التالي إلى (بادو) مع بخيتة التي ستكون في خدمة الزوجة. كانت ماريا ترمق الرجلين كما لو أنهما يتآمران ضدها. كانت تريد أن يريا كم هي خائبة منهما. كما أرادت أن تظهر لهما أنها تلك المرأة التي لطالما عهدوها: امرأة قاسية ومتطلبة. كانت سعيدةً جداً بسفرها لكي تنتظرهم على رصيف ميناء (جنوة)، وكانت تتهيأ لأمر آخر ولكن كل شيء ضاع الآن. كانت بخيتة تتبعهم بالأمتعة وتمشي تلك المشية المترنحة التي يقوم بها من ينزل من متن سفينة . كانت الأزقة تبدو بلا نهاية، فهي ضيقة وتفوح منها رائحة السمك والأعشاب الحلوة فتشبه روائح أزهار البهارات، إنها روائح جديدة نفاذة وجافة.

لدى وصولها إلى النزل رأت أصدقاء القنصل وهم آل **(سيكا)** وعلمت أنهم الأسياد الجدد لأندير. كانت تعرف تلك النظرات المليئة بالتفحص وبالفرح. كانوا قد حجزوا غرفاً لأصدقائهم الذين سيرحلون في اليوم نفسه، فهم يقطنون عند المرتفعات المطلة على المدينة. أخذت السينيورا سيكا تدور حول أندير وهي تصفق ضاحكةً. لم تفهم بخيتة هنا أيضاً اللغة جيداً، ولكن أندير أصبح ملكاً للسيدة التي قالت إنها أحبته جداً! وسألت عن اسمه فقالوا لها: "أندير" فردت: "لا، انريكو" ثم طلبت منه أن يغني فعزمت على تدريبه: "لا-لا-لا!" وأشارت له أن يغني بصوته الناعم؛ إلا أن انديرقال لها ببساطة: *"شكراً سيدي... نعم سيدي... عذراً سيدي"*، ثم نظر إلى بخيتة التي أشارت له بالإيجاب، وأن هذا جيد ولكن عليه تصحيح الكلمة فيقول *"سيدتي"*. وجدته أكثر عقلانية منها فقد شعر أن السنيورة سيكا لطيفة جداً وسعيدة بامتلاكه. تودع الأزواج بقبلات على اليد وبتربيتات ودية على الكتف وكانت بخيتة تراقب هذه الرموز الغريبة، ثم عدلت المرأة من قبعتها وأمسكت بذراع زوجها الذي مدها إليها ثم رحلا. مشيا بضع خطوات ثم استدارا ونظرا إلى انديروهما ينتظرانه. ابتسمت الزوجة ابتسامة طفيفة وهي مندهشة، أما الزوج فقد صفر للصغير لكي يلحق بهما. كانت بخيتة تشعر بالهواء الذي يتنفسه الجميع ولم يكن هو نفسه بالنسبة إلى كل منهم. راقبت الموقف المعهود والأبدي لعبد يذهب لدى أسياده الجدد. كان الموقف خالياً من العنف، بل كان لطيفاً إلى حد رهيب. دفع القنصل أندير من ظهره وعلى وجهه تلوح ابتسامة مرتبكة، فهديته لم تكن جاهزةً كلياً. تعرقل الصبي بمشيته وتصلب وتسمر مكانه. نزلت بخيتة إليه واحتضنته وتنشقت رائحة جلده، وهمست له أن يذهب الآن وأن

يركض نحو سيديه. إلا أنه شرع بالبكاء مصدراً صرخة مروعة، حادة وممزقة فنظر إليه الزوجان بذعر، وأخذا يراقبانه بصمت وينظران إلى احمرار وجنتيه. كانا في حيرة من أمرهما. نظرت ماريا تورنيا ميكيللي إلى بخيتة ،ولاحظت ما لم يره الآخرون. إنهم ينتزعون هذا الصبي الصغير من هذه الزنجية فهناك حب بينهما. نظرت إلى هذه الفتاة، إنها تريدها. لن يكون الأمر أعقد من ذلك، هي تريدها. نزع القنصل الصبي من بين ذراعي بخيتة، قام بحل كل أصابع الصبي التي كانت مشبوكة بردائها. كانا الصغير ينتحب ويختنق بدموعه، حمله القنصل كما يحمل كيساً، فاستدار من جديد ومد ذراعيه إلى بخيتة باكياً. رماه القنصل تقريباً إلى سينيور سيكا، فتراجعت زوجته قليلاً إلى الخلف ثم رحلوا ومازالت تسمع أصوات صرخات الصغير المنهكة، وصوت حذاء السينيورا الذي يقرع على الأرض. ثم خفتت الأصوات ولم يتبق في الصمت سوى صوت بعض الطيور اللامبالية. انتهى الأمر إلا أن ماريا تورنيا ميكيللي كانت لاتزال تنظر إلى بخيتة التي تعلم بلا شك الكثير من الأمور كحمل الأمتعة وحب الأطفال والبكاء بصمت.

جلست بخيتة تنظر من النافذة، هاهي إيطاليا، بالطبع. رأت البحر يغيب عن الأنظار بفعل الليل الذي أخذ يهبط كما لو أنه يتراجع لكي يختفي. هناك مصابيح أشعلت في الطرقات. وجدت أن ماقالته آنا كان صحيحاً، فهناك نسوة في الخارج في هذه الساعة من الليل، وبعضهن كنّ وحيدات ولكنهن جميعهن كن متشحات بالبياض. راقبت بخيتة وقتاً طويلاً ولم تلحظ أي وجه أسود أو حنطي، ولم تر أية امرأة بالجلابية، ولا أي رجل يرتدي

العمامة. كانت الأصوات التي ترن بين جدران المنازل العالية تبدو حادة ومندهشة، فقد كان السكان ينادي بعضهم بعضاً بكلمات طويلة، ولفظها متعب فتخرج من أفواههم ذاهلة. اندهشت بخيتة من عدم فهمها لما يقولون. وتساءلت هل هم يتكلمون بلغة أخرى غير الإيطالية؟ ولكن إنها هي، إنها إيطاليا، لقد وصلت إليها، إلى هذا البلد التي لا تملك فيها أختاً ولا أي شخص تبحث عنه أو تتعرف إليه. لقد تركت أنديز كما كان متوقعاً فشعرت بقلبها يتمزق ألماً. لماذا لم تقم على الأقل مرة واحدة في حياتها بمساعدة طفل؟ لقد ظن العبد الصغير أنها خانته، وهو ليس مخطئاً فهي لم تترجّ السيد بالاحتفاظ به.

أصبح الليل دامساً ومن المؤكد أنه مازال هناك أناس في الميناء يحملون، ويفرغون الغنائم ليستمتعوا بفائدتها. أما متعتها هي فكانت تتلخص بلقاء ذويها لكي تروي لهم ماحدث في سفرها، أن تخبر أحداً عن سفرها وعن الأرض التي رأتها من البحر والتي كانت ماتزال بعيدة حتى لدى الاقتراب منها، أن تتحدث عن الهواء الذي يهب بعنف كمحارب، وعن الرجال الجالسين على الميناء يلعبون بالأوراق ويقامرون بالمال كما لو أنهم لا يسمعون هدير الرياح. يشربون ويتشاجرون فيصدرون جلبة غاضبة.

الشيء الوحيد الذي كان يجعلها تهدأ لدى نومها مساءً، معرفتها أنها في اليوم التالي سترحل مع *السيد*. وبدأت شيئاً فشيئاً تفهم اللغة التي يتكلمها فعرفت كيف تخدمه جيداً. إنه من قدم لها الرداء الأبيض، ولم يقم بلمسها قط كما أنه أنقذها من الخرطوم قبل أن تشتعل. هي تدين له بحياتها.

يوجد سرير في غرفتها في النزل، مدت الشراشف ورتبتها جيداً ثم تمددت على الأرض. أخذت تبحث عن حرارة الصغير أندير وعلمت أنه في اللحظة نفسها يمص إصبعه ويناديها. بدا لها أنها مازالت في ممر السفينة، ولكي تتغلب على ألمها من التمدد أرضاً نسقت تنفسها مع تأرجح السفينة وتكومت على نفسها، وحاولت أن تتبع التأرجح. كانت تلك هي المرة الأولى التي تنام فيها وحيدةً منذ اختطافها من الغزاة. لم تمضِ قبل ذلك ليلةً واحدةً وهي وحيدة. فجأة اشتاقت إلى بيناه، فاجأها هذا الاشتياق الذي لم تعانِ منه منذ وقت طويل. الآن أصبح جانب من حياتها التي كانت تشاطرها مع بيناه أمراً بعيداً جداً لدرجة أنها تساءلت: هل حقاً وجد هذا الجانب من حياتها؟ أليست هي من اخترعت هذه الذكريات مع فتاة صغيرة ساعدتها على تحمل كل شيء؟ هل هي من اخترعت وجود صديقة؟ أو أخت؟ أو طفولة؟ لم تعد تدري من أين أتت. أخذت تنصت لصوت البحر، كانت تسمعه دون أن تراه، فكان يعبّر عن وحدة طويلة الأمد.

في اليوم التالي رآها كاليستو لينياني واقترب منها وهو يمسد شاربيه ولاحظت على وجهه بعض الضيق، فتساءلت فيما بينها هل نسيت أن تقوم بشيء ما أو قامت بشيء على نحو سيئ. إلا أن صوت القنصل احتفظ بوداعته المعتادة وهو يقول:

- لماذا أردت يا بخيتة أن تأتي إلى إيطاليا؟

- لكي أراها.

- آه... هذا جيد.

- سيدي

- نعم؟

- هل هذه هي إيطاليا؟

- بالطبع نحن هنا في إيطاليا! ولكن ماذا تظنين؟ أننا في مرسى مؤقت؟

- إني لا أفهم ما يقوله الناس، هل أصدقاؤك إيطاليون؟

- بالطبع هم إيطاليون! فهم يتكلمون بلهجتهم. كل واحد في إيطاليا لديه لهجته الخاصة به.

- وأنت أيضاً؟

- أنا أعرف اللغتين.

- نعم بالطبع *سيدي....*

فهمت أن إيطاليا كبيرة جداً بحجم السودان أو ربما أكبر منها. ومن الممكن أن تحوي الكثير من القبائل والكثير الكثير من اللهجات والأعداد الكبيرة من قادة الحروب أيضاً. هل مدينة *السيد* بعيدة؟ هل يمكن الذهاب إليها مشياً على الأقدام؟ لم تعد تجرؤ على سؤاله عن ذلك؟ كانت تخشى أن يضحك منها. ولكنه أصر قائلاً:

- إذاً هل حقاً تعجبك إيطاليا؟

- شكراً *سيدي*.

- ستكونين بحال جيدة هنا. لقد انتهى عهد العبودية، هل أنت سعيدة؟

كان ينظر إليها متردداً وعلى وجهه ابتسامة تشي برغبته بالاعتذار منها. بعد ذلك انضم إليه كل من أوغوستو وماريا. وقفوا ثلاثتهم ينظرون إليها، فبدا الأمر لها وكأنها تقف في السوق وكما لو أنها لا ترتدي رداءها. شعرت بأنها غير محمية. لم يكن عليها أن تشعر بذلك ولكن قلبها عاد لإيقاعه بالخفقان السريع كالطبول منذراً بخطر آت. كانت ماريا تنظر لها وفي عينيها شيء ما يشي بالسعادة وبالنصر كثأر كبير. ثم استدارت وضحكت، فضحك أوغوستو قليلاً هو أيضاً محاولاً تلطيف الجو. لم تفهم بخيتة المضحك فيها، وما الذي يضحك هؤلاء الإيطاليين. أطرقت بنظرها وشدت يديها وعقدتهما خلف ظهرها. اقترب كاليستو منها وقال لها:

- ستتبعين أصدقائي إلى منزلهم في (زيانيغو)، أنت الآن في خدمتهم أتفهمين؟ ستخدمين السينيورا ماريا ميكيللي.

لم تركع هذه المرة ولم تتوسّل ولم تبكِ فقد كانت مذهولة، ولم تكن لتصدق أنه قد يكذب عليها إلا أنه كذب بأن قال لها إن العبودية قد انتهت. كان الأمر بالغ البساطة ولكنه أبطأ وأقل صخباً من قبل. فقد أطرقت بنظرها أرضاً وتبعت أسيادها الجدد دون حتى أن تودع القنصل. كانت مأخوذة بالجلبة الكبيرة للرحيل بالأمتعة مع الكلمات التي تقال فيما بينهم ومع حركاتهم فتبعتهم وحيدةً في صمتها. تبعتهم وهي خاضعة ومذهولة دون أدنى مقاومة بحزنها الكبير.

لم تفهم شيئاً مما كانت تقوله السينيورا ميكيللي. ترجم أوغوستو لهجة زوجته الآتية من البندقية فقد كانت بخيتة تفهم القليل من هذه اللهجة

الإيطالية. فهمت أنهم لم يشتروها، بل قدّمها القنصل هديةً إلى السينيورا. ستنضم إلى الخادمات وستكون بحال جيدة. ضمت يديها بقوة بعضهما إلى بعض كي لا تصرخ ثم رحلت. إنها حقاً لم تتعلم شيئاً، فما من سيد يحب عبيده على الإطلاق. لكن لماذا احتفظ بها القنصل؟

ركبوا على متن وحش أسود ينفث الدخان نفسه المنبعث من السفينة، ولكنه كان يبتلع الحقول في طريقه ويدخل في أعماق الأنفاق ويصفر بصوت مرتفع جداً. لم تبدِ بخيتة خوفها ولم تسأل ما اسم هذا الشيء؟ وكم من الوقت ستستغرق الرحلة؟ كان القطار يتوقف كثيراً ولكن الأسياد لم يكونوا يتحركون من أماكنهم ولا هي. ثم نزلوا وغيروا القطار دون أن يتحدثوا فتبعتهم. استمرت الرحلة يوماً كاملاً وهم ينظرون إلى إيطاليا من وراء زجاج النوافذ. هناك حقول تمتد على مد النظر وفيها مزارعون محنيّو القامة ونساء ورجال وأطفال صغار. هل يا ترى هم أحرار؟ لم يكن أحد منهم أسود البشرة. والجميع هنا أيضاً يرتدي الملابس، ولكنهم لا يرتدون أحذيةً في أقدامهم. يجب أن يكون الطعام وفيراً هنا كما أخبرتها آنا وذلك بسبب كثرة الحقول.

وصلوا إلى (ميرانو) في نهاية فترة بعد الظهيرة. كانت عربة خيل بانتظارهم. صعد السيد وزوجته إليها، ولم تدرِ إن كان يتوجب عليها المشي بالقرب من الخيل أو الجلوس بجنب الحوذي. ولكن السيد وزوجته أشارا إليها بالجلوس معها. لقد تركا المدينة لينغمسا في حياة الريف. رأت عجائزَ يركبون على حمير صغيرة، وصبية صغاراً يرعون الماعز والخراف، ونساء يجلسن على قارعة الطرقات ومجموعات من الرجال يرتدون زياً موحداً

وهم جنود بالطبع. إذاً هنا أيضاً يوجد جيش؟ كانت تراقب وتشعر بأنها مرمية على هامش العالم وأن العالم ينزلق ببطء. التقت نظرتها بنظرة سيدتها فبدت على وجه تلك الأخيرة ابتسامة محفورة كندبة مرسومة بالسكين.

اجتازوا (زيانيغو) وهي قرية صغيرة تحوي كنيسة ضخمة وكبيرة جداً بالنسبة إلى المكان. ومن ثم مر الحصان بطريق محفوف بأشجار السرو ينتهي بمنزل كبير جداً. كانت هناك شجرة زهرية وهي عبارة عن ماغنوليا مزهرة تغطي تقريباً مدخل المنزل البرجوازي، إنه منزل أسيادها الجدد. نزلت بخيتة من العربة وضغطت في جيبها على المنديل الذي يحوي على التراب الأحمر الذي جلبته من السودان. وكان قد جف فتركت المنديل قليلاً. كانت هناك حديقة كبيرة وباحة ولكنها لم تر المباني المخصصة للعبيد، إذاً فالناس هنا أحرار حقاً. قال السيد إنه سعيد بعودته. نظر إلى زوجته وإلى منزله، ثم انفجر ضاحكاً وقال شيئاً بالعربية! ثم كرر كلامه بطريقة مختلفة فأطرقت زوجته رأسها بتسامح. لكن سرعان ما انطفأت فرحتها.

وقفت سيدة عجوز على عتبة الباب تأكل ببطء شيئاً في وعاء معدني، وعندما رفعت نظرها صرخت وأوقعت القصعة على الأرض، ركضت وهي تشير بارتباك وتقوم بإشارات على جبينها وصدرها. ثم صرخت بكلمات غير مفهومة، ولكنها كانت بالطبع كلمات رعب. ظهر من حديقة المنزل نساء وبعض الرجال. تقدموا سريعاً لتناول الحقائب من السيد، ثم نظروا إلى بخيتة بخوف مكتوم. بصقت امرأة وعقدت امرأة أخرى أصابعها أمامها وذراعاها ممدودتان نحو بخيتة، وهمهمت بصلاة غير مسموعة. لم تعرف بخيتة مغزى هذه الحركات. من الصحيح أن السيد قد عاد إلى منزله

بعد سفر طويل لذا فقد ابتسمت، ولو أنها كانت تستطيع المشاركة لفعلت ولكنها لاتعرف هذا الطقس. صفقت ماريا ميكيللي ونادت ثلاث مرات، لكن الجميع ظلوا مكانهم جامدين وخائفين، كانوا ينتظرون شيئاً ما. قام أوغوستو على عجالة بإدخال بخيتة إلى المنزل؛ فلم تعد تجرؤ أي من الخادمات على الاقتراب، بل كانت وجوههم ملتصقة بزجاج النوافذ.

- إنهم خائفون أكثر منك، هيا!

- *نعم سيدي....*

- سيعتادون الأمر وسرعان ما سيفهمون أنك لست الشيطان.

هي تعرف الشيطان فكل المسلمين يخشونه.

- الشيطان، *سيدي*؟

- أجل! الشيطان الأسود! وناديني *بارون*. ابذلي جهداً لتتعلمي لهجتهم.

رُسمت على زجاج النوافذ علامات أصابع وأنفاس الخادمات المذعورات. نظرت إلى تلك الآثار وفكرت أنها ستنظف النوافذ، فهي أتت من أجل هذا. لهذا السبب أُهديت إلى *السيدة* أو البارونة... لكي يظل كل شيء نظيفاً. وتساءلت ما الأسوأ: أن تكون جميلة أم الشيطان؟

للمرة الأولى في حياتها أصبح لديها غرفة لها وحدها. يوجد في الغرفة سرير وطاولة ومصباح غاز وصيوان. كما كانت هناك نافذة في الجدار تعرّش عليها نباتات مزهرة. كانت غرفة تقع فوق اسطبلات. في الليلة الأولى لم توقد المصباح، ولن توقده أبداً، فهي ترتاح أكثر مع الضوء الآتي من الخارج. وعندما يحل الليل يجب عليها النوم أو النظر إلى السماء. أما عندما يأتي الصباح

فيجب عليها أن تنهض حتى وإن كان كل من في المنزل مازال نائماً. تعودت على النوم في السرير مع خوفها من أن تقع ومع افتقادها للأرض، فهي تشتاق للأرض ولاهتزازاتها. بذلت جهوداً، مثلما طلب منها البارون، لكي تنام مثل الآخرين، وتتكلم مثل الآخرين ولكي تشبه الآخرين. وفي خضم هذا الصراع المستمر في هذه الحياة القائمة على التأقلم وعلى الخجل الكبير، في حياتها هذه الخالية من الحب والحنان، ستلتقي برجل سيكون أول رجل يحبها حقاً بعد أبيها. ظهر هذا الرجل في طريقها كنجمة سقطت عند قدميها.

كان اسمه سينيور إللوميناتو كيكيني، ولكن الجميع يسمونه باسمه الحركي المشهور به في الصحافة المحلية (البارون ستيفانو ماساريوتو). كان يعمل مشرفاً على أملاك آل ميكيللي خلال غيابات السيد الطويلة. كما أنه يعمل في مجالات أخرى، فهو رجل عصامي يحب الناس والفلاحين، وهو المدافع الأول عنهم أمام مالكي الأراضي. هو مطلع على كل الأسواق في فينيسيا ويعرف الأسعار بدقة، ومبيعات الفواكه والحبوب والتبغ والخضار. كما أنه يعرف العمال والمزارعين ويحظى بثقة الجميع. إضافةً إلى أنه من منظمي (زيانيغو)، هو رجل لايمكن تصنيفه. فهو شغوف ويهتم بالدين، ومحب ويتمتع بحس دعابة جيد. إنه ما نسميه ب"شخصية بارزة" كما أنه قبل كل شيء رجل إنساني.

حضر إلى منزل آل ميكيللي في اليوم التالي لعودة السيد. كان في مهمة مهنية وهذا شيء لا يهمه؛ فهو قد أتى بالطبع لتسجيل الحساب الختامي للنشاط الزراعي. ولكنه أتى كذلك بدافع من فضوله كالآخرين. ففي الليلة السابقة أخبره ولداه الكبيران جيسيبي وليون أن هناك في منزل آل ميكيللي

"شيطان أسود". شاهداه من الشارع! استفسر منهما عن الموضوع ثم فهم سريعاً أنهما بالتأكيد يتكلمان عن فتاة إفريقية. كان ذلك حديث القرية، فالأهالي لم يكونوا يتحدثون سوى عن هذه الفتاة السوداء كالخشب المحروق، ربما تكون محروقة وجاهزة لتتحول إلى رماد أو ربما هي مغطاة بالفحم أو مريضة، أو أن الليل يتبعها أينما ذهبت. كان هذا غير مفهوم ومرعب. رأى ستيفانو في منزل آل ميكيللي الأقنعة الأفريقية وأشياء أخرى غرائبية مجلوبة من السودان، ولكن هل هذا ممكن؟ هل من الممكن أن توجد امرأة تشبه هذه الأقنعة؟ عندما التقى بأوغوستو ميكيللي في الصالة لمحها وصُدم رغماً عنه. كان عليه أن يخفي مفاجأته لكنه كان مرتبكاً، فضحك ميكيللي من ارتباكه.

- إنها بخيتة خادمة زوجتي، عمرها ستة عشر عاماً، وهي أَمَة من السودان. لقد أسرت منذ طفولتها، ولديها وشوم تملأ جسدها. لو تعلم! إنها شجاعة جداً، بطيئة بعض الشيء إلا أنها نشيطة.

- أنت جلبتها؟ أنت أنقذتها؟

تلعثم ميكيللي وهو يقول ....نعم... كانت تخدم في الخرطوم عند صديق لي في (بادو) وهو من أنقذها، نعم... قال له ستيفانو إنه مبارك لقيامه بذلك، كونه أنقذ كائناً بشرياً. وسرعان ما استأنف ميكيللي الحديث عن الحبوب والتبغ، فهو لا يحب مبالغات وكيله، ويأسف على كل الضجة التي أحدثها وصول "لا موريتا" (أي السوداء بالإيطالية) كما أسماها الجميع أو "المكسوة بالسواد" أو "السمراء". وتفاجأ عندما طلب منه ستيفانو إحضارها لتشاركهم الغداء في اليوم نفسه.

تبعت بخيتة البارون ميكيللي وهو يشرح لها أنها سترافقهم إلى وجبة الغداء في منزل صديقه. وسألت إن كانت ستعود معهم بعد ذلك، فشرح لها أنها ستذهب معهم بضع ساعات فقط. ظنت أنها ستذهب للخدمة هنالك ولكنها لم تفهم معنى أن تذهب "لبضع ساعات". لم تفهم كلمة من كلام هذا الرجل. تبعته وعيناها مطرقتان دون أن تطرح أية أسئلة كالعادة، فهي تذهب حيث يطلبون منها. وهي تمشي في الشارع، اقترب منها بعض الأطفال ولحقوا بها وهم يصرخون. تبعوها وهم يفرقعون بألسنتهم كأنهم يتعاملون مع حيوان ما. لعق صبي صغير أصابعه ثم استدار وبصق أرضاً. انتبهت النسوة لصراخ الأطفال فخرجن من المنازل واضعات أيديهن على أفواههن. وقعت بعضهن على ركبتيها، ورسمت أخريات إشارة الصليب على صدرها. تجرأت إحداهن على الاقتراب وشدت رداء بخيتة محاولة انتزاعه فصرخت هذه الأخيرة بذعر. تجمّد الجميع كلّ في مكانه صامتاً. في هذا الصمت وصل فلاحون آخرون فصرخوا بدهشة وبذعر كبير. عندها ارتفع صوت ستيفانو بحزم وقوة. زجر الناس كأنهم أولاد صغار فهدؤوا تحت سيطرته للحظة. اقترب من بخيتة وثنى ذراعه، ومدها نحوها. تعرفت على هذه الحركة من أصدقاء القنصل لدى مغادرتهم النزل في (جنوة). تساءلت عما يجب فعله فهي خادمة وهو سيد وهما محاطان بالضحكات المكتومة، إضافة إلى بعض الحصى المرمية عليها. ظلّ ستيفانو واقفاً ينتظرها بذراعه المثنية نحوها. وبما أنها لم تتحرك اقترب منها بلطف ووضع يدها في يده، فتراجعت خطوة إلى الوراء وارتعشت خوفاً. كانت يد الرجل قوية ودافئة. وضع يده على ذراعها وقال عدة كلمات لم تفهمها. كانت خجلة من

أن يلمسها رجل أمام أنظار الناس. لم يسخر أحد منهم رغم ذلك؛ بل على العكس فقد شعرت أن العنف قد انطفأ. مشيا والناس تتبعهما بخطوات حذرة وبهمسات مندهشة. اجتازا القرية مشياً وستيفانو ينظر إليها بفخر، أما هي فقد كانت مطرقة بعينيها أرضاً. همهمت امرأة بالقرب من مسيرهما "يقال إنه يأخذها إلى المذبح!" وكان الأمر شبيهاً بذلك.

ستجلس بخيتة على طاولة الأسرة وسط أطفال ستيفانو الخمسة إضافةً إلى كليمانتينا. كانوا عبارة عن ثلاثة أبناء وابنتين تتراوح أعمارهم بين الحادية عشرة والخمسة أعوام. كانت بخيتة متعلقة بذراع الأب الذي أعلن بصوته الجهوري: "هاهي (لاموريتا)! لقد دعوتها إلى تناول الغداء!". قرأ في نظرة زوجته الخوف والاحترام. "ليس لها أحد في العالم. لقد عانت كثيراً" صمت الأطفال فلم يرغبوا بمعارضة أبيهم، ولكنهم لم يفهموا ما يرونه. رأت الخوف في نظراتهم. مدت يدها لتضعها بلطف على رأس ميليا الإبنة الصغرى فبدأت هذه الأخيرة تبكي. التفتت بخيتة إلى كليمانتينا قائلةً: "*آسفة سيدتي.... بارونة...*" حتى ستيفانو نفسه تفاجأ، ثم قال بصوت رجولي: "والآن أقدم لكم أختكم الصغيرة موريتا!" وضحك فضحك الجميع معه. لم تكن بخيتة قد أدركت بعد أنها ستكون جزءاً من هذه العائلة، أو أنهم سيسمونها من الآن فصاعداً "الأخت الصغيرة".

كانت في خدمة ماريا ميكيللي ولكنها تعرفت على العالم الذي ستعيش فيه من الآن فصاعداً من خلال ستيفانو. فقد كانت تدعى إلى منزله دوماً حيث لا تمر وجبة أو سهرة دون أن يقرع الجرس. كان الفلاحون يأتون

ويترجونه بالتوسط لهم لدى السيد. كان يسمح لهم بالجلوس ويقدم لهم دوماً شيئاً يشربونه كالقليل من الحليب أو بعض الخبز للأطفال. كان يستمع إليهم بلهجتهم. فلهجة البافانو أكثر قساوة وحدّة من لهجة أهل البندقية، وكانت غير مفهومة لدى بخيتة. كانت تنظر إليهم، وتلاحظ عليهم الإرهاق والنحول الشديد والبشع لدى الجوعى منهم. كانت تلاحظ أيضاً نظراتهم الثابتة الواهنة، وجلودهم الحمراء المتهتّكة التي توشك على التساقط. اندهشت من أن تكون جلودهم في منطقة اليدين والرقبة والذراعين والفخذين على هذه الحال فقط. كان مرض البرص أو "الجلد الحساس" يترك ندوباً على الأجزاء المعرضة للشمس من بشرتهم ومع أن هؤلاء العبيد لا يخرجون عراة. كما أنها لاحظت ارتعاشهم وانتبهت إلى بطون الأطفال المنتفخة وإلى الشلل التدريجي. ولاحظت العته الموجود لدى المحرومين من الطعام لدرجة الاقتراب من الموت. كانوا يتوسلون بارون ستيفانو ويبكون وأحياناً يسقطون على ركبهم. استشعرت بهذه الحاجة الملحة بالذهاب إليهم وبإخبارهم أنها تعرفهم. نعم هي (لاموريتا) تعرفهم منذ وقت طويل. إنهم خاضعون ويائسون ويعملون ويموتون بينما يُدان أطفالهم لهروبهم من الخرطوم. هي تعلم أن الرجال يتحملون ما لا يحتمل وأنه يوماً ما سيناديهم أحد ما وسيتبعونه. لذلك لا شيء يمكن أن يوقفهم. لكنها لم تقل شيئاً ولم تقترب منهم. كان الفلاحون في (زيانيغو) يخشونها وهي لم تكن تعرف لغتهم. لجمت اندفاعها وفي المساء باحت لليل بما يعذبها . كان من المستحيل أن تنام دون أن تعبّرعن ألمها وعن عجزها عن تقديم يد العون للمساكين. توجهت بمناجاتها للسماء التي لا تتغير أنّى ذهبت،

وكثيراً ما يبدو لها أن العالم ليس كبيراً. لم يمر صباح دون أن تفكر بأمها الجالسة على جذع شجرة الباوباب، وكان يبدو ذلك المشهد خيالياً كحياة تخص واحدة غيرها. ولكنها تبدو كرؤية جلية تجعلها تتأكد من أن أمها في اللحظة نفسها تفكر بها وتعلم أنها في مكان آمن.

بالنسبة إلى البارونة ميكيللي فقد كانت تتمتع بلطافة مثيرة وبطيبة كبيرة. وهذا أيضاً ما لاحظته بخيتة منذ البداية وأيقنته. إنها امرأة تخفي ألمها، وتحمل في داخلها عدواً لدوداً. كان يتعين على تلك المرأة أن ترقص، وأن تصرخ وقتاً طويلاً، وأن تخرج هذه الروح التي تتملكها. إلا أن هذه المرأة تتكلم بلطف وبنبرة جافة وحائرة. كان لديها دوماً ما تلوم نفسها لأجله إلى جانب تنهداتها التي تعلن عن وجودها. لم تكن تغار من المحبة التي يكنها ستيفانو ل(لاموريتا)؛ فهو حليف مهم لها، حتى عندما يكون زوجها موجوداً، ذلك لأن وجود هذا الأخير مثل غيابه، فهو دوماً يفكر بأمور أخرى. هو يفكر دوماً بالرحيل للهروب منها ومن هذا المنزل؛ حيث ما من أحد سعيد. كانت ماريا ميكيللي هي أيضاً غريبة عن بلدة (زيانيغو) وعن إيطاليا كلها، فقد أتت من بطرسبورغ حيث كان أوغوستو يعمل مع تجار للفراء، وهناك وقع في حبها. إنها ليست إيطالية كما أنها ليست كاثوليكية، ولكنها بالطبع اعتنقت الكاثوليكية لكي تتزوج في كنيسة في باريس. في الأصل هي أورثودوكسية تبعاً للتقاليد وليس عن قناعة. كانت تشترك مع زوجها بصفة واحدة ألا وهي الانزعاج من تزمت ستيفانو. لم يكونا يعلّقان الصليب في منزلهما، ولم يكونا يذهبان إلى القداس، كما أنهما لم يكونا يباليان بازدراء الآخرين لهما. ولكنه كان بالطبع صديقاً مقرباً للكاهن، كما أنه يدير

الكورال وينظم رحلات الحج، ويساعد في الأعمال الخيرية. أما السيدة فهي تستمع إلى عزف الأورغ وتحب الموسيقا ولكن لا تفضل الذهاب إلى الكنيسة.... إلى جانب أنها منعته من التكلم عن الله إلى بخيتة التي لم تتأقلم مع هذا الجو الإيطالي المليء بالتبشيريين، فهي تحتفظ لنفسها بمفاهيمها عن الخير والشر وستعرف كيف تهتم بخادماتها بنفسها.

لم تكن بخيتة بحاجة إلى أن يكلمها أحد عن الخير والشر؛ فهي تدرك بقلبها هذا الصراع. وسرعان ما فهمت أن العالم هو عالم واحد، وأن البحر الموجود بين السودان وإيطاليا ليس فاصلاً بين البلدين، بل هو نقطة تلاق بينهما. فالأمر سيان، حيث أن البشر يتألمون في كل مكان. ذات صباح كان ترافق البارون ميكيللي إلى السوق فرأت فلاحاً مقيداً يمشي بين جنديين، فذهلت من رؤية سلاسل هنا أيضاً! هل توجد سلاسل هنا أيضاً! دفعتها البارونة ميكيللي إلى الأمام قائلة ببطء:

- لقد سرق قطعة فاكهة.

- قطعة فاكهة بارونة؟

- أنت تفهمين لهجة مدينة البندقيّة!

أدركت أنه هو حتماً من زرع حبة الفاكهة تلك. لم تفهم كلمتي: "نهب" و "القانون الجزائي" ولكنها كانت تراقب وتفهم كل شيء. هي لا تملك الحماية، فالحياة مرت بها سريعاً دون أن تتعلم كيف تحمي نفسها من هذه الرأفة. ماذا كانت تقول أمها؟ *ابنتي الصغيرة....ابنتي الصغيرة، لطيفة وطيبة. ابنتي الصغيرة.....*نظرت إلى بارونة ميكيللي، وفهمت فجأة هذه المرأة بلؤمها وبألمها.

باحت بها في داخلها لكليمانتينا زوجة ستيفانو؛ بقليل من الكلمات وبكثير من الحركات مع بعض الضحكات المجنونة. تواصلتا فيما بينهما قدر المستطاع. في ذلك اليوم لم تكن بخيتة بمزاج يسمح لها بالضحك، ولم تعرف كيف تطرح الموضوع؛ أشارت إلى ابنة كليمانتينا الصغيرة، ميليا، وتكلمت عن الطفلة وعن البارونة ميكيللي. جذبتهم بحديثها فقد كانت كليمانتينا تستمع إليها بانتباه، ثم وضعت قبعتها، وأشارت إليها كي تتبعها. اجتازتا (زيانيغو) وخرجتا من القرية وقطعتا الطرقات الصغيرة المحاطة بالنباتات، والتي ينبعث منها خرير المياه الجارية بشكل خفي بين الصخور والجدران الصغيرة الثقيلة، والمباني في عمق المزرعة التي تشبه الزرائب، والمساكن الواسعة الخاصة بنبلاء البندقيّة. كانت بخيتة تحب هذه النزهات وروائح الفواكه الناضجة والأعشاب، والأنواع التي اكتشفتها والتي تعرفها من الطيور كالشحرور والقبرة، والعقاب الذي كانت تراه على الجبل من بعيد. كانت تخاف من أن تسبب الخوف لأحد ما أو أن تُرمى بحجر. كانت تقول في نفسها: "كلما رآني الآخرون أكثر، اعتادوا على وجودي، وربما سيسمحون لي يوماً بالاقتراب منهم". ارتدت ملابس أوروبية بفضل البارونة ميكيللي، كما وضعت دبابيس جميلة في شعرها المجعد. ومن أجل النزهات الكبيرة لها مع عائلة ميكيللي على متن عربة الخيل المكشوفة، فقد كانت ترتدي فستاناً أحمر قرمزياً لدرجة أنه حتى من يخشونها كانوا يقولون: إنها جميلة. ولكنها لم تكن تدري ذلك.

صعدتا الهضبة قليلاً، وسمعت بخيتة أصوات الأبقار قبل رؤيتها، وفجأةً...ظهرت فتاة صغيرة ترعى القطيع بالقرب من النهر. كانت فتاة

صغيرة جداً تائهة في وحدتها، تهشّ بعصاها النحيلة على غرار فخذيها العاريين، وتطلق من وقت إلى آخر صرخات قصيرة وصافرات. أشارت بخيتة إليها لكي تراها كليمانتينا، ومن ثم ضربت على صدرها. تلك الفتاة الصغيرة، إنها هي. تذكرت بخيتة نفسها وبدا كما لو أنها ترى نفسها وتلتقيها. تلك كانت حالتها منذ وقت طويل وحتى الآن، فهي مازالت تستطيع أن تقود القطيع إلى النهر في الصباح، وأن تعيده إلى القرية في المساء. فهمت كليمانتينا قصدها وهنأتها، وعزمت على إخبار ستيفانو في مساء اليوم نفسه، قائلةً: "بخيتة تعرف كيف ترعى الأبقار". ابتعدتا لكن بخيتة التفتت وهي تنظر إلى ماضيها الذي ظهر لها في إيطاليا، كم يمر الوقت سريعاً!

عندما دفعت كليمانتينا سياج المقبرة لتدخل، أطرقت بخيتة نظرها بشكل عفوي؛ فهي تعلم أين هي إذ أنها رأت في الخرطوم مقابر صغيرة للبعثات الكاثوليكية. إن أماكن كهذه لم تبن من أجلها؛ لذا فهي لم تكن تشعر بالراحة كما لو أنها دخلت إلى مكان ممنوع، أو كما لو أنها في حديقة ممنوع الدخول إليها. قادتها كليمانتينا إلى قبر صغير. فهمت بخيتة الكلمات التي تعلو القبر حتى قبل أن تشير كليمانتينا إليها:

- كارلو ميكيللي، جيوفاني ميكيللي

أدركت بخيتة أنه في هذا المكان يكمن مصاب البارونة ميكيللي.

ذهبت بخيتة مساءً لخدمة الأسياد الذين تناولوا العشاء في الغرفة الكبيرة الفارغة. كانوا يجلسون دون أن ينظر أحدهم للآخر، يتناولون لحم الخروف والخضار والرز والفواكه والخبز، ويشربون الخمر والقهوة وكل

مازرعه فلاحوهم الذين لن يأكلوا أو يشربوا شيئاً منه. كانت بخيتة تراقب *البارونة* وتود إخبارها بألا تقلق، فهي تعلم أن هناك طفلاً آخر في أحشائها ولا يجب انتظار المولود بخوف. ظلت تراقبها وهي في مكانها بلا حراك.

قالت ماريا لزوجها:

- إنها بطيئة، بطيئة بحق!. ثم انفجرت بعدم صبر:

- ماذا؟

عندها تجرأت لاموريتا بصوتها الثخين على أن تقول بخجل:

- أنا هنا، *بارونا*

كتم أوغوستو ضحكته في منديله، بينما أطرقت *البارونة* كي لا يرى أحد دموعها تنساب.

ظلت كل من السيدة والخادمة تنتظران المولود معاً. ولكن ماريا لم تنس (جين) وحزن الصغير أندير الذي لم يكن يرغب بترك لاموريتا. إنها تعلم أنه اجتاز الصحراء والبحر معها وبفضلها. كما أنها متأكدة من أنه لا زوجها ولا صديقه من اعتنى بالطفل! لقد منحها القنصل بخيتة جائزة ترضية، وكانت تريدها حقاً، تريد هذه الزنجية؛ فالأمر ليس مجرد نزوة.

لم يتكهن أوغوستو بأن ماريا تحمل في أحشائها طفلاً جديداً منذ بضعة أسابيع. وكان يظن أن شحوبها وغثيانها الصباحي جزءٌ من تدابيرها الخاصة بها. فزوجته شخص هيستيري ولا يمكنه أن يفعل لها شيئاً. كانت تدرك أنه إن علم بحملها الجديد، سيهرب منها. كما لو أن الطفل ليس منه،

بل منها هي فقط. كما لو أنه ينتمي إلى أمه فقط ولا أحد غيرها. كان يرى أن وفاة الطفلين عار عليها، فالأطفال لا يعيشون معها. من المعتاد ومن المنطقي أن يموت أطفال الفلاحين، فهم آتون من آباء يحتسون العرق ويأكلون عصيدة الذرة، من آباء أمّيّين وغير مهذبين ووسخين. أما هي! فلا تعرف كيف تجعل طفلاً يعيش؟ في حملها الأول مرّ الأمر إذ أنه لا يمكن فعل شيء أمام الحصبة، ولكن في المرة الثانية؟ لم تتمكن حتى من الحفاظ على الطفل في أحشائها. فولدت طفلاً ميتاً، فما خرج منها لم يكن سوى الموت. يومها قال الكاهن: "الرب توفاه هو أيضاً". عندها قررت ماريا أن الأمر انتهى، فلم تعد ترغب بسماع الحديث عن هذا الرب الذي يحتاج إلى أبنائها أكثر منها. أما طفلها الثاني، فقد منحته اسم حماتها (جيوفاني) قبل حتى أن يتلقى المسحة المقدسة، ثم ربطوا لها ثدييها وعلى أية حال هي لم تكن ترغب بالإرضاع؛ إلا أن ثدييها كانا يؤلمانها ألماً كبيراً أكثر من ألم ولادتها لكارلو الذي كانت تراقبه وهو يرضع من المرضعة البدينة (أليسيا) ذات العينين اللامباليتين والصدر العارم. كانت تكره الجميع مع إلههم الموجود هنا وهناك كعادة يرددونها على ألسنتهم، أو كإله يتسلل إلى كل مكان ويختلط بكل شيء وعليها أن "تمنحه أولادها"، كما لو أنهم ملكاً له.

قررت الآن أن تخفي حملها الجديد عن الجميع، ما عدا لاموريتا التي تنبأت به وحدها. ولن يشك أحد بحملها: لا ستيفانو ولا عائلتها ولا الخوري ولا حتى أصدقاؤها. فهي تعلم كيف ينظرون إليها، إنها بنظرهم امرأة غريبة من الأفضل لزوجها أن يهجرها ليتزوج من إيطالية متينة الجسد

تكون أماً يرونها تذهب إلى القداس يوم الأحد وتحوك الثياب للبؤساء وتتبع المواكب المتجهة إلى العذراء على غرار الآخرين. وكالآخرين عليها أن تحني رأسها أمام المصاب وترتدي غلالة وجه سوداء اللون، وتقدم أولادها قرابين للسيد ملتهم الأطفال.

أما هذه ال(لاموريتا)، فلا تدري شيئاً عن كل هذا، فهي تظل صامتةً ولا يمكنها أن تشيع أي خبر سواء أكان شائعةً أم حقيقة. لذا طلبت منها ذات مساء أن تفتح باب الخزانة وأشارت إليها لتخرج منها صندوقاً أزرق، وأن تضعه هناك على الطاولة، فهي تعتزم على أن تريها شيئاً ما. قالت لهذه الخادمة بلغتها الروسية: إن الحياة جميلة جداً وأقصر من عمر كارلو الصغير. أخرجت ثياباً كانت قد احتفظت بها من أجل مولودها الثاني، ذلك لأنها ما إن جففت دموعها على وفاة مولودها الأول، حتى أمرت حماتُها بأن تنجب الثاني حالاً "مولوداً آخر"، كما لو أن طبقاً قد فاتها بكل بساطة. لم تكن تريد إنجاب طفل آخر، ولهذا السبب فقد ولد هذا المولود الثاني ميتاً. إنه بديل متعب وعاجز عن فتح عينيه. بدا لها عندما حملته بين ذراعيها لكي تختار له اسماً أنها تحمل روحه التي انطفأت، وترغب أن تصبح روحاً منسية. ولكن كارلو! كارليتو كان قد كبر وأصبح عمره أربعة أعوام! روت بلغتها حياتها التي أمضتها كأم له فهي كانت أمه مهما يقولون. حدثتها عن خطواته الأولى وعن كلماته الأولى وعن تأوهاته الأولى وعن أمراضه الأولى التي عالجتها، أجل لقد استطاعت أن تفعل ذلك! من ثم أخرجت ثيابه لتثبت كلامها وطلبت إلى بخيتة أن تلمسها لتريها كم هي جميلة؛ ولتريها أيضاً أن هذه الثياب حقيقية. لقد مُنعت من الحديث عن الطفل بما أنه يذكرها "بذكريات سيئة". ولكنها ترغب

بالحديث عنه إلى هذه ال(لاموريتا) التي تستمع إلى حديثها بالروسية دون أن تخفي دموعها. أخبرتها كم كان صبياً طيباً، وكم كانت هي أماً رؤوماً! أعجبها أن تبكي بخيتة، فإن كان قد آلم هذه الغريبة ما جرى، من الطبيعي إذاً أن تتألم وتحزن، أليس كذلك؟ إذاً هي ليست مريضة؟ ولا مجنونة؟ تحمست وأخذت تتكلم بسرعة أكبر، وعلا صوتها أكثر، فمزجت بين الروسية ولهجة البندقية والفرنسية والانكليزية التي كانت تعرفها أيضاً. "*انظري*، المسيها، لاتخافي!". ثم لوحت بالتصاميم وبالقطنيات المزغبة، وبالقبعات الصغيرة وبالجوارب صائحةً بالانكليزية: "*كم هي صغيرة!* ثم وضعت يدها على فمها وأخذت تضحك من صغر حجم تلك الجوارب. لم تعد قادرة على التوقف عن الضحك، فأخذ جسمها يهتز ضاحكاً. وبعدها قالت بكل اللغات: "يا لصغرها! يا قلبي! يا عزيزي! حبيبي!"، عندها انفجر حزنها.

تذكرت بخيتة صراخ الأم التي كانت في الطويشة عندما لمست قدم طفلها الصغيرة والجميلة، وتذكرت كيف جُلدت لفعلتها تلك وكيف بكى الطفل هو أيضاً. اقتربت بهدوء من *البارونة* وأخذتها بين ذراعيها. كانت تلك حركةً مباغتة وممنوعة، ولكنها أرادت أن تقول لها ببساطة: ارتاحي. ارتمت *البارونة* في حضن لاموريتا منتحبةً، فهي حصلت أخيراً على حقها بالحزن.

وُلد الطفل في الثالث من شباط عام ١٨٨٦. كان السيد قد غادر إيطاليا قبل ذلك بثلاثة أشهر، ثم عاد إلى سواكان وكتب منها إلى زوجته كلمات اعتذار تسبق هزيمته القادمة، وطلب منها أن تعتني بنفسها.

عندما بدأ المخاض، طلبت *البارونة ميكيللي* من لاموريتا أن تبقى إلى جانبها؟ فظلت بخيتة تنام ثلاثة أيام على الديوان دون أن تجرؤ على أن تخبرها بأنها تفضل النوم أكثر على الأرض. كانت حواسها يقظة فتستيقظ عشر مرات في الليلة، وتضع يدها على بطن البارونة التي تتألم، ولكن بخيتة كانت تعلم أن كل شيء سيكون على ما يرام. كانت *البارونة ميكيللي* تشعر ببطنها يسترخي تحت يدي لاموريتا، فيتحول الحجر فيه إلى سائل وعندها يقل ضيقها قليلاً، وكانت تتمكن من الخلود إلى النوم.

كانت بخيتة متأثرةً كما لو أنها المرة الأولى التي ترى فيها أمراً مشابهاً وتساعد بولادة طفل. مع أنها شهدت ولادات كثيرةً تنتهي باحتفالات أو بمشاهد مرعبة، ورأت نسوةً سعيدات، وفتيات صغيرات يمزقهن الألم، وأطفالاً احتُفظ بهم، وآخرون ألقوا بعيداً، وأمهات صفر اليدين وأخريات - مثل أمها - شبيهات بشجرة كثيرة الأغصان. شهدت الكثير من حالات المجيء إلى العالم ورأت الكثير من العوالم. كان عمرها سبعة عشر عاماً، وكانت تعلم أنها لن تنجب طفلاً يوماً، فقد أخبرها بذلك جسدها العبد الذي تحطم تحت وقع أشكال العنف. كانت *البارونة* على وشك الولادة. اندهشت من أنهم يثبتون امرأة تقوم بالتمرين الأكثر حدةً، فكرت بغزالة يقيدونها قبل أن يجبروها على الركض. لكنها لم تقل شيئاً، وعندما وصلت القابلة في اليوم الثالث أشارت إليها بالخروج، فالأمور الجادة ستبدأ حالاً.

وُلدت طفلة صغيرة سمتها *البارونة* أليس، أليسندرينا، أوغوستا. أَرسلت برقية تبشّر الأب بالولادة، وعلم جميع من في القرية بالخبر: ماريا

ميكيللي نجحت أخيراً! إنها فتاة، لكنها مع ذلك كانت سعيدة، وربما سيسعد أوغوستو بذلك هو أيضاً. من يدري، ربما ستقوم بعمل أفضل المرة المقبلة وستنجب ابناً. بعد عدة ساعات حل الليل واستدعي الكاهن، إذ يجب أن يقوموا سريعاً بالقربان المقدس دون انتظار التعميد في الكنيسة، فقد كانت الصغيرة تُحتضر. وضع الكاهن يده على ناصية ماريا ميكيللي مغمغماً بكلمات لاتينية ومشيراً بحركات لم تفهمها بخيتة. كان صوته ناعماً وحزيناً وأراد التكلم قليلاً مع الأم، ولكن ماريا كانت تتلو الصلوات بلا قناعة، ناظرةً بثبات إلى أمام نحو مستقبل غامض. لم تبك بل بدت عليها الحماقة والإعياء. ولم تعد ترغب في رؤية الصغيرة ولا في لمسها. لم تعد تحبها بل إنها تكرهها. عادت القابلة وربطت لها ثدييها في صمت مطبق. شدت بحزم الأربطة البيضاء التي تلطخت فوراً، ومن ثم تركت المنزل بعبارات مواسية. سُمح ل(لاموريتا) بالبقاء وبالانتظار مع الأم لحظة صعود روح الوليدة إلى السماء بعد أن تم تطهيرها ومباركتها.

حلّ الليل ثقيلاً كالحاً وصامتاً. غطى البخار النوافذ مع نور المصابيح المتراقص. كانت رائحة الدم والعرق تنبعث إضافة إلى هذا التعب الثقيل. كانت الغرفة مغلقة ومعزولة عن العالم؛ فالكل هرب من الفاجعة، ولم يكن الوقت يمر سوى لدى هذه الكائنات الثلاث: الأم والوليدة والخادمة، يرافقهم الموت متقدماً نحوهم في مسار قدريّ.

لم تكلم إحداهما الأخرى قط. بينما بقيت الوليدة وحيدةً في مهدها تُحتضر وألمها يجتاح الغرفة. إنها مخلوقة متناهية الصغر بحضور واسع الطيف

لايجد نجدةً له. اقتربت بخيتة من المهد الذي أرادت البارونة ميكيللي وضعه بعيداً عنها في الطرف الآخر من الغرفة. نظرت إلى وجه الصغيرة "أليس" المزرق، كانت أنفاسها قصيرة، وتصدر زفيراً أجش. فكرت بخيتة بنهر تمنعه الصخور من الجريان. سمعت صوت تيار المياه المحبوس ورأت أن الحياة تصارع جبروت موت مقبول. عندها قامت بأمر لم تقدم عليه سوى مرة واحدة منذ وقت طويل عندما لاذت بالفرار من الطويشة: *لم تطلب الإذن من أحد*. تناولت الوليدة ونزعت عنها ثيابها وجلست ومددت الصغيرة على ركبتيها. ثم بصقت على يديها ودلكت صدرها ببطء مرددةً عبارات غير مفهومة ولطيفة. كان وجهها قريباً جداً من جسد الصغيرة حتى إن البارونة لم تعد ترى سوى شعر بخيتة الأجعد وعنقها المنحني. أخذت الصغيرة تئن ببكاء مبحوح وضعيف. أصبحت بخيتة مأخوذة بتكرار الحركة والعبارات، فكان صوتها حزيناً ممزوجاً بتنفس الطفلة المأخوذ بصعوبة. كانت تسمع أصوات قرقعات الخشب في المدفأة التي كان بعضها يشتعل والآخر ينفجر، بينما ازداد سعال الصغيرة قوةً مصدرةً صوتاً فهمته بخيتة على أنه يعبر عن الألم والتمرد. بصقت من جديد في يديها واستمرت بالتدليك، وأخذت تردد العبارات ووجهها قرب وجه الرضيعة. تلقت سعالها وبكاءها كهدية موجهةً لها.

قبعت *البارونة* في مكانها صامتة ومتفرجة ومأخوذة بالمشهد؛ فقد شعرت بولادة الأمل من جديد كما شعرت - في الوقت نفسه - برفض لهذا الأمل. رفعت بخيتة الوليدة وحملتها تحت ذراعيها ، كانت تغصّ وتختنق بالبلغم. مددتها بخيتة من جديد، وأنزلت رأسها بين يديها ووضعت فمها

على أنف الصغيرة وسحبت الهواء بعمق وعادت لتبصق على الأرض. كررت الأمر عدة مرات وبسرعة كبيرة دون أن تأخذ حتى نفساً كافياً. أخذت تسحب البلغم وتبصقه وكان الأمر صاخباً وقذراً كما الحياة: مكررة وغريزية ومتسلطة. عندما توقفت الصغيرة أخيراً عن البكاء من الألم وتحول بكاؤها إلى بكاء جوع، ألبستها بخيتة من جديد، وحملتها إلى أمها. تراجعت *البارونة* برهة إلى الخلف وعيناها تسألان لاموريتا إن لم تكن فقدت صوابها بفعلتها تلك، ولكن بخيتة بحركة بطيئة انتزعت الرباط الأبيض الطويل وحررت نهدي سيدتها، ثم قالت الكلمة التي تحبها بصوت خفيض: *"أيتها الأم."*. علمتها كيف يجب أن تُرضع، وهي من يجب أن تقوم بذلك، عليها أن تُرضع ابنتها.

سُميت من يومها "ميميّا"، وهو نعت لطيف كالقبلة، كقطعة حلوى صغيرة بحنانها العميق. كلفت ماريا ميكيللي بخيتة برعاية الصغيرة. لقد قبلت أن ترضعها ولكن يجب أن تظل لاموريتا بالقرب منها، لأنها تخشى من أن ترتكب الرضيعة خطأً ما، أن ترضع أقل أو أكثر مما ينبغي. ثم إنها لا تعرف كيف تجعلها تتجشأ، ولا تعرف كيف تقمّطها ولا كيف تحممها. بالكاد كانت تجرؤ على لمسها، فهي تراها كائناً صغيراً ذا قوة سحرية. أمرت بوضع مهد الصغيرة في غرفة الخادمة في الأعلى، فوق الإسطبلات. كانت بخيتة تقوم ليلاً نهاراً بإنزال الصغيرة إلى أمها لترضعها. انقلبت الأدوار؛ فقد أصبحت لاموريتا هي الأم، وتحولت الأم إلى مرضعة ليس إلا. ولكن من يهتم، فلطالما كانت ماريا ميكيللي لا مباليةً بنظرة البرجوازية إليها في زيانيغو. فزوجها مسافر وحماتها حمقاء. كانت تراقب ابنتها تكبر بذهول

وبفضول قلق. وفي الوقت نفسه ازداد ازدراؤها وتكبّرها على هذا العالم الذي طالما رفضها.

لم تكن بخيتة تفعل سوى وضع الصغيرة في مهدها لتنام. كانت تحملها وتضعها لتغطيها، تمضي الأيام والليالي لا تفعل سوى أن تلتقي بهذه الطفلة لقاءً لا ينتهي. ذات مساء كان البدر مكتملاً كالشمس، حاداً وأحمر اللون. مدت الصغيرة نحو القمر ورددت اسمها ثلاث مرات. ذلك لا يعني كيف كان العالم لدى ولادة ميميّا، بل يعني كيف تغير العالم لدى ولادتها!

شعرت بفرح عميق وبشوق عارم على حد سواء. أخذت الرضيعة في حضنها وبكت على أمها هي. شعرت بحاجتها الكبيرة إلى أمها، وظهرت هذه الحاجة في كل ماهو؛ جيد كما كان قد ظهر من الجحيم، فغياب أمها يترك فراغاً لايملؤه شيء، ويظهر في ذاكرتها في كل شيء أمامها. كانت تود أن تشارك مع أمها هذه الأمومة البديلة. كما أنها ودت لو تعود إلى حياتها القوية والطفولية في أحضان من كان تسمى *"ماما"* في لغة منسية. ودّت لو تكون الأم والطفل معاً بذلك الحب الذي تكنّه. ولكنها الآن ممزقة نصفين، وتستغرب وجود هذه القوة الموجودة في شوقها. هل ستظل طوال حياتها مقيدةً بهذا الحب الذي لايمكن استبداله؟ هزت ميميّا في مهدها وشكرتها لبقائها على قيد الحياة. ففي الحب الذي تمنحه لهذه الصغيرة يكمن حبها لكل أولئك الذين أحبتهم والذين انتُزعوا من حياتها. لخص حبها الصغيرة كل الحيوات التي التقت بها والجراح المخفية والحارقة التي عانت منها. التقت عينا الصغيرة ميميّا بعيني بخيتة، كان في نظرتها غموض وتركيز، وفيها رد على بخيتة. لم يدرِ أحد شيئاً عن تواصلهما بعينيهما بلغتهما

الخاصة بهما، وعن ملاطفتهما ونعاسهما سوياً. إن حياتيهما مرتبطتان ومتشابكتان وناجيتان.

بعد ولادتها بثلاثة أشهر، وتحت ضغط من المحيط وتحت تأثير البارون ستيفانو أيضاً، يمكن أن نقول بسبب التطير، وافقت ماريا ميكيللي على أن تُعمّد ميميّا. هذه المرة ستعمّد تعميداً حقيقياً في كنيسة زيانيغو. بقيت لاموريتا عند باب الكنيسة. بينما حملت ماريا، الطفلة المرتدية فستاناً من القماش الأبيض المخرم، ووضعتها في أحواض التعميد فرنت صرخات الصغيرة وارتدّ صداها على الأحجار الباردة. بكت ماريا أيضاً فبدا الأمر كأنها تبكي متأثرةً بالتعميد. ولكنها في الحقيقة وببساطة تبكي استياءً من بكاء الطفلة في فستان التعميد الأبيض. سارعت بحملها وإعادتها إلى لاموريتا وأرادت أن تتحلى هذه الفتاة بالسلطة التي لم تمتلكها هي. ولكن عرفانها كانت تشوبه الضغينة.

أحبت بخيتة هذه الأوقات الطفولية الخاصة بميميّا التي، لدى بلوغها الشهر السادس، فطمتها أمها عن ثديها. فكانت هي من تطهو لها أطباقاً صغيرةً من الحساء والعصيدة، وهي أيضاً من تُحيك لها قبعاتها وجواربها، وتطرز لها ألبستها، وهي من تعتني بها أثناء إصابتها بالحمى وبالإسهال وبالتهاب اللثة. تعلمت كل شيء وقامت بكل شيء، فقالت عنها مدبرة المنزل إنها: "ماكرة مثل القرد". كانت تصطحب الصغيرة كل يوم إلى ريف زيانيغو. وكثيراً ما كانت النزهة تنتهي في منزل ستيفانو، فكانت كليمانتينا وابنتها تستقبلانهما إن لم يكن ستيفانو موجوداً. كانوا

يهنئون بخيتة على تطور ونمو الطفلة وعلى صحتها الجيدة ووزنها وابتساماتها. وإن كان ستيفانو موجوداً، كان يعد لهما وجبةً صغيرة، فهو رجل لايستطيع رؤية شخص سواء أكان جائعاً أم شبعان دون أن يقدم له شيئاً يأكله. حاول كثيراً ولكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من التحدث مع بخيتة عن الدين. أشار يوماً للميدالية في رقبة ميميّا وسأل: "هذه سانتا ماريا، هل تعرفين يا أختي الصغيرة، من هي سانتا ماريا؟!". ابتسمت بخيتة، فعزم بابتسامتها اللطيفة والساحرة على اصطحابها إلى الكنيسة ليريها التماثيل والصلبان واللوحات، وربما قد يعزف على الأورغ بينما هي تكتشف العذراء والمسيح والقديسين والحضور الحقيقي. كانت بخيتة تفهم كل هذا ولكن دون كلمات تعبر عنه، تعرف ذلك ولكن ماريا ميكيللي عارضت أن تدخل خادمتها إلى الكنيسة. آلمه الأمر ولم يعد قادراً على النوم ليلاً. كان يشعر بالذنب كما لو أنه يرى بخيتة تغرق وهو يقف مكتوف اليدين. ستضيع روحها وهو لن يفعل شيئاً ليمنع حدوثه. أما هي فقد كانت تنبعث منها قوة كبيرة كما لو أنها تحتفظ بسر ما. هو يعلم وهو يتحدث عنها إلى فقراء بلدة زيانيغو وإلى البرجوازيين على حد سواء، أن لون بشرتها وحده ما كان يثير ذعرهم، ولم يكونوا يهربون منها بسبب جهلهم وتطيرهم منها أو بسبب حماقتهم فقط؛ بل لأنها كانت جميلة ولطيفة وخاضعة. إضافةً إلى كونها صلبة لايمكن تدميرها. فهي كناجية من الموت، تحمل في داخلها عالماً لايمكن التواصل معه. وهذا ما يرعبهم منها؛ تلك القوة التي لا يفهمونها.

كيف خطرت هذه الفكرة في بال ستيفانو يوماً ما؟ كيف وجد أنه يمكن تحقيقها؟ قرر أن يتبنى بخيتة. ألا تناديه *بابو* كما يفعل أطفاله؟ لقد أصبح أباها بعض الشيء، وإن تبناها ستُكنّى باسمه وبعائلته وستأخذ نصيباً من إرثه، وسيمكنه تعميدها ومحو خطيئتها الأصلية وإنقاذ روحها. ارتمى في صراع أعمى من أجل أوراق غير موجودة ومن أجل وثيقة ولادتها وبيعها في قريتها المنسية وجنسيتها الضائعة. هاتَف وراسل بالتلغراف واستعان بعلاقاته وطلب العون من الكاهن ومن عمدة زيانيغو ومن رئيس البندقية. كما أنه ذهب إلى مدينة (بادو) وزار فيها القنصل لينياني، ومن ثم سافر إلى مصر، وأمضى فيها ستة أشهر وراسل أوغوستو ميكيللي يترجاه أن يجري أبحاثه في سواكان حول أصل بخيتة. كان عليه أن يجتاز الجبال في بلد لا يعرفه. وكان كلما باءت أبحاثه بالفشل، ازداد تشبثاً ببحثه مأخوذاً بذعر كبير وربما...ربما كان لديه حدس بأن عليه أن يقوم بالأمر سريعاً، وأن هذه الحياة اللطيفة وهذا الهدوء المعروفة به بخيتة لن يكون سوى مجرد ذكرى بعيدة لها.

ركضت بخيتة وحدها في طرقات زيانيغو. ركضت كأنها تهرب، وكما كانت تركض ماسكة بيدها يد الصغيرة ميناه. ركضت كأنها تنقذ نفسها. مرت بركضها من أمام الأطفال الذين التصقوا بالجدران الصفراء للمنازل المائلة. رآها بعض العجائز الجالسين أمام الأبواب، فخلعوا قبعاتهم والتزموا الصمت. أما النساء فقد ظننّ أن هناك سوءاً قد أصاب ميميّا، السوء، ولاحظت إحداهن لا على التعيين أن السوء كان يركض مع لاموريتا

شعرت بالسلسلة تقيد قدمها، تلك السلسلة التي وضعتها عند السيدة التركية. شعرت بثقلها وأخذت تعرج فاستعادت مشية الأمَة وقلبها، واستعادت معهما الخوف المرافق للعبد. كانت جواربها الضيقة تؤلمها والتصق ثوبها بجسدها المغطى بالعرق. تلبد شعرها تحت قبعتها. وعلى الطريق الترابي الصغير المؤدي إلى منزل ستيفانو، تعثرت بعش دجاجة، وتلطخ وجهها بالطين فبدا عليه كقطع من الجلد. كان ستيفانو على علم بمجيئها، فطلب من كليمانتينا أن تذهب لتحضر الطبيب وأن ترسله إلى منزل ماريا ميكيللي، فهناك سوء ما قد أصاب ميميّا. لاقى بخيتة عند الطريق الترابي الصغير وأراد أن يتلقفها بين ذراعيه، ولكنها ارتمت عند قدميه كما يفعل الفلاحون الفقراء. رفعها ولم يتعرف وجهها، فهو كان شاباً جداً وعجوزاً في الوقت نفسه. أما عيناها فقد كانتا تفصحان عن فتاة يانعة. مع ذلك كان يبدو عليها الرعب والكبر.

- هل هي ميميّا؟

- لا

- ماريا؟

- لا.

- *البارون*؟

أشارت بالنفي، ثم ضربت على صدرها وعلى قلبها ودلّت على أن السوء هناك، في داخلها، هناك ألم كبير. نظر إليها بشكل غريزي، لقد

ركضت إليه دون أن يبدو عليها المرض. للحظة خطر له أنها تلقت أوراقاً بخصوص التبني، أخباراً سيئة عن أهلها أو عن قريتها. ولكن سرعان ما أدرك أن هذا ليس ممكناً، ففي كل الإجراءات التي قام بها لم يعطِ سوى عنوانه الخاص به. أجلسها على مقعد حجري. كانت تتمايل قبالتها أشجار السرو الباسقة لتنبعث منها رائحة سكر حزينة. أعجب بالجو طوال النهار، فقد كان مشبعاً برطوبة ثقيلة، والعصافير تغرد على الأشجار الندية. كانت تسمع أصوات الرعد الأخيرة من الجبل بعيداً. هناك شيء على وشك أن ينتهي. فجأة فهم ستيفانو ما يجري، قطعت الصدمة أنفاسه. الأمر بديهي؛ برغم ذلك لم يرغب في أن يستبق الأحداث وألا يتحدث عن شيء إلى أخته الصغيرة موريتا. إنه خطؤه إذ كان عليه تحذيرها.... إلا أن الحديث عن هذه الأمور في لهجة لا تفهمها كان سيُحدث فيها أثراً سيئاً وسيجعلها أكثر تشوشاً وقلقاً.... هي سترحل إلى سواكان مع عائلة ميكيللي. ستترك إيطاليا. أمسك بيدها فأخذت تبكي وكانت تلك هي المرة الأولى التي تبكي فيها أمامه. فبكى معها، أخذت تنتحب، وبقي الاثنان يبكيان على ذلك المقعد في الهواء الرطب بفعل المطر الغزير. كانا يحملان في داخلهما ألماً لا يستطيعان أن يفعلا شيئاً حياله، لان ما يجري لا يمكن مواساته. أراد طلب السماح منها، يا ليته فكر قبل ذلك بالتبني، يا ليته أخبرها سابقاً أن ذلك ممكنٌ. كان أوغوستو ميكيللي قد تركه منذ عام وحيداً في إدارة أموره، ولم يكن يعرف ابنته الصغيرة، ذلك ليس إطلاقاً لتغيبه عن زيانيغو وقتاً طويلاً... خلع ستيفانو نظارته ومسح عينيه وسأل:

- إلى سواكان؟

- نعم *بابو*، نعم.... *ساعدني*... النجدة...

نظر إلى السماء لكنه لم يجد منها جواباً.

اصطحبها إلى ماريا ميكيللي. أمرتها *البارونة* أن تغيّر ملابسها، وأن تعفي المدبرة من رعاية ميميّا. وأضافت أنها ستشرح لها الأمر وجهاً لوجه لدى هروبها؛ صعدت بخيتة إلى هذه الغرفة التي منحتها وهم الحرية، ووهم الأمومة ووهم الحياة الخاصة بها.

طلبت ماريا من ستيفانو أن يجلس في الصالة وأحضرت له كوباً من عصير العنب.

- سأحتاج لك الآن أكثر من ذي قبل يا ستيفانو.

- أعلم....

- ستكون الأعمال كلها بين يديك. فهناك بالطبع مكافأة مالية.

لم يلمس كوبه، كان ينظر إلى الحديقة المبللة وإلى الماغنوليا الثقيلة، وإلى الأزهار التي انتزعها المطر من جذورها. فكر كم هو غريب أن يكون الطقس مناسباً لما يشعر به في قلبه! كان المطرعلى وشك الهطول من جديد، فشحب وجه السماء. سأل قائلاً:

- سترحلين إلى سواكان؟

كره هذه الكلمة القصيرة.

- لقد بلغت ميميّا شهرها التاسع ووالدها لم يرها بعد

- بالطبع.

- هو لا يستطيع العودة، أنت تعرف ذلك بلا شك ، إنه ليس الوقت المناسب ليترك الفندق.

- آه... هل اشتراه أخيراً؟...

- كتب لي قائلاً إن البيوت في سواكان مبنية من الحجر الأحمر، هل يمكنك أن تتخيل ذلك يا ستيفانو؟

- كم هذا جميل!

- كتب لي قائلاً: إن سواكان هي كجزيرة دائرية كلياً، أترى... دائرية كلياً...مثل.... مثل اللؤلؤة متموضعة فوق البحر الأحمر؟ هل لك أن تتخيل؟

- أجل بالطبع، نعم، نعم يمكنني أن أتخيل سينيورا. سيكون هذا بغاية الجمال.

- أوروبا كلها تسيّر أعمالها في هذه المدينة كالإنكليز والألمان والفرنسيين والإيطاليين والثروات الآتية من الساحل السوداني. لو أقول لك...

- يمكنني أن أتخيل، سينيورا.

- إفريقيا... من قناة السويس، إن إفريقيا، هي ك.... آه ياستيفانو، إنها كنقطة تقاطع. إنها خلية، إنها....

- طبعاً، طبعاً سينيورا. ولكن أخبريني، لاموريتا، ألستِ خائفة....

ممّ؟ ما الذي سيجري هناك، أن تهرب؟

- آه ... لا، ما أريد قوله....

- ستهرب إلى أين؟ هي لا تعرف حتى ما اسمها؟!

- ما أريد قوله، هو أن....

- عندما أراد القنصل مساعدتها في إيجاد ذويها، لم تعرف حتى اسم قريتها، لم تدرِ شيئاً عن عائلتها.

- كنت أفكر بالألم الذي ستشعر به لدى عودتها إلى السودان.

- السودان أو هنا، الأمر سيان. هي ستهتم بالصغيرة!

- سينيورا، هل يمكنني أن أطلب منك شيئاً... كنت أود ألا أطلبه منك... قولي لي... ألا تريدين تعميدها؟ تعميد لاموريتا؟ قبل الرحيل؟

- أنا أحبك كثيراً يا ستيفانو، أنت عنيد ومتشائم، إلا أنني أحبك كثيراً. أنت الشخص الوحيد الذي سأتأسف على وداعه في هذا البلد الأميّ الأجرب.

كان المطر يحدث صوتاً مكتوماً على أوراق الماغنوليا وعلى نوافذ الصالة. سرعان ماغرقت الحديقة بالمياه، ولم يعد الأفق مرئياً. عاد هزيم الرعد قوياً من أعلى الجبل كزئير حيوان ضار كسول، ثم حل الليل فجأةً. سمع ستيفانو بخيتة تمشي في الممر حاملةً الصغيرة ميميّا بين ذراعيها، كان صوتاهما يختلطان ببعضهما، أحدهما خافت والآخر ضعيف كغناء حميمي. شعر كما لو أنه أب محروم من أبوته، كما شعر بالخذلان وبالتجرد من الحق. كانت حزينةً بحق. أخرجت ماريا دفاتر الحسابات ورسائل ستيفانو،

والورق النشاف والحبر والريشة. نظر إلى الجداول والخربشات الرفيعة، وإلى التواريخ والأرقام، ثم قال بصوت يائس:

- يجب أن أقول، سينيورا، إن ابني جيوسيبي يحاول تعليم لاموريتا القراءة. بضعة أحرف ليس إلا. هذا أمر مهم.

- بضعة أحرف مأخوذة من كتب التعليم المسيحي؟

- لا، مأخوذة من الأبجدية.

- إني أزعجك!

تمنى أن يدسّ في الحقيبة الجلدية قلادة السيدة العذراء. ولكنه لم يفعل، بل وضع حفنةً من تراب إيطاليا بدلاً منها. كم هي عميقة ومعتمة تلك التربة الكريمة والملعونة! أراد أن يكتب لها رسالةً يخبرها فيها أنه يحبها كما يحب ابنته. فقط هذه الكلمات؛ وربما أضاف بعضاً من ذكرياتهم في منزله عندما كانوا يتحلّقون حول الطاولة العائلية. وأراد أن يذكرها بالأطباق التي اكتشفتها والأطباق التي حضّرتها، وبضحكتها التي كانت تمنحهم إياها. أراد أن يذكّرها بتلك الأمسية التي جلس فيها إلى البيانو وعزف بينما أخذت هي تدق بيديها لتتبع الموسيقا. يومها انفجرت كيارا ضاحكةً، عندها توقفت أختها الصغيرة لاموريتا عن فعل ذلك حالاً. وبينما كان يعزف بسرعة وينظر إليهم، فهمت كليمانتينا، فأخذت تدق بيديها هي الأخرى وأشارت إلى أطفالها أن يحذوا حذوها، فضحك الجميع من هذا الفعل غير اللائق. لم يصفقوا يوماً عند سماع مقطوعة *المشية التركية* لموتزارت، كما فعلوا ليلتها. أراد أن يكتب لها عن الفرح الذي جلبته إلى منزله، وعن

الاحترام الذي يكنه لها، وعن كل ما رآه وعن كل ما غفل عنه، وأن يحدثها مثلاً كيف كانت تُنزل أكمامها لكي تخفي ندوبها؟ وكيف كانت تعرج في مشيتها فجأة؟ وكيف كانت تركز بنظرتها البطيئة وبعينيها الكبيرتين ولتراقب أطفال الشوارع والمخاط يسيل من أنوفهم و هم يتعثرون بمشيتهم؟ وكيف كانت تهمس لميميّا بكلمات غير مفهومة؟ وكيف كانت تجمع الحجارة التي كانوا يرمونها بها وتنظر إليهم برقة قبل أن تضعها على الأرض؟.... كان لديه الكثير ليخبرها به وليكتبه لها. ولكنها لم تكن تعرف الكتابة ولا لهجة مدينة البندقية. لذا أمسك الحقيبة الجلدية بيده، ودون أن يبالي بالبارونة ميكيللي، ضمها إليه بحيرة مباغتة هامساً في أذن بخيتة: "سأصلي لك كل يوم". ثم قام بتلك الحركة السريعة على جبينها ليمنحها البركة. ثم رحل حزيناً. هو الذي كان يفيض بالحيوية ويعتبر من أعيان البلدة، عاد إلى منزله ودون أن يدري أخذ يعرج مثلها. فقد كانت قدمه تمشي معه والثانية ما تزال هناك؛ عند تلك الإفريقية التي يتعثر كل شيء عند عتبتها كصِبيَة يتسلقون شجرة صنوبر، إنهم تجار أكثر منهم مبعوثون بمهمة. أما هو فعاد إلى فلاحيه فاقداً للأمل. وفجأة غيّر طريقه وقرر ألا يتوجه للمنزل. عاد بخطاه المتعثرة إلى القرية. توجه إلى الكنيسة ماراً بطرقات مشجرة ضيقة ومليئة بالأتربة. جلس خلف الأورغ. ومن أجلها، من أجل أخته الصغيرة التي هي أشبه بابنة له، عزف *"السلام الملائكي"* . ظل يعزف ساعة كاملة. مضت الساعة بطيئة. لم يكن يريد سماع صوت الصافرة التي تذكره بالمحطة. لم يرد التفكير بالقرية وهي تشهد رحيل بخيتة، تلك الحياة التي على وشك الانتهاء. أخذ يعزف دون التفكير بشيء، وفجأة أدرك أنهم

سيعتبرونه أصولياً وغريب الأطوار، وهذا ليس فادحاً. سعتبرونه أيضاً رجلاً حالماً ومثالياً وربما هذا صحيح. سيأتي كل يوم إلى الكنيسة ليعزف *السلام الملائكي*". كل يوم سيعزفها لتكون نداءً لها لكي تعود. فالآن هو على يقين من أنها ستعود.

إنها السودان في مواجهة السودان، أرض منزوعة من أرض، كفاصل بين الصحراء والبحر، إنها بوابة إفريقيا، جزيرة يتوقف عندها الحجاج المتوجهون إلى مكة من الجانب الآخر للبحر الأحمر. البحر الذي يستخرجون منه المرجان والذي ترسو بشواطئه القوارب الفقيرة والسفن العملاقة المغادرة إلى بلاد الهند وأمريكا. هنا يتكلمون العربية والتركية والمصرية والإنكليزية، يتكلمون اللغات كلها كما يتكلمون -على وجه الخصوص - بلغة المال. يوجد في هذا المكان مدنيون وعسكريون وحكام وقاطعو طرق. كما توجد مساجد ومواخير ومقاهٍ تمتد على الطرقات. أما الأسواق فهي مفتوحة طوال الوقت. الجميع بائع هنا وكل شيء يباع هنا: البشر واللبان العربي وريش النعام والفحم وقرون الفيلة والصمغ والبخور والثروات المكتشفة والمستخرجة. يمكن الاعتقاد بأن العالم ينفتح ويلتقي ويكبر في هذا المكان ثم يعود لينكمش ويتمزق وينهار.

وصلت بخيتة إلى السودان في أيلول من عام ١٨٨٦، بعد عام ونصف من مغادرتها؛ فعادت كل الجراح تُفتح من جديد. إنه بلد الأجداد، بلد أمها، بلد لونها ولغتها واسمها. إنه البلد الذي اجتازته والذي لم تتعرف إليه في أية خريطة. إنه البلد الذي عاشت فيه ولكنها لم تجد أحداً تعرفه. كانت تنظر إلى هذا البلد من نوافذ الفندق في سواكان، فيمثل أمامها بعيداً

وقريباً في الوقت نفسه. كانت شواطئ الساحل تختفي نهاراً تحت الضباب والرطوبة الثقيلة والسماء الجامدة التي لاتترك مجالاً لرؤية شيء. إن بلدها عميق ومحاط بالصمت. أما ليلاً فقد كانت المدينة تضاء بشكل كبير، فتحجب ضوء النجوم. مدينة سواكان لاتنام أبداً، والجزيرة صاخبة وتعمل طوال الوقت، تملؤها الثمالة والخطورة إضافةً إلى صرخات القردة التي تمتزج بصراخ البشر، يقال: إن الكل يضحك هنا. النجوم مخفية هنا، أما القمر فهو الوحيد الذي يظل موجوداً يلمع فوق أضواء المدينة. كانت بخيتة تروي له كل شيء.

بدت بخيتة في هذا الفندق الواسع كمن يعيش في مدينة بلا قانون. عرفت الفراغ الذي يعمّ في حياة المصالح تلك، في هذه الحياة الخالية من الروابط ومن الثوابت ما خلا دفاتر الحسابات وصندوق المال في الفندق. لم تكن تعرف ما تفعله بالبخشيش الذي كان يعطيها إياه الرجال الذين تقدم لهم المشروبات الكحولية القوية والقهوة التركية. لم تعرف يوماً ماذا يمكن أن تفعل بهذا المال؟ لقد تركت في زيانيغو المال الذي كانت تحصله كبخشيش من ضيوف البارونة ميكيللي التي كانت تخدمها في أمسيات الاستقبال. كانت تشكرهم وهي تنظر أرضاً، ثم تضع المال في خزانتها مع البياضات وتنساه. مرةً سمعت ضيفةً تسأل أوغوستو بكم حصل على هذه الزنجية. فأبدى انزعاجه منها وقام بحركة تدل على الخجل، كلا، لم يتحدث عن نجدته لها.... عمّ في الصالة ذلك الجو المألوف والمحبب الذي كان يكنّه المجتمع المخملي للرجال الأثرياء والمتحفظين.

لم تكن تخرج من الفندق نزولاً عند رغبة البارونة ميكيللي. لم تر الجزيرة قط إذ يقال إنها جميلة بقدر ماهي قذرة، وخطيرة بقدر ماهي قوية. كما أنها متوحشة رغم معيشتها مع كبار التجار الأثرياء. يقال إن الشمس تنام فوق البحر عندما تغطس يد الله بين الأمواج، فيخرج من البحر ألوان لا يمكن تسميتها. كان الناس يتحدثون عن سواكان كأنها حيوان حي. فهم يخشونها ويروضونها. كانوا يتحدثون عن الحجاج الذين يرتدون الأسمال، وعن البنادق المهرّبة والسيوف المسنونة، وعن الضواري التي تدخل المنازل ليلاً. كما كانوا يتحدثون عن أشباح تعود إلى أربعين عذراء، هنّ إماء حبشيات حملن بالجن فولدن أربعين فتاة تجبن المدينة وتدخلن القصور. كانوا يتحدثون عن أساطير ضائعة وعن مستقبل باهر. كان الشر والبؤس يعمّان في هذه الجزيرة.

تذكرت الجزيرة التي زارتها برفقة أندير الذي كان يزحف نحوها في ذلك النزل الفخم. تذكرت رائحة الجمال والجلد والبول والطحالب، وتلك الرمال التي غطتها حتى وصلت إلى (جنوة) بعد أيام أمضتها في الصحراء. تذكرت الكلاب المتوحشة ومقاتلاتها على الضفاف الطينية للميناء. تذكرت الفتيات الحاسرات الوجوه قبالة النزل ونظراتهن الخالية كسماء صافية. تذكرت النساء اللواتي يبعن أسماكاً غير طازجة في الوحدة، والمجذومين الجالسين تحت أشجار النخيل بالقرب من سلال البهارات والأصداف المجففة. تذكرت كل السودانيين المنتزعين من أرضهم.

عندما كانت تتوقف عن تقديم المشروبات في البار، كانت تنزه ميميّا في الحديقة وكان ذلك يذكرها بمخادع الحريم، في تلك المدن المنغلقة،

وأبراج الحمام والمداجن والجدران والشرفات الواسعة والمباني المخصصة للعبيد. هنا أيضاً، يدخل الخدم ليناموا مساءً في هذه البيوت الصغيرة المنخفضة وغير المختلطة؛ حيث الأطفال يمتلكون عيوناً كعيون الشيوخ، ويرغبون في النوم العميق. كانت ترى الفتيات البدينات والصبية الصغار الخاضعين والحزينين الذين يخبرونهم أنهم محظوظون بامتلاك أسياد وسقف يؤيهم ووجبة يأكلونها وماء يشربونه، ويخبرونهم أن يبقوا عاقلين وخدومين. هي تعلم دون أن تنظر إليهم ما الذي خسروه، والوحدة التي تخيم على حياتهم إلى الأبد. إذ أن الوحدة هنا أبدية لاحل لها. لم تعد بخيتة تُجلد. ولم تعد تنام في مبنى العبيد. إلا أنها كانت بحاجة إلى شيء آخر مزروع في صدرها كالوتد. كانت بحاجة لنور آخر، إلى قليل من هذا الحب الذي تلقته في منزل ستيفانو وكليمانتينا. وهو حب مختلف عما شهدته في طفولتها، ولكنه يشبهه في الموسيقا نفسها. كانت تحتفظ بيديها في جيوب المئزر في حين أنها كانت ترغب في أن تمدهما بعطف بكل قوة شبابها. كان الليل يقيدها ولكنها تدري أن هناك نوراً يوجد بالقرب منها، ولا تستطيع الالتفات إليه. لم تنس يوماً صوت المواساة الذي سمعته من الأرض التي أخبرتها أنه ليس من العدل أن تكون *أَمَة*. هذا ليس عدلاً وليس ذنبها. إذاً يجب أن تجد فوق هذه الأرض شيئاً آخر يناسبها.

نادتها ميميّا من جانب النافورة التي تتوسط الحديقة، صارخةً: "ماما!". لم تملك بخيتة الوقت لكي تسكتها، ولم تجد سوى الصغيرة ترتمي بين ذراعيها، " كان يجب أن تقول بخيتة! ليس ماما!". ضحكت كلتاهما من السعادة والمفاجأة. فقد مشت ميميّا للمرة الأولى! خطت خطواتها الأولى

لكي تلقى مرضعتها. انتزعت نفسها من ذراعي بخيتة. أرادت أن تعاود المشي، أخذت تقع ثم تعود لتنهض. أخذت تبكي ثم تعود لتضحك. وسخت نفسها وسحقت الأزهار وأفزعت القطط. لم تكن تخاف من شيء، فقد رأت العالم وهي واقفة. ابتسمت لها بخيتة وعلمت أن صغيرتها ميميّا اليوم قد تعلمت المشي، وأنها قريباً سيتوجب عليها أن تناديها أليس. وأن أليس لن تخطئ أبداً بمناداتها "ماما". رن صوت المؤذن في السماء كأمر بصوت مبحوح متراقص. نظرت بخيتة إلى الصغيرة وأدركت أنها لن تكبر هنا. فأليس ستذهب إلى المدرسة مثل كل الأطفال ذوي البشرة البيضاء. ستخرج من الحديقة، وستغادر سواكان، أما هي؟ أين ستعيش؟ لمن ستنتمي؟ نظرت إلى هذه الفتاة الصغيرة التي أنقذتها من الموت، وهي تغمس يديها في مياه النافورة،وتقف ثابتةً وفخورة بقدميها الدقيقتين. كان يبدو عليها النشاط والسيطرة كمن اكتشف حريّةً جديدة.

أمضت تسعة أشهر في هذا الوقت غير الأكيد وفي هذا الفندق المؤقت حيث، رغم جمال أعوامها الثمانية عشر ورغم لون بشرتها، لا أحد من الرجال الذين تخدمهم يلمسها. نظرت إلى الأرض بشكل أقل، ورأت في أصواتهم العنف، كانت تنظر إليهم نظرات خاطفة. تجرأت على ذلك بضع لحظات ولم يكن في عينيها شيء من التحدي أو الغضب. ولكن الرجال الذين كانوا يقومون بإغراءات غير لائقة معها؛ كانوا يتلقون منها نظرة تقول: "أعرف كل هذا مسبقاً". ظلت لغزاً يمثل الخضوع المقرون بالقوة؛ وهذا أمر يشغل البال كما لو أن هذه الأمَة، هذه ال "بخيتة" ليست في مكانها المناسب. فسيدها مسيحي لكنها ليست زوجته ولا تساكنه، كما أنها لم تنجب

منه أطفالاً كما يبدو. كان الناس يرونها ترعى ابنة السيد، وحتى أنها أحياناً كانت تخدم في البار وهي تحمل الصغيرة بين ذراعيها كقرد يتعلق بغصن شجرة. إن لهذه الأمة مكاناً آخر؛ فهي قليلاً ما تتكلم بصوتها العميق كأنه آت من مغارة مظلمة. إنها خادمة في خمارة وتتحلى بهدوء أولئك الواثقين بأنفسهم. كانت تتهرب من الرجال وتعتني بالصبية الصغار. وتحتفظ دوماً في جيبها بكسرة خبز أو بقطعة فاكهة لتقدمها لهم. كما تبادر بوضع يدها على رؤوسهم وتداعبهم على خدودهم. كان يجب على سيدتها أن تمنعها من فعل ذلك، إذ أن كل هؤلاء الصبية مصابون بالعدوى، وهم يمرون أمام حديقة الفندق بتسولهم وأمراضهم الجلدية، ويلتصقون بالشوايات كما يلتصق الذباب بالعرق. كان عامل الحديقة يطردهم فيعودون ، إنهم جائعون؛ وهي تطعمهم ولكن عبثاً، لأنهم يتكاثرون بقدر ما يموتون.

كانت بخيتة تعيش في زمن غير آمن، ولكن الزمن يمر والأسياد يعملون ويجرون حساباتهم التي ستعطي يوماً نتيجةً يعملون لبلوغها ليلاً نهاراً، إنه النجاح. لم يكن أحد يخبرها بشيء، إلا أنها كانت تشعر وترى وتفهم القليل من لهجة مدينة البندقية. كانت تكتشف المحادثات التي تجري بين ماريا وأوغوستو، وتستشعر فيها جواً من الذعر والأمل، وتغيراً في الحياة التي تتعلق بفرح عصبي لدى اتخاذ قرارات كبيرة. ميميّا أيضاً شعرت بذلك، فـ*البارونة* كررت كثيراً خبر بزوع أسنانها وكانت بخيتة تعرف أنه لم يكن ذلك هو سبب بكائها ليلاً. بل كانت ترى كوابيس. تعلم ذلك فهي ترى الكوابيس نفسها. ترى فيها رمالاً عالية وكثباناً دائرية تعلوهما وتحيط بهما أوتادٌ خشبية مغروزة في الأرض. دون وجود أية وسيلة للخروج أو

لرؤية الأفق، كانت ترى نفسها واقفةً مع ميميّا فوق هذه الأرض المحاصرة، كانتا تقفان مكانهما بلا حراك، قلقتين وحائرتين.

ذات يوم حان وقت حزم الأمتعة، تلك الأفواه المفتوحة التي امتلأت بثياب السيدة وبثياب ميميّا، فهما ستعودان إلى إيطاليا إذ يجب بيع الأملاك والعودة لأن الرحيل أصبح قطعياً: ستستقر عائلة ميكيللي في سواكان. وهذا ما خشيته بخيتة بالطبع. أصبح النزل خالياً وأصبحت البارونة ميكيللي هي الحاكمة ، وهي لم تعد تلك الغريبة موضع السخرية في زيانيغو. ذلك لأن الغريب هنا هو الآتي من إفريقيا، أما الآخرون فهم في موطنهم. شعرت بخيتة بالقلق يشتعل في داخلها، إنها معدمة وثابتة في الوقت نفسه. كانت تعيش صراعاً بين خوفها ونجاتها. وكما ترجت القنصل سابقاً، طلبت هذه المرة من البارونة ميكيللي أن تأخذها معها إلى إيطاليا.

- هذا مكلف جداً يا بخيتة.

قدمت لها ماجمعته من بخشيش، فانفجرت ماريا ضاحكةً. نزلت بخيتة على ركبتيها، فصرخت ماريا:

- ليس هكذا!

نهضت بخيتة وقبّلت يديها، فتلقت صفعةً. كانت هي المرة الأولى التي تصفعها فيها البارونة ميكيللي. لو كانت قد تلقت هذه الصفعة منذ عدة أعوام لكانت بالكاد شعرت بها؛ فالصفعات كانت تحضيراً اعتيادياً لجلدات السوط وللإهانات. أما اليوم فقد كانت هذه الصفعة تشكل عنفاً صدم حياتها، وذكّرها أنها أقل حتى من خادمة، بل هي أمة. بعد الصفعة فوراً

قامت كلاهما بالحركة نفسها، نظرتا إلى الحديقة حيث تلعب ميميّا. لم تر الصغيرة شيئاً. كانت جالسة موليةَ ظهرها. ومن الجيد أنها تلعب بكل شيء من حولها. كانت ماريا تريد السفر وحدها مع ابنتها. كان من الأفضل لها ترك ابنتها مع مربيتها فتتجنب أعباء مسافرتين، لكنها تريد أن تختبر هذه التجربة، تريد أن تكون وحدها برفقة ابنتها. رأت نفسها تصل إلى زيانيغو حاملةً طفلتها على ذراعيها، أو الأفضل أن تدخل ماسكةً بيدها وهما تمشيان معاً. إنها تحب بخيتة كثيراً، إلا أنها في الوقت نفسه تحقد عليها، كما تحقد الكائنات الضعيفة على من تدين لهم بالكثير. نظرت بخيتة إلى ميميّا التي كانت تتسلى بالدق على طبلها الصغير، ثم أنزلت عينيها أرضاً وقالت:

- ستبلين بلاءً حسناً *بارونة*.

كان موعد انطلاق الباخرة إلى (جنوة) في الواحد والعشرين من شهر حزيران عام ١٨٨٧. طلبت ماريا من بخيتة أن تحمل الحقائب، وأن ترافقها إلى الميناء. عندما خرجت من الفندق، وجدت عنف المدينة التي تعج بأنماط حياة خفية وبالبؤس الواضح للعيان. كانت المدينة تفوح منها رائحة الخطر والقوة. كان ضوء الشمس يحرق الأنظار، والبحر يلمع كصفيحة معدنية ساخنة تحت الشمس. توجد خلف الشوارع المزدحمة والمنازل العالية؛ مساحات أرضية غامضة وحقول قاحلة وأماكن برية مهجورة، ومدافن منسية واسطبلات خالية وهياكل لسفن قديمة وصناديق فحم؛ ففي هذا المكان توجد ذكريات الآلاف من العبيد في أكثر الأوقات صعوبة. شعرت بخيتة بذلك وقالت لنفسها: "الأرض تهتز بسبب هذا، بسبب أناس سُلبت حياتهم منهم. *عبيد*، هذا غير عادل، غير عادل، غير عادل.... مشت خلف

البارونة التي كانت تحمل ابنتها وترتدي الأبيض كأنها ذاهبة لاحتفال. وهذا مؤسف لأن *البارونة* تجاهلت أن الفحم سرعان ما سيوسخ هذه الثياب غير الملائمة للمكان. هي أيضاً ارتدت ثياباً بيضاء فبدت كعروس تحمل طفلة معمّدةً. كانت ميميّا تحدث بخيتة من خلف كتفي أمها، تقول كلمات وتصدر فقاقيع بفمها وترمي قبلات وتكشر. أما بخيتة فكانت تلوم نفسها على أنها لم تخبر الصغيرة بأنهما ستفترقان. كانت ترى جيداً أن الصغيرة لا تفهم ما يجري. كانت بخيتة تعرف ما يعني ذلك؛ لقد جربت أن تترك شخصاً تحبه، فأمضت الليل وهي تنظر إلى الصغيرة النائمة وتتحدث إليها بصوت منخفض.

كان الوصول إلى الميناء مليئاً كالعادة بالذعر وبالعنف، كما لو أن كل شخص سيفقد مكانه ليس فقط على متن الباخرة؛ بل أيضاً في الحياة. كما لو أن حياتهم على المحك الآن، ربما لأن الجميع يقول إلى اللقاء. هناك جو من التمزق يسود على الرصيف وعلى الممشى وعلى الجسر. لم تدرِ بخيتة إن كانت البارونة ستسمح لها بوداع ميميّا، إن كانت ستترك الأمة تقبل طفلتها علناً. أعطت الحقائب للحمّال والتفتت إليها ماريا، كانت تريد أن تبدو أنها بخير، أن تبدو كسيدة كبيرة لا تلوم نفسها على شيء.

- أعتمد عليك في أعمال البار، أليس كذلك موريتا؟

- نعم *بارونة*

حاولت ميميّا وهي على ذراعي أمها أن تلتقط قبعة بخيتة، فتراجعت هذه الأخيرة قليلاً إلى الخلف في حين أنها تمنت أن تندفع وتضمها إليها.

- ميميّا، قولي وداعاً لبختية!

فتحت ميميّا يدها ثم أغلقتها.

- أرسلي لها قبلة!

أرسلت ميميّا قبلةً، فاستدارت أمها نصف استدارة وابتعدت. لم تجد بختية الوقت لتقبيل الصغيرة. نظرت إليهما وهما تبتعدان في الزحام، وبقيت مكانها ثابتةً وحمقاء، متعثرةً ومهانة. لم تميز شيئاً أو أحداً بسبب الحر المنبعث من هذا الزحام. كان الناس يرتطمون بها ويطلبون إليها التحرك من مكانها. أما هي فلم تكن تشعر إلا بأن قلبها سينفجر وبأن جسدها يترنح تحت الشمس الحارقة. كانت تشعر من فوقها بهذه الفوضى والوحشية، وفجأةً سمعت صرخة طفلة تعرفها كأنها ابنتها. إنها ميميّا التي تصرخ، إنها تعرفها. فكرت بأناشيد الفراق التي لا تفيد كل هؤلاء النسوة اللواتي شهدن رحيل صغارهن بشيء. بقيت على حالها صامتةً وثابتة، لكن صراخ ميميّا ازداد وسرعان ما سمعت سعالها من فوق، تبعها اختناق غاضب وذعر يخنق أنفاسها. أمسكت بختية بصدرها وشعرت بألم هي أيضاً.

- نوبة! إنها نوبة!

ظهرت أمامها البارونة ميكيللي وارتمت ميميّا في أحضانها.

- أجل، *بارونة*، إنها نوبة.

ضمّت بختية الطفلة إليها بقوة وبدت كأنها على وشك أن تستدير وتهرب بها.

- من غير المعقول أن تعاني من نوبات!

كان هناك لوم في صوت *البارونة*، وخوف أيضاً وتساؤل كبير، وأضافت: والآن ماذا سأفعل؟

- لا أملك مالاً للسفر

- كلا *بارونة*

- لم أحجز تذكرةً لك!

- كلا، *بارونة*

- حتى إنك لا تحملين حقيبتك.

- هذا ليس مهما... *بارونة*... الحقيبة...

خلدت ميميّا إلى النوم في حضن بخيتة وهي منهكة وتشعر بالأمان.

توقفت أخيراً عن السعال، لقد مضت نوبة الاختناق تلك. أخذت الصغيرة تتنفس واتسخ ثوبها الأبيض. شعرت بخيتة بالخوف الكبير الذي يعتري *البارونة*. لم تكف عن النظر إليها، كانت تتوسل إليها بنظراتها وعرقها يسيل من شعرها على رقبتها، ومن رقبتها يصل إلى ظهرها. نظرت ماريا إلى ابنتها ثم همست مهزومة:

- من المؤسف إيقاظها.

وهكذا وضعت بخيتة قدمها على ممر السفينة، تضم إليها الفتاة الصغيرة المزاجية التي، دون أن تدري، قدمت لبخيتة ما قدمته هي لها منذ عام ونصف قد مضى: لقد أنقذت حياتها.

السلام عليك يا مريم العظيمة الممتلئة نعمة... مباركة أنت....بوركت!
السلام عليك يامريم العظيمة الممتلئة....

كانت تجلس صباحاً ومساءً على ركبتيها بالقرب من سريرها وتقرأ الصلاة مع ميميّا بناءً على طلب *البارونة*. فقد علمتهما صلاة *السلام عليك يا مريم وأبانا والمجد*، باللغة اللاتينية. ولما رهنت السيدة ما تملك من منزل وأثاث وحيوانات للبيع، تساءلت كيف ستكبر ابنتها في إفريقيا؟ استشارت الطبيب والكاهن حول الموضوع. فأوصى الطبيب بجرعة من مستخلص الكينا صباحاً، كما أوصاها الكاهن بتلاوة الصلوات الأساسية الثلاث مرتين في اليوم وهي: *أبانا والسلام والمجد*. من كثرة تردّدها على لسان بخيتة دون أن تفهم كلمة، تعلمت الصلوات بعنادها. لم تكن ترددها صباحاً ومساءً فحسب، بل طوال اليوم وذلك لكي تحفظها. بدأت الأقاويل في زيانيغو تشي بأن لاموريتا قد أصبحت تقيّة. هي ليست معمّدة إلا أنها تقية. إذ ما من أحد التقى بها إلا وسمعها تهمهم: *"أبانا الذي في السماوات"* و *"المجد للرب"* و *"السلام عليك يا ماريم العظيمة الممتلئة"*. لم يعد أحد يرميها بالحجارة؛ بل أصبح الجميع يرسمون إشارة الصليب لدى مرورها ببطء ويرددون بصوت منخفض إنها معجزة. حتى ماريا ميكيللي لم تعد على حالها فقد أحبّت هذه الغريبة التي على وشك الرحيل، ولن يعود أحد ليراها. لم تكن بخيتة تدري سبب تكرارهذه الكلمات صباحاً ومساءً من البارونة. ولكن رغم صعوبة حفظها دون فهمها، فقد أحبت هذا الطقس الذي يلائم تأملها الذي تقوم به في بداية النهار، كما يلائم مناجاتها في الليل. إلى جانب صوت ميميّا التي تعلمت بعضاً منها، فازداد التعاون بينهما من

خلال الجهد والضحكات المجنونة والممنوعة. أجل إنها ممنوعة لأن هذه الكلمات تبدو أنها مهمة إذ يتوجب عليهما دوماً تلاوتها أمام البارونة بجدية كبيرة. فكانت هذه الأخيرة تنصت لهما بنفاذ صبر كبير.

من الغريب أنه إن كان هناك أحد لا يهتم بذلك، فهو ستيفانو. فقد كانت عودة بخيتة صدمة مضاعفة بالنسبة إليه: صدمة المفاجأة وصدمة الإلهام. فهو عندما عزف على الأورغ صلاة *"السلام"* طوال سبعة أيام في الكنيسة، لم يكن يعزف عبثاً. لقد صلى من أجلها بكل جوارحه، وارتبط بها بحب أبوي لا يعوّض. ولكنه صُدم من أنها تتلو الصلوات دون أن تفهم كلماتها المقدسة. هل من الممكن أن يجعلها أحدهم تكرر ما يريد دون أن يشرح لها شيئاً، كأنه يقود كلباً؟ فكر في أنها تستحق ماهو أفضل. وأغضبه أنها لا تفهم من لهجة البندقية إلا الكلمات اليومية. حاولت كليمانتينا ذات مساء تهدئته وإيجاد حل لعذابه.

- ينبغي أن تفرح يا ستيفانو؟

- أفرح؟ بأن أسمعها تتلو الصلاة دون فهمها؟ إنها تقول: *"خلصنا من أملنا"* بدلاً من *"نجّنا من الشرير"* ألمنا، كليمانتينا، ألمنا! هي تعلم ما هو الألم، ولكنها لا تستطيع لفظه!.

- ليس عليك أن ترى الأمور من هذا الجانب.

- يؤلمني عندما أسمع هذا! نعم، ألم! *ألم... ألم*!

- اهدأ. سيكون من الأفضل أن تستفيد من كون آل ميكيللي يسمحون بالكلام مع أختنا الصغيرة

- وماذا يمكنني أن أفعل؟ هل عليّ أن أترجم من اللاتينية إلى لهجة البندقية؟ هل تمزحين؟

ذهبت كليمانتينا إلى خزانتها وتناولت منها غرضاً صغيراً وأعطته لزوجها.

- أعطه لأختنا الصغيرة موريتا.

نظر إلى زوجته بدهشة ثم هدأ فجأة.

- أتظنين؟

- أنا متأكدة.

- ألن تحتاجي إليها؟

- كلا، سيسعدني ذلك.

- ولكنها هدية من أبيك...

- ستيفانو! أطعني ولو مرة واحدة....

نظر إلى بخيتة الجالسة في الحديقة ترعى ميميّا. كانت الطفلة تلعب مع ميليا وكيارا تحت شجرة السنديان الكبيرة. لقد كبرت الصغيرة أليس كثيراً، لا زالت نحيلة وضعيفة ولكن أصبح في داخلها قوة تدفعها إلى الحياة. كما أنها مرحة جداً لدرجة أنها معروفة بضحكتها. ضحكة ميميّا تعلن عنها مثل خطوتها. كانت تملك فرح الأطفال الذين لا يمكن إخافتهم فهم محميون دوماً.

في فترة بعد الظهيرة من ذلك اليوم، كانت بخيتة ترعاها وهي تحوك بيدها. فهي لا تبقى أبداً دون أن تفعل شيئاً. يداها مشغولتان بشيء ما على الدوام. كان ستيفانو يرى أنها تشبه كل المربيات الشابات اللواتي يعملن لدى العائلات البرجوازية في زيانيغو. ففتيات إيطاليا لا يملكن لون بشرتها وهدوءها، وإن أردنا أن نكون أكثر صدقاً، فنقول: إنها تتميز عنهن بغموضها. وتتمتع بتلك النظرة الهادئة والحزينة التي تشي بإمرأة لامبالية، إلى جانب ابتسامة عميقة تدل على طيبة عميقة. لم يجذب مالُها الشبان الإيطاليين، فقد كان لونها الأسود حاجزاً طبيعياً يحجبهم عنها. لم تكن لاموريتا بينهم شخصاً غريباً، بل كانت حالة غريبة بحد ذاتها. جلس بالقرب منها، تنحّت قليلاً لتترك له مكاناً وأشارت إلى ميميّا:

- إنها سعيدة!

- أجل، صغيرتك ميميّا سعيدة، سعيدة جداً...

رمقته بنظرة متحفظة ومتسائلة، فقد شعرت بانزعاجه. لا يمكن أن يخفى شيء عليها، إنها تعلم كل شيء. من طريقة جلوسه بالقرب منها ومن نبرة صوته، علمت أن لديه ما يقوله لها. انتظرته، فهي تتحلى بذلك الصبر الذي يعود إلى عمر أكبر من عمرها، وهو أمر يستفزه، هو ستيفانو الهائج دوماً. تردد ثم أشار بيده إلى ابنتيه، والتفت إلى لاموريتا وضحك قليلاً مباعداً يديه كمن يقول: "إنهما تلعبان جيداً مع بعضهما، أليس كذلك؟". كانت تلك الحركة الإيطالية هي الوحيدة التي تعلمتها بخيتة بسرعة. نظر ستيفانو إلى السماء وإلى الغيوم الآتية من خلف الهضاب. كان الهواء النقي يتسلل في رائحة الأعشاب المقطوعة والأزهار البرية. وضعت بخيتة ما

حاكته، فهي تعتزم صناعة صدرية لميميّا. وعندما عادت للجلوس، وجدت ذراعه مفتوحة نحوها وقبضته مغلقة. توقفت منتظرة، ونظرت إلى هذه القبضة الممدودة دون دهشة. عندها فتح يده وقال لها:

- تفضلي، لقد أعطتني إياها كليمانتينا لأسلمها لك. أترين؟ إنه صليب. إنه ربنا السيد المسيح يموت مصلوباً ليكفّر عن خطايانا. إنه ابن الأب، ابن الرب وهو منقذنا بالطبع. أعلم أن البارونة ميكيللي ترفض أن أحدثك عن الدين. لذا فعليك أن تحفظي الأمر سراً، فأنا لم أستطع أن ألتزم الصمت. أتفهمين؟ إن بقيت في جهل للإيمان، أخاف عليك بشدة. أنت حتى لم تتعمدي. ماذا ستصبحين في النهاية؟ أنا لا أقول هذا لكي أخيفك، كلا، ليس هدفي أن أجعلك تقلقين. ولكن إليك هذا الصليب من كليمانتينا. إنه هدية من والدها المتوفي. فليرع الرب روحه. ولكنها سعيدة. نعم إنها بغاية السعادة كونها تمنحكِ إياها.

وضع الصليب الصغير المصنوع من الخشب والمعدن في يدها. ثم وقف بقفزة واحدة وصرخ بحدّة مختلفة تماماً:

- ميليا! يا أمنا! قلت لك ألف مرة ألا تجعلي أختك تتسلق الشجرة.

نظرت بخيتة إلى هذا الرجل المنفعل الذي قال لها للتو شيئاً غير مفهوم ويبدو في ظاهره ذا أهمية. إنه شيء لا يمكنها أن تحتفظ به من أجله. إن ما أعطاها إياه هو سر. هذا ما فهمته. لقد باح لها بسرّ. نظرت إلى الصليب الموضوع في يدها. لقد ذكر أكثر من مرة "كليمانتينا". إنه هدية من كليمانتينا. لطالما رأت هذا الصليب يعلوه هذا الرجل في منازل الإيطاليين

وفي ملتقى الطرقات الصغيرة، وفي المدفن حيث يرقد أطفال البارونة ميكيللي. توقفت ذات مرة أمام صليب حجري وُضعت أسفله باقة ذابلة بقي فيها لون حزين بعض الشيء. نظرت إلى الرجل المصلوب. لم تكن تدري أنه حتى في إيطاليا هناك عبيد يتعرضون لهكذا أمر، وتساءلت لماذا هذا الرجل بالتحديد مشار إليه أكثر من الآخرين؟ والآن تتساءل لماذا هذا الصليب موجود في راحة يدها؟ هل هو تحذير؟ هل من شأنه أن يحميها؟ نظرت إليه ثم وضعت إصبعها فوقه، لمست الصليب الصغير والجسد المعدني بالغ النحول والوجه المقلوب. رأت في هذا الرجل العبيد الذين كانوا يُصلبون على الأشجار ليعاقبوا، أو كي لا يستفيد منهم أحد. هذا الرجل أبيض البشرة. إنه إيطالي. اختنقت ببكاء، فهي قد هجرت ذويها، لم تنقذ كيشمه، وبيناه قد لاقت حتفها تحت وقع الجلدات أو بسبب حبسها في مخدع للحريم. سالت دموعها على وجهها الذي أصبح وجه خادمة تتلقى الغذاء الجيد؛ وأقسمت أنها ستساعد شعبها لدى عودتها إلى سواكان، والتي تبدو قريبة. إنها لا تعرف كيف تساعدهم؟ ولكنها ستفعل شيئاً آخر أكثر من أن تحب ميميّا، وأن تتلقى الحب منها. عزمت على أن تفعل شيئاً مختلفاً عن خدمتها للرجال في البار، وعن إعطائها كسرات الخبز للصبية عند مشواة الفندق. هي الآن تبلغ التاسعة عشر من عمرها، فقد أصبحت بالغة منذ سنوات كثيرة! ولم تفعل شيئاً لإعادة ما قُدم إليها من حياتها الناجية. عاد ستيفانو يقترب منها. نظر إليها ولم يستطع أن يمنع نفسه من تقبيلها قبلتين تعبران عن العرفان، طبعهما على الخدين المبللين لأخته الصغيرة لاموريتا.

قال مساءً لكليمانتينا:

- "لقد تم تنويرها!"

- تنويرها؟

- لو أقول لك! وجدتها تبكي وهي تمسك صدرها بيد والصليب باليد الثانية!

- ولكن ماذا قلت لها؟

- كل شيء، قلت لها كل شيء!

- وهي، ماذا قالت؟

- هي؟

- آه... نعم، هي!

- ولكن هي... بكت، لم تتكلم. بل بكت ليس إلا! لقد تلقّت الإلهام!

لم تتلق إلهاماً، بل كان حدساً على أكثر تقدير. كانت تشعر هذه المرة أيضاً كمن يقف أمام باب دون أن يتمكن من فتحه. أخفت هذا الغرض الذي لا تعرف ماهيّة وظيفته. إنها المرة الأولى التي تخفي فيها شيئاً عن الآخرين، أول مرة تختبر شعور امتلاك شيء. كانت متأكدة من أن *البارونة* ستستعيده منها. لا يمكنها أن تفسر ذلك، ولكنها تعرفه وهذا كاف لكي تخبئ الصليب مع أوشحتها ولا تخرجه إلا عندما تخلد ميميّا إلى النوم. عندها كانت تُخرج العبد المصلوب وتتحدث عنه إلى الليل، لكن هذا الأخير لم يكن يجيبها. بل كانت تسمع صوت نقيق الضفادع ومشاحنات السكارى

وصهيل الخيول الآتي من الاسطبل الموجود تحت نوافذها. ستُباع الأحصنة قريباً على غرار الملكية والأراضي بأكملها. ستترك كل هذا، ستغادر هذه ال (إيطاليا) الفقيرة التي لا يكاد الفقراء فيها يعيشون أكثر من خمسة وثلاثين عاماً، والتي تهرب منها أعداد كبيرة من الشباب إلى بلدان أبعد من السودان. شرح لها ذلك جيوسيبي ابن ستيفانو؛ فقد أخرج لها، كما فعل القنصل، ورقةً كبيرة رُسمت عليها أراض وبحار. كان بهذه الطريقة يحاول تعليمها القراءة، من خلال حروف البلدان، وكان ذلك بالغ الصعوبة. لم تحفظ حرف (أ) في أستراليا، أو حرف (ب) في البرازيل، أو حرف (ك) في كندا، تلك الأراضي التي يلجأ إليها الإيطاليون العاطلون عن العمل. إنها سوداء كالحبر ولكنها لا تعرف الكتابة. وكل من حولها يتكلمون بلغات جديدة. فالكلمات تشبه البلدان الموجودة على الخارطة، متغيرة وبعيدة وهي لا تستطيع أن تربطها بأي إحساس يسكنها. لذا فقد انزوت في هذه الحالة من الريبة.

حل شهر آب وكانت *البارونة* بمزاج مقيت. كان ستيفانو يأتي لرؤيتها كل يوم تقريباً لكي ينهي معها إجراءات بيع الأملاك. لم تكن المساومات مع الشاري تنتهي وتم التشكيك بكل ما يباع. كانت ماريا تستشيط غضباً فأرسلت برقيةً إلى أوغوستو الذي نفذ صبره هناك في سواكان. لقد أصبحت الحقائب والصناديق جاهزة، وغُطي الأثاث بشراشف بيضاء، وبيعت اللوحات وأواني الطعام الأكثر جمالاً. جُردت النوافذ من الستائر والأرض من السجادات التي لُفّت ووضعت في آخر الغرف. مضت الأشهر وحلّ الخريف وبدأ الشاري يطالب كل يوم بمبلغ

أو بورقة طالباً الحديث مع سيد المنزل وليس مدبر أعماله أو زوجته؛ فالأمر جديّ لأن هناك مبالغ طائلة على المحك. بدأ الجو يتغير، وحل الشتاء باكراً، وأعيد فرد السجادات وأدخلت قطع الخشب ووصلت المساومات إلى جدار مسدود. في نهاية العام ١٨٨٨، قررت ماريا ميكيللي، نزولاً عند نصيحة ستيفانو، أن ترحل إلى سواكان لتسليم الأوراق لأوغوستو ولإبرام توقيعها على الوثائق المستعجلة. كان السفر باهظ الثمن لذا قررت أن ترحل وحدها مع ميميّا التي ستكون وقتها في عامها الثالث، وهي قد تحملت سابقاً السفرة الأولى. ترددت في بيع بخيتة لإحدى العائلات الثرية في (ميرانو) وهي مدينة صغيرة ترتبط بزيانيغو. إن بخيتة معروفة جداً هناك ومحبوبة من الجميع. فالكل رآها كثيراً مع ميميّا تعمل بجدّ. إنها لؤلؤة لن تكلفهم أي راتب يذكر. كما أنها لا تأخذ إجازة وتعمل حتى في الليل. إضافةً إلى أنها تتكلم القليل فقط من لهجة البندقية، وهي متحفظة كبومة محنّطة وقوية الجسد مثل كل الزنجيات. لكن ماريا قررت التخلي عن بيع بخيتة عندما لاحظت الحماس المباشر الذي أبداه برجوازيو ميرانو. لم تدرِ ما تفعل بها خلال فترة غيابها.

طرحت السؤال على ستيفانو الذي لم يصدق أذنيه فيما يسمعه. إنها العناية الإلهية التي طرقت بابه! إن صلواته لاقت الاستجابة! ستُحرر بخيتة أخيراً من قبضة آل ميكيللي. أصبح لديه مساحة ليفعل شيئاً، وشعر كأنه صبي يقف على جسر ويلاحق فراشة نادرة. ذلك يتطلب منه الكثير من الرقّة والسرعة والكثير من الهدوء والثقة. في بادئ الأمر، طلب من ماريا استقبال لاموريتا في منزله. فرحت كليمانتينا والأولاد مسبقاً ببخيتة التي ستنام مع

الطفلتين الأصغر سناً ميليا وكيارا اللتين تعرفانها جيداً. لم يطلب مالاً مقابل مبيتها، وأخبر ماريا أنه لدى عودتها لتبيع أملاكها بشكل نهائي، لن يكون عليها سوى أن تأتي لتحضر أمتها من منزله لتغادر برفقتها. وجدت ماريا الاقتراح صادقاً، فوافقت باعتبارها تضع كامل ثقتها في ستيفانو.

كان ستيفانو يكذب، لم يكن ينوي استقبال بخيتة في منزله. لقد كذب دون حتى أن يشعر بانه ارتكب خطيئة. إذ أنه يقوم بأمر سيئ لغرض شريف. فما يريده هذا الرجل التقي العنيد هو السلام لأخته الصغيرة لاموريتا.

كان الأمر جدياً فهناك أناس مختصون عملوا مع بخيتة، أناس خلقوا لهذا الأمر. جعلها جيوسيبي تكرر مراراً الحرف (أ) في كلمة أستراليا، و(ب) في كلمة برازيل، فهي لم تكتب يوماً حرفاً ولم تقرأ كلمة واحدة. أما بالنسبة للصليب فكان من المستحيل معرفة تأثيره فيها. عندما كانوا يتلون الصلاة *المباركة* قبل الطعام، كانت تنتظرهم لينتهوا بصبر مطرقةً برأسها. وكانت صلاتهم تنتهي دوماً برسم علامة كبيرة من الصليب. لم تجد بخيتة علاقة بين الصلاة والصليب الذي أهداها إياه. بل كانوا يسخرون منه! ذات مرة ضحكت ابنتاه منه عندما رسم بيده إشارة الصليب بشكل واسع فضرب بكوعه عين كليمانتينا دون قصد. فكر أنه يجب على المختصين فقط دون غيرهم أن يتولوا أمر تعليمها، المختصين بالتعليم المسيحي. خطرت في باله مباشرةً الأخوات الراهبات في الجمعية الخيرية الكنسية اللواتي يتولين إدارة المعهد الديني للواعظين في البندقية. فعلى غرار باقي الأخويّات في إيطاليا، تؤهل الراهبات الناس ويحضّرنهم للتعميد، ويستقبلن الأطفال

الذين لا أهل لهم. فهناك الأخت مادلين دي كانوسا، وهي مؤسسة النظام ولدت كمركيزة في بداية القرن التاسع عشر، وافتتحت المعهد وهو قديم مثل معهد السمو، إذ تم تأسيسه لتأهيل وتعميد، وفق الحقيقة الكاثوليكية، التجار والجنود الذين يحطّون رحالهم على أطرااف المدينة.

أراد ستيفانو أن تُقبل بخيتة هناك في المعهد الكنسي في فينينسيا كطالبة مقيمة أثناء سفر ماريا ميكيللي إلى سواكان، على أن تعود لدى عودة سيدتها من السودان. ستكون آنذاك قد تلقت التعليم المسيحي وتعمّدت، عندها سيستطيع هو أن يخلد إلى النوم بسلام. مثلما سيطرت عليه فكرة التبني، جاءت فكرة التعميد في المعهد الكنسي لتستولي على تفكيره ولتعذبه على قدر معرفته بكره ماريا ميكيللي لكل ما يتعلق بالدين. لذا فقد قرر هذه المرة أن يكذب:

- سينيورا، أنا أفكر بشيء... يخصّ لاموريتا...

- ألم تعد تريد أخذها؟

- بلى، بالطبع أريد. ولكنني أفكر بك خاصة. أنت كامرأة تستحقين التقدير.

- أجل.

- أنت أم مثالية، بالغة الشجاعة....

- إلى أين تريد أن تصل؟

لاموريتا.... ستتبعك إلى الفندق هناك في إفريقيا؟

- قلت لك أنني لن أتكبد عناء مرافقتها لي، فذلك مكلف جداً. سأتركها هنا!

- ما أريد قوله، سينيورا، أنه لدى عودة لاموريتا إلى إفريقيا، ستستمر بمساعدتك في الفندق. أليس كذلك؟

- آه... نعم!

- ميميّا ستكبر. وستكون لاموريتا أكثر فائدةً لك في البار.

- من البديهي!

- إذاً، صدقيني، القليل من التعليم سيكون ضرورياً لها.

- تعليم؟ ولكن أي تعليم؟

- آه... أن تعرف القراءة والكتابة، والحساب.

- ما حاجة نادلة لمعرفة القراءة؟

- عندما تتلقين رسالة أو طلبات أو صناديق الشراب. إن كانت لاموريتا تعرف القراءة، سيساعدك ذلك أكثر مما تظنين.

- اسمع يا ستيفانو، أنا أعرفك منذ عشرة أعوام. لذا أخبرني بم تفكر بالضبط لأن لديّ الكثير من الأعمال لأنجزها، وعندي أشياء أهم بكثير من معرفة إن كانت بخيتة ستتمكن يوماً من فك الأحرف على ظرف أم على صندوق ويسكي.

عندها تكلم ستيفانو عن معهد الواعظين حيث لن يتم تأهيل لاموريتا فحسب، بل أكثر من ذلك ستكون تحت الرعاية على عكس ما

ستتلقاه في منزله حيث ستُستغلّ كخادمة. في النهاية لن يستطيع هو وكليمانتينا أن يبقياها تحت أنظارهما طوال اليوم. لقد بلغت عامها التاسع عشر وهذا بالطبع أمر خطير. الرب وحده يعلم ما يمكن أن يدور في رأسها من أفكار حول الحرية، هل يمكن معرفة ذلك؟ ليس من طباع الناس الخضوع، وعلى وجه الخصوص لاموريتا التي يمكن أن تنجرف وراء أي نوع كان من التأثيرات. لام نفسه على ذكر هذا التبرير الأخير. فقد شطح بخياله هذ المرة أيضاً. وفي النهاية المهم هو الوصول لمأربه.... إلا أن ماريا ميكيللي ليست بساذجة. فإن كانت براهين ستيفانو صحيحةً، فهي تعلم أيضاً أنه في أخوية فينيسيا، ستكلم الراهبات لاموريتا من الصباح إلى المساء عن الدين. وهي تعلم أيضاً أنه باستثناء الأمور الأساسية في الحياة اليومية، بخيتة لا تفهم لهجة البندقية دوماً. بالكاد تستطيع أن تشتري الحاجيات وأن تتلو الصلوات كمن يقرأ قائمة من الخضار لطبّاخ. رغم أنها ستكون محبوسةً خلال فترة غيابها، ولكها ستمضي عدة أيام في التساؤلات. سترسل برقيات إلى أوغوستو وستفكر قليلاً.

على عكس كل توقع، وافقت. فصمت ستيفانو هذه المرة ثم طلب إليها أن تكرر ما قالته. فكررت مؤكدةً قبولها بوضع لاموريتا في المعهد الكنسي في فينينسيا خلال فترة سفرها إلى سواكان؛ ولكن بشرط: أن يتكفل هو نفسه بكل الإجراءات. ومن بين هذه الإجراءات هناك إجراء تسوية وضع بخيتة التي أصبحت بالغة، وباعتبارها أمة فهي مجردة من أية تسمية ولا تملك أية ورقة، ولا حتى ورقة تثبت شراءها إذ أنها جاءت هدية إلى ماريا ميكيللي. لا شيء يثبت وجودها في البلدية. طرح ستيفانو قضيتها لدى

الجهات العليا استناداً إلى علاقاته الأكثر نفوذاً. كلمهم عن أهمية جعل غير المؤمنين يدخلون في الدين لدى قدومهم من "إفريقيا الناجية من إفريقيا"، وهو شعار ذائع الصيت. كلمهم عن الابن الضال وعن العذراء السوداء، وكتب إلى الأثرياء الكهنوتيين وإلى كبار الموظفين في البلدية. كما تواصل مع قريبة راهبة منتسبة إلى الرهبانية. وأخيراً حصل على موافقة رئيس الدير وقابل الأم العليا مادري لويجيا بوتيسيلا.

لم يشرح أحد شيئاً لبخيتة، بل ردّدت على مسامعها كل من ميليا وكيارا أنهما سترافقانها إلى *المدرسة*. لم تدرِ معنى هذه التسمية. فقط عرفت أنها ليست جزءاً من الرحلة إلى سواكان، وعرفت أنها قريباً ستلتقي بآل ميكيللي وستعيش هناك إلى الأبد، وأدركت أيضاً أن ميميّا ستكبر وهي بالتالي سيتغير سيدها بالطبع. إن الأوقات الخالية من العنف ليست سوى فترة استراحة في حياتها كأمة. أطاعتهم دون أن تعرف إلى أين سيأخذونها. حتى مع الناس الذين تحبهم، كانت تجد نفسها تائهة بعض الشيء. عاشت أوقاتاً بطيئة ومتقاربة، ومليئة بالشك. كانت فترة زمنية تمر بقفزات متلاحقة. كطريق ترتج ثم تمتد في رتابة خالية من نقاط العلام. كانت سعادة ستيفان جليةً، فهو سعيد من أجلها. إنه يحبها ويحميها. ولكنها لا تعرف يحميها من ماذا.

ذهب الستة إلى البندقية: ماريا ميكيللي وستيفانو والفتاتان ميليا وكيارا، وميميّا تحملها بخيتة بين ذراعيها. لم تكن البندقية بعيدةً عن زيانيغو بل تبعد عنها قرابة ثلاثين كيلومتراً. ركبوا قطاراً متواضعاً يتوقف بناءً على طلب المسافرين، ويصدر ضجةً عالية تجعل من غير المجدي أن يتكلم أحد

مع غيره. احتفظ الجميع بهيئته الأنيقة والمتعالية بعض الشيء كمن يقوم بنزهة طويلة. ستة أشخاص اجتازوا الريف وكأنهم لم يسافروا يوماً، ولم يتنزهوا في عطلة يوم الأحد. نامت ميميّا على ركبتي بخيتة التي حمت رأسها من اهتزازات القطار واضعةً يدها الطويلة تحت رأس الصغيرة. كانت تظن أنها قريباً ستترك الصغيرة التي ستغادر مع والدتها إلى سواكان بعد عدة أيام. "عدة أيام... هذه فترة قصيرة جداً، لن نمضي بعد ذلك عطلة الأحد سوياً"، هذا ما شرحه لها ستيفانو، فقد وجد يوم الأحد نقطة علام. كانت ميميّا تتنفس على صدر بخيتة بعمق. هذا هو إيقاع حياة بخيتة، هجران الآخرين. كان حبها للصغيرة متبادلاً ومليئاً بالثقة، لقد علمتها كل ما تعلمه الأم لطفلها. لقد شاهدتا معاً شروق الشمس وغروبها، وتأملتا السماء ككائن علوي، وراقبتا من غرفتهما غضب العاصفة التي كانت تغير شكل المشهد الطبيعي، وفتحتا النافذة لدى عودة الشمس إلى السماء، ولدى انبعاث الروائح الحيّة مثل رائحة فاكهة مفتوحة على محتواها. علّمت بخيتة ميميّا كيف تنادي الحيوانات مصدرةً أصواتاً قصيرة مع حركات باللسان. وعندما كانت الحمير والأحصنة تأتي إليها، كانت تضع يدها على رؤوس الحيوانات المطيعة وتقول: *"شكراً"* فتحذو بخيتة حذوها لأنه يجب شكر الحيوانات التي تعمل لدى البشر دائماً.

لم تدرِ أي منهما وهما في القطار أنهما ستفترقان؛ بل كان ذلك بالنسبة إليهما نزهة إلى البندقية التي ذهبت إليها بخيتة من وقت طويل عندما لم تكن ميميّا قد بلغت الأشهر الستة. تذكرت بخيتة القطار المار من أعلى البحر والطرقات الفقيرة، وقوارب الصيادين والنساء اللواتي يسحبن الماء من

الآبار الموجودة في ساحة صغيرة يبعن فيها الأعشاب والخبز. الفقر هو نفسه في كل مكان، فهي تتعرف إليه بسرعة من نظرة الناس التي لا يمكن لشيء أن يدهشها، ومن التعب الكبير البادي عليهم، ومن الأطفال الحفاة ومن النساء المحملات بالكثير من الأغراض ومن الرجال الغاضبين. أبدى الناس خوفهم من بخيتة في البندقية تماماً كما جرى في زيانيغو. مضت في الأزقة القذرة التي لا تدخلها الشمس وهي تضم إليها الصغيرة ميميّا وتشم رائحة الرضيعة العذبة.

قرع ستيفانو جرس الدير وهو عبارة عن مبنى طويل حال لونه للأصفر ومؤلف من طابقين، منخفض النوافذ ويقع في نهاية البندقية على بعد ١٠٨ كيلومتراً من دورسودورا، على الضفة اليسار من القناة الكبيرة. أمسكت بخيتة يد ميميّا التي استفاقت ما إن وصل القطار، واجتازت معها الجسور الخشبية في هذه المدينة القائمة فوق البحر مثل سواكان، بسماء تتخللها القبب وصواري السفن.

فُتح باب الدير ومثل ستيفانو أمام *البورتينايا* وهي الأخت الحارسة التي دعته للدخول. لم تتعرف بخيتة هؤلاء الأخوات اللواتي لا يشبهن بلباسهنّ النساء المتدينات اللواتي كانت تراهن في الطرقات يمشين في مجموعات، ويرتدين الحجاب مثل نساء المشرق. أما هؤلاء فكن يضعن وشاحاً يعلو رداءهن ويصففن شعرهن كنساء المدينة. أدخلوا إلى غرفة طويلة وباردة بجدران وسقف من الخشب الغامق، وكان الموقد الكبير خالياً. وتوجد في الغرفة طاولة كبيرة وأريكة وبعض الكراسي المصفوفة على

طول الجدار، ولكن ظل الجميع واقفاً بصمت. رأت بخيتة الصليب المعلق بالجدار. يظهر المسيح شاحباً وبوجه مغطى بالدماء. لم تدرِ أنها تقف في قاعة الاستقبال. ولم تكن تعرف أن حياتها ستتغير بشكل جذري أكثر من تغيرها عندما اختطفها الرجلان من قريتها.

تكلمت ماريا ميكيللي في قاعة الاستقبال مطولاً مع الأم لويجيا بوتيسيلا وهي الأم العليا. وسرعان ما لحقت بها الراهبات الأخريات اللواتي تناديهن جميعاً ب"الأم". وكن يقفن بانتباه ويخفين صدمتهن ببخيتة، تلك الفتاة الشابة السوداء بشكل يثير الدهشة كلياً. كن يتحدثن بصوت منخفض ورزين، ويقمن بهز رؤوسهنّ هزات مختصرة مليئة بالفهم. بينما كان ستيفانو يقف ممسكاً بيده قبعته وبالكاد يتدخل في الحديث، تاركاً السينيورا ميكيللي تشرح وتقدم الأوراق وحقيبة بخيتة الصغيرة. جرى كل شيء كما هو متوقع. تنحّت بخيتة جانباً مع الأطفال كما يتوجب على الخادمة أن تفعل. فهم ستيفانو أنها لم تفهم شيئاً، وانتابه شعور عنيف بالخيانة. وأراد أن يقترب منها ويحدثها؛ لكنه يعلم أنه لا يجب أن يتدخل، فقد قالت له كليمانتينا الليلة الماضية: "اترك السيدة ميكيللي تدير العمليات تماماً كما لو أنها صاحبة هذا القرار، الزم الصمت يا ستيفانو مرة واحدة فقط!". لاذ بالصمت إلى جانب قلقه مفكراً بم ستفهمه بخيتة من هذا التغيير؟ هل ستظن أنه لا يريدها في بيته؟ يا ليته يستطيع أن يخبرها عن المعركة التي خاضها من أجلها لكي تكون هنا اليوم في الدير. أخيراً اقتربت ماريا من بخيتة قائلةً:

- ستبقين هنا. إنه منزلك.

ساد الصمت برهةً ثم نظرت بخيتة إلى ستيفانو الذي لم يظن أن الأمر سيعلن عنه بهذه الطريقة القاسية، ورأى أنها لم تفهم وأنها تشعر بأنه وقع عليها الاختيار وبأنها معزولة. اجتاح الذعر نظرتها وضمت إليها ميميّا بقوة أكثر. اقترب منها مبتسماً ببطء متفوهاً بكلمات هي خليط من *سواكان، رحيل والمنزل*. كان عليها أن تفهم أنه عليها إما الرحيل إلى السودان أو البقاء هنا والآن مع الأمهات اللواتي اهتممن سابقاً بفتيات مثلها. حفظت بخيتة كلمة *مادري* (الأم) ورددتها:

- *مادري؟ ماما؟*

اقتربت الأم العليا منها، وابتسمت لها بترحيب. قرأت بخيتة فوراً في عينيها من هي تلك السيدة العجوز. إنها طيبة وتعرف الكثير من الأمور. ابتسمت بدورها وأحنت رأسها لكنها لم تضع ميميّا أرضاً، ولاحظ ستيفانو مالم ترغب السيدة ميكيللي في رؤيته. شكرت ماريا الراهبات بتنهيدة مواسية وعدّلت من قبعتها وطلبت من الفتيات الصغيرات الثلاث أن يقلن إلى اللقاء. خبأت ميميّا وجهها بلطف في عنق بخيتة. اقتربت ماريا ونظرت إلى المربية في عينيها موجهةً لها الأمر.

كانت بخيتة تعلم أنها ستترك ميميّا خلال فترة سفرها إلى سواكان، ولكنها لم تكن تدري أن ذلك سيحدث الآن. شعرت بأنها ماتزال تقع وعادت لشعور الوحدة لترتديه كثوب مجمّد. عاد ذلك الألم يدخل في روحها كطعنة في البطن، فوضعت الصغيرة على الأرض بلطف ودفعتها قليلاً نحو أمها التي كانت تنتظر. ولكن ميميّا عادت لتختبئ من جديد في

حضنها. فسحبتها ماريا بعنف نحوها. لن تجعل من نفسها هذه المرة عرضةً لمزاجها، ليس هنا أمام كل هؤلاء النسوة المتدينات اللواتي تظهر لهن معنى أن تكون أماً. صرت على أسنانها قائلةً: "تعالي!" وسحبت الصغيرة من يدها. بكت الصغيرة كأن هناك ما يؤلمها، فحملتها ماريا بين ذراعيها بحركة قوية متسلطة. "اسكتي!"، أخذت الصغيرة تبكي وتنتحب. كانت بخيتة تتراجع دون أن تكف عن النظر إليها، فلم تعد قادرةً على فعل شيء لها ولا حتى مواساتها.

تجمّد ستيفانو مكانه وأخذت كل من ميليا وكيارا تبكيان، بينما كانت ميميّا تمد يديها نحو بخيتة وهي تصرخ. كان صراخها يرنّ في القاعة. ترددت ماريا بين شعوري الغضب والإهانة. وتبادلت الراهبات النظرات بدهشة، وحاولن التدخل، أحضر بعضهن الماء وقطعة حلوى للصغيرة، وسحبت بعضهن الكراسي وجلسن، إلا أن ماريا لم تتمكن من السيطرة على ميميّا التي عدلت من جلستها، وأخذت تركلها في ركبتيها بقدميها الغاضبتين. كان كل جسدها يميل نحو بخيتة التي رأت الراهبات الدموع تلمع في عينيها، ووجدن أنفسهن أمام ألم حقيقي. أخذت السينيورا ميكيللي تتكلم عن المزاج السيئ والنوبات الطفولية ولكنهن لاحظن بوضوح أن السبب هو أمر آخر. ساد جوّ من الضيق كما لو أن هناك عدم اتفاق ضمني. غمغمت الأم العليا أنه من المؤسف ألا تستطيع استقبال لاموريتا، فهي عليها أن ترحل مع سيدتها الصغيرة. أذعنت ماريا على مضض وشعرت علاوة على ذلك بالهزيمة ولكن أجل، عليها أن تحضر معها إلى إفريقيا مربية ابنتها التي من الممكن أن تمرض إن فارقتها. هناك دوماً شبح الموت يمثل

أمامها ليخيفها وليبتزها. لكي تنهي الأمر، لم تظلّ يوماً وحدها مع ابنتها! كانت بخيتة تستمع دون أن تفهم، ولكنها رأت الخوف والألم لدى الجميع. هل هو خطؤها؟ إنها لم تقل شيئاً. ولم تفعل شيئاً، كما أنها جاهزةً لإطاعة الأوامر ولكنها تمنت لو يتركونها فقط لتواسي الصغيرة.... نهض ستيفانو واثباً وقرر أن يتدخل هذه المرة. مما لاشك فيه أن أختهم الصغيرة لاموريتا لم تُعمّد، مما لا شك فيه أنه كان قاب قوسين أو أدنى من مأربه، وأن كل شيء قد باء بالفشل الآن. ولكنه سينقذها مهما كلّف الأمر!

- هذا مستحيل!

التفت الجميع إليه فهو الرجل الوحيد في التجمع ويبدو أنهن قد نسين وجوده تقريباً.

- أنت ترى جيداً يا ستيفانو أن ابنتي بحاجة ماسّة إلى مربيتها. وسيكون من القسوة أن نفرقهما عن بعضهما.

- أجل سينيورا، سيكون ذلك قاسياً، أوافقك الرأي، سيكون قاسياً.

- إذاً لنرحل ولن نتكلم بالموضوع مرة أخرى. لقد تكبدت عناء هذا الطريق كله دون طائل!

عدّلا من معطفيهما وقبعتيهما، وأشارت ماريا ميكيللي إلى بخيتة أن تسير "إلى الأمام". ولكن بخيتة لم تتحرك بل وقفت هامدةً مكانها دون أن تتفوه بكلمة، فهي لم تدرِ أي أمر عليها أن تطيع. عندها اندفع ستيفانو قائلاً:

- يوجد حلّ! بسيط جداً و ... عمليّ للجميع!

تنهدت ماريا ميكيللي وهي تنظر إلى الراهبات ويبدو على وجهها كأنها تقول: "لا تُعرنه اهتماماً". فتحن الباب لهم، لكن ستيفانو اعترض طريقهم قائلاً:

- يمكن للصغيرة أليس أن تبقى هنا خلال سفرك إلى سواكان، سينيورا. اتركيها هنا، ستتلقى التعليم هي أيضاً. وعندما تعودين ستكون قد تعلمت الكثير من الأمور فالأطفال يتعلمون سريعاً.

- أأرحل إلى إفريقيا بلا ابنتي؟

- لا تكبديها عناء السفر...

تنهّدت ماريا، فهي لطالما كانت تثير استهزاء الآخرين، وكثيراً ما تمت معاملتها على أساس أنه من غير الممكن أن يعيش أطفالها معها. إنها أم صفر اليدين بنيّة طيبة وغير مجدية. أثناء وقوفها مندهشة ارتمت ميميّا بين ذراعي بخيتة. عاد الصمت ليسود، ولم يعد يُسمع سوى شهيق وزفير الصغيرة التي أخذت بخيتة تهدئها بكلمات لطيفة وبمداعبات على عنقها. اقتربت كل من ميليا وكيارا منهما وتسلقتا رداء أختهم الصغيرة، فقد كانتا مضطربتين بسبب ما يجري وبسبب اختلاف الكبار، ولاسيما العاطفة التي أبداها والدهما الذي فقد هيبته المعتادة أثناء حديثه مع السيدة ميكيللي.

لم تدرِ بخيتة أنها في ذلك الوقت كانت تشبه أمها. كشجرة وأغصانها، مع هؤلاء الأطفال المعلقين بها. إنها جميلة، تتمتع بجمال منفتح وبإنسانية عميقة. هذا ما لاحظته الأم العليا فقالت:

- كم من الوقت ترغب في بقاء الصغيرة هنا، سيد كيكيني؟ إنها لا تستطيع أن تذهب إلى المبيت في مبنى الأطفال اليتامى ولا في مبنى الكبار غير المعمّدين.

لكنها عندما طرحت هذا السؤال كانت تعرف الإجابة سابقاً. فهي تعرف أنهم لن يعطوها الصغيرة لها هي، ولا للسيد كيكيني. فالإجابة ينبغي أن تأتي من السينيورا ميكيللي. هذه الامرأة المسكينة التي لم تفهم شيئاً، هي الأم العاجزة.

شعرت ماريا ميكيللي بالخوف الشديد وبالدونية وبالذنب. فتركت ابنتها مع مربيتها. ستسير بمحاذاة البحر، وحيدةً على شواطئ بلد أمسى من دون ابنتها كحلم ضائع.

في التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٨٨٨، دخلت بخيتة وميميّا معاً إلى المعهد الديني للتعليم المسيحي في البندقية. ودفع ستيفانو بنفسه نفقة مبيت أليس ميكيللي ومقدارها ليرة في اليوم. وكما فعل بأوراق أخته الصغيرة لاموريتا، اتبع إجراءات أوراق الصغيرة وحصل عليها. لم يكن الأمر سهلاً؛ لأنها المرة الأولى التي تعيش فيها طفلة معمّدة برفقة مربيتها السوداء في المعهد الكنسي.

في ذلك اليوم، عندما أغلقت *الحارسة* الباب على لاموريتا والفتاة الصغيرة، لم يتصور أحد من الثلاثة أن بخيتة وصلت أخيراً إلى منزلها.

انتظرت بخيتة الأوامر في اليوم الأول. فقد تخيلت أن الأمر هنا يشبه باقي الأماكن، وأنها ستخدم الأسياد، وأنها ستضع ميميّا بالقرب منها،

وتقوم بأعمال التنظيف وغسل الأطباق والطبخ والعناية بالحديقة، إضافةً إلى أعمال الخياطة والتطريز وكل ما يُطلب. لم يُطلب إليها شيء في اليوم الأول. تساءلت فيما لو كانت البارونة ميكيللي قد شرحت لهم جيداً معنى كلمة *أمة*. هل هؤلاء النساء المتدينات يعرفن معنى ذلك؟ ركعت عند قدمي الراهبة العليا كما كانت تفعل الشرقيات: أعلى الجسد إلى الأمام والجبهة على الأرض واليدان منبسطتان، رفعتها الأم العليا عن الأرض وهي تبتسم، فلم يكن ذلك مفهوماً.

ظلت في فترة بعد الظهيرة جالسةً في الرواق حيث كانت ميميّا تلعب في وسطه بالحصى والحجلة، وقد طلبت منها بخيتة أن تلعب بصوت منخفض، لأن جواً غريباً من الهدوء يسود في هذا المكان، وهي تحاول أن تفهم ذلك. كان الرواق ذا نظافة وهدوء غير اعتياديين. والفجوات في الجدران مزودةً بنباتات اللبلاب وبالتماثيل الصغيرة، أما أشجار الزيتون فقد نمت بالقرب من أوراق الغار الزهرية بلا ورود إلى جانب أشجار الليمون الخالية من الثمار في هذه الفترة من السنة، كانت تهب عليها رياح البندقية فتقتلع أوراقها الحمراء لتتدحرج على أرض الرواق. كانت مرشات السقاية موضوعةً بالقرب من مقص النباتات والمكنسة. كل شيء يبدو في مكانه الملائم، كل شيء نظيف ودقيق. لم يكن يتخلل الصمت سوى قرع الأجراس التي تتبع إيقاع الساعات مصدرةً ضجةً خفيفة مقارنة بالأجراس الثقيلة الموجودة في كنائس المدينة التي كانت بخيتة تسمعها تضرب خلف جدران الدير. بدت المدينة القريبة بعيدةً. وشعرت بأن هذا المكان ملجأ لها، وقد أمضت الكثير من الوقت حتى اكتشفت أنه مامن صوت رجولي واحد

في هذا المكان، ولا حتى صرخة واحدة. ولم تسمع صوت حيوان واحد ماعدا التغريدات الخافتة التي تقترب من السقف.

هناك شرفة حجرية في أعلى الرواق. وتعلو الواجهة التي تمتد إلى علو طابقين، نوافذ بالغة الصغر ذات مصاريع زرقاء اللون متراصّة بانتظام؛ فتبدو متشابهة ومتناظرة. ولكن النوافذ تظل صامتةً حيث يعم الهدوء والسكون في فترة بعد الظهيرة، فقط كانت تمر راهبة في الرواق وتحني رأسها، وتنظر إلى طريقها. كانت بخيتة تلاحظ الصدمة التي تسببها لكل من يراها محاولاً إخفاءها قدر المستطاع، فتبتسم بخجل وبحركة تظهر ما معناه أنها تقول بنوع من القدرية: "أجل أنا سوداء، سوداء جداً وأعتذر عن ذلك". كانت ترى انزعاجهن وخدودهن الشاحبة التي تستحيل زهرية اللون. راهبة واحدة تجرأت على إبداء ابتسامة لطيفة أمام هذه الحركة الإيطالية الصادرة من نيجيرية أشد عتمة من الجحيم.

في نهاية فترة بعد الظهيرة، أصبح الهواء جافاً وخف لهيب الشمس. شعرت بخيتة بالبرد وهي جالسة بلا حراك على ذلك المقعد، لا تدري إلى أين تذهب. انتظرت قليلاً بصبرها المتسم بالخضوع، وفجأةً سمعت صخب الموكب وتعرفت إليه، فتوقف قلبها. نهضت لتسمع بشكل أفضل وعندما رأت الفتيات الصغيرات وهنّ يمررن بصف واحد تقودهن راهبتان. على الفور أخذت ميميّا إلى حضنها فصرخت الصغيرة، ولكن بخيتة ضمتها وهي تخبئها بذراعيها قدر استطاعتها وتقرب وجهها منها. كانت تجبرها على الصمت، كادت تخنقها محاولةً إنقاذها. مر الموكب وفيه قرابة خمسين فتاة صغيرة يرتدين مئزراً رمادياً وينتعلن أحذية عالية. لم يكنّ مقيدات كما إنهن

بيضاوات على غرار الإماء الأغلى ثمناً في إفريقيا ألا وهن الشركسيات. إلى أين يقودونهن؟ لماذا قامت الراهبات بشرائهن؟ هؤلاء الفتيات الصغيرات قد أتين من مكان بعيد، لاحظت ذلك في نظراتهن التي تبحث عن دعم، إنهن يبحثن عن النجدة. هؤلاء الطفلات أتين إلى هنا بلا عائلاتهن. هل اشترتهن الراهبات بهدف عتقهنّ كما يفعل القنصل؟ مرّ الموكب وابتعد الصخب الصادر عن قرع أحذيتهنّ. وضعت بخيتة ميميّا على الأرض، فضربتها الصغيرة وقالت لها إنها شريرة وأنها لم تعد تحبها.

- لم تعودي تحبينني؟

- كلا

- أما أنا فمازلت أحبك.

- لا أريد ذلك.

- مستحيل. مازلت أحبك.

كانت ميميّا تنظر إليها من الأسفل بعينين طفوليتين مليئتين بالغضب واللوم، ثم استدارت بعد أن اطمأنت لكي تلعب من جديد بالأرض والحصى. عادت إلى ألعابها الخيالية الحالمة بينما أخذت بخيتة تراقبها بنظرة لطيفة وهي تجاهد نفسها على ألا تناديها ماما.

مضى اليوم دون أن تفعلا شيئاً سوى البقاء معاً. لم تتناولا بعد وجبة العشاء في قاعة الطعام برفقة باقي الشابات اللواتي يتعلمن مبادئ الدين المسيحي، بل تناولتاها في المطبخ دون أن تتمكن بخيتة من بلع شيء. فقد أحست بخجل كبير حين قُدم لها صحن الحساء وهي جالسة لا تفعل شيئاً.

كانت الدموع تملأ عينيها وتشعر بالضيق، من يمكن أن يشرح لها ما مهمتها؟ هل تظن الراهبات أنها لا تساوي شيئاً؟ وأنه لا يمكنها أن تفعل شيئاً ولهذا لا يطلبن إليها شيئاً؟ أين ذهبت الفتيات اللواتي رأتهن لدى مرورهنّ؟ أين ذهبت الفتيات الصغيرات؟ إنه همّ كبير، أرادت أن تفهم سبب لطافة الطباخة، وسبب شعورها بالوحدة في هذا العالم الواسع والمبهم.

كانت تنام مساءً مع ميميّا في غرفة لهما وحدهما تقع في الطابق الثاني، وتطل نافذتها على جدار المبنى المقابل الذي يقع على الطرف الثاني من القناة، كما تطل على ظهر كنيسة القديسة ماريا ديلا سالوتي (ماريا السلام). كان الصيادون الذين يمرون في قواربهم تحت نافذتهما يصرخون بلهجتهم من مدينة البندقية المختلفة عن لهجة فلاحي زيانيغو. كانت تتبين في نبرتهم القاسية شجارهم من سلامهم، وأصوات الرجال وهم يلتقون ببعضهم. كان ليل شهر تشرين الثاني بارداً ويحل باكراً، فتمر طيور النورس في السماء المظلمة بسرعة خاطفة، وينتشر الضباب ليذكر بوجود البحر. كانت بخيتة تقف وهي تسند جبينها على زجاج النافذة وتحمل الصغيرة ميميّا بين ذراعيها، فتشعر عندها أنها محميّة. كانتا وحدهما تراقبان حلول الليل كما اعتادتا، وتتباريان من منهما سترى أولاً ضوء القمر أو ظهور نجمة. ولكن هنا، على عكس زيانيغو، لم يكن يوجد سوى أفق صغير في السماء. كانت بخيتة تهدهد بأنشودة، فتضع ميميّا يدها على عنقها. إنها تحب الشعور بتلك الاهتزازات في صدرها. كانت تضحك وتخفف من طبقة صوتها، ذلك لأنها تريد كل يوم سماع ضحكة الطفلة. كانت حياتهما مليئةً بالطقوس، فمنذ عدة

أشهر بدأتا بطقس الصلوات اللاتينية الثلاث التي كانتا تتلوانها راكعتين عند طرف السرير، وتجمعان يديهما أمامهما. كانتا تسهوان تارةً، وتارةً تجتهدان في التلاوة فجأة. كانت بخيتة تدرّب الصغيرة التي كانت نادراً ما ترغب في الوصول إلى النهاية قائلةً: *آمين* بعد الجمل الأولى. تقول بخيتة: "آمين، لا"، فترد الصغيرة: "آمين، أجل". فتتابع بخيتة التلاوة على أية حال. في ذلك المساء، بعد تلاوة الصلوات، لحقت ميميّا ببخيتة التي تشعر بالحزن في سريرها، فقد كانت تلك هي الليلة الأولى لها بعيداً عن المنزل. كانت الشراشف خشنة وتفوح من المخدة رائحة النفتالين. ضمت إليها مربيتها بقوة ولكي تنام أخذت تداعب بيدها وببطء الوشم الموجود على ذراع بخيتة الشبيه بطريق صغيرة مرسومة على الرمل، وتمص باليد الأخرى إبهامها. وهكذا نامت بهذا الجو الأسري، تشم رائحة مربيتها، وتشعر بدغدغة شعر هذه الأخيرة لعنقها، فهكذا لا يمكن لسوء أن يمسّها.

استيقظت بخيتة فجراً لدى سماع صوت جرس يُقرع. يبدو أن الوقت باكر جداً، فالشمس لم تشرق بعد. ولكنها مازالت تسمع الضجيج المكتوم والحركات الخاطفة. نهضت بلطف كي لا توقظ الصغيرة وشقت طرف الباب ورأتهن. كانت الراهبات يسرن ليلاً ووجوههن منحنية أرضاً وأيديهنّ في أكمامهنّ، كنّ يسرن في الممر متسللات في الظلمة الباردة، ثم اختفين خلف ستارة كبيرة من المخمل الأسود. عادت بخيتة لتدخل إلى غرفتها، وتساءلت عمّ يبحثن خلف هذه الستارة. لم تستطع أن تمنع نفسها من التفكير بالفتيات الصغيرات اللواتي كنّ يرتدين قمصاناً رمادية وأحذية خشبية. لاحت في مخيلتها مشاهد من الزرائب والأسواق والقوافل ومخادع

الحريم، فقطعت هذه المشاهد في ذاكرتها كالسكاكين. ذكريات ظنت أنها نسيتها فعاد الضيق إليها كما هو لم يتغير كأنها ماتزال في السابعة من عمرها. كانت قابعة في هذه الغرفة مجهولة المكان وتساءلت: من يجيبها لو طلبت النجدة؟ نظرت إلى ميميّا بوجهها المألوف الذي يذكرها بهويتها. إنها في التاسعة عشرة من عمرها واسمها بخيتة، وهي مربية هذه الفتاة الصغيرة التي تدعى أليس ميكيللي وتعيش في زيانيغو. أخذت تردد هذه الحقائق، إلا أن الذكريات كانت راقدة هناك عند طرف سريرها. فالماضي ككلب وفيّ؛ إذ تذكرت القرية المشتعلة بالنيران وعلبة السجائر خلف شجرة الموز، والوحدة والخوف، الخوف الذي أخذ يكبر يوماً بعد يوم كمشهد صحراوي.

سمعت بعد ذلك صوتاً، كان خفيفاً وغامضاً، بطيئاً وحزيناً بعض الشيء. خرجت من جديد إلى الدرج حافية القدمين وأصغت بأذنيها، فسمعت إنشاد الراهبات. سمعت الابتهالات ترتفع عالياً خجولةً بعض الشيء. لقد نهضت هؤلاء النسوة لكي ينشدن ليلاً. استمعت إليهن وانجلى ضيقها ببطء لدى سماع أناشيدهن. استرخى جسدها وتنفست بعمق، فقد كان إنشاد الراهبات واضحاً إذ أن الستارة المخملية كانت خفيفة كجدار من الرمل والريح. في أعلى الرواق كانت توجد فتحة سماوية مربعة تظهر خيوط النهار الأولى، تلك التي تخص أولئك الذين يمخرون باكراً عباب البحر، وأولئك الذين يخرجون الحيوانات للمرعى أو الذين يفلحون في الأرض باكراً، أولئك الذين قليلاً ما يتكلمون، ويعملون حتى آخر رمق فيهم دون حتى أن يستغربوا ذلك. نظرت إلى هذه السماء وتساءلت: هل

حلّ الصباح في أولغوسا؟ هل هناك امرأة جالسة الآن على جذع شجرة الباوباب المنحني أرضاً منتظرةً بداية النهار لكي تنهي ماعليها من مهام، ومنتظرةً كل ما لن يعود إليها؟

سرعان ما انتبهت الراهبات إلى أن لاموريتا كانت تتلو باللاتينية دون أن تفهمها، وأنها لا تعلم اسم الرب ولا اسم الرجل المصلوب. وأدركن أنها لا تعرف القراءة ولا الكتابة ولا الحساب، وأن لغتها هي عبارة عن بضع كلمات متفرقة، وأنه ينبغي قبل كل شيء الاستماع إليها. "الأمر أشبه بفرز القش أو بتنقية الحبوب"، هذا ما قالته الأم أغوستينا وهي امرأة بسيطة ورصينة. فأجابتها الأم العليا: "إنها قصة وقت وانتباه". فالأمر سيان.

بدأ الأمر ذات صباح عندما اقتربت الأم تيريزا من لاموريتا وميميّا اللتين كانتا راكعتين عند طرف سريرهما، وتتلوان على نحو غير مفهوم صلاة *"أبانا"* تقطعانها بقول *"آمين... نعم"* تقولها فجأة الصغيرة، ثم تقول مربيتها من بعدها *"آمين... كلا"* . كانت تلك هي أغرب صلاة تسمعها في حياتها، فهي أكثر من إهانة، بل مزيج عجيب من الجهل الواصل إلى حد التجديف. اقتربت الراهبة بروية منها وشرحت للاموريتا:

- *أبانا*، أتفهمين؟ *أبانا*. كررتها بلطافة.

- *أبانا الذي*

- كلا، قولي فقط *أبانا*. إنه الأب، كرريها.

- الأب.

- جيد جداً. الأب. أنت تتحدثين إلى الأب.

- أنا؟

- أنتِ. في كل صباح ومساء، بخيتة، أنتِ تتحدثين إلى الأب.

- إلى الأب؟

- نعم، ذلك الذي في *السماء*. في السماء!

- في السماء؟

- بالضبط! في السماء وعلى الأرض!

- الأرض... أجل...

- هل تفهمين يا بخيتة؟ أبوك في السماء وعلى الأرض. وأنت أيضاً يا ميميّا. أبوك في السماء وعلى الأرض.

- كلا، إنه في سواكان!

- كلا، إنه في السماء وعلى الأرض. وأبي أيضاً. أبو أمك أيضاً. وأبو بخيتة أيضاً وأبو أم....

- *آمين نعم...!* قاطعتها ميميّا.

فصمتت الأم تيريزا بأسف وهي تشعر بالعجز، وهمت بالخروج خائبة الأمل. فهي قد فشلت. ولكنها استدارت فجأة عندما وصلت إلى عتبة الباب فأصدر ثوبها حفيفاً كعصفور يطير، وصرخت بصوت أرادت أن تخرجه أقل يأساً:

- *الرب! الرب!* الرب!

وانتظرت رد فعل لم يأتِ. فـ*الرب* هي كلمة تعرفها بخيتة، فهي في اللغة الإيطالية موجودة في كل الجمل، مثل كلمة *الله* في إفريقيا. وهي ترجمة كلمة الرب. لكي تواسي هذه الأخت التي يبدو عليها الكثير من الألم، قالت لها بصوت رصين أرادت به أن تطمئنها:

- *الله أكبر*

طلبت الأم العليا من الأم ماريتا فابريتي أن تهتم شخصياً بلاموريتا. تلك الأخت التي هي في الرابعة والخمسين من عمرها، وهي المساعدة العاليا للمتعلمات المبتدئات في الدين المسيحي، كما أنها امرأة تتمتع بفرح طبيعي وموهوبة بامتلاك صبر كبير. أول ما فعلته هو تجنب طرح أي سؤال، وتجنب تلاوة أو تعليم أي شيء. بدأت من البداية من خلف الستارة المخملية السوداء، من خلف باب المصلى المتاخم للدير.

كان عبارة عن مصلى روماني صغير بجدران عالية مصنوعة من القرميد الأصفر المائل للحمرة، مع باحة مظلمة تضيئها القناديل الموضوعة في الجدار. وعُلّقت مبخرات نحاسية في صفوف طويلة، ووُضعت ورود شاحبة عند المذابح الجانبية. كما وُضعت عند المذبح الرئيسي لوحة تمثّل المسيح واقفاً عند مرتفعات أشجار الزيتون. وفي داخل القسم الجانبي إلى اليسار، بالقرب من البوابة الخشبية التي تؤدي إلى باحة صغيرة، يوجد كوخ يحوي أجران التعميد ببساطة متقشّفة. كانت تفوح رائحة البخور والورود الذابلة في الهواء البارد الذي لا يلاحظ في بادئ الأمر، إذ أن أول ما يلاحظ هنا هو الصمت المطبق. هو صمت حقيقي يحجب كل شيء، صمت يغلف المكان ويستقبل الآتين. جلست الأم فابريتي ودعت بخيتة إلى الجلوس.

كانت ميميّا جالسةً على ركبتيها، وكان المقعد يواجه الرجل المصلوب على الصليب الخشبي، ذلك الذي سمته بخيتة *العبد* بعينيه المغلقتين وبدمائه التي تسيل على عنقه من قلبه المثقوب.

قالت بخيتة:

- إنه ميت.

لم تجب الأم فابريتي، بل تركتها تنظر إلى الجسد المصلوب، وإلى اليدين المثبتتين بمسامير وإلى الوجه المشوه.

- أنا أعرفه.

- أنت تعرفينه؟

أخرجت بخيتة من جيبها الصليب الذي خبأته في عنقها عندما أحضرت البارونة ميكيللي حقيبتها الصغيرة.

- أجل إنه هو. اسمه يسوع. أتفهمين؟ يسوع المسيح. إنه هو.

- إنه لاسم جميل.

لنخرج الآن إن أردت. هل ميميّا مغطاة كفاية؟

فتحت الأم فابريتي البوابة الخشبية فاستقبلهما النور الخفيف المنبعث في فترة مابعد الظهيرة، فكان نوراً ضعيفاً ومعتدلاً. تركت ميميّا يد بخيتة راكضةً نحو الباحة الصغيرة، سارتا بصمت حتى وصلتا إلى القناة الكبيرة. كان هواء البحر الممزوج بالريح يحمل شيئاً من الجموح والعنف الملجوم خلف الجمال المباشر.

"لقد مات يسوع منذ وقت طويل. منذ وقت طويل جداً"…. قالت الأم فابريتي وهي تمسك بخيتة من ذراعها. تراجعت بخيتة قليلاً، ومن ثم قبلت بالأمر وهي تشعر ببعض الضيق كما شعرت عندما فتح ستيفانو لها ذراعيه لدى اجتياز زيانيغو.

- من وقت طويل؟

- طويل جداً. أجل، يسوع. من وقت طويل جداً.

- من زمن الأجداد؟

- إن أردت. من زمن الأجداد. أبوه هو *"أبانا"* . واسمه الرب. وليس الله، كلا.

- لا.

- الرب.

- أجل

إنها المرة الأولى التي لم تلحظ فيها بخيتة الرعب الذي تسببه لدى الآخرين. وكانت هي المرة الأولى التي تمشي فيها وهي تتأبط ذراع امرأة، مع تلك الطفلة التي تركض أمامهما وهي تخيف الحمام وطيور النورس. كان هناك جو حميمي يسود هذا الرصيف عند ضفة القناة الكبيرة، هي حميميّة مسالمة تلائم المساء الذي يحلّ. انجلت اللامبالاة، وحلت مكانها الثقة. قالت بخيتة:

- أنا أمة

- أعرف ذلك.

- هل الفتيات الصغيرات إماء؟

- كلا، لسن إماء. بل هن وحيدات في العالم. أتفهمين؟

- كثيراً.

حلّ البرد فجأةً وغطت سحب زرقاء الأفق، وتجمعت فوق القناة. ارتعبت ميميّا من كلب فهرعت نحو بخيتة التي حملتها بين ذراعيها. كانت الصغيرة ثقيلة الوزن، فبدأت بخيتة تعرج قليلاً لدى حملها. كان قبالتهما ضوء جزيرة سان جورجيو يخفت ببطء في عتمة الليل، وأشعلت نيران الصيادين عند لسان الرصيف. فما إن يختفي شيء حتى يظهر شيء آخر. قالت بخيتة:

- هذا جميل.

اندهشت الأم، فلم تكن تظن أن الجمال يمكن أن يلمس روحاً بسيطة كهذه.

- إنه القمر، القمر. لقد رأيته أولاً يا بخيتة. لقد ربحت!

أشارت ميميّا إلى بداية شعاع للقمر مخبأ في الضباب البارد.

- أنتِ لم تري شيئاً هذا المساء.

- أتظنين؟

- بالطبع!

ثم وضعت يديها على عينيها لكي تلعب لعبة الأعمى التي اخترعتاها. لكن بخيتة وضعت الصغيرة على الأرض؛ فهي لم تعد ترغب باللعب وقد تكلمت كثيراً. أخذت الأم فابريتي ميميّا من يدها وابتعدت بها. التقى وجه لاموريتا المظلم بالليل فلمع بريق عينيها.

تعلمت بخيتة خلال عام من الزمن لغة جديدة، وطقوساً جديدة وقصصاً جديدة، وصلوات وكلمات وأناشيد جديدة. واجتهدت في ملاقاة الراهبات اللواتي تعيش معهنّ، واللواتي يتحدثن إلى الرب وإلى يسوع كما يتحدث المرء مع أهله، مع أهل لن يتركهم على الإطلاق فهم خالدون، ويوجدون في كل مكان. وقد أربكتها كلمة "في كل مكان". أخبرتها الأم فابريتي أن الرب يراها ويسمعها طوال الوقت منذ أول يوم إلى آخر يوم في حياتها، إنه هنا موجود. شعرت بخيتة بالخجل وتذكرت المشاهد الأكثر عنفاً التي عاشتها في اختطافها. هو رأى ذلك؟ هل كان موجوداً هناك، في الليلة الأولى التي أمضتها مع الخاطفين؟ وفي الليالي الأخرى التي أمضتها أثناء السجن والعذاب المبرّح؟ وفي الأيام التي أمضتها في الصحراء، وهل رأى ضروب التنكيل والإهانات؟ وهل شهد ما عاشته مع سمير ومع الأسياد وأطفال الأسياد؟ هل كان موجوداً في كل هذا؟

- أجل يا بخيتة، كان موجوداً؟

- ياللخجل.... أيتها الأم... يا للخجل.

- إنه موجود كي لا يدعك وحدك مطلقاً.

إنه عنف كبير، إنه صراع قائم بين الرغبة في العيش والرغبة في ترك كل شيء. لم تفهم هذا الكلام الذي رددته على مسامعها الأم فابريتي بلا توقف: "هو يحبك". وظنت أن الأم فابريتي قد أخطأت، فهو لا يرى كل شيء وهو ليس موجوداً طوال الوقت، وهو لا يعرف كل شيء. إنها أمة لا أكثر، ولا أحد ولا أي سيد، ولا حتى أفضل شخص في العالم يمكن أن يحب أمته. قالت لنفسها ذات يوم: إن الأم ستتعلم معنى العبودية يوماً ما بطريقة أو بأخرى. حينها ستعاقبها على إخفائها وجودها الوحشي الذي مرت به، فحياتها كانت أقل دونية من حياة الحيوانات. حياة تُسرق منها، يشتريها الناس ويقايضون بها ويتركونها وحيدة في الصحراء. لقد أمضت حياتها دون حتى أن تعرف ما اسمها.كان الهم يدركها في كل زمان ومكان، سواء أكانت في المطبخ تتعلم الطبخ أم في دروس تعليم اللغة أم التعليم المسيحي. كانت تتسلل دون أن تطلب الإذن، ودون أن تأخذ معها ميميّا. ولم يكن أحد يعرف في أي أمر تفكر؛ إذ أنها كانت تنكبّ على عملها وفجأة تختفي من المكان. ولكن الجميع يعرف إلى أين تركض؛ فالأمر نفسه يحدث دوماً: كانت تركض كالتائهة باحثةً عن الأم فابريتي التي كانت دوماً متفرغة لها وصبورةً وهادئة، ولكنها قلقة أيضاً مما تشهده الأمور من تغيّر. فهذه الروح البسيطة حساسة جداً اتجاه صدمة الوحي الذي يهزها. ترددت الأم - أكثر من مرة - في أن تطلب من الأم العليا إحضار الطبيب. كانت زيارات ستيفانو وعائلته تترك أثراً جيداً لدى لاموريتا، إلا أن هذه التهدئة لم تكن تدوم طويلاً. فقد كانت تصحو ليلاً من كوابيسها وتعاني نهاراً من حالات اهتياج. من ثم تبكي دون سبب. كانوا يجدونها جالسةً على ركبتيها عند أسفل الصليب تطلب السماح وتسجد على الطريقة الشرقية. لم يتمكن

أحد من جعلها تتخلى عن هذه العادة، ولا عن هذه التسمية للرب: *البارون أو الباترون*.

فهمت بخيتة جيداً أن: يسوع هو ابن الرب الذي خلق الليل الذي تتأمله كل مساء، كما خلق النجوم والقمر. وهو من خلق الأرض بكل خيراتها، وخلق الناس والحيوانات والسبل والأنهار. كانت تعلم منذ البدء أن الكون حيّ وأنه يجب أن نشكره، وهي تفعل هذا دوماً. وهي تعلم أن الأحياء والأموات يعيشون معاً ولطالما احترمت أجدادها. إن الرب هو سيد الكون والبشر جميعاً. هي تؤمن أكثر مما يظنون ولكنها تخجل، تخجل من نفسها، وتخجل من أملها ومن ألمها. كانوا يحدثونها عن التعميد ويخبرونها أنها ستصبح بالتعميد ابنة *البارون*. هذا الحب الذي ينتظرها منذ وقت طويل. هن يقلن: "ثلاثة عشر عاماً، أنت مخطوفة منذ ثلاثة عشر عاماً، حسناً". هذا الحب القريب منها... أخبرنها أنه لو تم تعميدها ستكون محبوبة إلى الأبد مهما فعلت ومهما فعل الناس بها، هل هذا ممكن؟ يعتريها أحياناً فرح يجعلها ترغب في الغناء وفي شكر الرب وفي ألا تعود هذه الزنجية التي تزعج في اليوم عشر مرات تلك التي تسمى "الأم"، والتي طلبت إليها ذات مساء أن تتبعها إلى المصلى الصغير حيث أضاءت شمعةً وفتحت الكتاب ببطء وهي تردد برقة وبصوت عذب:

- طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السماوات. طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض. طوبى للحزانى لأنهم يعزّون. طوبى للجوعى وللعطشى إلى العدل فهم سيشبعون. طوبى لأنقياء القلب لأنهم يعاينون الرب".

تركت الصمت يخيّم، وأغلقت الكتاب منتظرةً بخيتة التي أشاحت بنظرها. فأمسكت الأم فابريتي بيدها ذقن بخيتة وأجبرتها على النظر إليها.

- لا يهمني إن بكيتِ ياعزيزتي. انظري إلي. هل فهمتِ التطويبات؟

- نعم... أمي، ولكن هل هذا صحيح؟

كادت الأم فابريتي أن تضربها على رأسها بالإنجيل لو لم يكن الكتاب مقدساً. هذه البخيتة عنيدة وسجينة نفسها. قالت وهي تباعد بين ذراعيها:

- بالطبع هذا صحيح، وأنت تعرفين هذا. أليس كذلك؟ قولي لي: إنك تعرفين هذا.

- أعرف هذا.

- *يا للمسيح!*

عُزم الأمر على تعميد بخيتة في شهر كانون الثاني، لكن قبل ذلك بيومين، أي في الخامس عشر من شهر كانون الأول، وصلت برقية من سواكان تعلن عن وصول ماريا تورنيا ميكيللي قريباً.

كانت ميميّا قد بلغت آنذاك عامها الرابع، وقد مضى عام دون أن ترى أمها. أصبحت تنادي بخيتة *ماما* دون أي تحفظ، وتعلمت معها الحساب في المحسب، والقراءة في لوح الأبجدية. كما قرأت عن حياة القديسين، كالقديسة (بلانديد) التي كانت أمة رومانية التهمتها الأسود، والقديس مارك الذي مات بالقرب من سواكان في مصر مكسور الأضلاع ومحروق الجسد، ثم تم إحضار جثمانه إلى البندقية، والقديسة أليس الحسناء وهي زوجة ملك إيطاليا. كانت إمبراطورة تحب الفقراء وتعنى بالبشر كما

يعنى الآخرون بالأميرة. هو عالم أنثوي رصين طقسي ومطمئن. لديها صديقة تقطن قبالة الدير وهي الصغيرة جوليا ديلا فونتي. كانت تلعب معها كل يوم بعد الظهيرة في الباحة الصغيرة تحت رعاية بخيتة. كان العالم بالنسبة إلى ميميّا ليس إيطاليا ولا إفريقيا؛ بل العالم مختصر في بخيتة. كانت تعيش في حاضر أبدي حيث ما من شيء يهددها. أخبروها أن أمها عادت ففرحت للأمر دون أن تعرف ما السبب، إنه فرح لا يرجى منه شيء ولا يتوقع منه شيء.

ذات مساء هطل المطرعلى تمثال العذراء التي كانت تقف فاتحةً ذراعيها في أعلى قبة الكنيسة المبنية من القرميد. كانت كل من بخيتة وميميّا تتأمل الليل وهو يمتزج بالمطر. كانت بخيتة تهز ميميّا في إيقاع ذي لحن رتيب. لقد انتهى الأمر ووصل الأمر بهما إلى الحياة في هذا الدير في إيطاليا ستيفانو والأم فابريتي. في إيطاليا حيث تنعم ميميّا بطفولة هادئة وبلقائها مع الرب الذي كادت تصبح ابنته. تدرك بخيتة في أعماقها أن هذا التعميد لن يتم. لا يجب على الإطلاق أن تكون *أمة*، ولكنها أصبحت كذلك؛ وهذا ليس عدلاً. آلمها أن تتخيل أنها وهي في عمر ميميّا كانت لاتزال تعيش في قريتها محميّة وسعيدة سعادةً لا مثيل لها. ولاحت لها من بعيد ذكريات عن أبيها، عن صوته وظله وعنقه الذي كانت تسند إليه رأسها، وتجلس قبالتها توءمها التي هي نسخة عنها. ليسوا هم من ستلاقيهم في إفريقيا؛ فهم سيظلون دوماً في الطرف الثاني من الجزيرة. أما هي فستعمل في حانة الفندق في خدمة الرجال الآتين من كل البلاد ومن كل الأديان، يجمعهم الكحول والرذيلة. وستمضي أيامها في خدمتهم وفي رفضهم وفي محاولة حماية

ميميّا... "هذا مستحيل". قالت لنفسها "هذا مستحيل". لم تدر لماذا؟ ولكنه مستحيل. نظرت إلى تمثال مريم العذراء الماثلة في أعلى قبة الكنيسة، يقال إنها أنقذت البندقية من الطاعون. ألصقت جبهتها في زجاج النافذة، وتلت صلاة *السلام الملائكي* بصوت منخفض. غطت كلماتها الزجاج بالبخار، فبدا كأنها تمطر من الداخل أيضاً.

وصلت ماريا ميكيللي في اليوم التالي إلى الدير. التقت بميميّا وبخيتة في قاعة الاستقبال بحضور الأم العليا والأم فابريتي. كانت ميميّا سعيدةً للقاء أمها التي وجدتها في غاية الجمال، ودهشت من تطورها؛ فهي الآن تتحدث بشكل جيد. تعانقتا وتبادلتا الكثير من القبلات. كان منظرهما كلوحة أخاذة أسعدت الراهبات وحولتهنّ إلى يتيمات وإلى شابات ضائعات، هذا المشهد الأسري كان أشبه باستراحة سعيدة. أما ماريا التي كانت قد رحلت مهزومة وهي تترك طفلتها مع المربية، فقد استعادت حقوقها. تنحت بخيتة جانباً متخذة دور الخادمة، لكن سرعان ما اقتربت منها سيدتها وهي تمدّ لها يديها.

- لقد اعتنيت جيداً بميميّا. وأنتن أيتها الأخوات! إن بلدك يا لاموريتا رائعة! حقاً! تلك الجزيرة الصغيرة المدوّرة... أتعرفن يا أخواتي؟ إنها كاللؤلؤة الموضوعة في البحر... باختصار! لاموريتا.. يجب أن أعلن لك أمراً: لقد قمنا بأعمال جيدة في الفندق وستكون الحانة بأكملها في عهدتك، وستكسبين للمرة الأولى في حياتك...ستكسبين راتباً صغيراً. لا شيء يجبرني على شيء، أعرف ذلك، ولكنني ألتزم بالأمر.

تراجعت بخيتة قليلاً. لم يكن يُسمع في قاعة الاستقبال سوى صوت الصغيرة أليس وهي تلعب بدميتها، كما لو أنها في عالم آخر خفيف وشخصي. فجأة تكلمت بخيتة بصوتها الثخين:

- كلا.

رنّت كلمتها بشكل غريب في الصالة التي ما من شيء تقوم به فيها. بدت الكلمة غريبة، ولاحظت الأم فابريتي قبضة بخيتة المغلقة، وتكهنت بأنها تحمل في داخلها الصليب.

- عفواً؟

مرت برهة من الزمن قطعتها ماريا بحركة من يدها أمام وجهها وهي تقول:

- حسناً، كلا أو نعم، لا فرق عندي. سأعود لأحضرك بعد خمسة أيام.

واقتربت من ابنتها لتودعها ولتشرح لها أنها ستعود قريباً، ولكن الكلمة ترددت من جديد لترن في الصالة:

- كلا.

كان الأمر أسوأ من طعنة في الظهر، إنها إهانة على الملأ. صرخت ماريا دون أن تلتفت بصوت حاد:

- اذهبي واحزمي الحقائب!

انفجرت ميميّا باكيةً ولم تتحرك بخيتة من مكانها. بل كانت شفاهها ترتعش وفي نظرتها خوف وقلق في الوقت نفسه. حملت ماريا ابنتها ورفعتها عالياً وقربت وجهها من وجه الصغيرة، وأخذت تهزها لكي تواسيها.

- عليك أن تطيعيني يا موريتا وبسرعة أكبر!

- مستحيل.

- ماذا؟

- مستحيل، *بارونة*

- *لماذا؟*

تشنج وجه بخيتة قليلاً وارتعش خدها، ثم أخذت نفساً عميقاً قبل أن تقول:

- لن أخرج من هنا، سأبقى.

كانت الدهشة ستغلب ماريا لو لم تكن تشعر بغضب عارم وعميق.

- أأنت مجنونة أم ماذا؟ هل جعلك هواء البندقية مخبولة؟ أتذكرين أنك أمة عندي وأنني سيدتك؟ هل يعني لك هذا أي شيء؟

انفجرت فظاظتها رغماً عنها وكانت تود إظهار شيء مغاير أكثر رزانة وسيطرة، ولكن أسقط في يدها. رغبت بصفع هذه الفتاة وفهمت أولئك الذين يجلدون عبيدهم ويحرقونهم ويقتلونهم.

- أنت ملكي. لقد مُنحت لي. أين رأيت عبداً يقول لسيده لا؟ الأمر هكذا: أذهب إلى سواكان وأنت تتبعينني! في الحياة لا نفعل دوماً ما نريده. أليس كذلك أيتها الأم فابريتي؟ هيا أسرعي! احزمي الحقائب.

- مستحيل...

اقتربت الأم فابريتي من بخيتة، وجلست معها على الأريكة محاولةً أن تعقّلها، إذ ينبغي عليها أن تطيع سيدتها وتغادر معها. هذا ماهو ملائم، لايمكن أن تعصي سيدتها. همهمت بخيتة:

- هناك، لن أكون ابنته.

- تقصدين ابنة الرب؟ ابنة الرب؟

- أجل.

- لا تقلقي بخصوص التعميد، لا تقلقي ياعزيزتي. سنقرب موعده. بالطبع ستصبحين ابنة الرب. أعدك بذلك!

- لا، مستحيل! هناك لن أكون ابنته! مستحيل!

- ستكونين ابنة الرب أينما ذهبتِ. تذكري لقد شرحت لك ذلك قبلاً. إنه في كل مكان! في إفريقيا وفي إيطاليا، في كل مكان!

- أمي...*ساعديني*... النجدة...

رنّ نحيب بخيتة في القاعة، تغير كل شيء فجأة. الأمر ليس عصياناً أو عناداً، بل هو أمر جلل لا تفهمه أية راهبة من الأخوات. بكت ميميّا ونادت بخيتة "ماما! ماما!"، فأشارت الأم العليا إلى السينيورا ميكيللي بالخروج لحظة. طلبت الأم فابريتي من بخيتة إخبارهن كل ما يجب أن تخبرهن به، وألا تخاف وأن تقول ما الذي يجري. وقفن جاهزات لاكتشاف ما يجري.

لم يفهمن ما باحت به لاموريتا. لأنها لم تتحدث يوماً بهذه السرعة مع هذا الكم الكبير من الكلمات العربية والتركية، وبلهجات إفريقية ترافقها حركات الترجي والدموع. كان الأمر شبيهاً برؤية انهيار لركام مبنى دون التمكن من تفاديه. استمعن بدهشة إلى بوحها وإلى كل ما تعرفه هذه الشابة من كلمات غريبة ومن آلام عميقة. لم يعرفن أنها المرة الأولى التي تروي بها كل هذا. تكلمت عن رجال مدينة سواكان وعن الغرباء الذين خدمتهم، الآخرين الذين كانت تخاف من لقائهم، وعن الجلادين الذين كان بعضهم عبيداً في الماضي. تكلمت عن أولئك الذين سألوا أوغوستو ميكيللي إن كانت للبيع، وكيف أنه أجابهم *ليس بعد*. كانت ميميّا على صدرها كالدرع. حدثتهنّ عن الأطفال البنات والصبيان الذين كان الرجال يطلبونهم للمجيء إلى غرفهم. وحدثتهنّ عن أختها كيشمه التي تخشى أن تعرف في أي بيت دعارة أصبحت. قالت: إنها شابة وعجوز في الوقت نفسه، وإنها تبلغ العشرين من عمرها، إلا أنها قد اختبرت كل شيء في حياتها. أخبرتهم أنها رأت الشيطان، وأنها الآن ترغب برؤية الرب. ولكن ليس في سواكان إذ لا يمكن للمرء أن يرى الرب في سواكان. ولا يمكن أن يصبح أحدهم هناك ابن الرب. تكلمت عن ذلك الرجل الذي كان يصرخ في كل ليلة في الفندق، صرخةً واحدةً ومرة واحدة فقط في كل ليلة. أما هي فلم تعد ترغب في الخوف. هي الطفلة المخطوفة، الطفلة المعروضة في الأسواق، لطالما أطاعت كل الأوامر، كررت قائلةً "*كل الأوامر*" في كل يوم كانت تشكر أسيادها كونهم تركوها على قيد الحياة. لقد أطاعت الوحوش أما الآن فهي ترغب في إطاعة الرب. ليس خطؤها في أن تكون *أمة* كما أنه ليس من

العدل أن تكون كذلك. كلا، كررت قائلةً: كلا. للمرة الأولى لم يكن لديها سوى هذه الكلمة "كلا".

تكلمت مع هذا *المزيج* الذي أصبح أكثر تشتيتاً من ذي قبل. وعندما توقفت عن الكلام وهي منهكة وجاهزة لإعادتها أو للموت، سمعت من يقول:

- سأدافع عنك.

علمت أن هذا صحيح؛ لأن الأم العليا لم تخذلها يوماً. تناولت الأم فابريتي يدها، وبقيتا على هذه الحال. ظلت الراهبات مع هذه الفتاة التي عاشت ما لم يتخيلنه إطلاقاً، هذه الفتاة التي قطعت طرقاً غير مفهومة لتصل إليهنّ بخوفها وبقوتها، بشبابها وبماضيها. لم يمنحهنّ الرب سابقاً دليلاً على وجوده أكثر جلاءً وتأثيراً، من هذه الإشارة. كانت الأخوات متأثرات وثائرات بتحفظ، بعيداً عن تصور ما يمكن أن يودي بهنّ دفاعهن عن لاموريتا.

حضرت ماريا ميكيللي إلى الدير على مدى ثلاثة أيام متتالية طالبةً رؤية لاموريتا في قاعة الاستقبال، وبالطبع ابنتها التي تعتبرها عنصراً أساسياً في استراتيجيتها. حضرت وحدها، ثم حضرت برفقة أميرة روسية وأخيراً برفقة قريب لها وهو ضابط في الجيش. تعاركت معهم على حد قولها "مدعومة من أشخاص ذوي مناصب عليا" نصحوها بمهاجمة راهبات الدير اللواتي تعدين على حقوقها. كما أنها كتبت لرئيس أبرشية الإحسان تشكوهنّ إليه، وتطالب إما بإخراج أمتها من الدير أو بإغلاقه. كما في كل نزاع فكل أشكال الدعم التي لجأت إليها بعيداً عن التعقل كانت تزيد

الوضع تأزماً، وتدفعها إلى شن نزاع لايمكنها دخوله من دونهم. وجدت نفسها مجبرة على تلقي الإهانة أمام هذا العدد الكبير من الأصدقاء الذين أغرتهم القضية والفضول إزاء ماستفعله لكي تخرج من هذه المشكلة. لم يعد الأمر أنها أمة بل هي كرامتها المهدورة وعليها استعادتها، وأصبح مسموحاً بتوجيه كل الضربات إلا أن كل الضربات تمر عبر الطفلة. شرحت لميميّا أن بخيتة ستتركها، وتوسلت لاموريتا أمام الطفلة ذارفةً دموعاً هائجة نابعةً من يأسها الشديد. ثم رفعت الصغيرة وصرخت:

- أحبيها! أرجوكِ! أنت تعلمين أنها ستموت من دونك. لماذا تفعلين ذلك؟

غرقت الطفلة في حزن عميق أما الأمة بخيتة فقد تحولت من مربية إلى جلادة قاتلة للأطفال. أرادت بخيتة أن تقول: إن ميميّا قد منحتها الكثير من القوة وأعطتها الحنان والثقة، وأنها ستعيش حتى من دونها فهي كبرت ولن تمرض الآن. ولكنها لم تقل شيئاً، بل صمتت وهي تضغط بيدها على الصليب حتى سالت الدماء من راحة يدها. في المساء عندما وجدت نفسها في الغرفة وحدها مع الصغيرة، كانتا كلتاهما منهكتين ومثخنتين بالآلام وبعدم الفهم. قالت لها ميميّا أنها لا تريد أن تموت. فأقسمت لها بخيتة أنها لن تموت. "أبداً" ترددت بخيتة وهي تجيب..."أبداً". قالت الصغيرة: إنها الآن ستكون لطيفة طوال الوقت، ولن تقوم بنوبات غضب مزاجية، وستأكل كل مالا تحبه من طعام، وأنها ستلعب مع الأطفال الفقراء الذين يخيفونها، وستساعد الراهبات في غسيل الأطباق، ثم طلبت السماح وهي تبكي:

- *آسفة ماما! آسفة!*

- أنت تعرفين هذه الكلمة بالعربية؟

- *آسفة!* أنت تقولينها ! ليلاً أنت تقولينها.

نظرت بخيتة إلى هذه الطفلة الصغيرة التي ستنساها هي؛ ولكنها لن تنسى الرعب الذي عاشته في تلك الأيام السوداء.

- أريد أن تحبيني أنا أيضاً.

- أحبك أنت أيضاً يا ميميّا.

- أنت سوداء بالكامل.

- أجل.

- مثل الشيطان.

لم تظن بخيتة أن الأمر سيجري بهذه السرعة. منذ متى عادت ماريا ميكيللي؟ كيف تنتهي الحال بسيدة صغيرة لتحبها كسيدة؟ أخذتا تبكيان كلتاهما لأنه ما من شيء تفعلانه سوى السماح لهذا الألم اللا إنساني بالسيلان، وبهذا الفراق ليوقّع نهاية حياتهما معاً ولينهي ألعابهما وطقوسهما وأناشيدهما ولغتهما الخاصة بهما، وأمانيهما أثناء حلول المساء وكل ماتركتاه بفراقهما. لقد منحت كل منهما الحياة للثانية، فإحداهما هي الرضيعة التي دلكتها بخيتة يوماً، وسحبت البلغم من صدرها، والثانية هي بخيتة التي طالبت ميميّا بمرافقتها على متن السفينة. ولكنهما لن تعودا لتلتقيا من جديد. لن يلتئم الجرح يوماً؛ بل سيُفتح من جديد بآلام أخرى، وأيضاً بالأفراح التي ستذكرهما بالفرح الذي منحته كل منهما للثانية، ذلك الفرح، ذلك البريق الحارق الذي حلّت الوحدة مكانه فجأةً.

- *آسفة... ياميمّيا.... آسفة* ياعزيزتي...

إنها المرة الأولى التي تملك فيها بخيتة الخيار. ومهما كان الثمن الذي تدفعه، فهي قررت البقاء في إيطاليا، وترغب في أن تُعمّد وأن تصبح ابنةً لأب لن يتخلى عنها إطلاقاً.

علمت بخيتة بكل بساطة أن هناك أناساً كثيرين في قاعة الاستقبال. هم رجال ذوو شأن أتوا للاستماع إليها وإلى الاستماع إلى السينيورا ميكيللي قبل أن يقرروا إن كانت ستبقى في الدير أو ستتبع سيدتها. لم يُذكر اسم "القضية" ولكن ليس هناك سوى قضية واحدة. رددت الأم فابريتي على مسامعها عبارةً قصيرة وسهلة الحفظ وتعبر عن رغبتها ألا وهي:

- "أحب السينيورا وأحب ميميّا وأحب الرب. أختار الرب". هل أنت موافقة على هذا؟ الرجال الذين سيأتون هم بغاية اللطافة، سترين ذلك؛ إنهم لطفاء جداً وهم لايتكلمون العربية ولا اللهجات السودانية ياعزيزتي، أتعرفين ذلك؟

- نعم، هل يجب أن أطيعهم؟

- لقد فهمت، عليك أن تطيعيهم، حتى السينيورا ميكيللي عليها أن تطيعهم.

- الرجال، هل أعرفهم؟

- كلا.

- آه... وأنت، هل ستتحدثين؟

- كلا. أنا سأصلي، سأصلي بكل قوتي من أجلك. إلا أنني سأكون هناك بالقرب منك.

- دوماً؟

- عندما يكون الرجال موجودين هناك، سأكون موجودةً طوال الوقت.

- متى؟

- غداً في قاعة الاستقبال.

قامت الأم فابريتي بحماية بخيتة من الإشاعات المنتشرة في فينيسيا إذ أن الإعلان عن قضية العبدة القاطنة في الدير الكنسي، قد شغل كل المحادثات سواء في الأكواخ أم في الصالونات، سواء في الأديرة أم في الطرقات. هناك من طالب بالتحرير المباشر لهذه الإفريقية المعذّبة من يد سيدتها الطاغية. وهناك الأقل عدداً الذي يتحدثون عن مربية لا إنسانية جاهزةً لترك طفلة صغيرة تموت دون أن يؤنبها ضميرها. لم تعد تسمح الأم فابريتي لبخيتة بالخروج من الدير أو القيام بنزهات مسائية على ضفة البحيرة، أو أن تشرف بعد الظهيرة على لعب ميميّا وجوليا معاً، أو التبضع في السوق مع الأخت الطاهية. كما أنها منعت باقي الفتيات متعلمات الدين المسيحي من الذهاب إلى قاعة الاستقبال، بعد أن شرحت لها *البوابة* أن معظمهن لا يأتين سوى من أجل رؤية لاموريتا التي شاعت قصتها في فينيسيا كلها. قيل أن الصغيرة تحتضر وأخذ الناس يتحدثون عن أعمال سحر وعن مشاريع هروب. وهناك امرأة أكدت أنها رأت لاموريتا ليلاً في البندقية تطير بذراعيها الكبيرتين في الهواء وهي تتلفظ بعبارات سحرية قبالة تمثال العذراء، سخر الجميع منها، لكنهم صدقوا كلامها بعض الشيء.

قطعت الأم العليا عهداً على نفسها بأن تحمي بخيتة، والتفتت إلى إدارة العمل الخيري الذي أحيل إلى بطريرك البندقية الكاردينال أغوستيني، الذي أحاله بدوره إلى مستشار الملك، إذ أعلمه أن السينيورا ميكيللي تحتجز لاموريتا كأمة لديها، وأنه حسب القانون الإفريقي لا يمكن لأحد أن يجبرها على عتقها. فجاء الرد في اليوم التالي يقول: "جلالته يقول: إنه بفضلٍ من الرب فإن القانون اللاإنساني الخاص بالعبودية غير موجود في إيطاليا. وأن العبد الذي يضع قدمه على الأراضي الإيطالية يكسر سلاسله". التقت كل من الأم العليا والأم فابريتي برئيس الجمعية الخيرية، وأجرتا محادثات حضرها رؤساء الدير هم أيضاً، إلى جانب صغار الخوارنة والمطارنة والأهالي والبرجوازيين ورجال القانون وموظفيهم، جميعهم انجذبوا للقضية.

لم تقرع أجراس الكنيسة، الأمر الذي حيّر - في بادئ الأمر - سكان حي دورسودورو في ذلك الصباح عندما حط القارب المزخرف باللون الأحمر والذهبي على ضفاف القناة الكبيرة، وعلى متنه الكاردينال البطريرك. هناك شيء غير اعتيادي يجري، ومع ذلك فإن الأجراس لم تُقرع؛ إذاً فليس هناك أي احتفال أو مراسم رسمية. اجتاز الحَبر حرم الكنيسة يتبعه الناس الذين أخذوا يتزايدون، فمنهم النساء والبرجوازيون الذين انحنوا أمامه محاولين الاقتراب منه ليقبّلوا خاتمه الذهبي. باركهم الحبر وهو يمشي بينما أخذ معاونه يتقافز وهو يتبعه بحماس ونشاط. وسرعان ما وجد الناس أنفسهم جاهلين وجهتهم، إذ تم الإعلان عن وصول مستشار الملك نفسه! مرّ في الحي بهيبة محببة، وتردد اسم لاموريتا على الألسنة؛ في الأزقة وعلى الجسور وفي الساحات والقصور، وفي متاجر الحرفيين وفي المستودعات.

فاقترن اسم الأمة بالأسماء الكبرى لرجالات إيطاليا وبالكنيسة وبالملك. هل يمكنها أن تكون أقوى من هذه الحال، هذه الفقيرة الزنجية التي التقت بالرب؟ أضيئت المشاعل في الكنيسة وفي الكنائس الصغيرة عند أسفل التماثيل وفي المصليات الصغيرة. وأضيئت البندقية في وضح النهار، وأقيمت الصلاة في أوقات العمل.

أما بخيتة فقد طُلب إليها البقاء في الكنيسة الصغيرة، وبعدم الخروج منها على الإطلاق قبل أن تأتي الأم فابريتي لإحضارها. أخذوا منها ميميّا وقد كانت في بادئ الأمر تجهل أنهم سيأخذونها للأبد. احتمت من هذا التمزق داخل الكنيسة الصغيرة. جلس الأعيان يقررون فيما إن كانت ستظل هنا أم سترحل. هي تعلم أن عليها أن تقول لهؤلاء الناس الجملة التالية: "أحب السينيورا وأحب ميميّا وأحب الرب، وأختار الرب". دون التفوه بعبارات إفريقية ودون القيام بحركات كثيرة، كما عليها أن تتكلم بهدوء *دوماً* وأن تنتبه إلى نبرة صوتها الأجش. رددت الأم فابريتي على مسامعها مرات عدة بأن تظل هادئة *دوماً*، وألا تنظر إلى ميميّا أبداً، وألا تذهب إلى مواساتها إن بكت، وأن تدعها برفقة والدتها *دوماً*.

تحولت قاعة الاستقبال إلى محكمة جنايات. جلس غبطة الكاردينال البطريرك على الأريكة وقد عُلق على الجدار فوق رأسه الصليب الذي يظهر زخرفة تتناقض مع ثيابه المحاكة من المخمل الأحمر. وجلس إلى جانبه مساعده ومعه أوراقه ودفتر كبير. اجتمع كل من مستشار الملك والقضاة ورئيس الجمعية الخيرية وأعضاؤها ورجال القانون والنبلاء والسينيورا

ميكيللي مع حلفائها والأم العليا والأم فابريتي. وجلست ميميّا على ركبتي ماريا ميكيللي. كانت الصغيرة تكره هذه القاعة إذ لم تكن بخيتة موجودة. فطلبت منها أمها التوقف عن الإشارة بيديها، ولكنها كانت تبحث عن بخيتة. وما إن يدخل أحد إلى القاعة حتى تظن أنه هي، ثم أرادت التبول فقالت لها أمها: "لقد أخذتك ثلاث مرات، توقفي". أجل لقد أحضرتها أمها ثلاث مرات لكنها لم تر بخيتة، إذاً أين هي؟ عانقتها أمها وهي تهمس لها بأن تصمت ووعدتها بهدية إن جلست عاقلة، وقالت لها انظري إلى هذه الصلبان كم هي جميلة في أعناق هؤلاء الرجال اللطفاء! ولكنهم سيصبحون أشراراً إن نهضتِ من جديد للتبول، مفهوم؟

فهمت الأمر عندما بدأ الكاردينال البطريرك بالكلام. فقد عرفت الكلمات التي يكررونها نفسها منذ عودة أمها: لاموريتا، عبودية، ميميّا، موت، فهي كلمات تتحدث عنها. كان الحديث طويلاً ولم يستحوذ على اهتمامها، وكانت والدتها مقطّبة الجبين وقد أمسكتها بقوة، فشعرت ميميّا بالقلق وأرادت الرحيل. فمن المعتاد عدم تركها مع أناس مهمين حتى خلال تناول وجبة في العيد. لا يحق لفتاة صغيرة التواجد مع كل هؤلاء الكبار، وتساءلت: لماذا بخيتة غائبة عن المكان؟ نظرت إلى الرجال الذين يرتدون الأحمر والمخمل والقماش المذهّب، وأولئك الذين يرتدون زي الحجاج والمعاطف والعباءات والثياب الكهنوتية والقبعات والقبعات المثلثة والقلنسوات. كانت الأقمشة المخملية والحريرية تسطع في القاعة المدفّأة، فقد كان من الخطأ إيقاد نار كبيرة في المكان. قالت أمها من بين دموعها

بصوت قوي: إن لاموريتا أشبه بابنتها، وهي تحبّها كأنها ابنتها. فهم أسرة واحدة وقد أعطتها غرفة وثياباً وقبعات وأقراطاً من ذهب. علاوة على أنها كلفتها رعاية ابنتها. لم تعد ميميّا ترغب في سماع والدتها تخبر الجميع بأنها ستموت، وتبكي بعد ذلك. لأنه حتى وإن وعدتها بخيتة بأنها لن تموت إلا أن هذا جعلها تبكي. فالقصة المأساوية التي روتها أمها أنهكتها من جديد. نادت بخيتة لكن أمها بدلاً من البحث عن مربيتها أشارت إلى الرجال الملثمين، وإلى كل هؤلاء الناس الذين جلسوا يمدون أعناقهم ليتمكنوا من الرؤية بشكل أفضل، وصرخت قائلةً: "انظروا! هاهي النتيجة! إنها تبكي منذ الآن!" ثم عادت للجلوس، وأعادت ميميّا للجلوس على ركبتيها. أخذ أصدقاؤها يتحدثون وهم الضابط والأميرة فرددوا الكلمات نفسها: لاموريتا، عبودية، ميميّا، موت. اختلطت الأمور على الصغيرة وانتهى الأمر، هل بخيتة مريضة وعلى وشك الموت؟ أين هي الآن؟ يبدو الأمر خطيراً. هؤلاء الناس يشيرون بأيديهم كثيراً وهم بشعون وعجائز. أين *أمها* التي لا يجب عليها أن تناديها *ماما*؟ أين هي إذاً؟ انسابت دموعها بغزارة في هذه القاعة المزدحمة.

قال البطريرك:

- فلنستمع للمعنيّة.

فبدا كأن أحداً لم يعد يقوى على الانتظار، وكأن الأحاديث الجارية بين الناس تم نسيانها لدى سماع كلمة "المعنيّة". عدّل الجميع من جلسته، وتدافعوا ومدوا أعناقهم كأنهم في الأوبرا قبل البدء بالغناء. تم استدعاء

الزنجية التي لا تعرف الكلام وستصل الآن. قيل إنها في المصلى تصلي بلا توقف للرب. يقال إنها سوداء جداً وإنه ينبغي إخفاء الصدمة لدى رؤيتها والتحلي بالكثير من الصبر.

دخلت الأم فابريتي إلى المصلى الصغير حيث كانت بخيتة جالسة ووجهها محني على صدرها وتمسك الصليب بيدها كأنها تمسك يد أحدهم. رأتها بخيتة وفهمت أنها أتت لإحضارها ومرافقتها إلى الرجال الأغنياء الذين ستقول لهم الجملة التي حفظتها بوجهها الجاد وبابتسامتها المتأسفة والمشجعة، وهي تعلم أن ذلك سيكون أمراً صعباً كما تشعر. أخذ قلبها يخفق في صدرها ويداها ترتعشان، وعندما نهضت انطوت تحتها رجلها اليمنى. دخلت بمشيتها المترددة وارتباكها وتصميمها إلى القاعة التي لم تعد تشبه قاعة استقبال. كان هناك أشخاص كثيرون، بدت القاعة أشبه بسوق أو بساحة عامة تحت الحر الحارق. سمعت صوت ميميّا دون أن تراها فقد سمعتها تقول "بخيتة!" إنها الكلمة الوحيدة التي فهمتها، إنه نداء الطفلة. حتى الأخوات لم يتعرفن إلى بعضهن في هذه الجموع، فقد ازداد عددهن ووقفن بلا حراك كالتماثيل. أما الآخرون فقد شعرت بهم، إنهم عطشى ويشعرون بالحر وبالخوف أيضاً. عرفت من فورها أين هم الرجال الأكثر أهمية، وسرعان ماتعرفت إليهم وهم جالسون على الأريكة ومن حولهم التف الناس العوام والفضوليون إزاءها. سمعت الوشوشات ورأت نظرات التقييم لها في عيونهم. رافقتها الأم فابريتي إلى مكان جلوس الكاردينال ومستشار الملك، ومن ثم ابتعدت وهي تتراجع إلى الخلف وتركتها وحدها. ابتسم الكاردينال وتوجه بالكلام للحضور وهو ينظر إلى الأمة:

- آه!... هاهي لاموريتا!

بدا عليه الرضا وهو يتابع:

- وهبَنا الربّ الحرية المطلقة! مهما كان عِرقُنا أو ديننا.

تكلم الرجل مطولاً وكان من الواضح أنه ليس برجل قاس. وبدا على محياه السعادة وبعض التعب كما لو أنه قد أفرط في تناول الطعام ولم ينم كفاية. شعر بالحر أيضاً وأصدر صوته صدى في المكان. تحدث إلى الجميع دون التوجه لأحد معين كأنه يخاطب نفسه. انتظرت بخيتة اللحظة المواتية لتقول جملتها، ولكن الكاردينال استطرد في الحديث مطولاً. تحدث عن الحب المطلق وعن المستقبل غير المؤكد، وما الذي سيجري لها ما إن تخرج من الدير، وهل تعي المخاطر التي تتربص بالفتيات الشابات في هذا البلد إيطاليا التي ستكون فيها فتاة غريبة. وتساءل ألن يكون من الأفضل لها بعد تعميدها أن تذهب إلى إفريقيا الجميلة برفقة السينيورا ميكيللي التي مازالت تتعهد برعايتها باعتبارها فريسةً سهلة وضعيفة ومتواضعة بين المتواضعين ومسكينة بين المساكين...؟ لم تفهم بخيتة كلمةً. وعندما انتهى التفتت تبحث بنظرها عن الأم فابريتي التي تدافعت مع جمع من الناس لكي تقترب منها. همست في أذنها محاولةً أن تترجم الكلام بإيجاز، وأن تقول لها على وجه الخصوص إنه الوقت المناسب الآن لتقول جملتها، فهل تتذكرها؟

- أحب...

أشارت الأم فابريتي لحلقها لكي تقول الكلام بصوت أرفع وألطف.

- أحب...

فجأة لم تعد بخيتة تقوى على شيء، فشعرت بكل شيء من حولها يحترق، ووجدت صعوبةً في التنفس في هذا الحشد الفاقد صبره، وتمنت الهرب والاختباء ولكنها لم تفعل فهي لطيفة وطيبة. انتظر الجميع بصبر وبشدة، إذاً؟ عليها أن تبوح بحبها في جملة تعبر عن كل ما يعتريها. جملة واحدة الآن.

- أحب...

من يمكن له أن يفهم هذا؟ إنها ستؤذي الشخص الوحيد الذي تحبه:

- ميميّا....

لم تكن هذه الحقيقة كافيةً، يجب الذهاب إلى أبعد من ذلك. عليها أن تتابع قليلاً، ومن ثم ينتهي الأمر.

- وأريد الرب.

انهارت أرضاً. سقطت على الأرضية السوداء، وتكومت على نفسها وسمعت صرخة حادة غير بشرية بدت كصرخة حيوان يعلن موت أحدهم ودون فائدة: "*ماما! ماما! النجدة! ماما!*". اشتعلت القاعة وهي لم تنقذ ميميّا، بل تركتها وحيدةً وسط النار والدمار. لم تجب نداءها ولن تجيبها مطلقاً "مطلقاً" إنها الحقيقة الوحيدة. "مطلقاً" ضربت جبهتها على الأرض وتم إخلاء القاعة وحملت الصغيرة التي أخذت تصرخ باكية. حملوها بعيداً عن هذه الزنجية التي صرخت بها ماريا ميكيللي: "جاحدة! جاحدة!" كأنها تلقي عليها لعنةً. لم تعد بخيتة تسمع شيئاً أبداً لا عن الحب ولا عن الكره

ولا عن الوداع ولا عن الحكم. لم تسمع الجملة التي انتظرتها منذ ثلاثة عشر عاماً: "أعلن لاموريتا حرةً".

لفظ مستشار الملك هذه الجملة بتأثر لم تتوقعه، وخاب أمله بعض الشيء كونها لم تتشكره ولم تقبّل يديه ولم تركع أرضاً. ظن أنها تبكي فرحاً، ولكنها كانت مدمّرةً ولن تفوض أمرها إلى أحد على الإطلاق. تركت فتاتها الصغيرة في التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٨٨٩، أصبحت بخيتة حرةً.

-٢-

من الحرية إلى القداسة

عندما أتت الأم فابريتي في صباح اليوم التالي لتبحث عن بخيتة، وجدتها نائمة منكمشةً على نفسها في سرير ميميّا. نظرت إلى هذه الشابة السوداء النائمة في سرير طفلة بيضاء، ورأت كل العبء الذي تجهله، رأت الماضي قبل العبودية والطفولة والوحدة التي كانت ترافقها طوال الوقت. كان وجهها مشوهاً لا يبدو عليه التحرر ولا الحماس، بل كان وجهها يحمل التعب والدموع. إنها أم محرومة من الأمومة، إنها طفلة منهكة ومذنبة.

لم يحضر ستيفانو الجلسة؛ بل ترك السينيورا ميكيللي تحارب وتطالب وحدها. هو وكيلها ولم يرغب في رؤيتها على الحال التي رآها بها الجميع، امرأة قاسية تعتبر نفسها مالكةً لشخص آخر. هو يعرفها ويدرك أن ماريا ميكيللي عبارة عن أم *تخشى البقاء وحدها مع طفلتها*. تخشى من أن تتسبب بموتها، تخشى من ألا تحمل سوى موت أطفالها. بعد انتهاء القضية مرضت الصغيرة. تعذبت كثيراً وبقيت عاجزة عن النوم، وفقدت شهيتها، فهي أيضاً لن تتعافى مطلقاً من الجرح ومن موقف انتزاعها خارج القاعة وقد سمعت لعنة أمها وهي تقول: "جاحدة! جاحدة!" وسمعت صفير الحشود التي كانت تنتظرها أمام الدير وتبعتها إلى البندقية وهي تشتم الأم وتلوم الطفلة. وسمعت ما كان الناس يصرخون به فيما بينهم في الطرقات المخططة

بالظلال وبالأنوار: " لاموريتا حرة! لاموريتا حرة! يا الهي! يا يسوع مريم يوسف!" قبل أن يسقطوا على ركبهم ضامين أيديهم إليهم وناظرين إلى السماء. ستظل ميميّا تحتفظ بذكرى ذعر جموع الناس وبشعورها المرتبك اتجاه والدتها، فقد كان حبها إليها مقروناً بالقلق وتهديداً لها بالموت.

بعد يومين من البتّ بالقضية، ذهب ستيفانو وكليمانتينا وأولادهما الخمسة إلى الدير. وأمام الهيئة المليئة بالخيبة التي لاقتهم بها أختهم الصغيرة لاموريتا، قرروا الخروج معها في نزهة على ضفة البحيرة، ولكنهم ما إن أداروا ظهورهم للدير حتى عادوا إليه، إذ كان الخروج مع بخيتة في البندقية كابوساً مخيفاً لهم. فقد بات سكان دورسودور منذ الليلة الماضية أمام باب الدير ومعهم الورود والهدايا، ويرغبون في إظهار حبهم للأمة المحررة، ويرغبون في رؤيتها ولمسها إن أمكن.

كان البرد قارساً في بداية شهر كانون الأول. فتجمعوا حول النار المضرمة في قاعة الاستقبال المظلمة التي يصعب تخيل أناس مشهورين قد زاروها منذ بضعة أيام. لم تترك كل من كيارا وميليا لاموريتا، بإشارة من والدهما صعدتا على ركبتيها محاولتين ملء الفراغ الذي تركته ميميّا. بل على العكس ذكّرتاها بالأمر؛ ذلك لأنهما لم تلامسا جسد بخيتة منذ طفولتهما. هما لا تدريان كيف يمكن مفارقتها بشكل طبيعي دون التفكير فيها، حتى دون أن تعرفا ناسيتين أنهما كانتا متلاصقتين كما ننسى أن نتنفس، أو أن نضع قدماً قبالة الثانية عندما نمشي. أراد ستيفانو أن تستعيد بخيتة فرحها، فتناول يدها بيديه وقال لها:

- الآن يا أختي الصغيرة، أنت حرة!

- نعم *بابو*

- لن تكوني حزينة بعد اليوم.

- كلا

- ستصبحين ابنة الرب إلى الأبد، وإلى الأبد سيكون فرحك واسعاً.

- واسعاً، أعرف ذلك.

- كما أنك ابنتي أنا أيضاً! أنا لست الرب؛ ولكن حسناً...

قالت كليمانتينا:

- سيكون منزلنا ملكاً لك دوماً.

- أجل! فإن أطفالنا هم أخوتك وأخواتك، ولدى موتي ستحصلون جميعكم على الميراث. فما أملكه هو لك ولن تحتاجي شيئاً على الإطلاق. ولن تكوني وحيدةً يوماً، فلا تحزني اتفقنا؟ أتفهمين ما أقول؟

فهمت وخافت، هل ستصبح حقاً *ابنة الرب*؟ هذا الحب "الواسع"، هذا الحب للشروق وللغروب، هذا الحب لكل شيء حيّ، ولكل شيء موجود، هذا الحب...إنه غير محتمل. لقد حفروا صدرها وصولاً إلى قلبها وانتزعوه منها،. ما كانت تحميه وتحفظه كي لا يموت، هي ترى الآن بما أصبح مملوءاً. إنها ذكرى أمها وليست السيدة العذراء، كلا إنها أمها، تلك المرأة الجالسة صباحاً على جذع شجرة الباوباب المنحني أرضاً. كم تشتاق إليها، من السهل تبين الأمر. إنها لا تعرف الكلمات، ولكنها تدرك أن هذا الاشتياق لا يمكن تسميته. ستصبح ابنة الرب وتساءلت إن كان في داخله

الذي يحتوي على كل شيء، على جزء ولو بسيط من أمها. عاد هذا الشعور العنيف يعتريها من جديد دون أي تغيير، وعلمت أنهم محقون، إنها بائسة في الوقت الذي يجب فيه أن تكون فرحة؛ فهي ستمسي ابنة من تسميه الباترون "البارون" والذي لن يكون الباترون فحسب، بل سيكون غفراناً: غفراناً من العصيان، غفراناً من أمها ومن كيشمه، ومن بيناه، ومن كل العبيد ومن الحب الضائع. ابتسمت لستيفانو لأنها لم تفهم جلّ ما قاله لها؛ ولكنه كان جميلاً جداً بحنانه الخالص وبوجوده الساذج، ولكي تطمئنه قالت:

- أفهم كل شيء *بابو*.

- آه... أعلم أنك تطورت كثيراً بلهجة البندقية... وكنت أقول لهم: مع الراهبات ستحقق تطوراً هائلاً، وستتمكن من العد والقراءة والكتابة و....

- هل تراها؟

- من؟

- ميميّا.

بوغت ستيفانو بالسؤال؛ فأشار إلى كيارا وميليا بالابتعاد قائلاً:

- ماذا تفعلان هنا؟ أنتما تخنقانها بالمداعبات وبالقبلات، لم تعد تستطيع التنفس المسكينة. بالطبع رأيتها وهي بحالة جيدة جداً.

- أهي حزينة؟

- كلا، قلت لك إنها بخير.

- هل تبكي؟

- آه... لا! إنها سعيدة من أجلك! هي سعيدة مثلنا جميعاً! نحن كلنا نشعر بالفرح، أليس كذلك؟

- توقف ياستيفانو.

نظرت كليمانتينا إلى بخيتة في عينيها، وقالت لها بصوت لطيف، كما لو أن نبرتها يمكن أن تخفف من حدة الخبر:

- لقد رحلت ميميّا، إنها في سواكان.

فهمت بخيتة الأمر، لقد تبادلا بلديهما فأعطت كل منهما بلدها إلى الأخرى. تذكرت كل شيء: القطار والقارب والسلالم والبحر الأحمر وجزيرة سواكان، وشواطئ إفريقيا يلفّها الضباب والفندق والرجال، والأطفال حول الشواء يطردهم عامل الحديقة. وتذكرت ميميّا وهي تلعب بالقرب من البحرة حيث تعلمت المشي.

- هذا جيد.

إنها تثق بميميّا وتعرفها جيداً، ولا تعتقد أنها تبتسم طوال الوقت. تعلم أنها تبكي وتناديها؛ فهي تسمعها. إلا أنها تعلم أيضاً أن هذه الفتاة الصغيرة الحرة والبيضاء، الغنية والفضولية لكل شيء، المضحكة والحنونة، هذه الفتاة الصغيرة ستشع بنور جميل على تلك الأرض، أرض السودان الشهيدة. ومن يعلم؟ ربما تلتقي يوماً ما دون أن تدري بأختها أو ببيناه، لا أحد يعرف، ولن يعرف أحد على الإطلاق أين يمكن أن تأخذنا الدنيا.

- لنعد أيتها الأم، لوسمحت... لنعد.

لم تحضّر الأم فابريتي يوماً شخصاً بالغاً للتعميد، بهذا الكم من الاجتهاد. كانت بخيتة تطلب منها كل يوم أن تعيد على مسامعها الكلمات التي ستقولها؛ وتخاف من أن تخطئ كما فعلت في المحكمة. أخذت تردد كل يوم لنفسها: "الإيمان، الحياة الأبدية، أنا أزهد، أريدها! أؤمن! أؤمن! إيمان، الحياة الأبدية، أريدها، أنا أزهد". كانت الأم فابريتي تخشى من أن تخلط بخيتة بين الكلمات، ثم قالت لنفسها: عليها أن تثق بها. لقد بلغت الحادية والعشرين وتتمتع بمزيج من الهشاشة والقوة، وتتمتع بطاقة كبيرة، وبذكاء عميق. كما أنها مضحكة وكثيراً ما تتجرأ على مزاح يفهمونه بصعوبة. ولكنها تبتسم ويبدو من اللطف أن تمزح قليلاً لتخفي ضياعها.

علّمت الأم فابريتي بخيتة من أين يجب عليها أن تدخل إلى المصلى؟ وأين سيقف الكاردينال؟، وأخبرتها بالحركات التي سيقوم بها، والكلمات التي سيقولها وبأي ترتيب وما السبب؟ أدّت الأم كل الأدوار: دور بخيتة والكاردينال والكاهن والعرّاب. توقعت أنه سيكون هناك أناس كثيرون في المصلى وفي الدير وفي الساحة الصغيرة. وهي تعلم أن نظرات الآخرين ستكون مليئةً بالعنف وبالطمع. أرادت أن تدخل بخيتة إلى الكنيسة كأنها تدخل إلى دارها بثقة وبسلام. فهل سيكون ذلك ممكناً؟

في التاسع من شهر كانون الثاني من عام ١٨٩٠، كان الصباح مشرقاً والشمس ترسل أشعتها بسخاء. إنه يوم التعميد، وبخيتة تعلم أن الأمر سيجري على عكس يوم المحكمة. سيكون هناك الرجال ذوو النفوذ والراهبات وعائلة كيكيني، وجموع الناس الفضوليون. كما أنها تعلم أنهم لن يلعنوها بعبارة "جاحدة! جاحدة!"، بل على العكس سيستقبلونها. ولكن

هل يحق لها ذلك فعلاً؟ فهي ماتزال أمة والعبودية لا تُمحى، إنها ليست مجرد تجربة وهذا أمر لا ينتمي إلى الماضي. ولكن إن كان يحقّ لها بأن تكون محبوبة، فهذا اليوم سيكون أشبه بمكافأة لها إذاً. لقد مشت حتى وصلت إلى هذا اليوم. لقد مشت طوال سنين، مشت إلى البارون لكي لا تطيع بعد اليوم أوامر أخرى، ولكيلا تركع بعد اليوم أمام أسياد آخرين.

كان المصلى مزيناً ومليئاً بالورود ومضاءً، وسرعان ما امتلأ بالناس. لم يتوقف جرس الدير عن القرع، ففاضت البوابة بالناس وتسارع المدعوون للدخول، فمنهم الأقارب ومنهم أناس مجهولون ونبلاء ورجال فكر وبعض الفنانين. لم يكونوا جميعهم إيطاليين، فقد كانوا يشكلون جزءاً من هذه الطبقة الفكرية الأوروبية التي تعيش في القصور القديمة وفي منازل الأشراف والفنادق الفخمة. أما الآخرون فقد كانوا من سكان البندقية البسطاء الذين تدافعوا في الساحة الصغيرة وتكاثروا في حي دورسودور بأكمله، وأولئك الذين لطالما خافوا من لاموريتا وسخروا منها، جاؤوا اليوم متفاخرين بأنهم يعرفونها. أما النساء من الأهالي فقد كنّ فضوليات لرؤية تلك الآتية من إفريقيا البعيدة المتوحشة، حيث الناس يأكل بعضهم بعضاً ويباع الأطفال وتُحرق القرى. اطمأنت النسوة لدى معرفتهن بأن *ربهن* سينقذها هي الأخرى، ربهنّ الذي باسمه قبلن الكثير من الآلام التي لا يمكن قبولها. هن اليوم يحببن لاموريتا بورع مليء بالأمل فهي أكثر فقراً منهنّ وها هي نالت الشهرة. قُرعت أجراس الدير والمصلى، وبدأ الاجتماع من جديد فدخل الكاردينال البطريرك وأتباعه وأصحاب السلطة. جميعهم عادوا إلى الحي متوجهين إلى الدير المليء بالأطفال المهملين والشابات

الجاهلات اللواتي توقفت حياتهم، كأناس فقراء، بهذا الحدث الساطع كانعكاس للنور.

لكن من يراهم؟ من ينظر إليهم أولئك الذين ظلوا عند الباب؟ هناك امرأة قصيرة ونحيلة وجائعة دفعها الجميع لكي يقفوا على عتبة المصلّى الذي فتحت أبوابه الخشبية على مصراعيها. وقفت بخيتة على رؤوس أصابعها، ونظرت إلى المشهد كم هو جميل *من الداخل*. ومن ثم التفتت إلى الجموع المتجمهرة في الساحة الصغيرة، وصرخت مما رأته. روت قصة ما جرى. *يا أمي* كم هو جميل! وكم من الجيد لها أن تؤمن.

فقد المصلّى الصغير بعضاً من بساطته فتحول إلى مكان ثري وبرّاق بمظهر رائع مع سطوع ضوء المشاعل، وبفعل الورود والملابس الثقيلة والملونة التي يرتديها مقيمو القدّاس والحضور بثيابهم الفخمة. التفتوا إلى ستيفانو يسألونه عنها كيف كانت *قبلاً*، عندما رحلت عن بلدها؟ كيف كانت، السوداء؟ وكيف وصلت بها الحال لإنقاذها؟ تجرأت امرأة على التقدم إلى جانب الرجال لتسألها إن كان صحيحاً أنها تعرضت للتعذيب. هل غُمست بماء مغلي على غرار القديس جورج؟ هل أحرقت مثل القديسة جان؟ وهل يجب أن تحج إلى العذراء لكي تشكرها؟ ولكن ستيفانو لاذ بالصمت، فقد ضاق صدره قلقاً. إنه خائف على لاموريتا كما أنه سعيد في الوقت نفسه. لقد حارب على مدى خمس سنوات لكي يصل إلى هذا اليوم، وتذكرها في اليوم التالي لوصولها إلى زيانيغو عندما رآها في منزل أوغوستو ميكيللي. وتساءل فيما إن كان يومها قد صُدم بسبب لونها الأسود القاتم أو بسبب حضورها. فقد غمره نحوها حب أبوي، هل هذا أمر ممكن؟ نظر إلى

وعاء التعميد المحفور ببساطة في الحائط القرميدي، وفكر أنه من العدل أن تُعمّد بخيتة هنا في هذا المكان حيث يعيش الأطفال الفقراء تائهين ولا يتلقّون الحب من أحد. وقف مستقيماً كي لا ترى أحداً غيره وهي تدخل إلى الكنيسة.

وصلت إلى المصلى ونزلت على ركبتيها. خشعت وهي تتأمل في حياتها. فكرت بأختها التوءم وقالت لها في سرها: انظري؛ ما الذي أرتديه، إن ثيابي أجمل من الرسومات الحمراء على جسد أمنا العاري. إنه أجمل من لآلئنا ومن أساورنا، ومن الرماد الأبيض ومن الأجفان الموشومة. انظري؛ ماذا كنت ستشبيهن لو أنك تعيشين هنا في إيطاليا البعيدة كثيراً عن النيل. أنت تعيشين هنا في إيطاليا البعيدة جداً عن النيل. لقد اجتزت الصحارى والبحار معي، وأشكرك بأنك كنت أيضاً إلى جانب أمنا. لاتتركيها أبداً.

سمعت الأم فابريتي تقترب ونهضت وشعرت بألم في فخدها، ألم معتاد ومطمئن إلى حد ما.

- لقد أتيت إلى هنا للبحث عنك ياعزيزتي.

ثم غمغمت قائلةً:

- ياإلهي! يا بخيتة....كم أنت جميلة....

سمعت بخيتة هذه الكلمة التي لم تعد تعبر عن الطمع؛ بل عن الاحترام. حقاً كانت تبدو جميلةً في معطفها الأرجواني، وبوجهها المغطى بوشاح أسود طويل. كانت طويلة وذات مظهر مهيب، أشارت إليها الأم فابريتي بأن ترفع وجهها، فكان الأمر صعباً إذ لم تعتد على ذلك. اجتازت

الرواق الذي كانت في مركزه يتيمات الدير الصغيرات بانتظارها لرؤيتها. كان الطقس بارداً، وكن يقفن بمعاطفهنّ الرمادية، وبجواربهنّ التي علت على أحذيتهنّ. أرادت إخبارهن أنها تحبهنّ، لكنها لم تكن تعرف كيف تقول ذلك بصيغة الجمع. أرادت إخبارهنّ بأنها تعرفهنّ وتعرف معنى انتظارهنّ المترقب، وهذا الأمل الممزوج بالكثير من الرهبة. تكلمت فتاة صغيرة هي الأكثر جرأةً من الأخريات متمنيةً لها حظاً موفقاً، فسخرت باقي الفتيات منها كونها تجرأت على التكلم مع لاموريتا. وضعت بخيتة يدها على وجه كلّ من هؤلاء الصغيرات اللواتي ظنت أنهنّ إماء مثلها لدى وصولها.

وقفت الأم فابريتي بالقرب منها أمام الباب الجانبي للمصلى. قرعت الباب ثلاث مرات بقوة وببطء. فُتح البابُ لها، بقيت بخيتة صامتة على العتبة، وفكرت بأن ترفع رأسها من جديد فوالدها بانتظارها. اليوم ستلقى أباها البارون. امتلأ المصلّى بالناس. لم تكن ترى ستيفانو، ولكنها تعلم أنه موجود في المكان مع كليمانتينا وأطفالهم. تذكرت ما ينبغي عليها فعله. إنها تعيش هذه اللحظة المقتضبة والقوية التي لا يمكن أن يطرأ عليها شيء سوى هذا الحدث. سمعت صوت الكاردينال بطريرك البندقية دومينغو أغوستيني وهو يتلو الصلاة، ومن ثم تقدم إلى وسط الحشود المنتبهة متوجهاً إليها ليحضرها إلى عرابها الكونت ماركو سورانزو، والذي يمثّل أيضاً عرّابتها التي كانت مريضةً. ظلت شابكة يديها ببعضها وشعرت بارتعاش رجليها وبعودة الخوف إليها رغماً عنها. كان نفَسها يهزّ الغطاء الطويل على وجهها. رنّ صوت الكاردينال عالياً وحازماً على الجدران القرميدية:

- ما اسمك؟

فاجأها السؤال؛ فهي لم تكن تتوقعه. إنه العار الأكبر في حياتها، نسيانها أنها تمتلك اسماً. هل الرب لا يقبل الأطفال المخطوفين؟ لم تردد الأم فابريتي على مسامعها هذا السؤال. رمقت الراهبة بنظرة خائفة. بدا الصمت أبدياً. ما اسمها؟ ما اسمها..... كلا. مستحيل *آسفة*. عذراً للجميع. أطرقت برأسها فقد انتهى كل شيء.

"ليس لها اسم" التفتت المرأة القصيرة الجشعة إلى الجموع التي ضجت بالتعليقات وبالإشاعات المغرضة. عمّت الهمسات والسعال في المصلى، وكان جميع من في الجلسة مذهولاً ولكن الكاردينال طرح السؤال الثاني:

- ماذا تطلبين من كنيسة الرب؟

هل ستستمر الحال على هذا المنوال؟ يجب أن تستعيد رباطة جأشها، وأن تنظر إليه وتجيبه، فقد قالت لها الأم فابريتي ذلك. رفعت وجهها المغطى بالحجاب وهمت بالإجابة بتأكد:

- الإيمان!

- ماذا يمنحك الإيمان؟

عرفت الجواب وقد قالته سابقاً وكررته. رفعت عينيها إلى السماء لكي تشير إلى ما يمنحه إياها الإيمان، إنه هناك في الأعلى: الحب والشفاء من الحب. تنهد الكاردينال وأجاب:

- الحياة الأبدية، نعم إنها هي.

تنهد المجلس كله، ثم التفتت الامرأة القصيرة الجشعة، الواقفة عند العتبة، إلى الساحة وصرخت:

- "لقد أجابت جواباً صحيحاً! الحياة الأبدية!".

والآن حان وقت اللحظة التي ينتظرها الجميع برعب وبلذة. إنها القصة المرعبة التي يعرفونها منذ الطفولة. إنها القصة التي تثير خوفهم وتمتعهم أحياناً.

- اطردوا الروح الشريرة! اطردوا الروح الشريرة! صرخت المرأة الواقفة على العتبة.

ركعت الجموع راسمةً إشارة الصليب وتلبّدت سماء فينيسيا بالغيوم. بكت الفتيات الشابات وقبّل الجميع الميداليات والسبحات. الرجال والنساء والأطفال والعجائز جميعهم تجمعوا فبدوا متشابهين وورعين. خيم شبح الخوف على الجميع في المصلّى. من يعلم؟ فقد ينتصر الشيطان. ألم نتكلم عن الشيطان الأسود الخاص بلاموريتا؟ من هي حقاً تلك الغريبة التي لا اسم لها، ولا لغة لها والتي أحبها الجميع فجأةً؟ وجد بعضهم هذه اللحظة غرائبية وممتعة، فهم رغبوا قبلاً في الحديث عن هذه اللحظة أو بكتابتها أو حتى برسمها. إما أن تظهر الحقيقة الآن، أو لن تظهر إلى الأبد. سُيعرف إلى أي طرف تنتمي قوى الشر. اقترب الكاردينال من بخيتة ونفخ على وجهها ثلاث مرات. اهتز حجابها وأغلقت عينيها منتظرة. وشعرت بثقل على كتفيها كشيء أثقل من معطفها. ساد جو من الفضول الحذر، ومن الرفض الجاهز للظهور.

- أنا أطردك أيها الشيطان؛ ياعدو سلام البشر، وآمرك بأن تعترف بعدل وبطيبة الرب الأب الذي بعدل حكمه أدان تكبرك وحسدك. آمرك بترك هذه الخادمة للرب. فقد خلقها الرب بهذه الصورة ومنحها هذه الهبات،

وبرحمة منه تبناها كابنة له. آمرك أيها الشيطان؛ يا أمير هذا العالم بأن تعترف بقوة وبفضيلة يسوع المسيح الذي هزمك في الصحراء، وانتصر عليك في الحديقة، وسلخك على الصليب، ونهض من القبر ناقلاً مغانمك إلى مملكة النور. انسحب من هذه المخلوقة أيها الشيطان.

رسم الكاردينال إشارة الصليب على جبين بخيتة، وعلى أذنيها وفمها وقلبها وعلى كتفيها. ارتعدت وهي تطرد صور الماضي من ذهنها: نظرة الصبية الصغار وهم يمشون مع الكاهن إلى الإخصاء، صرخات الأم التي تحطم رضيعها على الحجارة، جثة الصغيرة "يابت" الهامدة تحت التعذيب بالوشم. كان يمكن أن تبكي مطلقةً صرخةً مدوّية لطرد هذا الشيطان ولتعيد حسنة حياة كل هؤلاء الشهداء، لكنها لزمت الصمت. أرادت أن يفعل الكاردينال لها ذلك ، أن يطرد السوء، فهو وحده يعلم كيف يتم الطقس وهي تثق به. ركزت على أولئك الموجودين هنا والذين يحبونها مثل آل كيكيني والراهبات. ونسيت الجموع الجشعة وقوة أولئك المتجمعين منذ وقت طويل في الساحات ليشاهدوا هذه الزنجية.

والآن وقد انسحب الشيطان تاركاً المكان للروح المقدسة أصبح بإمكانها الدخول إلى معبد الرب. طلب منها الكاردينال:

- هل تتخلين عن الشيطان؟

- نعم أتخلى!

- هل تتخلين عن أعماله، وعن غروره؟

- أتخلى!

دهن الكاردينال جبهتها بالزيت المقدس.

- هل تؤمنين بالرب الأب، وبابنه الوحيد يسوع المسيح وبالروح بالقدس؟

- أؤمن! أؤمن! أؤمن!

- هل تريدين أن تعمّدي؟

- أريد ذلك!

كانت مضطربة ومنهكة كما لو أنها ركضت وقتاً طويلاً لتصل إلى هذه اللحظة. سمعت اسمها في التعميد الذي يحتوي على اسم عرابتها في التعميد، وسمعت اسم عرابتها في التثبيت واسمها في عبوديتها في إيطاليا، واسمها في عبوديتها في العربية.

- جيوزيفا، مارغيريتا، فورتوناتا، ماريا، بخيتة، أعمدك باسم الأب والابن والروح القدس.

رشّ الكاردينال الماء المقدس ثلاث مرات على جبهتها المنحنية، فوقع معطفها الأرجواني أرضاً، ورفعت عن وجهها الحجاب الطويل، فظهرت كمخلوقة جديدة ترتدي البياض. بان وجهها للجميع كحقيقة لا يمكن محوها في أعلى الرداء المضاء بالنور. شعرت بالخجل الشديد فهناك من أخذ يفكر بالجسد الموجود تحت الرداء، يقال إنه أسود أيضاً، أسود ومنقوش. هل من الممكن أن يترك ذلك أثراً على رداء التعميد؟ تكهن الناس بأن ذلك ليس ممكناً وأنه يمكن لقصتها أن تقض مضاجعهم، وتثير الذعر في أرواحهم.

جلبوا لها مشعلاً كبيراً أضاءته من مشعل عرابها. ستُتلى الكلمات الأخيرة مع الأمر والغفران:

- اذهبي بسلام فالرب معك.

- آمين.

"آمين نعم" كانت ميميّا معها. سمعتها تقول "آمين نعم!" لو أنها هنا لكانت لعبت بالحجاب الكبير المنسدل أرضاً، ولكانت ستغدو القديسة أليس، الإمبراطورة الجميلة . لغدت ابنتها الصغيرة، فهما الآن متشابهتان كونهما ابنتا الرب، وكل منهما تلتزم في الحب نفسه، وتنتمي للعائلة نفسها. ولكن من سيخبر صغيرتها ميميّا أنها اليوم تمتلك اسماً؟ من سيخبرها ألا تناديها *ماما* من جديد؟

سُميت رسمياً جيوزفينا، ولكنها مازالت تنادى باسم "جيوزيبينا" اختصاراً، وحتى إنهم كانوا يقولونه بصعوبة، لأنها تبقى لاموريتا بالنسبة للجميع. أُعلن على وثيقة التعميد أنها ولدت من أبوين مجهولين، وأنها كانت تابعة للدين المحمدي، وآتية من النوبة، ولا أحد يعرف تاريخها ولا جغرافيتها، ما من اسم لبلدها وأمها ليست على قيد الحياة. وثّقت طفولتها بشكل مختلف عن طفولتها الحقيقية، فكانت نابعة من الخيال الجمعي. واختُصرت سنوات بكلمة "ألم"، وضاعت هذه السنوات في إيطاليا التي كانت بمثابة "خلاصاً". إنها خلاص لها. وبرغم ذلك ! فقد عمّدت منذ سنة وتابعت تأهيلها في التعليم المسيحي. وأراد الجميع أن تكون رائدة وشاهدةً حية على حب المسيح فخضعت لذلك. وجدوها وحيدةً في المصلى الصغير تركع عند قدمي تمثال العذراء تصلي وتبكي. تحدثوا إليها لكنها لم

تكن تسمع فقد كانت مضطربةً، ولا أحد يعلم السبب. كان ستيفانو يدعوها كثيراً لقضاء عدة أيام في زيانيغو في كنف هذه الأسرة التي أمست الآن أسرتها. وعاشت فيها لحظات من السعادة، لحظات تمكنت خلالها وأخيراً من الضحك ومن الخوض في قصص غير مفهومة وهي تحرك يديها في كل الإتجاهات. كانت الضحكة التي يتشاطرونها معها مفاجأة ونعمة. قدّر ستيفانو كثيراً تلك اللحظات. شاهدت بخيتة أطفاله يكبرون، حضرت حفل زفاف ابنه جيوسيبي، ورأت فرح ستيفانو وجمال العروس البيضاء في فستانها الأبيض، والوعد بمجيء أطفال لهم سيصبحون أحفاداً لها هي أيضاً، هذا ما أخبرها به ستيفانو وكان ذلك صحيحاً.

كل ما يقولونه صحيح؛ فهم يحبونها، وكم تود أن تعيد لهم هذا الحب! وأن تكون هذه الجيبوسيبينا تجلب للجميع الفرح والعرفان، لكنها لم تستطع. فهي تريد شيئاً لا *يمكنها البوح به*. إنها تعلم أن عامها في تعليم الدين المسيحي قد انتهى، وأنها بلغت الثالثة والعشرين من عمرها وعليها أن تختار: إما أن تذهب للعيش مع عائلة كيكيني كما اقترح عليها ستيفانو، أو أن تعود إلى خدمة سيدة ما وأن تصبح خادمة منزلية. لدى خروج الفتيات الصغيرات من الدير ومع كل منهن مبلغ بسيط من المال، يصبحن عندئذ مسيحيات حقيقيات، وربات منزل جيدات وماهرات في التطريز. كما يعلّمن القراءة والكتابة ويصبحن جاهزات للعمل وللزواج، فما من وجود لهنّ بلا زواج. ولكن طبعاً في حالة بخيتة فإن الزواج أمر مقصيّ، إذ أن لون بشرتها يشكل حاجزاً طبيعياً لا يمكن تجاوزه. فهي بمنأى عن الزواج وعن الإنجاب.

ذات أمسية خرجت في نزهة على طول رصيف ميناء زاتير. يومها سألتها الأم فابريتي عما تحتفظ به من ذكريات من طفولتها.

- أريد أن أقول.... الطفولة الأولى

- قبل العبودية؟

- نعم، قبل أن تصبحي أمة.

لم تكن بخيتة تنتظر هكذا سؤال. بالطبع طُرح عليها هذا السؤال من قبل القنصل الإيطالي وستيفانو وأطفاله...لماذا يريدون معرفة ما تشعر به، وما لا يمكنها البوح به؟ وما تذكره بصعوبة من ذكريات حميمية. الأمر أشبه بسؤالها أن تفهم طبيعة دمائها ونفسها وكل ما هي عليه. كان الهواء عليلاً، والنهار يخفت في نور زهري شاحب يرتمي بحنان في حضن السماء. *أمة*....ماذا كانت قبل ذلك؟ *أمة*. إنها حياة بعيدة جداً مزروعة في أعماقها في مكان لا وجود للكلمات فيه. من المستحيل أن تروي تلك الأوقات التي لم تتمكن مطلقاً من تذكرها، أو أن تتحدث عن ذويها الذين لم تستطع أن تعود إليهم أبداً. برغم ذلك، نظرت أمامها إلى البحر والسماء وتأملت المشهد الواسع الحميميّ في المساء الوليد. هناك شبكة صيد كبيرة عالقة بضفة القناة. غطى الزبد وجوه الصيادين العجائز فبدوا أكبر عمراً، فالعجائز الورعون هم من يسيطرون على فينيسيا، على سطح هذه المياه الحية والقوية. اتسعت السماء، وامتدت فيها سحب رفيعة زرقاء وحمراء ورمادية أخذت تتصالب ومن ثم تتبدد. بدت السماء واسعةً إلى درجة ابتعد فيها الأفق عن الأنظار؛ فكان المشهد جميلاً إلى حد كبير. تأملت بخيتة الجمال الذي أثّر فيها فقالت كأنها تكلم نفسها:

- لن أخرج، سأبقى.

لم تفهم الأم فابريتي، هل تتكلم عن طفولتها؟ لكن بخيتة التفتت إليها وعلى وجهها علامات التأثر وهي مدهوشة من شجاعتها:

- لن أخرج من الدير، أمي، سأبقى.

شدهت الأم فابريتي لكنها أحبت فيها هذه القوة التي تذهب بها إلى نهاية ألمها لتعود منه فتاةً لا تُهزم. بالطبع هي تحب أن تحتفظ بها لعام إضافي معها.... فهي ستعلّمها المزيد من لهجة البندقية، فهي لهجة تخولها فهم المزيد من الكلمات التي يقولها الآخرون، وفهم طريقة معيشتهم وتفكيرهم. كما أنها ستحميها من كل ما ينتظرها خارجاً. لامت نفسها على أنها تحبها بهذه الطريقة، فامرأة مثلها تهتم بأمور الدين لا ينبغي لها أن تتعلق بأحد سوى الرب. لكن بخيتة وضعها مختلف، بخيتة شيء آخر.

كتبت إلى مسؤولي الجمعية طالبةً إليهم منحها سنةً إضافية، فجيبوزيبينا تحتاج إلى مزيد من الوقت أكثر من الأخريات. إنها بطيئة ولا زالت لا تعرف الكتابة. لكن سرعان ما أتاها الرد بالقبول.

مرّ عام قضته في التعليم الصبور وفي المناجاة الصعبة وفي الاختلاء بنفسها، إضافةً إلى أوقات طويلة من الحزن. فهذه المرة لم تنظر بخيتة إلى الثلاثمئة وخمس وستين شمساً التي كانت ترسمها الأم فابريتي لكي تفهم الوقت الذي يمر. بل أخذت تنظر إلى السماء والأيام التي تتقلص لتصبح جامدة ومختصرة، وإلى السنة التي تنطوي على نفسها لتضعها في نهاية المطاف على باب الدير. هذه المرة ينبغي عليها أن تترك الدير إلى الأبد، ولم يعد

أمامها أي استثناء ولا أية رسالة أو ملجأ. إنها لا تعرف الكتابة، يجد الآخرون صعوبة في فهم كلامها. إلا أنها طاهية فريدة من نوعها وتعرف التطريز والحياكة والترقيع أكثر من أي أحد آخر، وتصنع باللآلئ مالا تستطيع أية فتاة شابة صناعته من حقائب وأحزمة غريبة وباقات ورود. ستصبح مدبّرة منزل ممتازة. قد لاتصبح مربية؛ فهي تتعلق عاطفياً بسرعة، لكن مهنة المدبرة المنزلية تليق بها كثيراً.

تريد هذه المرة أيضاً شيئاً لا تجرؤ على البوح به، والوقت الذي يجري يدفعها إلى حافة الهاوية. إن حياتها هي عبارة عن سلسلة من الفراقات العنيفة وعمليات الخطف والهروب وهي برغم ذلك قد نجت من كل هذا. ما إن تعزم على الاعتراف برغبتها العميقة حتى تجد نفسها مذهولة وصامتة وتائهة. حاولت الأم فابريتي تهدئتها من جديد لكي تفهمها وتواسيها ولكن عبث، فالضيق كان يجتاحها ويسجنها. إنها معزولة عن الآخرين بفعل هذه الرغبة التي لم تتمكن من الاعتراف بها.

طلبت ذات صباح رؤية معرّفها، فقد رأت حلماً قادها من جديد إلى أوقات العنف التي لم تكن تملك خلالها شيئاً تخسره، حين ارتمت عند قدمي القنصل لكي يأخذها معه إلى إيطاليا، وحين كانت تتصرف بعناد برغم رفضها المتكرر. كانت ترى في منامها الأرض حمراء، وتسمع ضحكات الجِمال وصرير أسنانها وعرقلة خطواتها التي تسبب صخباً يضرب في الليل، ويجعلها تستفيق وهي تقفز رعباً. كان الخوف ماثلاً أمامها بلا أي أفق آخر، هو خوف واسع ومجرد. فجأة قررت أن تتجاوزه.

كان المعرّف يستمع إليها بانتباه خلف المشبك الخشبي؛ فلم ير سوى بياض عينيها وأحب كثيراً هاتين الشرارتين المنبعثتين منهما، كما أحب صوت لاموريتا الذي يرن في القاعة خافتاً وغرائبياً إلى جانب ورعها كونها معتنقة جديدة للدين.

- أبتِ. أريد شيئاً.

- أنا أسمعك يا جيوزيبينا.

- إنه كبير جداً.

- ممم...كبير جداً، نعم.

- وأنا كنت صغيرة.

- ممم..

- وسوداء.

- تابعي، تابعي...

- وهكذا فقط...

- كلا، تابعي، لا تخافي.

- أبتِ.

- لا تخافي يا جيوزيبينا، تابعي.

- لن أخرج، سأبقى.

- من جديد؟

كلا، ليس بعد.

- ولكن أجل يا جيوزيبينا. قد مضى عامان على تعميدك، وثلاثة أعوام على معيشتك هنا!

- أبتِ....

- ياجيوزيبينا المسكينة...

- أبتِ، أريد شيئاً.

-قولي ما هو. قولي ما هو ببطء وأنا سأفهمك.

- أريد...أن... أكون.... مثل..... الآخرين.

- بيضاء؟

- سمع ضحكتها المجلجلة بلا توقف، ورغب في الضحك هو أيضاً لمواساتها. للحظة رأى فيها روحاً بسيطة. ولكن البساطة تتمثل بها حقاً.

- ولكن مامعنى أن تكوني مثل الآخرين؟

- راهبة

هطل المطر في البندقية فكانت قطراته المجمدة ترتطم بالناس، وتثقب الأسطح وتخترق الأقنية الصغيرة. فصلُ المطر هنا قصير ومتردد. تذكرت تلك الأيام التي تشبه الليالي الماطرة. تذكرت المؤونة الموضوعة في منأى عن المطر، والحيوانات الصابرة والمذعورة من غضب الأنهار، واحترامها المليء بالخوف لقوة السماء. لاحت لها ذكريات بعيدة عن هذه الأمطار التي كانت تهطل على قريتها في لون السماء القاتم، ترافقه رائحة الطين والذرة المشوية.

ومن الغريب أن تكون هي أيضاً رائحة الجلد؛ ربما جلد أمها التي كانت تحملها، أو جلد أختها التي كانت تنام معها. تذكرت هذه الأمطار التي كانت تهطل في بلاد أسيادها وغضبهم الذي كان يثير دهشتها ومن ثم لم تعد تندهش لذلك، لأنها أدركت أنهم يكرهون كل من لا يطيعهم. أخذت الأمطار تضرب الأرض، وتتجمع على شكل سواقٍ فوق الأرضيات. استمعت لقوتها التي استسلمت البندقية لها. دخلت برفقة امرأتين وبعض الأطفال إلى مرآب مفتوح على الطريق جلس فيه رجل مسنّ يحوك السلال. بالكاد اندهش من دخول هؤلاء النسوة اللواتي لم ينظرن إليه ولم يجرؤن على اكتشاف ما يوجد أمامهنّ، فاحتفظن بأوشحتهنّ المبللة على رؤوسهنّ وظللن واقفات قبالة الأمطار التي تضاعفت. وعلى الأرض المداسة أخذ أطفالهن يمزجن أيديهم بالتراب المبلل. أدركت بخيتة أنها أصبحت في الظلّ أقل سواداً، احتفظت بوجهها منحنياً أرضاً، وضمت إليها الخبز الذي اشترته من السوق. من الجيد أن تكون موجودةً في هذا الليل وأن تبقى في هذا الهدوء. ألا تخيف أحداً، وألا يعرفها أحد كما يجري معها طوال الوقت، مع الوجوه التي تقترب منها حتى إنها تشعر بلهاث أفواههم المفتوحة وبابتساماتهم غير المتحفظة التي ترد عليها بخجل عندها يكتشفون بياض أسنانها غير المعتاد. أحياناً يقوم مارون أثرياء بإيقافها، وأحياناً أخرى يرغب في رسمها أحد الرسامين الذين تعج بهم البندقية. من النادر جداً أن تخرج وحدها فالراهبات تُجنبنها المضايقات. ولكن عندما تمطر مثل اليوم؛ فإن الفنانين والنبلاء والتجار الأغنياء يأوون إلى منازلهم، ويهربون ما إن تهب الرياح الشرقية. أغمضت عينيها واستمعت للذباب الذي أغضبه صوت

العاصفة، وضجيج المطر الأبدي وبلا منجد. شعرت بتحسن إذ تجرأت الليلة الماضية على التحدث مع معرّفها، وتجرأت على أن تقول له الكلمة التي أتت كدواء لها، فهي بخيتة، جيوزيبينا، هي، راهبة! آه... لو كان بإمكانه أن يفهم لهجتها، هذا الكاهن، لكانت أخبرته كم أدهشها ذلك في البداية! إنها مثله تقريباً، لم تكن تفهم ما يجري. أجل إنها لدهشة كبيرة أن تتحلّى بالإيمان، وأن تستمع لنشيد الرب، وأن تفهم أنه يخاطبها هي! لقد تغيرت، إنها تشعر بذلك جيداً. لقد تغيرت في قلب عالم يشبه بعضه بعضاً. فالسودان وإيطاليا سواسية من ناحية الجمال والسوء. بكت لأن الرب يعلم كل شيء وقد رأى حياتها كاملةً. ومن ثم فهمت أن الرب هو عبارة عن حب يُزرع. هل كان معرّفها سيقبل بذلك؟ هل كانت ستتمكن من أن تجعله يفهمها؟ هي الآن تمتلك القوة التي تخولها أن تحب الآخرين طالما أن حياتها بيدَي الأعلى.

ستسامحها الراهبات، إذ أصبح من الصعب تقطيع الخبز. لكنها عزمت على ذلك فلطالما تمكنت من فعل كل شيء بيديها. اقتطعت بضع قطع من الخبز وقدمتها للأطفال الذي يلعبون بالطين فبدوا صامتين ومنشغلين. فجأة تذكرت، هي متأكدة من ذلك، تذكرت نفسها وتذكرت أختها والأطفال في قريتها وهم يدوسون الأرض المبللة ليصنعوا منها طيناً سميكاً، طيناً أملس وسميكاً. المشهد يتكرر نفسه ، أجل البيوت هي نفسها حتى إنه كان موسم الأمطار أيضاً. المنازل الجديدة المصنوعة من الطين داسها الأطفال بأقدامهم. لاحت لها هذه الذكرى فتلقتها كنسمة. لقد أصبحت هذه الظهورات لذكرياتها أكثر تكراراً. تذكرت نفسها في حياتها البعيدة

فبدت قريبة جداً؛ كريح عنيفة حركت الجمر تحت رماد ذاكرتها فتذكرت حياتها وطفولتها في مكان ما، عندما كانت غير مختلفة عن أحد، عندما كان لون البشرة السوداء أمراً طبيعياً.

طمأن الكاهن جيوزيبينا بعد اعترافها قائلاً: "يسوع لا يكترث لا بالعرق ولا بلون البشرة". ومن ثم ركض ليزف الخبر إلى الأم فابريتي: لاموريتا لم تعتنق الدين المسيحي فحسب؛ بل هي تطلب علاوةً على ذلك الدخول في النظام! *بنظامهم!* يمكنهم أن يقولوا: إن ديرهم يقوم بمعجزات أو على الأقل بأعجوبات. قاموا بتقديم الطلب إلى القائدة العامة بريماريا آنا برفيتا في مدينة فيرون التي تفحصته مع ابن أخت مؤسسة النظام، الكاردينال لويجي دي مارشيزي دي كانوسا. هل يمكن أن يقبلوا بدخول أمة قديمة إلى الرهبنة؟ فمنذ القرن السابع عشر كان لإيطاليا باع طويل في تكفير خطايا العبيد، إذ كانت تعود بعثاتها الفرنسيسكانية من مصر والسودان وإيثيوبيا مع عبيد سابقين تقوم بتعليمهم وبجعلهم يعتنقون المسيحية. ومن الشائع أيضاً في القرن التاسع عشر أن تذهب البعثات الإيطالية إلى السودان. عندئذ وضع الأب دانيلي كومبوني خطةً لإعادة إحياء إفريقيا، وفتح في القاهرة ديراً للسود يضطلع بتأهيل العبيد القدامى وبمساعدتهم، على جعل السودان بلداً إنجيلياً ما إن يتم تعليمهم. إنها "إفريقيا في إفريقيا"، هذه القارة التي تعتبر "الجزء الأكثر تمرداً على التحضر في العالم". اعتبر كل من القائدة العامة والكاردينال أن الدخول في الأنظمة الخاصة بالأمة السابقة تندرج ضمن هذا التقليد، فقُبلت بخيتة في الرهبنة. لم يكن الأمر غزواً ولا غنيمة، بل تأكيد على أن إيطاليا الكاثوليكية تحمي

العبيد. وفي السابع من شهر كانون الأول عام ١٨٩٣، فتحت الكنيسة أبوابها أمام تلك التي لم تجد روحها مأوىً لها.

خلال الرهبنة التي استمرت عامين كانت بخيتة تعيش على عكس ما كان من المفروض أن تكون عليه كبرهان. فالنسبة إليها فقد حان الوقت المناسب أخيراً للتحرر. سُميت الأم فابريتي سيدة الرهبنة، فأصبحت تساعد "الفتيات" على تحديد وتعميق ميولهنّ، علاوةً على الشعور بالمقاومة الروحية والجسدية لتلك التي نجت من كل شيء. لم تطلب بخيتة سوى أمر واحد: السماح لها بالحب. ذلك الإحساس الذي لطالما مُنعت عنه؛ فكان خطيراً ويحمل لها آلاماً أشد قسوةً من المعاملة السيئة. أما اليوم فهي تمتلك الحق بالحب، فكرست نفسها جسداً وروحاً للبارون، لهذا السيد الذي بحبها له تكفر عن الخطايا.

هي الآن في الرابعة والعشرين من عمرها وقد مضى وقت طويل على اتباعها التعليم نفسه، وعلى تلاوة الصلوات نفسها، وعلى التواصل والاعتراف وارتداء الزي الموحّد نفسه مثل الأخريات، إلا أنها ليست مثل الأخريات ولن تكون أبداً؛ فهناك دوماً استثناء بالنسبة إليها ومخالفة للقوانين. فإما هم يترددون بقبولها أو على العكس يهنئونها بصخب فهي شبيهة بمن يضع قدمه في مكان دون أن يستقر فيه. هي ترغب دوماً في البوح بأمر لكنها لا تستطيع أن تقوله. إنها تدهشهم وتفاجئهم وغالباً ما تزعجهم. كانت أغلب المبتدئات يحببنها للطافتها ولحماستها التي لا تنضب في العمل. إنها تنهض قبل الجميع، كما أنها آخر من يخلد للنوم. إنها متطوعة للعمل وموهوبة لكن هناك منهنّ من يشعرن بالضيق لوجودها، ولا

يجرؤون على النظر إلى وجهها ولا يفهمن ما تقول. كما أنهنّ يخشين الالتقاء بها ليلاً في الممرات، ولايحببن النوم في المهجع نفسه معها، أو الاغتسال بالماء نفسه الذي تغتسل به، أو تناول الطعام قبالتها، ولا يفضلن الطريقة التي تمسك بها الشوكة، ولا صوتها المنبعث من حلقها وهي تتلو *صلوات التبريك*، ولايرغبن في رؤية الندوب التي تخرج من أكمامها. يتضايقن من قرفهنّ منها، ويعترفن بذلك ولكن لم يحدث لهن ما يزعج. إنهنّ يخشين ويتمنين لو لم يكن قد أرسل إليهن هذا البرهان بالعيش بالقرب من هذه السوداء. فبخيتة ستظل سوداء تحت الزي الموحد ذنباً لا يُغتفر أو خطيئة لا تُكفّر.

كانت الأم فابريتي ترى كل هذا من خوف نابع من بعض "بناتها"، وشعور بخيتة بالإهانة. في يوم من الأيام أخذتها إلى كنيسة سانتا ماريا ديلا سالوتي. صعدتا الممرات الرخامية التي تبدو كأنها تولد من الماء. فبدا الأمر كأنهما تدخلان في بطن عملاق أبيض وبارد. كانت الكنيسة مهيبة ومشهورة ونبيلة تملؤها الأعمدة والقبب؛ والعديد من المصليات والتماثيل التي لا تُحصى ورسومات الأسياد. انحنت بخيتة ورسمت الصليب بالماء المقدس وهي متأثرة بالثراء العريق وبالتعبد القديم. تقدمت الأم فابريتي إلى المذبح نفسه الذي ركعتا قبالته كلتاهما بصمت. أغمضت بخيتة عينيها، وشعرت من حولها بأصوات الزائرين والصلوات المتلوة همساً من أولئك الذين يشعلون شموعاً طويلةً منحنية. كان الهواء محملاً برطوبة باردة مع تيارات هوائية هادئة تعبر المبنى القديم. غضت بخيتة النظر عن كل هذا وركزت بصلاتها. ولكن الأم فابريتي دقت على ذراعها قائلةً:

- انظري، جيوزيبينا، إنها مثلك.

لم تفهم بخيتة إلى ماذا يجب أن تنظر؟ "مثلك"، فكرت أنها "مبتدئة" أو "خاشعة" أو "راكعة". "مثلك" من الكلمات التي لم تقل لها مطلقاً:

- انظري إلى الأيقونة هناك!

في أعلى المذبح الكبير كان هناك تمثال العذراء مغطىً بالذهب. كانت تضع تاجاً مرصعاً بالحجارة الكريمة وتحمل بيديها الطفل يسوع الذي كان مزيناً بثراء مثلها. كان وجهاهما بسيطين، ويبدو عليهما الهدوء وينظران بعيداً. لم تكن بخيتة تعلم أن هذه العذراء موجودة حقاً. لم تفكر أن ذلك ممكن، فهي لم ترها سابقاً ولا بأي كتاب لتعليم المسيحية، ولا بأي صورة دينية، ولا حتى بأي حلم. ولكن الأم فابريتي محقة بأن هذه العذراء وابنها يشبهانها. *كلاهما يمتلكان بشرة سوداء*. نظرت إليهما ولم تفهم. من أين هما حقاً؟ هل هما فعلاً العذراء وابنها يسوع المسيح؟

- لقد آمن بهما أهل البندقية منذ قرون ياجيوزيبيا. أترين؟ أفهمت الآن أنك مثل الآخرين؟

- إنها الأم؟

- بالطبع إنها الأم، العذراء السوداء.

- والملائكة أيضاً

لم تكن الأم فابريتي قد لاحظتهم، ولكن هذا صحيح ففي الخلف كان هناك ملاكان بوجهين أسودين.

- أترين ياجيوزيبينا، أنتم خمسة ببشرة سوداء: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة. أما أنا... فإني وحيدة. إنني البيضاء الوحيدة.

ابتسمت لها بخيتة.

- إذاً سأحميكِ!

حاولتا ألا تضحكان بصوت مرتفع في المبنى الروماني المهيب الذي يستقبل هذه المواساة غير المتوقعة.

جاؤوا على عجالة يدفعهم الفضول إلى دير سانتو جيوزيبي دي فيرون لكي يروها. أما هي فقد أغمضت عينيها، وشعرت بالارتجاج بالقرب من أذنيها. كان محدداً وسريعاً في الوقت الذي كان خلاله المقص يمر بشعرها ليسقطه أرضاً. شعرت براحة عميقة ممزوجة بألم كبير. لقد فقدت جزءاً من نفسها، وبعضاً من الحركات والصبر الكبير الذي كانت تتحلى به أمها وهي تضفر شعرها مع اللآلئ التي كانت تزهو بها كثيراً. كانت أمها تجدها جميلة وهي حقاً كذلك، وعندما تحرك رأسها، كانت اللآلئ الصغيرة ترتطم بوجهها فتحب ذلك. تذكرت الأمر وكانت الذكرى واضحةً ونقية لا تشوبها شائبة.

بقيت بلا حراك ثابتةً ومغمضة العينين فلم تر مايراه الآخرون، إذ كان شعرها المجعّد يرفرف في الهواء قبل أن يصل أرضاً فيتأرجح بخفة كالريشة. كانوا ينظرون دون أن يدروا شيئاً عن الكهف، ولا عن الحفرة التي كانت في أعلى الجدار التي حاولت أن توسعها وذلك بحكّ شعرها بالجدار. كان عمرها آنذاك سبعة أعوام وكانت تلك هي بداية سجنها

وبداية الكابوس الذي لا ينتهي. تذكرت أملها المجنون الذي لا يلبث أن يبدأ حتى ينتهي. كان الناس ينظرون إليها وودوا أن يلمسوا هذه الخصلات وأن يأخذوا بعضاً منها ليضعوها في ميدالية لكي يراها أصدقاؤهم بتشاؤم يدّعي الشجاعة، عندها يضحكون وهم يقولون: "المسوا التعويذة!".

فكرت بميميّا التي لم تكن تتمكن من النوم دون أن تلمس شعرها، ولم تكن تعترض عندما كانت الصغيرة تشد شعرها بقوة وهي تستدير في نومها. ذلك لأنه من الجيد أن تكون محبوبة إلى هذا الحد، إلى درجة البقاء مع من نحب إلى آخر الليل. أحست الآن بشيء كرفيف جناح العصافير على جمجمتها. تذكرت ارتطام رأسها بالأرض وعنف سمير ودناسته. أما اليوم فهي مرتبطة. اليوم في الواحد والعشرين من شهر حزيران عام ١٨٩٥ هو اليوم الأول في الصيف كما أنه عيد قلب يسوع. وهي ستقترن بمن لن يتركها أبداً، وبمن سيحبها طالما أن حياة واحدة لن تكفيها فهناك حياة أخرى أبدية وخالية من الانكسارات. اليوم سترتدي ثوب الأخوات الكنسيات الذي يشبه أثواب نساء أهالي المدينة، وهو عبارة عن ثوب بنيّ ووشاح وقلنسوة سوداوين. ذلك لأن الأهالي يرون أن أولئك الراهبات يعشن لكي "يواسين ويعلّمن ويعالجن" الناس الأكثر فقراً. مررت يدها على جمجمتها الخالية من الشعر ولم تكن تملك مرآةً. لم تر نفسها ولكن جميع الحاضرين رأوها وعرفوها. كانت بشعرها المجعد تشبه العبيد الذين تُلتقط لهم الصور في الجريدة أو الذين يُرسمون في كتب المستكشفين والعلماء والمبعوثين والأطباء. هم يتخيلونها والمذراة في رقبتها والسلسلة في قدمها،

فيبكون شفقةً عليها، وبعضهم يشعر بقليل من الخجل غير المفهوم. لكنهم جميعاً لديهم العزاء نفسه وهو أنهم لاينتمون إلى "هذا العرق".

بعد ذلك سترتدي ثيابها، وتصفف شعرها كبقية النساء المتدينات. وستتلو نذورها الأولى وسترتدي عباءة التوبة. سيتم الأمر في المنزل الأم وهو عبارة عن كنيسة كبيرة من الذهب والرخام. كانت تفضل المصلى الصغير في دورسودورو، ولكنها أطاعت الأمر بخشوع من هي جاهزة لكل التضحيات وتتمناها، حتى في السر، أن تكون دليلاً على التزامها الذي لا يضعف. بعد تلاوة نذور الفقر والطاعة والعفة، أصبحت تسمى "الأخت جيوزيبينا بخيتة" وحصلت على ميدالية نظام بنات الإحسان الكنسية ذات العلامة م.د التي تدل على *الأم المتألمة*. قُبلت في أخوية أولئك اللواتي يستقبلن الأطفال المهملين والضائعين.

لدى عودتها إلى فينيسيا تدافع السكان إلى الدير ليركعوا عند قدميها ويقبّلوا ميداليتها، وليطلبوا منها أن تصلي من أجلهم. لم يعد أحد يناديها "لاموريتا" ولا "السوداء" بل أصبحوا ينادونها ب"الأخت جيوزيبينا". أما بالنسبة إلى أهالي المدينة؛ فهي ستبقى حتى موتها *الأم لاموريتا*. الأم السوداء الشبيهة والمختلفة، المقبولة والمعزولة في الوقت نفسه.

بعد ثلاث سنوات من ارتدائها العباءة، أي بعد أكثر من ثلاثين عاماً، كانت لاتزال لا تعرف الكتابة وتقرأ بصعوبة بالغة، لكنها أصبحت تتكلم اللهجة الفينيسية بشكل أفضل قليلاً. أصبحت تطرز وتصلي وتطيع الأوامر، وتحب هذا الإطار المطمئن وتلك الأيام التي تمر متشابهةً بإيقاعها بين الصلوات والسهر والتسابيح الصباحية، وصلاة الساعة السادسة

وصلوات المساء وصلوات النوم. أحبت من بين كل التسابيح صلوات الفجر. لم تمر قط من خلف الستارة المخملية السوداء دون أن تسترجع ذكرى ذلك الصباح عندما تسللت حافية القدمين على عتبة غرفتها لتراقب مرور الراهبات وخوفها من الأمر آنذاك. إلا أنها كانت سعيدة فقد كانت ميميّا نائمة في سريرها، ولن تعود لتختبر هذه السعادة في حياة مشتركة مع طفلة تكتشف العالم وتدفعها للاستكشاف معها. لقد انتهى الأمر ولم تعد تحمل الصغيرة على كتفها وتغني لها لكي تضع يدها على حلقها وتشعر بالاهتزاز. ولم تعد تراقب معها ظهور النجمة الأولى وولادة القمر، ولم تعد تشاركها لهجتهما بتعقيدها وبحميميتهما الفريدة من نوعها. لقد انتهى الأمر فلم تعد تشعر بحرارة يد الصغيرة على بشرتها وفي يدها، ولم تعد ترى نظرتها التي تقول: "أنتظر منك كل شيء". لقد انتهى الأمر؛ فهي في المكان الذي ترغب في التواجد فيه ولقد حاربت لكي تصبح الامرأة المتدينة التي هي الآن. لن يصبح أحد بعد الآن طفلها، ولن يحل أحد مكان تلك الصغيرة.

إنها هي التي أصبحت على مر السنين ابنة الأم فابريتي؛ فهي امرأة متدينة ومسنّة وفرحة دوماً كما لو أن هذا الكون يسليها بحركته المغرورة والضالّة. حافظتا على عادتهما *بالمرور* في نزهتهما المسائية على طول رصيف الميناء، وقد أصبحتا تمشيان بشكل أبطأ وأصبحت الأم فابريتي تستند إلى ذراع بخيتة التي كانت تفكرفي توءمها تمشي التي كانت تمشي في هذه الأثناء مع أمهما التي أمست عجوزاً. كانتا تتحدثان قليلاً وتشاهدان نور النهار وهو يخبو، والجزر الصغيرة التي يبتلعها البحر وحركة البحّارة، فتشدان على

أيدي بعضهما بحنان سريع. أحياناً كانت تطلب الأم فابريتي من بخيتة أن تتذكر، فهي الآن تملك المزيد من المفردات وأصبحت حياتها أكثر هدوءاً. كانت تطرح عليها الأسئلة فتعود الذكريات تلوح لبخيتة على نحو عنيف للغاية حتى إنها تبدو ذكريات لا تخصّها، إلى جانب ذكريات أخرى تتعرف إليها لكن لا تجرؤ على البوح بها بدافع من خجلها ومن خوفها من أن تصدم الأم؛ هذه السيدة العجوز الإيطالية المنحدرة من عائلة ميسورة. إنها تتردد بالبوح لهذه المرأة المتدينة التي وهبت حياتها للآخرينح بما كانوا يفعلون بالعبيد في ذلك المكان. إلا أنه رغم الألم الذي تعانيه لدى استرجاع صور الصلب، فإنه من الجيد إخبار الأمر لهذه التي تحب ما عاشته. كانت الأم فابريتي تترك مجالاً للحظات الصمت بالعبور محملةً بالدموع وبالعبارات غير المفهومة، فتستمع بحبّ مليء بالعاطفة. وعندما تقول "عزيزتي..." كانت بخيتة تعلم أن الأمر انتهى، وأنه حان وقت العودة وأنها ستعود لتصلي وتنام لتنهض من جديد لكي تصلي، لا لكي تصرخ ليلاً وهي تسترجع الذكريات اللاإنسانية.

كانت تربطهما علاقة أم بابنتها وكانت تلك أوقاتاً سعيدة. ولكن السلطات الكهنوتية اعتبرت - في ظل هذه الظروف - أنه من السهل جداً تنفيذ الأمر. فإيمان الأخت جيوزيبينا يسيل من المصدر وقد تم منحها كل شيء، وحان الوقت لرؤية ما تحمله حقاً في قلبها، وحان الوقت للشعور به. ذات مساء بعد تلاوة الصلوات المسائية أخبروها أن الأمر انتهى؛ وأن هذا المنزل الذي عاشت فيه ثلاثة عشر عاماً سبعة منهم كإمرأة متدينة، لن يعود منزلها. أخبروها أنه حان الوقت لتودع الأم فابريتي في اليوم التالي، ولن تجد

الوقت حتى للقيام معها *بالنزهة مشياً*. تم الأمر صباحاً في قاعة الاستقبال وسط الجميع ودون أي تفصيل أو انتظار. كانتا مذهولتين ولا تصدقان ما يجري؛ فودّعت كل منها الأخرى دون أن تظهرا أي نوع من الضعف أو التعلق. لقد منحتا الربّ هذا الانتزاع الخالي من الدموع ومن التمرد، فهو السيد الذي يطالب بحبّ لا مشاركة فيه.

في منتصف النهار تقريباً صعدت الأخت جيوزيبينا إلى القارب الصغير الذي سيقلّها إلى المحطة، ومنها ستتوجه نحو مدينة لا تعرف اسمها.

التقت بحياتها السابقة وبأسلافها وبكل *المنبوذين* من نوعها، وبالعبيد الخالدين ذوي البشرة السوداء على الدوام. كانت تحمل في داخلها هذه اللعنة والانبهار بكل ما يتخيلونه عنها وما ليست هي عليه. سببت الخوف للأطفال والقرف للعجائز، وجذبت انتباه الرجال كأنها حيوان يحبون ترويضه لاختبار قوته واكتشاف تفوقه. كانت جالسةً بصمت فقد طُلب منها الالتزام بالصمت وبإخفاء صوتها على وجه الخصوص، فهم سيكتشفونه، لاحقاً وسيخافون منه ويقلدونه فيما بينهم. أما الآن، ولقرون وقرون، ظلت جالسة لساعات والألم يعتصر فخذها المجروح ورجلها المقيدة بشبح السلسلة. هي نفسها ليست سوى طيف بصورة مسروقة. لم تكن تنظر إليهم إذ كانت تنظر أرضاً وتسمعهم، هناك رجل من البندقية يتكلم بلهجة جديدة أكثر ثقلاً واختصاراً وحدّةً؛ وبطريقة تعطي انطباعاً أنه يُدين أمراً ما. كانت جالسة وهم واقفون، حتى الأطفال كانوا يقفون فوق رأسها. أما النساء العجائز فيقفن منحنيات ووجوههن بمستوى وجهها ويرسمن إشارة الصليب وهن مكشرات وعازمات على القيام بطقوس من

شأنها أن تطرد الأرواح الشريرة لدى العودة إلى بيوتهنّ. إضافةً إلى تضحيات بالسر كي لا يسخر منهن الجيل الجديد ولكيلا يزعجن تضرعاتهنّ. كانت جالسةً وهي تحمل خوفهم وجهلهم، في حين أنها منحتهم الفرح بتجمعهم وبمشاركتهم إنزعاجهم مرة واحدة فقط. جميعهم من أناس مقهورين وعمال منذ الطفولة ومرضى ومصابين بالكساح ومستغَلين من قبل أسياد عملهم الذين لن يروهم أبداً، وحاملي أطفال سيموتون بسن صغيرة أو سيهربون إلى أمريكا، ومن أناس أميين في مجملهم وأولاد غير شرعيين سيتم إرسالهم قريباً إلى المدرسة الداخلية، ومن متمردين سيتم إلحاقهم بالخدمة العسكرية، ومن البرجوازية الصغيرة الخائفة، ومن أصحاب المتاجر المديونين والرعاة الأكثر توحشاً من قطعانهم، والفلاحين الأكثر جوعاً من كلابهم، جميعهم كانوا يراقبونها ويرثون لحالها. الأمر أفضل لهم من عيد الحصاد وعيد القديس جان والمواكب، وأفضل من المسرح والعزف على المزامير والرقصات، وأفضل من تمثال السيدة العذراء المحمول في الطرقات وسط الصراخ والبكاء الصاخب. إنها علاج مشترك وصلاة بلا كلمات وضحكة تجمعهم. كانوا يحبسون ضحكتهم أمام هذه الزنجية التي ترتدي ثوباً كإمرأة متدينة، هذه الزنجية هي حقاً امرأة متدينة. شعروا بأنهم يرتكبون خطيئة كبرى كونهم يجدون ما يضحكهم أمامها. ومن يعلم، لو أنها عزمت على لعنهم أو على تسليط غضب الشيطان عليهم؟ ولكن مم صنعت؟ هل أتت من بطن امرأة؟ ماذا تشبه هذه الامرأة؟ هل هي بشرية بالكامل من رأسها إلى أخمص قدميها... أم أن؟ هنالك أفكاراً من الأفضل طردها، ورؤى من السيئ امتلاكها، لذا فقد ركع

بعضهم للصلاة أمام كل ما يعتريهم في داخلهم من مشاعر خطيرة وعنيفة إزاء هذه الامرأة السوداء الجالسة في باحة الدير. مر يومان وهي عرضة للأنظار، وبعض الناس أتوا مرتين لكي يعتادوا أو يقللوا من خوفهم منها، إذ أن راهبات الدير قد شرحن لهم أن "الاعتياد يقلل من الخوف". برغم ذلك لم ير أحد عينيها وكان من الصعب تمييز ملامحها. أحياناً كانت الأم العليا تقترب وتتحدث إليها في أذنها فترفع السوداء رأسها ببطء، فيطلق الحضور صرخةً طويلة يملؤها الرعب المتحفّظ. كانت عيناها تسبحان ببياض بالغ النقاء حتى إنه قيل أنه مأخوذ من وشاح السيدة العذراء. رماها طفل بقليل من الماء فتلقى صفعةً، فبكى بصوت مرتفع، هو يريد فقط أن يرى إن كان لونها سيُمحى بفعل الماء؟ أنبوه لكنهم فهموه، هل هذا اللون يُمحى؟ هي لا تعرف الكلام، ولكن هل تعرف البكاء؟ وماذا إن بكت؟ يا للمسيح الرحيم، إن هذه الامرأة هناك، بإمكان الراهبات أن يعرضنها للملأ وقتاً أطول وأطول حتى إن الناس لن يفهموا من الأمر شيئاً! فسرعان ما ستسبب رؤياها الضيق لهم. لقد كانوا أكثر هدوءاً قبل ذلك، هل من الضروري حدوث هذا هنا؟ بعد ذلك رحلوا خائبين بمرارة ترتعد أجسامهم بأكملها من الرعب الذي كانوا قد نسوه بأحاسيسه الأكثر دقةً.

عندما انتهى الأمر، كانت متألمة الجسد ومذهولة الروح. ركضت بكل استطاعتها وهي تعرج أكثر من المعتاد وصولاً إلى غرفتها الصغيرة لتمضي فيها وقتاً من الدهشة ولتبكي. بكت حتى اهتزّ جسدها لشدة الألم الغاضب، بكت بنواح حادّ كالحيوان الكامن داخلها. لو كان شعرها موجوداً لكانت شدته بقوة، ولو أنها لم تتمالك نفسها لكانت خمشت وجهها.

كانت على حافة الجنون لأنها تدرك أن عليها أن تلتقي كل يوم بهؤلاء الناس جميعاً، وعليها أن تعرفهم وتحبهم حتى، فهي هنا من أجل هذا. هي هنا لكي تنسى الأم فابريتي، وتنفتح على هؤلاء الناس سكان مدينة لم تتمكن بعد من حفظ اسمها، وهو اسم مختصر شبيه بأفعى تمرّ لأمر ما وبلا رحمة.

فُتح باب غرفتها الصغيرة، وضعت الأم العليا يدها على كتفها، وطلبت إليها أن تتعقل فهي مضطرة لعرضها على الملأ لكي تنهي هذا الكابوس. منذ وصولها إلى الدير انقلبت الحياة الرتيبة رأساً على عقب ولم يعد بالإمكان العمل ولا الصلاة، ولم يعد التلاميذ يرغبون في حضور الدروس. لقد ظهرت على الملأ مرة واحدة كانت كافية عن كل المرات، أليس ذلك أفضل من سماعها صراخ الآخرين كلما قابلها أحد؟ هل يمكن أن تفهم أنها تسبب الفزع للراهبات الصغيرات اللواتي لم يرين زنجيةً من قبل، وأنهنّ لا يجرؤن على لمس باب لمسته قبلهنّ خوفاً من تلطيخ أنفسهنّ، ولم يعدن يجرؤن على النهوض ليلاً خوفاً من الارتطام بها؟ أما الأخت المسؤولة عن البياضات، أليس من الطبيعي أن ترفض الاهتمام ببياضاتها؟ كيف يمكنها أن تتكهن أنها لم تلطخهم بسوادها؟

كانت منهكةً وأرادت الخلود للنوم لتحلم أنها في مكان آخر لا يسمع فيه شيء عنها. أرادت أن تحلم أنها أمة بين الإماء، أنها السوداء الممتزجة بقوافل الصحراء، الفتاة الصغيرة التي خُطفت ثم رميت، اللامرئية والمنسية، تلك التي لا تساوي شيئاً ولا حتى كيس ذرة. شعرت بعد ذلك بالخجل الشديد من هذا الشعور الشبيه بالموت. فكرت بالعبد يسوع المسيح، ألم يعان هو أيضاً من بصاق وضحكات الجموع؟ هي لا تريد

مقارنة حياتها بحياته، فهي لا تساوي شيئاً. أما هو فيساوي كل شيء. إنها ترغب ببساطة أن تتمدد قليلاً، وأن يقوم هو بحمايتها. بعد ذلك ستصلي له وستمجّده، في هذه الليلة بالذات. مر وقت طويل وهي تشعر بألا أحد يحبها.

حلمت بالنار وببيناه التي تؤلمها أسنانها بشكل فظيع. كان وجهها ممرغاً بالأرض، ولا ترغب في إخراجه. نادتها بخيتة قائلةً إنه يجب أن ترحل؛ فالنار على وشك الوصول إليهما، عليها أن تأتي معها، إلا أن أسنانها تؤلمها كثيراً. نادتها بخيتة كثيراً؛ ولكن بيناه تحولت بشكل غريب إلى الصغيرة يابت الميتة تحت التعذيب بالوشم. كانت حبيسة لدى الواشمة يمسكها عبد بينما كانت بخيتة راكعةً بالقرب منها، وتقدم لها الطعام لتأكل بملعقة كبيرة جداً. كان جسد الصغيرة ينشق وينزف، وبرغم ذلك كانت تأكل بهدوء فاتحةً فمها كلما قدمت لها الملعقة. بعد ذلك بقليل انفصل رأسها عن جسمها واستمرت بالأكل. صرخت بخيتة واستيقظت غارقةً بالعرق، ونظرت مباشرةً إلى نفسها لترى إن كانت قد لطخت الشراشف. تمنت ألا يكون صراخها قد أيقظ أحداً، فهم بالأصل يخشونها كثيراً، ما الذي سيظنونه عنها؟ نهضت وفتحت النافذة. كانت ليلة من الخريف مظلمة بهواء نقي. كانت الجبال تحيط بمدينة (شيو) وتحفها الرياح والأنهار. أما لسعة البرد فكانت تأتي من المياه بشكل نقي وسريع. سمعت أجراس الدواب وهي ترعى. ومن البعيد سمعت صوت نباح قصير ثم خيم الصمت على كل شيء من جديد. بحثت عن القمر والنجوم. أرادت رؤية نجمة، نجمة واحدة فقط، ولكنها كانت ليلة ضبابية تغطيها النجوم البطيئة

المسير. هبت الرياح بلطف على أشجار الباحة كأشجار السرو الثابتة. أما شجرة الكستناء فقد أصدرت صوتاً يشبه حفيف القماش. إنها تحب هذا الصوت الشبيه بصوت أشجار النخيل وسط الرياح الدافئة التي كانت تهب في السودان. انزاحت غيمة شاحبة عن السماء، فجعلت الليل أكثر نقاءً. كانت النجوم صغيرةً كرؤوس الدبابيس. تؤمن بخيتة أن (البارون) قد خلق الليل لراحة البشر والحيوانات وأيضاً من أجل لا شيء، من أجل الجمال. رفعت كمّها ومدت ذراعها من النافذة وحركتها بلطف وحاولت جاهدة رؤيتها. ربما هي المرة الأولى. كان جسدها خافياً عنها، لم يعد جسدها ملكاً لها؛ فهو يحمل ندوباً عميقة بسبب السياط والوشوم التي اختارتها السيدتان التركيتان، وانتفاخات بشعة كالأفاعي المتصالبة وهي تخاف كثيراً من الأفاعي. إنها تشعر بها تتمدد وتتمزق عندما تتقلب وهي نائمة أو عندما تركع، فترى أنياباً تحاول النيل منها. كانت ذراعها تشبه الليل إذ يمكن لنجمة أن تحط على قبضتها كعصفور. أرادت أن تنسى كابوسها، أن تنسى بيناه والصغيرة يابت وتنسى النيران. ولكن ما إن فتحت رئتيها لهواء الليل، حتى فهمت أنها قد أخطأت، ليس عليها أن تهرب من أحلامها بل عليها أن تستمع إليها. بيناه بعيدة وهي حرة، لماذا؟

فهمت الرسالة الموجودة في كابوسها مع بيناه والصغيرة المتضورة جوعاً يابت أثناء صلوات فترة الفجر التي تحبها كثيراً. أنشدت ترتيلة زكريا: "العهد المقطوع على أبينا إبراهيم بأن يجعلنا بلا خوف فبتجردنا من خشية أعدائنا، نحن بخدمته..." أربكتها كثيراً هذه الكلمات فلم تتمكن من متابعة الترنيمة. بقيت واقفة ومأخوذة بالوحي. فإن أرادت أن تخدم

(البارون) ليس عليها أن تخاف. لقد وضعها هنا وسط كل هؤلاء الذين راقبوها بفضول مليئ بالريبة. "هذا ما يسمى بالعبد"، هذا ما قالته بيناه. باسم كل أولئك الذين كبرت بخيتة معهم، باسم كل أولئك الذين شهدت بخيتة ولادتهم وعذابهم وموتهم، إنه الوقت لكي تذهب أخيراً إلى الشعب بلا خوف.

طلبت إشعال النار قبل وصول التلاميذ. قالت إنها تحب ذلك، تحب أن تذهب لتحضر الخشب عند شروق الشمس، وتود أن تحضّر المواقد في صالات الدرس. تظن أنها بذلك سترى الصباح وأحياناً بعد ساعات من المشي سترى التلاميذ وهم تلاميذ مرحلة الحضانة، وسترى الصفوف الصغيرة. ستساعدهم على تجفيف ملابسهم المجمدة حول الموقد، وعلى الجلوس قبل وصول المعلّمة. ولكن قيل لها إن مكانها ليس هناك فهي مخصصة للمطابخ الموجودة في القبو. حتى وإن أرادت إشعال النار فهناك ما تفعله؛ في المطبخ يوجد ثلاثة أفران خشبية وموقد رئيسي. عليها أن تحضر يومياً أكثر من مئتي وجبة لليتامى ولأطفال الحضانة ولصفوف الابتدائية وللمعلمات والراهبات. إنها تعمل تحت إدارة الأخت الطاهية ومع يتيمتين بعمر الخمسة عشر عاماً. إنه عمل لا يتوقف أبداً، يبدأ من الفجر، وينتهي عندما ينام الجميع. تعمل بجدية كبيرة في تحضير الوجبات، وتكرس نفسها بكثير من الخشوع والعناية لدرجة أنهن يهزأن قائلات: "الأم موريتا يبدو عليها دوماً وكأنها في الكنيسة!". هن يسخرن منها ويحسدنها بعض الشيء. تبتسم السوداء وهي توقد الأفران وتقشر البطاطا، وتجفّ المقالي وتفرك الأرضية وتحمل الطناجر. تعمل كما لو أن حياتها تتعلق بهذا العمل. بالتأكيد

هو الفرح الزنجي الذي تتكلم عنه الصحف، فهم أناس اعتادوا العمل والطاعة، إنه شعب لا يثور.

هم لا يعلمون أنها تفهم ما يقولون، وأنها تملك صبر الكائنات المحميّة. هم لا يشكّون ما يعتريها من فرح في تحضير الأطباق ليتيمات الدير ولبنات الفلاحين اللواتي يأتين من بعيد على دفعات، ولا يساعدن في أعمال الحقول. لو كان بإمكانها إطعام شخص جائع فقط، لعملت حتى في الليل ولمنحته وقت راحتها وساعات نومها كلها. عندما رأتها الطاهية الأولى وهي تدفئ الأطباق الخاصة بالصغار لكي يتناولوها ساخنة، وتحضر أطباقاً خاصة بالمرضى، وتضاعف كمية الطعام في أغلب الأحيان، حذرتها قائلةً: "هذا كثير أيتها الأم موريتا! لا يحتاج الأطفال لتناول كل هذا الطعام".

هذا خطأ، فالأطفال بحاجة لتناول الكثير من الطعام لكنهم لا يقولون ذلك. الأطفال جوعى ولا أحد يشك في ذلك. هي تعلم ذلك، تعلم أن الأطفال لم يعتادوا على تناول الكثير من الطعام، أو على طلبه. تعلم أن تغذية طفل بائس يلزمها وقت طويل. ستجد طريقة لتقريبهما، فهي تعمل بسرعة وبمهارة وتكسب بضع دقائق لتصعد من القبو، ولتذهب إلى قاعة الطعام وأحياناً إلى غرفة التمريض، فتمرر كسرة خبز أو قطعة جبن في جيوب الأطفال. تنزل إلى مستوى طولهم لتكلمهم. كان الأطفال الأصغر سناً ينادونها "الأم موريتا"، "الأم موليتا" أو حتى "مويتا الحلوة" وسريعاً ما يبحثون عنها، ويطالبون بها وهم يدقون بقبضاتهم على الطاولة منادين باسمها. تأتي وتؤنّبهم على الضجة التي أصدروها. إنها تتمتع بلطافة وبسلطة هادئة وسريعة جداً. تحولت لأكثر من مجرد مساعدة طباخة؛ بل

أصبحت شخصاً يحتاجه الجميع. لقد أحبوها للأسباب نفسها التي جعلتهم سابقاً يرفضونها. فاختلافها مطمئن. مَن مِن بين هؤلاء الأطفال والمراهقين يشعر بأنه مكانها؟ من ليس مهدداً؟ إن (شيو) مدينة مزدهرة بمن يعمل بالغزْل (كازولا) خاصة بصناعة الأقمشة الفاخرة. يسمى المعمل الضخم الذي يقتات منه أهل المدينة: معمل الغزل لانيروسي. ولكن ماذا بالنسبة للآخرين؟ العمل في معمل لانيروسي يجعل المرء محمياً فهو بذلك يملك عملاً ويعيش في القرية العاملة، ويضع أطفاله في مدرسة المصنع، ويتلقى الرعاية الطبية ويذهب إلى مدرسة الكبار وإلى المسرح، ويحظى بفرصة الدخول إلى نادي القراءة. أما الآخرون؟ أن تكون "عاملاً لدى لانيروسي" يجعلك تفخر بأنك جزء من المصنع وتشارك في تألق المدينة وبتوحيد البندقية وإيطاليا. أن تكون "من لانيروسي" يعني أن تكون مثالاً حياً على ما تقدمه إيطاليا الموحدة للشعب المريض والمخبول من تعليم وثقافة. جميع العاملين في لانيروسي من رجال ونساء وأطفال يعرفون القراءة والكتابة، ومتعلمون ويصدّر عملهم إلى أوروبا بأكملها. يكفي أن تكون عاملاً لدى لانيروسي لتكون محظوظاً، ويجب بالطبع أن تخضع لساعات العمل وللنظام وألا تعترض على الأجر، كما أنه لا يجب أبداً أن تمرض أو أن تجرح نفسك. ذلك لأن الخروج من المصنع وتركه يعني أن تترك البلد وترسل أجرك وأكاذيبك لأسرتك التي لن تراها بعد اليوم ولبلدك التي سرعان ما ستنساك. في مرتفعات مدينة (شيو) توجد المدينة التي ولدت على صناعة الأقمشة الفاخرة وازدهرت بهذه الصناعة وافتخرت بها. أما في الأسفل فهناك الجانب الآخر من المدينة حيث يعيش الفلاحون والعاملون في المنازل

وأصحاب المتاجر الصغيرة، وموظفو البلديات والنساء الوحيدات والعجائز والأطفال.

وجد الأطفال أنفسهم في الأم موريتا، فهم مثلها فهموا أنفسهم بلهجة قليلة الكلمات. وهم مثلها يبحثون عن مكان لهم، ويراقبون العالم من حولهم والمكان الذي وُضعوا فيه سواءً في الدير أم في الحقول، أم في أماكن الرعي، أم في المدرسة بوجود الأسرة أو في غيابها. استمرت مويتا الحلوة على مر الأشهر بالصعود من القبو خارجةً من المطبخ لتلقاهم في الباحة. كانت تروي لهم قصصاً عن فتاة صغيرة تنام فوق الأشجار، وعن حيوان ضار يريد التهامها. كما روت لهم قصصاً بنهايات سعيدة، وقصصاً حقيقية ترويها وهي تشير بيديها مع طريقتها تلك بالنظر، ترافقه برهات من الصمت وهي تشبك عينيها بعينيك فتمتزج النظرات كالقبلات. كان الأطفال يتحلقون حولها في الباحة مفترشين الأرض على غرارها، فهي لا ترغب في الجلوس على مقعد. فكان من المضحك رؤية امرأة متدينة توسخ ثيابها بجلوسها على الأرض. قبل رحيلهم، كانوا يطلبون منها أن تمسك بيد كل منهم وتقول له: "لن أترك يدك مطلقاً". بعد ذلك، كانت تنهض وهي مكشرة بسبب ألمها في فخذها، ثم تربّت على أيديهم فينتشر الأطفال، بعضهم يشعر بدوار، وبعضهم مازال يحلم، وبعضهم الآخر سرعان ما يعود إليها، ويرمي نفسه بين قدميها ليرحل من جديد. فتضع يدها على رؤوسهم؛ فهذا كل ما تتمناه. تعلم مالا يستطيعون قوله، إنها تتكهن بالأمراض وبالفقر وبالخجل من الفقر. هي تملك دوماً خيطاً وإبرةً في جيبها فتخيط بلطف التمزقات والجيوب المثقوبة، وترى الرضوض الزرقاء التي يخفونها، وتتكهن

بالصعوبة التي يجدونها لكي يقفوا ويمشوا ويرفضوا اللعب. إنها ليست بالغة كالآخرين؛ فهي لا تعلّم شيئاً ولا حتى قواعد الصحة العامة، ولا التعليم المسيحي ولا القراءة ولا الحساب. لكن هي التي تأتي باحثةً عمّن تطعمه من طفل مريض لم يعد يرغب في ابتلاع الطعام، أو تأتي لتواسي ولتحمي صغيرة جرحت نفسها. إنها هي من يناديها الصغار وهم يجتازون الباحة، فترسل لهم إشارات بيدها، وتبتعد عن مسيرهم السريع وهي تعرج قليلاً، فيصرخون ويرسلون لها القبلات التي تتلقاها دون أن تراها. يحبها الأطفال كما نحب أحداً لن يخوننا على الإطلاق. كانت تشعر بالحر وصوتها يخرج بطيئاً وغليظاً. كانت سوداء كليلة عذبة، إنها تلك التي سرعان ما يجدونها وسط الآخرين؛ إنها الفريدة من نوعها، إنها امرأة عظيمة. أما الذين يعودون إلى منازلهم فهم لا يتكلمون عنها، بل يحتفظون لأنفسهم باكتشافهم ل(مويتا الحلوة)، ويصرّون على أسنانهم لدى سؤال أهلهم إن كانت الزنجية قد نظرت إليهم بطريقة سيئة.

إنها تعلم أنه لا يجب عليها التعلّق بأية واحدة من هؤلاء التلميذات اللواتي يتم قبولهنّ ابتداءً من عمر الخامسة. تعلم أنه لا ينبغي التعلّق بأية يتيمة تترعرع في الدير ريثما يحين وقت تعيينها أو زواجها. تعلم أنه لا يجب أن تتعلق بأحد مطلقاً سوى الرب. هذا ما يقولونه لها ولكنها لا تؤمن بذلك، فما تؤمن به هو أنه عليها أن تحب إلى ما بعد حدود قواها. إنها لا تخشى الفراق؛ فهي قد فارقت الكثير من الأشخاص ويملؤها شعور الغياب والوحدة. ما تفعله الآن هو المساعدة في المطابخ ورواية القصص للأطفال؛ وهذا هو السبب المحدد لمجيئها إلى العالم. ما إن تترك المطبخ

والصغار، حتى تذهب إلى الصلاة والخلوة في ملجئها الواقع خلف الكنيسة، المطلّ على باحة الطلاب. تجلس لتسمع من هناك صوت صرخات الأطفال، وتخشع في هذا الموج من الأصوات التي يبتلعها صمت خلوتها كما تبتلع المياه النقية أشعة الشمس. كانت تتحدث إلى (البارون) الذي لا يرفضها إطلاقاً، فهذا الحب دائم إلى الأبد، وهي تجد راحتها في رحابه الواسعة. كان يبدو لها أن قلبها سينفطر فرحاً وألماً. إنها مشدوهة بالعرفان وتجتهد لبذل أفضل ما يمكنها ومنح كل ما يمكنها، من ذاتها. فالقصص التي ترويها للأطفال هي قصص لطفولة مجمّلة إذ أنها حولت مصائبها إلى مغامرات، ويأسها إلى خوف كبير. إلا أن الأمر يصبح مختلفاً عندما تخلد إلى النوم مساء؛ فمن شدة إخلاء ذاكرتها من شريط الذكريات، تتدفق الصور بقوة وبجلاء في ذهنها. أحياناً يؤلمها ذلك فيتصاعد الضيق في داخلها كحرارة تلفّها وتقبض عليها بقوة. يتوجب عليها النهوض ليلاً لكيلا تنجرف في الذعر. هل هذه الذكريات حقيقية؟ إن ما يتهرب منه ذهنها يشهد عليه جسدها. وشيئاً فشيئاً تربط الاثنين ببعضهما وتقبل بما حدث لها، ولا يمكن أن يحدث لأي أحد آخر، ولا في أي حياة سوى حياتها. إنها تقوم ببطء بإعادة بناء أسرتها وقريتها والزمن *الماضي*؛ لكنها لا تجد اسمها. فهو ما يزال قابعاً هناك، كاسم من الصعب لفظه بالإيطالية، ولن يكون سوى تشويه لما كانت أمها وحدها تلفظه. إذاً هي تقبل حتى هذا النسيان الذي لا يمكن قبوله فيصبح خجلها هو سر أمها.

في عام ١٩٠٧، بعد خمسة أعوام من وصولها إلى مدينة شيو وبعد أن عُرضت على الملأ لمدة يومين كحيوان متوحش ولكن مروّض، وبعد أن

عينت كرئيسة للطهاة في الدير، أصبح عمر بخيتة آنذاك ثمانية وثلاثين عاماً. سلمتها الأم العليا مفاتيح المطبخ، وكلفت ثلاث يتيمات في خدمتها وهنّ آنا وإلينا وإلفيرا. سلمتها مفاتيح المطبخ إضافة إلى خزائن المؤونة والقبو والمستودع. كانت حلقة المفاتيح ثقيلة وتعبر عن امتنان كبير. وأخذت كل من آنا وإلينا تنقلان القصص التي يسمعها الآخرون بفضول ممتع.

- خبأت البارحة لاموريتا قمح الذرة! فلم نتمكن من صنع عصيدة الذرة. وطلبت إلينا أن نؤمن وجبة أخرى قائلةً: "بسرعة...ائتوني بفكرة أيتها الفتيات!". ركضنا إلى الحديقة وقطفنا وقشرنا الكثير من الكوسا لدرجة أن أيدينا لاتزال خضراء حتى الآن!

- في يوم ثانٍ كانت تمطر كثيراً، فجعلتنا نضيف كبش القرنفل والبصل إلى كل الأطباق قائلةً: "الأطفال يشعرون بالبرد". فهي تعالج المرض *قبل* وقوعه! *يا إلهي!* وأنا أخذت أبكي طوال النهار بسبب كل هذا البصل!

- آه يا يسوع وماري جوزيف، كونوا رحماء بنا. لا تسخرن من ذلك!

لم تسخر الراهبات واليتيمات من ذلك، بل كن سعيدات بمعرفتهنّ أنهنّ سيأكلن جيداً وأنه لن يكون هناك خداع أو غفلة، وأن الزائرين وأتباع التعليم المسيحي والعائلات ستعجبهم طريقة إدارة مطبخ دير مدينة شيو.

لم تنقل إلفيرا ما يجري في المطبخ، فهي طلبت العمل في المطبخ لتكون بالقرب من لاموريتا. وهي ليست موهوبة بالطبخ، ولا تنوي الخروج من الميتم ولا أن تصبح مدبرة منزل. إنها تحب الرسم والتلوين، ولكنها في

المطبخ تكون برفقة لاموريتا التي تعرفها منذ أن كان عمرها عشرة أعوام وتحبها كثيراً. هي تعمل في هذا القبو المظلم ذي الجدران المغطاة بآثار المسح، في هذا الجو المليء بالعمل وبالعطاء حيث كل يوم من أيامها محميّ. إلفيرا مراهقة طويلة القامة وقوية البنية، ويتناسق جسمها بصعوبة مع رقة وجهها الناعم وبارز التقاطيع، ومع عينيها البنيتين والنابضتين بالحياة ومع شفتيها الشاحبتين. يبدو هذا الوجه كأنه قد أخطأ الجسد أو العكس، هو محميّ من هذه الفتاة الرقيقة ذات الجسد الرياضي. كانت إلفيرا في مرحلة الحضانة هزيلة الجسد غائرة الصدر، نحيلة الأرجل كأعواد القصب. وكانت كثيراً ما تقع حتى إن جروح ركبتيها لا تكاد تلتئم. ومع مرور الزمن ركزت على نفسها لكي تقوي بنيتها. اجتازت الطفولة كحقل ملغّم تمكنت من عبوره. كانت تسمع منذ أن كان عمرها عشرة أعوام بقصص الفتاة الصغيرة التي اختُطفت وقال لها خاطفها: "إن صرخت فسأقتلك" ولم تصرخ. وعرفت قصة الفتاة الصغيرة التي نامت على الشجرة، ونجت من افتراس الحيوانات المتوحشة. وقصة الأمة التي مشت في الصحراء وصعدت على متن السفينة العملاقة بعد أن توسلت للقنصل الإيطالي اللطيف بإحضارها معه إلى البلد الذي ينقذ الإفريقيين. وعلى غرار الأم موريتا، كانت إلفيرا بلا عائلة إذ أن طفولتها كانت عبارة عن حقل بائر، ومن الصعب أن تمزج فيها الذكريات الحقيقية للقصة التي تخترعها. كانت طفولتها موحلة، وتقع في زمن بعيد بصورة مرتجفة كمشهد طبيعي يظهر في عين شبه مغمضة، ومن ثم يختفي. هي تعلم أن أمها لاتزال على قيد الحياة وتوجد في مكان ليس ببعيد؛ في الجانب الآخر من جبال الألب. إنها تنتظرها ربما دون أن تؤمن بمجيئها،

ودون أن ترغب فيه. كتبت لها أمها أنها ستأتي؛ ولكنها لم تفعل يوماً. كانت كل رسالة كحدث مخيب لأملها. لماذا لم تأتِ؟ لماذا تكتب لها؟ هل تتذكر ابنتها حقاً؟

سألتها بخيتة: وأنت هل تتذكرين؟

- أتذكر ما قيل لي. بعد أن هاجرت أمي بفترة قصيرة إلى جنيف، اكتشفت أنها حبلى ولكن المهاجرين لا يحق لهم إنجاب الأطفال. لذا بعد عدة أيام من ولادتها أعطتني إلى جدّيّ اللذين بقيا في القرية. أحضرني جدي إلى (بوسينا) ولم أكن أزن أكثر من خنزير صغير، هذا ما أخبرني به. وكنت شاحبةً كالحليب. أذكر أنه قال ذلك: الخنزير الصغير والحليب، وكثيراً ما أتخيل نفسي كخنزير صغير ملفوف بالشراشف. كان عمري خمسة أعوام عندما توفى جدي وجدتي. وكنت محظوظة جداً.

- محظوظة؟

- لي أم طيبة. فهي أرضعتني ولم تدهن ثدييها بالزيت كما كانت تفعل الأخريات.

- أي زيت؟

- زيت الكافور لكيلا يرضع الطفل. فكثير من النساء المهاجرات يجوّعن أطفالهنّ، ويتوقفن عن فعل ذلك قبيل موتهم. ومن ثم يأخذونهم إلى دور اليتامى.

- إنها تحبك.

- أيتها الأم، أريد أن أعلمك تصريف الأفعال.

- ماذا؟

- أريد أن أعلمك الأزمنة. فأنت لا تستطيعين التكلم دوماً بالزمن الحاضر لأن ما تقولينه ليس صحيحاً.

- بلى، أعتقد أن ما أقوله صحيح.

- كلا، أنت تقولين: إن أمي تحبني. وهذا خطأ كما لو أنك تقولين: "أمك آتية" يجب أن تقولي: "أمك *كانت تحبك*" و "*أمك ستأتي*".

- أمك *ستأتي*. وهي *ستحبك* دوماً. حسناً يجب أن نعمل الآن.

أملت بخيتة على إلفيرا الطلبات، واستبقتها بالكميات؛ فهي تتوقع كل شيء، وأصبح لحياتها الآن نقاط استرشاد جديدة. فنقطة استرشادها الأكثر وضوحاً هي كليمانتينا وأطفالها الذين تسميهم "أبناء أختها". في العام الماضي توفي ستيفانو فجأة. بكت كثيراً هذا الرجل الطيب الذي أرسل إليها بالعناية الإلهية. وقد وفى بوعده؛ فهي الآن تملك أسرة كالآخرين، وتستقبل الزائرين والطرود البريدية، ولديها صور على طاولتها تضعها إلى جانب الصور الدينية والتماثيل الصغيرة التي تمثل العذراء. تعلمت مع إلفيرا كيف تتكلم بصيغة المستقبل والماضي، وهذا ما غير الأحداث فرتبها وصنّفها. ذات يوم أرتها إلفيرا الرسومات التي رسمتها، وتظهر فيها أمة صغيرة نائمة فوق الأشجار. نظرت بصمت إلى هذه الرسومات، إنها هي، كانت تبدو صغيرةً ويبدو عليها المكر والحيلة الواسعة، إلا أنه يبدو عليها أيضاً "الرقة والطيبة".

- كيف عرفت كيف أكون؟

- إنه كيف "كنت"، أيتها الأم، في الماضي!

- كلا، كيف أنا. الآن. على الرسومات، فأنا الآن أتعرف إلى نفسي.

عانقتها إلفيرا من عنقها، وقبلتها على خديها اللذين تفوح منهما رائحة الغسيل. تمنت بخيتة أن تحتضنها ولكن هذا لا يجب فعله. ما من مشاعر أو تفضيل هنا. وبرغم ذلك، فإنها عندما تقول "أمي" تخرج منها الكلمة على نحو مختلف عن باقي الأخوات.

- سأجلب لك غداً رسومات أخرى. سأرسم الفتاة الصغيرة التي ترعى الخراف.

- ترعى البقر وليس الخراف.

- الخراف أو البقر، هذا لا يهم. ما يهمني هو أنت.

- ولكن بالنسبة إليّ، إنها الأبقار. هذا أصعب. ولكني لا أحب الخراف، وقد أخبرتك يوماً ما السبب.

أخذت قصص بخيتة تتردد وتنتشر بين الجماعة فبدت كأنها تكبر وتبتعد عنها. فاتخذت شكلاً معقداً وبشرياً مثلهم تماماً.

كان المطبخ مملكتها الخاصة التي تفتخر بها. فنهوضها كل يوم لإطعام الأطفال يخفف من شعورها بالذنب كونها نجت وابتعدت عن الآخرين. ذات صباح، أخبرتها الأم العليا مارغيريتا بونوتو أن الأمر انتهى، وأنها لن تعمل في المطابخ بعد اليوم. شعرت كأن هناك من عرقلها فوقعت ببطء، وتساءلت أين ستضع الآن حبها وفرحها؟

- إني أعيّنك أيتها الأم جيوزيبينا في خدمة الكنيسة. أتفهمين ما يعني ذلك؟

- أجل، أيتها الأم، أشكرك.

- أن تكوني في خدمة الكنيسة هو منصب أعلى من العمل طاهية. ستهتمين بطعام الرجال. الآن ستكونين أنت من يحضّر الوجبات في منزل السينيور. ستحضّرين الخبز والنبيذ للقربان المقدّس.

- شكراً أيتها الأم.

- لا يبدو أنك سعيدة جداً.

- بل أنا سعيدة.

- بالطبع سيكون علينا أن نعتاد تناول طعام أقل جودة. ولكن علينا أن نقدم للسينيور هذه التضحية الصغيرة. أتعيدين لي المفاتيح؛ أيتها الأم جيوزيبينا؟

ارتعشت يداها فأصدرت حلقة المفاتيح صوت رنين المعدن الذي لا تحبه. لامت نفسها على خوضها هذا التغيير في مكان العمل الذي كان أشبه بفراق آخر لها. إن عملها في خدمة الكنيسة يشكل شرفاً لها ومسؤولية كبيرة على عاتقها. هي تعلم هذا. أعادت مفاتيح المطبخ، وأصبحت تائهة ومجروحة.

- سأذهب وأسلمها إلى الطباخة الأولى وسأعود بعد ساعة لأعطيك المفاتيح الأخرى الجديدة. ساعة واحدة، أتفهمين ما يعني ذلك؟

نظرت من النافذة إلى ظل شجرة الكستناء في الباحة، وأجابت:

- نعم، بعد ساعة... سأكون هنا أيتها الأم.

ثم انحنت ورحلت بخطاها البطيئة محتفظة بعادتها بالمشي بمحاذاة الجدران لكي يراها عدد أقل من الناس تجنباً لإخافتهم. جلست على مقعد في الممر، واستمعت للأطفال وهم يتلون الصلاة قبل بدء الدرس. هم يتعلمون باللغة الإيطالية وهي لغة كل الكتب، وينبغي عليهم نسيان لهجتهم أيضاً. إنها تعلم كم من الصعب التفكير في هدوء أثناء التكلم بلغة تهرب من الذاكرة أسرع من مياه الفيضان! رددت في نفسها: إنها تخضع لإرادة البارون. كما رددت في نفسها: إنها نجت وإنها ابنة الرب السعيدة، ورددت أيضاً إنهم منحوها أمراً مشرّفاً. لا تدري أين يمكن أن تخبئ حزنها اللاعقلاني. يقولون إنها ستبلغ الأربعين من عمرها، وهاهي تبكي أمام الصف. نظرت إلى يديها المنقعدتين، وشعرت بأنها وحيدة مع أنه لا يحق لها بذلك. نهضت واتجهت إلى حجرتها محاولة المشي بشكل مستقيم قدر المستطاع، رافعة رأسها و هي تعض على شفتيها، وتصدر بتنفسها صوتاً عالياً. الأمر الذي واساها هو أنها لم تلتقِ بأحد؛ لا في الممرات ولا على الدرج. ذهبت لتعيش بعيداً عن الآخرين، هذا الألم الثقيل الذي تعلم أنه لن يهدأ سوى ببكاء أكثر حدة من المعتاد. "عندما نكون تعساء نشعر دوماً بأن هذا سيدوم إلى الأبد، ألا توافقينني أيتها الأم؟" وجدت صعوبةً في فهم معنى هذه الجملة التي قالتها إلفيرا. فكرت بها مطولاً وقالت: إنها لا توافقها الرأي؛ فهي عندما تكون تعيسةً تشعر بأنها تعود إلى مكان لآخر، لمكان تركت فيه أحداً تريد أن تأخذه معها، ولكنه لا يأتي. تمنت أن تضيف أنها عندما تكون سعيدةً تشعر بأن ذلك سيدوم إلى الأبد؛ لكنها ارتبكت

واكتفت بالقول: "عندما نكون تعساء ينبغي علينا أن نفعل شيئاً وحسب. يجب أن نثق بشيء".

سيكون من الصعب عليها أن تتوقف عن إطعام الأطفال وعن لقياهم في الباحة، وعن علاجهم ومواساتهم وعن رواية القصص لهم. إن اسمها مرتبط بهم، بقبلاتهم وبضحكاتهم وبهذه الحميمية التي تنشر الكثير من الخير في هذه الحياة الخاصة بامرأة متدينة تعيش في جو من التحفظ والاحترام الحذر. يبدو لها العمل في خدمة الكنيسة غير واقعي وواسع المجال. إذ عليها أن تحضّر منزل السيد. وهي من ينبغي عليها أن تفتح أبواب الكنيسة كل يوم، وأن تحضر المكاتب والملابس الكنسيّة، والكتب والأدوات الطقسية والمزهريات المقدسة، والكؤوس وحقّة القربان والشعاعات والعروض، وأجران المياه المقدسة والمنصّات. وهي من ستهتم فيما إن كان هناك من خبز مقدس ونبيذ، إضافةً إلى الفحم والوقود والشموع والشمعدانات والكبريت والأباريق. وسيتعين عليها أن تحفظ غيباً الطقوس وترتيبها. ستكون حارسة معبد (البارون)، الخادمة.

إنها تحب المشي في المدينة، تحب الذهاب وحيدةً وهو أمر استثنائي لامرأة كنسيّة. إلا أن الفرصة تتاح أمامها وهي وحيدة بالمشي ببطء بسبب الألم في رجليها. وتتمكن بمشيها البطيء أن ترى بشكل أفضل، وتراقب خيالها الطويل المستند إلى شمسيتها المطويّة. إنها تتجول في (شيو) وكأنها تمشي في حديقة. لا تتكلم أبداً عن آلامها الجسدية، فعملها دقيق وبلا ثغرات، فهي تعمل بشغف في خدمة الكنيسة. لا أحد يشك في أن ركبتيها شعلتان مركبتان على رجليها حتى إنها تجد صعوبة في المشي، وفي الركوع وفي

النهوض، وأنها تستيقظ كل ليلة بسبب الألم الذي يسري تحت جلدها ويأكل عظامها. كانت تمشي على الأرضيات منفصلة القطع في مدينة (شيو)، مطرقةً برأسها والناس تمر من جنبها بهيجانها غير المنتظم، وبصخب الأطفال الذين يلعبون وسط البغال والكلاب والعربات والدراجات والباعة والماء الملوث والفضلات. هناك أطفال كثر، مثل أطفال قريتها، ما إن يتمكنوا من المشي حتى يصبحوا مسؤولين عن الأطفال المولودين من بعدهم. نظرت إلى الجدران الصفراء والزهرية للمنازل المتلاصقة، وشعرت بالرطوبة في الباحات المزدحمة. كانت الحياة تتفجر بعجلة يملؤها التوتر، ومن ثم تهدأ بعض الوقت بتعب كبير خاضع. مشت بحذر في العالم المليء بالحيوية، وهناك أيضاً من هم مازالوا وسيبقون دوماً يخشونها ويسمونها الزنجية أو الشيطان أو القرد. هي تخاف منهم وتحمي نفسها منهم مسبقاً بابتسامة فيها القليل من الضجر من هذا الصراع الأبدي. سألتها الأم العليا منذ عدة أيام عن معنى هذا؟ عن هذه القصص التي كانت ترويها للأطفال في فترة عملها في المطابخ. لم تدرِ بماذا تجيب. "هل هي قصص حقيقية؟ - بعض الشيء- هل هي قصص حصلت؟ هل هي حياتك؟". أجابت بالنفي في بادئ الأمر، ثم مسحت الكذبة، وقالت بندم: نعم... كانت تفضل لو لم تطرح الأم بونوتو عليها السؤال. تذكرت القضية في البندقية، وتذكرت الحفل الذي تلا تعميدها. وتذكرت كل أولئك الفضوليين الذين أتوا إلى دير التعليم المسيحي، وتذكرت كيف سألوها لِمَ لم تغضب ولم تثأر. وهي المسكينة! يا للمسكينة! كيف أثارت شفقتهم وكانت بنظرهم كأنها تقف في قفص تحت المراقبة والإدانة. ولكن الأم العليا أرادت أن تعرف، وهي عليها

أن تطيعها. كانت تتمنى أن تنصهر في جدران المعبد، وتختفي في النور الملتوي في الكنيسة. تمنت أن تهب عملها للبارون الذي يحفظها دوماً. ولكن الأم بونوتو طلبت إليها الذهاب إلى مكتب الأم تيريزا فابريس، فذهبت إليها. جلست قبالتها وأطاعتها عندما طلبت منها أن تروي لها بوضوح وبهدوء هذه القصص عن حياتها التي ترويها للأطفال.

لم تدرِ أن ما تقوله سيُكتب. كانت تتكلم وهي ترى كلماتها تتحول إلى كتابات، تتحول إلى هذه العلامات السوداء، فطلبت من الأم فابريس أن تقرأ لها:

- "أنجبت أمي الكثير من الأطفال، إنها جميلة جداً. كانت دوماً تراقب الشروق. تنظر إلى شمس الصباح وهي تشرق. أذكر ذلك".

شعرت بالخجل، هل تكلمت فعلاً بهذه الطريقة؟ كأنها طفلة صغيرة؟ إنها في الواحد والأربعين من عمرها بينما حياتها المكتوبة تشبه قصة أطفال. تشبه قصة ساذجة وتافهة. إن حياتها تافهة، حياتها بوصفها أمة تشبه قصة الآلاف الآخرين من العبيد منذ قرون. إلا أنها في هذا المكتب تروي ليكتبوا كلماتها، هي التي "لم تغضب ولم تثأر". أرادت أن تكون منسية؛ فأحست أنها على وشك البكاء.

- أعتذر أيتها الأم جيوزيبينا على إثارة ذكرياتك هذه.

ولكن الأم لم تُثِر شيئاً، بل على العكس هي كانت تكتب عن عدم قدرتها على إخبارهم. ماذا كان عليها أن تفعل؟ هل يجب أن ترفع كمها ورداءها لتريهم الندوب؟ هل كان يجب أن تمثّل عملية خطفها وعملها

والعنف والخوف اللذين شعرت بهما؟ إنها إلفيرا التي تعرف، فهي برسوماتها تروي أفضل من الكلمات. أشارت إلى الورقة المكتوبة وسألت:

- لم هذه أيتها الأم؟

- لكي نعرف عن حياتك، في إفريقيا.

- إفريقيا؟

- نعم بالطبع.

- عذراً أيتها الأم، ولكنني أعرف الخريطة. لقد أراني القنصل الخريطة، وأراني إياها أيضاً جيوزيبي كيكيني. إفريقيا... كبيرة. وأنا... ماذا يمكنني أن أقول؟

- يجب أن تروي أيتها الأم جيوزيبينا، احكي عن التقاليد والغذاء والدين.

- الدين؟

- أجل، قبل أن تلتقي بالرب الحقيقي. ما الآلهة التي كنت تعبدينها؟

- أفضل الذهاب إلى الحديقة.

- أتفهمين ياجيوزيبينا ما سألتك؟

- أفضل الذهاب إلى الحديقة.

مشتا في الحديقة الواقعة خلف الكنيسة. كان النور في بداية فصل الخريف يسطع بجلاء وبتردد. كانت رائحة مرّة تفوح من ثمار البطاطا ومن أشجار الزهر البرية، فتذكّرها بحميمية المنازل وشيء من هذه المناطق المزدحمة والقديمة. كان الطقس بارداً بعض الشيء بالنسبة إلى بخيتة، كانت

الأم فابريس قد وضعت وشاحاً على كتفيها. كان حنانها يضاهي جهلها، ونيتها الطيبة الساذجة تخون خبرتها المتواضعة. تساءلت بخيتة كيف يمكن أن تخبرها عن حياتها ببضع كلمات؟ كانت تعرف مسبقاً بعض الأسئلة عن جلاديها، والغفران وهدايتها. وبدا لها أن ما تحمله من إجابات سيكون دوماً مخلتفاً عما ينتظرونه. إنه مختلف وأكثر بساطة. جلادوها؟ لقد باحت بذلك منذ وقت طويل للبارون. لم تكن تربك نفسها بذكراهم، باستثناء الكوابيس التي كانت تزورها في الليالي الطويلة. ولكنها تعافت منهم لأن الرب سامحها فهي ابنته وهو يقوم بذلك من أجلها. هل قصصها حقيقية؟ هل هذه الذكريات تخصها حقاً؟ ولكن لا شيء حقيقي سوى الطريقة التي مرت بها. كيف تخبرهم بذلك؟ بلهجة البندقية؟ بالإيطالية؟ باللاتينية؟ هي لا تملك أية لغة يمكن أن تعبر بها عن ذلك. ولا حتى خليطاً من اللهجات الإفريقية والعربية. لأن هذا لا يعبر عنه بالكلمات، فهناك أمور نعيشها، وأمور أخرى نكونها، وتكون في داخلنا ليس إلا. سألوها عما إذا كانت تشتاق إلى أمها وإلى أبيها وإلى أختها وإلى قريتها فرغبت في أن تقول لهم: مثلكم، نعم مثلكم. فكل منا يحب أحداً، ويشتاق إليه. ولكن ليس هذا ما كانوا يريدون سماعه. كانوا يرغبون في سماع شيء مختلف، يريدون أن تبذل جهداً في حبها، يريدون أن يذهبوا إليها كأنهم يكتشفون مكاناً طبيعياً خطيراً في إفريقيا الغامضة. إنهم صادقون كثيراً. ولكن ليس أمامها سوى أن تخيب آمالهم؛ ذلك لأن حياتها بسيطة ولأن آلامها التي مرت بها لا يمكن للكلمات أن تعبر عنها.

كانت أبواب الدير تُفتح كل صباح للتلاميذ وللمعلمات فيدخل العالم معهنّ. في الثالث من شهر تشرين الثاني عام ١٩١١، تحلقت الأخوات

الصغيرات حول آنا المعلمة الأصغر سناً. كانت تحمل بيديها صحيفةً تظهر بطلاً قومياً واسمه جيوليو كافوتي. نظر الجميع إلى الصورة ولم يفهموا ما تمثله، وعلى ماذا يجلس هذا الشاب. هناك حواجز معدنية وهو يجلس وسطها بحذائه وقبعته. قالت الأم العليا إنه منذ عامين، اجتاز رجل في فرنسا البحر دون أن يلمس الماء. أخبرتها بذلك ابنة أختها المهاجرة إلى باريس. قالت آنا: إن هذا المدعو فرانسوا بليريو قد طار فوق المياه.

- فوق المياه؟

- نعم في السماء.

- السماء؟

لم يجرؤ أحد على الذهاب إلى أبعد من ذلك. كان الأمر غير مفهوم وشبيهاً بالتجديف. ولكن هناك صورة، صورة هذا الرجل الجالس وهو في الهواء كأنه عصفور في المملكة السماوية. شرحت آنا قائلةً:

- إنه يطير بهذه الآلة: "إتريك توب" هكذا تسمى وتكتب: "الطائرة إتريك توب".

كان قول ذلك أمراً يثير الدهشة؛ فلا أحد يعرف كيف ينطق هذه الكلمات. ولكن اسم الرجل البطل جيوليو كافوتي كان جميلاً جداً بطابعه الإيطالي حتى إن جابرييل دانونزيو كتب فيه قصيدة. لم يعد بالإمكان الانتظار إلى وقت أطول؛ فالدروس على وشك البدء، تفرق الجميع وبقيت الصحيفة هناك عند البوابة، وسرعان ما نسيت في الزاوية. في ذلك اليوم

تحدثت المعلمات عن الأمر قليلاً فيما بينهنّ. أما الراهبات فلم يفعلن مطلقاً. كان وقت تناول الوجبات يعم فيه الهدوء ويومهن يمضي بالعمل، ووقت الفرصة يمتلئ بالفرح شبه الطفولي. أما الليالي فتمضي بانشغالهنّ بالصلوات. أعلنت الكلمات في الصحيفة عما حدث في الأول من شهر تشرين الثاني عام ١٩١١ حيث جرى قصف جوي للمرة الأولى في التاريخ. أربع قنابل إنشطارية رُميت من يد الطيار كافوتي فوق ليبيا. لم يشك أحد في أن هذه الحرب القصيرة وسهلة المنال ستوقظ الحس الوطني عند البلقانيين. ذلك لأن أحداً لم ير الكوارث البشرية التي توالت الواحدة تلو الأخرى في العالم، واستمرت لكي تكرس الوحشية والكارثة المشتركة. كانت الأعوام الأولى من القرن العشرين تحضر لحرب عالمية كبرى. ولكن الصراعات كانت بعيدة، ولم يكن بين الموتى أحد ذا أهمية. فلا يوجد هناك سوى الصحارى والمستعمرات والإمبراطوريات المدمّرة، إلى جانب الحلم بالتوسع وباحتلال المزيد من الأراضي. كانت الراهبات الكنسيات تعلّمن الصغيرات بصبر كيفية الصلاة والأبجدية والحساب والتطريز. في حين أن ما كان مايجري يثير صخباً ويقترب منهم كشلال منهمر من أعلى الجبل لكنه خلف ظهورهم. كان عالمهم على وشك الانقلاب رأساً على عقب. أما هم فيعيشون حاضراً سرعان ما سيزول، لأن رجالاً يحلمون بتواجدهم في مكان آخر، وسيصبح شهيدهم بطلاً.

علمت بخيتة ذات يوم أن هناك قنابل سقطت على إفريقيا، بمحض الصدفة عندما كانت تجلب ثوب القداس وقميص الراهب إلى خزانة

الثياب. لم تحب العاملة في نظافة الثياب الأم جيوزيبينا قط. برغم أن هذه الأخيرة لا تلطخ الشراشف كما كانت تخشى عند مجيئها، إلا أنها تكلف مساعداتها بغسيل شراشفها التي تقرف منها.

- لقد رُميت قنابل عندكن، أم جيوزيبينا، أتعلمين ما معنى ذلك؟

- عندي؟

- إفريقيا! بووم!

- أي إفريقيا؟

- خاصتك. بووم!

لم تقل بخيتة للأخت عاملة الغسيل ما لا تعلم عن إفريقيا، ولا عن القنابل. لقد فهمت منذ وقت طويل أنه لكي تظل مطمئنة عليها أن تبقى تلك التي لا تعلم شيئاً، وأن تبقى لا مبالية عندما يصرخ أحدهم لكي يكلمها، أو عندما يتكلم بلهجة خاطئة أو يقول كلمات غير مرتبطة. فهي تصمت وتبتسم وتنتظر، إنها تعلم جيداً كيف تنتظر. لقد حظيت بالكثير من الأسياد وتلقت الكثير من الأوامر المجنونة. تعلم أن الالتزام بالصمت غالباً ما يكون أكثر التصرفات حذراً. في ذلك اليوم لم ترد على كلام العاملة بتنظيف الغسيل؛ بل أحضرت الغسيل المتسخ وأخذت الغسيل النظيف، فعلت كما تفعل في المعتاد. لكن قلبها أخذ يخفق ذعراً عندما رحلت، وأخذ تنفسها يصدر صفيراً، والهواء يتسارع في حلقها مصدراً صوتاً كخرير المياه في حلوق النساء الإماء المقيدات من أعناقهنّ. شعرت بالعرق يسيل على

وجنتيها. مشت قدر استطاعتها إلى مكان عملها لترتب الغسيل في الخزانة ويداها تقومان بحركات دقيقة وهي تطوي الغسيل ببطء وتملّسه وتداعبه، وتفصل الثياب عن بعضها بقطعة قماش نظيفة. كان نظرها مغبّشاً ولكنها كانت تتحقق بجهد مركز بأنه ما من آثارٍ للدود أو للعث أو للفئران في الأدراج، وبأن الثياب لا تلمس الخشب، وأنه مامن غبار أو تمزقات على الأردية المقدسة. ومن ثم بدأت من جديد بإخراج القمصان وفراء الرقبة وطوتها وكدستها وخلطتها. ثم جلست ورأت الغسيل كله بحالة فوضى ولم تعد تدري ماذا تفعل. "إفريقيا! بووم!" هذه الضجة لا يمكن أن تصدر هناك. إنها إفريقيا التي تنفجر، والخطر سيكون هادئاً وستكون الانفجارات شبيهةً بصرخة صادرة من الأرض، عميقة وغامضة وسينتشر صداها في الجبال بإيقاع يشبه خفقان القلب. عادت لتفكر في تقدم جيوش المهدي. تذكرت للمرة الأولى وبوضوح الليلة التي جمع فيها السيد التركي عبيده قبل أن يشتتهم بغرض ترك السودان على وجه السرعة. تذكرت صرخات فراق الناس وذعر البشر وهم يتألمون.

لقد وُلدت من رحم الحرب، ورأت الكثير من الرجال والأطفال المسلحين، والكثير من الموتى والجرحى، ومن النساء المغتصبات لدرجة أنها شعرت وكأنها عاشت أكثر من حياة . فكرت في قريتها. هل هناك مَن يمكن أن يخبرها إن كانت هناك قنابل قد رُميت على قريتها؟ لهذا السبب سيكون من الواجب عليها أن تمنح المناطق أسماءً، وأن تفهم الخرائط وأن تتكلم بشكل صحيح. نظرت إلى ملابس رجال الدين المختلطة والمخيطة من القماش الرقيق، هناك مزيج من الألوان الحيوية والخيوط الذهبية كأنها

هضبة رسمها أطفال. يا للكارثة! لقد تركت دموعها تنساب وعليها أن ترتب الغسيل وتنظف الشمعدانات، سيحين وقت صلاة الساعة الثالثة، رأت ذلك في النور المنبعث من الباحة، إنها تبكي ولا تستطيع فعل شيء آخر. رفعت عينيها نحو العبد المصلوب الذي عرف الحرب. "طوبى للذين يبكون فهم سيجدون المواساة". كم تشتاق للأم فابريتي! بكت وقالت في نفسها: إنه يلزمها الكثير من الوقت والدموع لكي تفهم الحياة في الدير. ركعت وسجدت على الطريقة الشرقية التي لا تجب هنا، فهي بهذا الشكل، بصدرها وجبهتها الملامسين للبلاط وبجذعها المنحني وبذراعيها الممدودتين، يمكنها أن تفكر في إفريقيا على نحو أفضل.

سُمح لها بمرافقة إلفيرا إلى المحطة، تحلت كلتاهما بالشجاعة، أما هي فاحتفظت بحزنها إلى وقت آخر ولم تظهر شيئاً منه، بل أظهرت ثقتها وفخرها. تمنت أن تحمل الحقيبة ولكنها لم تقو على ذلك؛ فجسدها يؤلمها ولم تعد تملك المقاومة والقوة اللتين لطالما أنقذتا حياتها. كانت تمشي وتتنفس بصعوبة وبحذر وقد بدأ ذلك يظهر بشكل أوضح، هذا الألم المبرح. حملت إلفيرا، قوية البنية، الأمتعة وهي تجبر نفسها على المشي ببطء مثل بخيتة. ولكنها كانت تريد أن تركض تاركةً كل شيء بسرعة كبيرة دون أن تفكر أو أن تتألم.

كان صباحاً جافاً والأرض مشققة، وكان الثلج يبدو واضحاً من قمم الجبال، والطرقات قاحلة ومقفرة من قبل القطعان التي تعلن عن مجيء الشتاء في وقت مبكر، وسيقضي على النهار ويجمد الأرض، وينهي أمل المزارعين. كانت الشمس بيضاء والظلال شاحبةً فبدا أن كل شيء سيُمحى

ويختفي، وألا شيء سيصمد. إنه خريف عام ١٩١٣، إنه وقت لن يتذكره أحد ومع ذلك فإن الجميع سيقدّره. ما زالت المحطة هي مكان الرحيل المختار والسفر الفردي، فهنا يرحل الناس دون شعور بالتمزق. توقفت بخيتة لتلتقط أنفاسها، وبرغم عذوبة الجو، كان جفناها وجبهتها مبللين بالعرق. نظرت إلى إلفيرا فبدت لها في ريعان الشباب وفاتها أن تصبح أماً. كم غريب هو هذا التسارع في الزمن! وكيف يكبر كل شيء فجأة.

- أنت محقة بالرحيل يا إلفيرا، إذ يجب على المرء أن يرحل عندما يشعر بالرغبة الكبيرة في ذلك.

- سأكتب لك دوماً أيتها الأم. سأرسل لك بطاقات بريدية كل أسبوع، كل الوقت.

- أفضل الرسومات.

- لن أرسم في الطرقات، بل سأرسم في المشاغل، شرحت لك ذلك. سأرسم صبية جميلين ونماذج بارعة! هل تريدين أن أرسل لك رسومات الصبية الجميلين؟ عذراً... أصبح حمقاء عندما أنفعل.

- عليك أن تنتبهي جداً. الرجال لا يفهمون فرح الفتيات.

- الباريسيون رومانسيون جداً.

- ما معنى "رومانسيون"؟

- ذلك يعني... لطفاء... رقيقون.... محبون.

- آه... سأصلي لأجلك! كم أنت بريئة....

عاودتا المشي ولم يعد يسمع سوى صوت التنفس الصادر عن بخيتة التي عانت من حذائها. كانت ستمشي بشكل أفضل لولاه، جُرحت قدماها وانتفختا مع الوقت. أرادت إلفيرا الركض والبكاء أيضاً من الغيظ ومن السعادة. فهي الآن تغادر إيطاليا وتهرب من انتظار أمها، ومن حاجتها إليها. هي لا تريد أن تمضي حياتها بانتظار رسائلها. كما أنها لا ترغب في أن تكون في خدمة برجوازيي شيو. لم تقل إنها تهاجر إلى فرنسا، بل قالت: إنها ستذهب لدراسة الرسم في باريس على غرار الكثير من الفنانين الإيطاليين. منحت نفسها هويةً والقليل من السمو. وصلتا إلى المحطة ولم يعد لديهما شيئاً تقولانه. فهما في هذا الزمن الذي لا ينتمي لأي منهما، وفي هذا المكان الصاخب والفوضوي حيث كل شيء إما هو عديم الفائدة أو في غاية الأهمية.

- معك أيضاً التذكرة إلى ميلان؟ معك كل شيء؟

لم تجب إلفيرا، بل كانت تنظر إلى الأم. إنها تعرفها منذ أحد عشر عاماً وقد رسمت مراراً وتكراراً هذا الوجه العميق، وتحفظ تعابيره عن ظهر قلب سواء في أثناء قيامها بالعمل، أوفي أثناء مفاجأتها لدى سماع أدنى الأصوات، وفي أثناء المناداة الآتية من الخارج، ولدى سماعها خطوات أحدهم، ولدى سماعها صوت الصفير. كما تحفظ تعابير وجهها عند مفاجأتها بسعادة إن لاحظت أدنى إشارة ممكنة بالمحبة، فتضع يدها على فمها قبل أن تطلق ضحكة. وتعرفها عندما تنظر إلى السماء، وتعضّ على شفتيها باحثةً عن كلماتها. إنها تعرفها وتحب أن تعرقلها قليلاً، وتجعلها تخرج عن اللياقة وتنسى الدين، لتخرج منها تلك المرأة الغريبة والشغوفة. ولم ترغب بخيتة في أن تحتفظ إلفيرا باللوحات التي تظهر فيها تضحك بشدة،

وتغني وهي مغمضة العينين وتنظر إلى يديها بصمت. هي تريد حياة بلا نظرات، طلبت إليها أن تمزق الرسومات. ولكن إلفيرا لم تفعل ذلك، بل احتفظت بهذه اللوحات بوصفها شيئاً مهماً عندها. أصبحت لاموريتا معروفة الآن في شيو، فكانت التلميذات السابقات في الدير يلقينها في المدينة، ويذهبن إليها بحماس يشوبه خجل تلك التلميذات اللواتي كبرن، ولم يعدن يجرؤن على مناداتها مويتا الحلوة. لم يعدن يجرؤن على أن يقلن لها "تعالي!"، ويتذكرن بصعوبة أنهن لعقن يديها ليتذوقن طعم الشوكولا، وفركنَ وجنتيها بالمناديل، وسمحت لكل منهن بوضع أيديهن على وجهها ليشعرن ببشرتها قائلةً: "لا تخافي" وكانت تقول أيضاً "هل أنت جائعة؟ أخبريني إن شعرت بالجوع، دوماً أخبريني". ظنت إلفيرا أنها ربما ستكون المفضلة لديها، وأن الكثير من نزيلات الدير سيفرحن بالأمر مثلها، بأن تحبها الأم موريتا هي أكثر من الأخريات. أما الآن فهي ستتركها لهنّ، وستكون بخيتة كلها لهنّ من تلميذات ويتيمات. وتساءلت إن كان يوجد نساء سوداوات في باريس، إن كان يُنظر إليهن كما يُنظر للأم هنا على هذا الرصيف وبهذا الانزعاج المسيء.

رأت بخيتة قبلها الغيمة الرمادية وهي تجتاز الأشجار من بعيد، وتزداد ضخامةً وظلمةً بحضورها الصاخب الصادر عن المحرك، وهذه الصافرة التي تمزق طبلة الأذن، هل صنعت لكي تسمح للناس أخيراً بالصراخ لإخراج كل ما يخبئونه للرحيل من خوف ومن مشاعر أبدية تتعلق بالوحدة؟ هربت خصلة صغيرة من قبعة الأم، فأعادتها إلفيرا إلى مكانها وهي تبتسم.

- لم تخبريني أن لديك شيباً في شعرك.

- سرعان ما يكون أبيض بالكامل.

- ما سيكون

- نعم، سيكون أبيض.

- لا تفعلي ذلك ابداً أيتها الأم! لا أريدك أن تشبهي الآخرين أبداً.

احتضنتها بقوة وشعرت بقلبها بالقرب منها وبعظامها النحيلة وبالعرق وهو يسيل على عنقها. إنها لا تؤمن بالرب، ولكنها كانت صادقة وهي تقول لها:

- صلّي من أجلي أيتها الأم. فأنا لست بريئة كما تظنين. ولكن صلّي من أجلي برغم ذلك. أغمضت بخيتة عينيها وكان ذلك موافقة بالغة الرقة وصادقة جداً. ابتعدت إلفيرا ولم تترك لها سوى الزحام والدخان، والذعر المعتاد لدى المسافرين الذي اختلط من البداية بالأسف وبتأنيب الضمير وبالقبلات المرسلة وبالدموع التي ترافقهم إلى منازلهم، مع الكثير من الشجاعة كي يسألوا: لماذا الحياة شبيهةً بجبل من التخيلات والأحزان؟

مرّ الزمن دون أن يسجل مروره سوى في الأجسام التي تهرم، وفي الأطفال التي تولد. واندلعت الحرب في فرنسا في الجانب الآخر من الجبل، وفي هولندا وهنغاريا في الجانب الآخر من النهر. بدأت الصحف تتكلم عن الدول الحلفاء وعن الدول الأعداء، وعن الدول البعيدة أو المطموع بها وعن روسيا وإفريقيا. اندلعت المشاجرات والتحديات: هل يجب أيضاً

المشاركة في الصراع؟ هل يجب حل اتفاقية عدم الإنحياز وخوض الحرب أو الامتناع عن ذلك؟ وإلى جانب أي معسكر؟ هل حلفاء إيطاليا مع ألمانيا وهولندا، أم مع فرنسا وانكلترا؟ انكبّ المثقفون على قراءة الصحف، وعلت أصوات المتشاجرين في المقاهي وفي العائلات وفي الساحات. فالكل يتحدث عن الثورة والجمهورية والإمبراطورية والديمقراطية والاستبداد. أرشد الاشتراكيون بقيادة موسوليني العمال والفلاحين إلى السلميّة. وتمنى النقابيون والمفكرون أن يتم ضرب البروليتاريا أخيراً. وحلم أصحاب العمل بارتفاع معدل الإنتاج إلى أعلى مستوى، وأراد القوميون إنهاء الذل الذي يتعرض له المهاجرون وإعادة بناء الأمة. هرب المهاجرون من فرنسا وبلجيكا وألمانيا إلى بلادهم. ولم يعد بائع الصحف ينادي فقط بإعلان ساعة دفن أحدهم أو مرور بائع ما؛ بل أصبح ينادي بالتجمع أمام البلدية لكي يلقي المحافظ كلمة بصوت أعلى وأقوى من الآخرين. أصبح الناس يعيشون من دخولهم في الأحزاب، ويتكلمون دون توقف، ويتحمسون بارتباطهم الوثيق بالأحداث، ويثورون ويتصارعون من أجل حرب لا يعرفون في داخلهم شيئاً عنها. فغيروا انحيازهم ورأيهم وأقصي موسوليني من الحزب الاشتراكي، وشن حملةً للدخول في الحرب، وانضم إليه أنصار انعدام الحكم والقوميون ليؤسسوا رابطة العمل الثوري. انقسمت إيطاليا في الصراعات فيما بين أبنائها فكانت حالة من الجنون لا يمكن احتواؤها، وحدثت حالة اهتياج وسعار في المكان.

كانت بخيتة في قسم العناية الطبية في الدير تصلي طوال اليوم بلا راحة، وتبقى ساهرة طوال الليل. كان الناس يأتون إليها وهي تتعرف

إليهم. كان الأمر أشبه بسوق تجارة العبيد. الأمر نفسه دوماً من ناحية الانفعال الفوضوي. حلّ فصل الشتاء من عام ١٩١٥، وهي جالسة في سريرها في قسم الرعاية الطبية منذ عدة أسابيع، تستند إلى كومة من المخدات، وتسعل بلا توقف. حال لونها إلى البنفسجي، إنه بنفسجي داكن وممزق. كانت تختنق من الاحتراقات التي تتلو السعال الذي يئز فتشعر بحلقها ينسلخ من الداخل، وبرئتيها تتمزقان داخل صدرها. كانت منهكة وكأنها تركض تحت الشمس، وجسمها متعرق وتشعر بخجل كبير عندما يغيرون لها الشراشف كل يوم. أصبح الآن بإمكانها الرحيل في هدوء الدير وتحت الصليب المعلق أعلى السرير، ومع مرور الراهب لزيارتها كل صباح، لكنها ترغب في البقاء في الفوضى البشرية، وتحارب التهاب الشعب الهوائية. تعلم أن الناس تريد الحرب وأنها ستحصل عليها، فالآباء والصبية الصغار سيتحدثون عنها في المجزرة التي يسمونها "التجربة الجماعية الكبرى"، ولاأحد يواسي ويعالج نساءهم وأمهاتهم تماماً كما كانت أمها. تذكرت تلك الأشهر وهي تحاررب الموت، بعد الضربات التي تلقتها من سمير وبعد التعذيب تحت الوشم، ممددةً على حصيرتها على الأرض؛ هذه الأرض التي كانت تحتفظ بآثار كل أولئك الشهداء. شعرت بعودة كل الآلام البشرية في صخب الصراعات. كانت تتنفس بصعوبة، ووقعت في الحمى وبرغم ذلك لم يكن ذهنها يوماً أكثر صفاءً من هذه اللحظة. بدا وقت المرض كأنه غير واقعي، ولكنها كانت تسمع ما يجري وتشم الروائح، وترى شروق الشمس وغروبها من النافذة. كانت في واقع يمزج البشر والحقب الزمنية والحيوات التي لاقتها والناس الذين عاشت معهم. كانت تسمع الخطب الجماهيرية

القوية وأصوات الأطفال وهم يعدّون للعب، وتراتيل الراهبات وشعارات المتظاهرين وأغنية بائعي الصحف، "عصيدة الذرة، مياه المجاري، اعمل أنت أيها الرئيس، فأنا لا أستطيع...". كانت تفكر بالتلميذات اللواتي كبرن، وبالأطفال الذين شهدت ولاداتهم، وبهذه الأجيال من الجنود. هل سيختبئ الرجال في الهضاب أم سيخرجون من منازلهم ومن الكهوف والأكواخ والزوايا النائية؟ فهناك أوتيشيو ساحر الذئاب الذي يعيش في الجبل، أنجيلو بائع الفحم الذي يعيش مع عائلته في الغابة، وتانو راعي الماعز الأميّ، وهناك الفلاحون المجردون من أراضيهم، وأولئك المختبئون في الحقول، هل سيعيش هؤلاء من تجارة التبغ؟ أما الرجال الذين لا يعرفون أين يعيشون ولا كيف يعيشون؛ فهل سينضمون إلى حركة الجيوش الكبرى؟ عليها أن تصلي من أجل الرجال الذين يريدون أن يتقاتلوا، ولا يريدون الموت، من يريدون أن يكونوا فريدين من نوعهم، وأن يرتدوا اللباس الموحّد. أرادت أن تخبرهم كم الحياة سريعة! هي ليس سوى سهم رفيع وحارق. الحياة ليست سوى تجمّع حانق وعجيب، نعيش ونحب ونفقد من نحب، ومن ثم نحب من جديد، وهناك دوماً مَن نبحث عنه من خلال الآخرين. ليس هناك سوى حب واحد، هو قربان واحد مشترك، قطعة خبز واحدة مقسمة. ودت لو تخبرهم بذلك ولكن من سيفهمها بلهجتها المختلطة وبخجلها؟

حلّ الليل وكانت السماء داكنةً، وظهر القمر الحارق مقسوماً إلى هلال. تساءلت: في أي جزء من العالم يوجد النصف الآخر من القمر؟ إنه غير مرئيّ في السماء الداكنة. هذا الهلال الذي تراه كما هو، وهي ممددة في

هذه الغرفة التي تفوح منها رائحة الكافور والأثير والخشب المحروق، إنها تشارك القمر مع الجنود الموجودين في الجانب الآخر من الجبل وفي الضفة الثانية للنهر، في هذه البلاد التي تشهد الحرب والتي لم تحفظ اسمها. إنها في آمان هذه المرة أيضاً، فهي مريضة وتتلقى العلاج والشراب والغذاء، وتنتمي إلى هؤلاء الذين مُنحوا كل شيء. دفعت الأغطية عنها، وأنزلت رجليها المنتفختين أرضاً، وجلست على طرف السرير العالي والتقطت أنفاسها، ومن ثم رفعت نفسها واقتربت ببطء من النافذة، وفتحتها كما اعتادت أن تفعل مساءً. تلقت برد الليل القارس وضوء القمر الحاد. تمسّكت بمصراع النافذة وبدأ تنفسها يهدأ شيئاً فشيئاً. أنصتت إلا أننها لم تسمع شيئاً، ولا حتى صوت حيوان، ولا حتى نسمة هواء واحدة. بدا وكأن الليل قد أسدل سواده، دون رحمة أو شفقة، فوق الدير والمدينة، وعلى الجبال والطرقات والمصانع والإسطبلات. أرادت أن تتلو صلاة *أبانا الذي في السماوات* ولكن ذهنها كان ضبابياً. أرادت الركوع ولكن رجليها كانتا متخشبتين. بحثت عن الصليب في عنقها وفي جيبها فلم تجده. ليس هناك سوى جسد الأمة العجوز الأسود تحت قميصها الأبيض، وهي تقف قبالة عالم صامت. إنها أمة، أجل، إنها بخيتة المحظوظة. سماها راهب بسخرية "ذبابة يسوع"؛ ذلك لأنها كانت في خدمة الكنيسة سوداء ونشيطة في العمل، كانت سوداء ومثيرة للصخب تماماً كالذبابة. إنها حشرة وربما أقل من حشرة، وعليها أن تحمي حياتها مهما صغُرت. ستشفى وتعيش مزيداً من الوقت بين الناس، أولئك الذين يجتمعون كل يوم ليصرخوا وهم يرفعون الأعلام بكلمتين لا تجتمعان معاً، يصرخون بهاتين الكلمتين العنيدتين والأبديتين والمجنونتين: "تعيش الحرب!"

إنها تحب البقاء بقرب الفتيات الصغيرات والشابات؛ فهي تفضل البقاء بالقرب ممن لازلن حديثاً يدخلن الحياة منتبهات ساذجات ومتّقدات. يفهم التلاميذ لهجتها الخليط ويبحثون بقربها عن القوة والحماية، ويضحكون معها لأنها لا تكون معهم سوى نفسها. وهي بحاجة لهذا، هي بحاجة إلى هذا العرفان بالجميل دون سلم اجتماعي، بحاجة إلى هذا الحنان العفوي وإلى هذه الشراكة السعيدة. ولكن الدير أصبح خالياً من التلاميذ ومن اليتيمات الذين رحلوا إلى بيرغام. في الثالث والعشرين من شهر أيار عام ١٩١٥، دخلت إيطاليا الحرب إلى جانب فرنسا وإنكلترا وروسيا. وتموضعت الجيوش على طول فينيسيا وعلى جبال الألب. استقبلت مدينة شيو الإيطاليين الآتين من الشمال من نساء وأطفال وعجائز. أصبح الناس وكأنهم تكاثروا بوفرة؛ فأصبح منهم رجال الأعمال والمخترعون وخبراء استراتيجيون لا شيء يقف في وجههم. يبنون الجسور الخشبية فوق الشلالات المنهمرة من الجبال، ويصنعون الدبابات التي تدهس البيوت والأشجار، والسفن التي تبيت تحت المياه، والطيارات القوية. كانت الحرب أشبه بحريق مستعر لا نطفئ، يهرب المدنيون تحت ألسنته القوية ليتحولوا فجأةً إلى كائنات هائمةٍ على وجهها واقعةٍ تحت رحمة الآخرين.

في شهرحزيران من عام ١٩١٦، كانت الفرق الهولندية تمشي نحو البندقية كأنها تنوي استعادة ملك ضائع بظلم. كان سكان مدينة شيو قد هربوا منها على عجالة ليصبحوا بدورهم لاجئين. رأتهم بخيتة يرحلون مشاة أو على الدراجة، مع الدواب من حمير صغيرة محمّلة بالأمتعة، ومع الكلاب التي تلحق بالعربات الصغيرة التي تجرّها عجول تتضور جوعاً

تحمل على ظهورها حشايا تغطي آلة حياكة أو مرآة، أو دلواً أو دجاجة أو لوحة شخص متوفى، هذه الحاجيات المستعملة التي لا تلخص حياةً بل تعترف بعدم إمكانية معرفة معنى الحياة. كان الأطفال بالكاد مندهشين؛ فهم جوعى أصلاً وأصبحت أعينهم أكبر حجماً من وجوههم. لم يكونوا يطرحون الأسئلة بل يلحقون بكل بساطة بمجرى الحياة. يرحلون مع أمهاتهم وأجدادهم وكل الآخرين المندهشين والواثقين مثلهم، ومع سرب طويل من الأطفال الرضع والأخوة والأخوات وأولاد العم. ابتعدوا عن الحدود الهولندية، هذه الإمبراطورية التي لطالما لجأ إليها أهالي فينيسيا هرباً من ميلان وتوران وفيراري وكونيو، ليقطنوا في الملاجئ والمدارس. فيتم إرسال المرضى إلى المشفى المدني في فيتشينا. ونزولاً عند أوامر المطران، وضعت الأغراض الخاصة بالدين الأكثر قيمةً وقداسة من بقايا تماثيل القديسين إلى الكتب الكنسية، لتحفظ في فينيسيا. بدا وكأن الحياة في حالة إغماء وشفافية وتراجع. بعد عدة أشهر بدأت القنابل تسقط فوق المنازل المهجورة وتحولت الطرقات إلى أنقاض يملؤها الغبار، وطُرحت أرضاً صلبان مكسورة وطناجر نحاسية، وبعض رسائل حب مكتوبة بخط سيء وممزقة. مشت بخيتة في مدينة شيو المتحولة، وكان الموت هو صاحب الخطوة الأولى في هذا المكان، يحمله بنصر كل أولئك الناجين منه كتجار العبيد الذين يسميهم الإيطاليون "الملوك" أو "الأباطرة" أو "الوزراء" أو "الرؤساء"، وهم الذين يرسلون الرجال في قافلات إلى المعارك. نظرت إلى ضوء النهار الشاحب فوق الجدران المشروخة وغرف المنازل المفتوحة، وإلى المتاجر المقتحمة وإلى الجداول المسمّمة، ومن ثم إلى شوارع شيو التي خلت

حتى من الأنقاض وانفتحت أمام الشاحنات التي امتلأت بالجنود، وعلى سيارات الصليب الأحمر وسيارات الضباط والبغال التي تحمل صناديق الذخيرة، والجرارات التي تسحب المدافع المحمولة على المحفّات. رقد الجرحى في مهاجع الدير وفي صالات صفوف المعهد. وعلى حساب من بقي في البلد، قام الجيش بالاستيلاء على منزل للجنود عن طريق روفريتو، وهو مكان تم التغاضي عنه ولم يجرؤ أحد على ذكر اسمه فهو فظ كالمتعة. هو منزل مخصص لنسيان الموت. تحولت مدينة شيو إلى ثكنة عسكرية.

لم تعد بخيتة برفقة الأطفال، لم تعد برفقة أولئك الذين يبدؤون حياتهم. بل أصبحت تعالج من لم يتبقى لهم الكثير من العمر، مبتوري الأعضاء والمجروحين والمشوهين الذين يريدون العيش. وجدت في عنادهم هذه القوة الهائلة والخطيرة لمن هم، مثلها، سواء في حياة بعيدة أم قريبة، قد قرروا ألا يستسلموا للظلمات قيد أنملة.

عندما نتألم ونجوع نفقد القدرة على الحب وتخور قوانا، هي تعرف ذلك. لذا فهي تقدم الطعام للجرحى لكي يجدوا في الوقت نفسه أن للخبز مذاق الحياة. أخذت تجلب لهم ما تمكنت من طهيه باستبدال البطاطا بالطحين، والمربى الخالي من السكر بدبس الإجاص. كانت تحفظ البيض في المياه الكلسية واللحم داخل البئر مغطى بالثلج والقش. كانت تخترع وترتجل ولا شيء يقف في طريقها. كانت تعمل بصمت وعندما تصعد من القبو تقوم بمساعدة الأخوات في إطعام الجنود. وهي تعرف مايجري مع أولئك الذين يرونها للمرة الأولى، ستثير الرعب في داخلهم لأن كل مايراه المرء للمرة الأولى قد يخيفه، كل جديد خطير. كانت تتوقع هذه النظرات

المرعوبة والوجوه التي تغض الطرف عنها، وحالات الرفض والدهشة التي تتركهم صامتين وجامدين مكانهم. امتلأت المهاجع بهذا النوع من الخوف ومن الحاجة للآخر. كانت ترى الراهبات الخبيرات يعالجن الجرحى دون أدنى تقصير، وأولئك الشابات اللواتي يرغبن في التقيؤ وفي الهرب وفي التواجد في مكان آخر، أو أن يلجأن للكنيسة للصلاة. كن يغلقن أعينهن ويصلين بعيداً عن اللاإنسانية الموجودة في هذه الحياة وبعيداً، عن كل ما لا يجب أن يحدث وقد حدث برغم ذلك فارضاً نفسه بالبقاء والاستمرار. اقتربت من الجنود وهي تخفض رأسها وبهدوء لكي تعتاد أنظارهم على مرآها.

مع مرور الوقت أصبحت تمضي في المطبخ وقتاً يعادل ما تمضيه في العناية الطبية، وبالكاد تنام أو تغفو على أريكة موضوعة في المهجع لكي تسهر على الجرحى. ذات ليلة وهي غارقة في حلم سريع خاطف، رأت الطفل الذي كانت قد عالجته، وهو ابن أمة توفيت وهي تلده في منزل الأفعى عند سيدها الأول. ثم تم بيع الطفل أو إهداؤه، لم تعد تذكر ولكن فجأة شعرت بشوق كبير يمزقها لهذا الطفل. لقد تركته يرحل كما فعلت مع بيناه ولم تحتفظ به. شعرت بضيق يعتصر صدرها. رأت كيشمه وهي عجوز هائمة في شوارع الخرطوم. ميميّا تركت إفريقيا، أمها تركت جذع شجرة الباوباب المائلة إلى الأرض. أين أنتم؟ أين رحلتم جميعكم؟ استيقظت وكأنها تغرق إذ كانت تختنق وتلهث ويداها تتمسكان بالأريكة، وفاحت رائحة المهجع الثقيلة والآسنة فأعادتها إلى حلمها إلى رائحة الليالي في منازل العبيد. قامت وركعت هناك وسط الجرحى. تكلمت مع أبيها الإفريقي،

ذلك الرجل الذي لم تلتق به يوماً، وطلبت من البارون أن يسامحها. وفهمت لتوها شعور الذنب والهلع عند الرجل الذي أنجبها وفقدها. أودعت عند الرب الأعلى المعصوم روح هذا الرجل المتأسفة سواء كان حياً أم ميتاً، وحبه وضياعه. ثم هدأت فنهضت ومشت ببطء بخطا ثقيلة ومتعثرة ومتمايلة وسط الجنود النائمين. أدركت أن كل ما تعلمته بوصفها *أمة* خدَمها الآن. تقدمت في العتمة وسط الأسرّة المصفوفة، وعلمت أن داخل كل واحد من هؤلاء الرجال يوجد شيء سامٍ وشيء تائه. هناك منهم من سيلقى حتفه قبل الفجر دون أن يدرك ذلك. وهناك من سينجو من جراحه التي ظن أنه لا يمكن شفاؤها. هم ليسوا متساوين أمام الألم والموت. شعرت بأنفاسهم الطفولية المتلاحقة. أتاها بلطف رغماً عنها هواء تلك الأغنية التي لم تعتقد أنها تعرفها يوماً. غنت لهؤلاء الجنود النائمين التي تفوح منهم رائحة سيئة وهم يتألمون، غنت وهي تنسى الكلمات وتخطئ بها أحياناً: "نسمة صغيرة مرت.... الزهرية... عطرها وأنا، أحلم وروحي تحلم أيضاً. ولكن الأبناء... الأبناء...". تابع جندي الغناء لها من داخل المهجع فسمعته، كان صوته حاداً ومتقطعاً: "روحي أيضاً تحلم. وبينما كان الأبناء يركضون لأعمالهم، سمعت وكأن صاروخاً ضرب في قلبي، صوت الجرس يقرع، وشعرت بروحي تحترق، وصرخت وقبضتي مغلقة. ملعون هو المصنع الذي يصدر الدخان، وملعونة هي مهن الحياكة والمكوك. فهم منذ عشرين عاماً يستهلكون حياتي، هذه الآلات، هذه الوحوش اللعينة".

كانت بجانب هذا الرجل، مندهشة بعنف الأغنية التي لا تعرف سوى بدايتها عندما تتكلم عن الروح ورائحة الأزهار.

- هل أنت عامل لدى لانيروسي؟

- كلا أختي الصغيرة؛ أنا من الفرع الآخر، لاغازولا.

- والآن، هنا...

- نعم، عد إلى البلد. الحياة غريبة...

- أجل.

- لن أعود إلى المصنع أبداً... انا الآن نصف رجل.

أشار إلى رجله الوحيدة. فكرت أنه في إيطاليا لايتركون الرجال عديمي الفائدة، وأن هذا الرجل سيستهلك قوته في مكان آخر، في مكان لا يعرفه بعد.

- ما من شيء أفعله هنا في هذه الأرض الجدباء. ما من شيء أفعله بنفسي، لا شيء...

نظرت إليه وإلى غضبه وإلى القرف الذي اعتراه، الازدراء نحو نفسه.

- أنقذ حياتك.

- حياتي؟ أية حياة؟ إنها *نصف حياة*، أجل!

ابتسمت له وتجرأت على وضع يدها على جبينه. إنها يد مشققة وطويلة ودافئة جداً، ويمكنها أن تهدئه، هي تعلم ذلك. أغلق الجندي عينيه وانسابت دموعه رفيعة وكأنها قديمة كنهاية منهكة لبكاء طويل. وسأل:

- لماذا؟

- ماذا؟

- لماذا أنت لطيفة هكذا، أيتها الأخت الصغيرة السوداء؟

أصدر الجندي زفرةً عميقة وهي لا تزال تضع يدها على جبينه الذي بدأ يتعرق ويحترق تحت راحة كفها. هربت الحمى وظلت ذراعه تؤلمه، وكان كتفه مشدوداً ولكنها لم تنتهي إذ يجب أن يدوم ذلك وقتاً أطول. استمرت حتى أنزل الجندي رأسه وبدت شفتاه شبه مفتوحتين، ووجهه صاف واستسلم للنوم. عادت إلى أريكتها بخطاها المتعثرة، وأرادت ألا تصدر ضجيجاً، لكنها في الواقع كانت تقرقع وتلهث، ثم خلدت إلى النوم على الأريكة ساعة أو ساعتين. وعندما كان أحد الجنود يستيقظ، كان تواجد تلك المرأة النائمة وهي جالسة يذكره أنه لم يكن طفلاً فحسب؛ بل كان طفلاً صغيراً جداً قبل أن تندلع هذه الحرب.

بدت شمس صغيرة من بعيد وكان صوت الرجل مازال جنبها. هي لم تراه ولم تر البيانو ولم تفهم ما يغني إلا أن غناءه كان بديعاً، فاستمعت إليه وهي جالسة بانتباه عاقدة اليدين، فقد أرادت ضمها لكي تصلي لكنها لم تجرؤ فهو ليس نشيد مقدس. ومع ذلك فقد كانت تلك أنقى صلاة سمعتها في حياتها. لم تفهم معنى المقطع المسمى "صائدو اللآلئ". هم جميعهم صائدون وجميعهم لآلئ ولكن لم يقل أحد ذلك لهم. لم يقل أحد للبشر إنهم آلهة. هم عادوا من الحرب بمرارتهم وصمتهم وقد أصبحوا عجائز تملؤهم الضغينة. رأت بخيتة أعينهم الحذرة التي تراقب كل شيء وكأنهم يقولون: "آه... هكذا الأمر إذن، أليس كذلك؟ هكذا تريدون أن يمر الأمر؟" هي تعلم أن الأمر ما زال في بدايته. استمعت لغناء كاروسو الآتي من العلبة الصغيرة، كيف أصبح التطور أكثر جمالاً. كان كاروسو يغني لإيطاليا

بأكملها ولكل إيطالي على وجه الخصوص. صوته يعبّر عن التمزق والألم، وله إيقاع كالحياة عفوي ورقيق ولكنه قوي في الوقت نفسه كانتصار من القلب. لو أنها تملك الجرأة لطلبت من إلفيرا وضع الفونوغراف في الكنيسة لكي يستقبل العبد المصلوب والعذراء ألم البشر الموجود في الغناء الصادح. ولكنها لن تتخذ مطلقاً هكذا قرار؛ فهي هنا لكي تطيع وهي تفعل ذلك، في الذل والفقر. كيف يمكنها أن تساعد هؤلاء الرجال؟ ماذا تفعل لتشفيهم من هذا الألم الكبير؟ هي تشعر مسبقاً بما سيجري لاحقاً. فالذل الخاضع أشبه بتطعيم جذع شجرة، يوماً ما ستنبت فاكهة جديدة فيها؛ وسيكون من المستحيل تجاهل وجودها. لأنه ما إن يولد التمرد لا ينطفئ. لم يكن الجنود العائدون يتكلمون ولكنها تعرف هذه الوجوه الشبيهة بالحيوانات الجاهزة للاحتدام لأمر ما. تدرك أنه لايجب الانتظار وقتاً طويلاً لكي تجعلهم أول صرخة تصدر يتجمعون ويتوجهون برؤسهم المحنية نحو القادة الأقوياء ليروهم قبالتهم، ولينظروا إليهم جيداً فهم جيوشهم العائدة.

لقي خلال الحرب الآلاف من الجنود الإيطاليين حتفهم في الأسر لدى الألمان والهولنديين نتيجة البرد والجوع. تعرف بخيتة هذا النوع من الموت، تعرف الجوع الذي يهزم البشر من الداخل ويسبب لهم مغصاً وحازوقة ودواراً. وتعرف البرد الذي يجمد القلب والغوص في الوحل والاختناق، والعيون العمياء والفم الدامي والتشنجات والهذيانات. تذكرت كل ذلك فهي رأت مثل هذا في القافلات وفي الزرائب وفي أسواق العبيد، كان الجوع يدمر عقولهم قبل أن تنهار أجسادهم. حصل ذات ليلة هادئة أن سألت نفسها عن فائدة صلواتها وأصبحت شكوكها أكثر عنفاً من

ألمها. بدا لها أن كل شيء يتأرجح بين الشك والإيمان، بين الجمال وتدنيسه. هي اليوم تسمع غناء كاروسو وكانت مشاعرها حية كما تكون عند لقائها بالجنود وبعائلاتهم. تعلمت أشياءً جديدة ليست كما هي من الداخل، كانعدام الإنسانية الدائم، والهدنة ليست فقداناً للذاكرة. فالحرب تفصح عن نفسها بلا كلمات، وذلك من خلال أشكال الرفض والإضرابات؛ ومن خلال الفقر المدقع والكثير من الظلم. عاد ابن أخت الأم باتيسيلي من كابوريتو حيث هُزم الجيش الإيطالي مفخخاً في الجبال. روى كيف انسحب الجنود بالقرب من نهر بياف تاركاً آلاف الرجال في قبضة العدو إضافةً إلى الجزء الأكبر من فينيسيا. كان ذلك في فصل الخريف من عام ١٩١٧، كان خريفاً كارثياً. كان الجميع في مدينة شيو يعرف أن التحالف الأسترالي الألماني أصبح على بعد أربعين كيلومتراً من فينيسيا، وفي السماء وعلى الجبال وعلى ضفاف الأنهار كان رنين موكب الموت يُسمع وهو يمشي؛ فهم غزاة أقوى من أشد النخاسين قوةً. لدى عودته إلى المخيم، روى لويجي ابن أخت الراهبة الصغيرة، بهدوء وبسرية كيف خطط القائد العام للجيش لقتل الأسرى الإيطاليين، وكيف صدرت أوامر بالبقاء جائعين بلا طعام وبإجبارهم على العمل، وبعدم إرسالهم إلى هذه المخيمات التابعة للتحالف الأسترالي الهنغاري، وبمنعهم من تلقي الطرود أوالمعونات من الصليب الأحمر. عندها ذهبوا حفاةً مشياً على الثلوج، منهم من لاقى حتفه بذات الرئة، وبأعشاب المخيم، ومنهم مات بالزحار، ومن نبش القاذورات ومن مات من الجوع. ولكن لم كان يتكلم بصوت منخفض؟ لم كان يروي ذلك بنبرة سريةً؟ لم يشعر لويجي بالعار بدلاً من القائد الإيطالي الذي لم يخفي أبداً

هذه الحقيقة، والذي قاد هذه الحملة لكي تصبح مشهورةً، ولكي "يصبح رعب الوقوع بالأسر إلهاماً للأسرى" هؤلاء العصاة الخونة. تحدث لويجي عن محنته ولم يخبر أحداً بشيء. انخرطت إيطاليا بالحرب التي دمرت البلد، وأفقرت الشعب وفرّقت الرجال. ربما قد غنى كاروسو عن هذا أيضاً، فهي لغة موحدة لبلد يريد أن يتوحد، ثم لا يلبث حتى يتمزق. هربت إلفيرا من فرنسا، ذلك البلد الحليف في الحرب والذي نقض الهدنة، هذا البلد الذي سرق السلام من الإيطاليين الذين لم يحصلوا على شيء من الأراضي المرجوة في التوسع. كانت فرنسا هي العدو الأول فغير الجميع معسكره سريعاً.

لم ترسم إلفيرا في باريس، فقد نجت بنفسها وبعملها كعارضة، كفتاة عارية على الممشى، ولم تخبر بخيتة أيضاً بذلك فهي لن تفهم ما معنى ذلك. ليس هذا ما تخشاه، فهي لم تكن فقط *جميلة* ولا عرضة للمطامع. فنظرالفنانين إليها هو أصلاً نوع من الفن. هذا ما كانت تقوله لنفسها لكي تبقى بمنأى عن رغبتها بحياة أخرى بعيداً عن المصنع وعن خدمة المنازل. ولكنها اليوم أدركت أن ذلك لا يكفي، فالرسم والغناء والجمال لا يكفي لإعادة بناء العالم. عملت في خدمة عائلة كاريسيني في منزلهم الكبير الموجود في آخر المدينة. وهو منزل مخبأ ومحميّ لم تقم سوى بالمرور من أمامه؛ فهي ليست من ذلك النوع الذي يخضع ويخدم. لقد عادت لكي ترحل من جديد، ولم تتعرف على مدينتها. لم تُقتحم المنازل وحدها فحسب بل حتى الحقول أصبحت بور (الدمار هو نفسه في كل مكان). إلى جانب المنازل المنهوبة، كانت هناك منازل واقفةً صامدة ومحمية التي أخبرتها عن العنف الجديد الممارس في مدينتها. كان الدرك يصفّون دوماً أهالي الجنود المتهمين

بالفرار ويرشقونهم بالبنادق. فهم حراس يمنعون أيا كان من المجيء لرؤية أهالي المحكومين، ولكنهم لا يمنعون أحداً من الاستيلاء على ممتلكاتهم، فتصبح العائلة مجرد فريسة محبوسة في منزلها وفي عارها.

في نهاية فترة بعد الظهيرة ذلك اليوم، كان الطقس جميلاً، وتفوح في الجو رائحة التين والنباتات العنقودية. نظرت إلفيرا للأم موريتا التي كانت بالكاد مندهشة من اختراع الفونوغراف، بل كانت مذهولة أكثر بالغناء الذي لا تفهمه. لو أنها رسمت يديها آنذاك لكانتا أشبه بأغصان الكرمة، كالأعشاب الصغيرة المتصالبة.

- سأوقف كاروسو، فهو يسبب الحزن كثيراً، كما أنك توقفت عن الكلام.

رفعت لسان قارئ الآلة فتوقف الغناء ووقع الصمت كشتيمة.

- إنه جميل، قالت بخيتة.

- إنه يجعلك بغاية الحزن، انظري إلى نفسك أيتها الأم. حتى يديك أصبحتا حزينتين.

- يداي؟

- نعم، هما مثال عن الأيدي الحزينة.

ضحكت بخيتة ونظرت إلى يديها وحركتهما كلعبة الماريونيت.

- أنا سعيدة فقد عاد الأطفال وفُتحت المدرسة.

- رائع! فُتحت المدرسة. إن الأرض واعدة بالفلاحين، وأصحاب الأعمال سيعطوننا في اليوم أجر ثماني ساعات.

- لقد عاد الأطفال يا إلفيرا.

- الفلاحون يحتلون الأراضي أيتها الأم.

- "يحتلون"؟

- إنهم في الأرض ولكنهم لا يعملون بها. تغيرت الأمور ولن يعود شيء إلى سابق عهده. آه... كلا! لا تعقدي يديك. هيا! لنرقص! لنرقص!

أدارت إلفيرا ذراع الفونوغراف، وثبتت رأس القارئ على المقطوعة الثانية من القرص:

"تارنتيلا نابوليتانا"، أتتبعيني في هذه الرقصة يا مويتا الحلوة؟

رمت بخيتة نظرة سريعة من حولها، في هذه الباحة الظليلة القريبة من البستان، ما من أحد هناك. أمسكت يد إلفيرا الممدودة إليها، وقامت بعدة خطوات راقصة بقدميها على الأرض الجافة. كانت خطواتها مترددة وسعيدة. أغمضت بخيتة عينيها، وفي ابتسامتها قرأت إلفيرا حبها للحياة. إنه حب عميق كالأمل والمقاومة.

احتلت الأراضي والمصانع والمعامل والورشات، وازدحمت بالإضرابات والمظاهرات والاشتباكات. كانت طبقة البروليتاريا تحضّر لثورة على غرار الثورة القائمة في روسيا. اشتبك العمال الاشتراكيون مع رجال الشرطة. ورموا بالضباط، هؤلاء خدام الرأسمالية، من نوافذ القطارات والترامات. كما واجهوا أصحاب الأعمال ومالكي الأراضي والبرجوازيين والممولين، منهين بذلك حالة الخضوع والبؤس والبطالة والنفي. انقلب النظام بعد نشوب الحرب التي لم يريدوها مطلقاً. فبلدهم سيعود ليولد من جديد،

فخوراً كريماً وقوياً في وجههم، هم المحاربون القدامى الذين سيبقون بلا عمل ولا مكان لهم في المجتمع المدني، يدافعون عن سلميتهم ويواجهون ازدراء الناس لهم. اجتمعوا جميعهم: قوميون ومستقبليون ونقابيون وجمهوريون وكاثوليك وفوضويون وجنود نخبويون، وأسسوا حركة سموها حزمة الإيطاليين للصراع. واستقبلوا كل من هم آمنوا بالحرب وتملؤهم اليوم المرارة والخيبة واليأس والغضب والكره. أصبح السلام كشجرة مبتورة الجذع، وعاجزة عن منح الناس أي شيء. سخر الحلفاء من حزبهم وتقاسموا العالم تاركين لهم الفتات. فعاد المحاربون القدامى إلى الجحيم منكسرين. فكان الرجل الذي يتبعونه هو صحفي بسيط وابن حداد بسيط ومعلمة روضة، واسمه بينيتو موسوليني. وقد عزم على استعادة الشرف الضائع لهؤلاء الجنود القدامى، ووعدهم بإعادة المجد لإيطاليا.

وعلى هذا المنوال بدأ الأمر مع رجال يحتاجون إلى التجمع والاقتتال. فأن تكون إيطالياً يعني أن تكون فخوراً وتتمتع بالرجولة، وبالنسبة إلى الكثير تتمتع بالعنف وبغريزة الانغماس في رحى الحرب، وأن ترغب في الثأر لكي تملك زمام السيطرة في نهاية المطاف، سواءً في المجموعة أم في القرية أم في البلد. ولكي تتحرر في الشجار والنهب والقتل وشرب الكحول وتعاطي الكوكائين وممارسة الجنس. كان ذلك زمانهم، زمان إيطاليا جديدة، زمان شبابها. إنه زمن الشباب الذين ينشدون أغنية "*جيوفينيسا*" التي تحولت إلى نشيد وطني. إنه زمن الشباب الذين يرتدون الأسود فتحول لونهم هذا إلى علم، كانوا يتقدمون في الشوارع، وينشرون الرعب ويحملون أسماء مثل "يأس" "بلا خوف" "صاعقة" أو "الشيطان". كانوا يتسلحون بالهراوات

والقبضات والمطاوي الأمريكية والمسدسات والقنابل. فقد كانت دماؤهم حاميةً... يتحركون بسرعة كالكلاب المسعورة، وتمتزج رغبتهم في العيش برغبتهم في القتل ويريدون التغلب على الآخرين جميعاً، أولئك الذين لم يكونوا من صفهم، الذين ورّطوا البلد وعرقلوا حكمهم، أولئك الحمر والمؤسسات الفلاحية والتعاونيات الكاثوليكية والنقابيون. يرغبون في هزيمة كل الصغار والوضيعين والمسيئين الذين كانوا كنار التهمت البلد. انتشرت الحركة وألقت بظلها على البلد ووضعت قانوناً لها. وذات يوم لم تعد حركة فحسب، بل أصبحت حزباً، ألا وهو الحزب القومي الفاشي الذي أسسه موسوليني بمشاركة من نواب وأصوات في البرلمان لتعلن عن العدالة والقوة. عندها ماتت الثورة البلشفية، وتقدمت الثورة الفاشية ودخل موسوليني إلى روما واستلم منصبَ رئاسة الوزراء، وأنشأ حرساً وأدار النظام والقانون والاحترام. خلقت الحرب الشهادة والتضحية إلا أنه حان الوقت للسيطرة على البحر المتوسط ولتحقيق المجد أخيراً. فأنشأت الوحدة إيطاليا الجديدة، وكان الوقت مناسباً لصناعة الإيطاليين.

عادت اليتيمات إلى الدير بأعداد أكبر وبأعمار أصغر من ذي قبل. فتم قبول فتيات صغيرات وبالغات النحول، جلبتهن الأمراض للدير دون حتى أن يجدن الوقت الكافي لتلقي الرعاية الطبية. فكانت النعوش الخشبية البيضاء تخرج خفيفةً ومغطاة بوردة قُطفت من الحديقة، تتبعها الراهبات مذهولات بعجزهنّ. وصلت التلميذات متأخرات وغير قادرات على التركيز، فهنّ جائعات أيضاً مثل المعلمات ومثل الجميع. كيف يمكن لهنّ أن يجدن الغذاء، ويدفعن ثمنه ومقابل ماذا في ظل ازدياد الغلاء بنسبة ٤٥٠%؟

أصبحت مصانع السلاح خاويةً وعانى الرجال من البطالة التي جردت الأسر من الأمل، وأوصلت البلد إلى حالة مزرية. ولكن الزعيم موسوليني كان يسمو بحكمه للشمس.

استدعت الأم العليا بخيتة في مكتبها. كان يثيرها عاطفياً أن تطيع ما تشعر بأنه أمر. جاهدت نفسها على البقاء هادئةً وهي تصعد الدرج المؤدي إلى المكتب. وأمسكت بقوة حافة الدرج الذي لولاه كان من غير الممكن لها أن تتقدم. ولدى وصولها إلى الأم العليا، كانت هذه الأخيرة قد حضّرت لها المنديل الذي ستمسح به حتماً العرق المنساب من جبينها. أشارت إليها بالجلوس على الأريكة التي أمامها وبالتقاط أنفاسها. ابتسمت بخيتة واضعةً يدها على قلبها وهي تشعر بالضيق لاستهلاكها الكثير من الوقت لكي يهدأ تنفسها.

- عذراً، فأنا أصدر ضجيجاً طوال الوقت.

- أنت تعلمين أيتها الأم جيوزيبينا أن الكثير من الأشياء قد تغيرت منذ اندلاع الحرب...

- ألن أبقى؟

-عفواً؟

- هل سيبعثون بي إلى مكان آخر أيتها الأم؟

- كلا بالطبع.

- هل سأبقى؟

- أم جيوزيبينا، لا تتكلمي طوال الوقت كما لو أنك ستطردين. ما أود إعلامك به هو العكس.

- العكس؟

- لقد عملت في المطابخ وفي الخدمة الكنسيّة، وحتى في قسم الرعاية الطبية. أما الآن فأودّ أن تكوني عند باب الدير. أتفهمين؟

شعرت بخيتة بقلبها يخفق كما لو أن كل ماهو جديد يكون مباغتاً، وكل تغيير يكون مؤلماً.

- أيتها الأم، أتريدين.... عذراً.... أن أعمل *بوابة*؟

- بوابة، أجل بالضبط.

- هنا؟ في دير فوسيناتو؟

- بالطبع في الدير! أين تريدين أن يكون؟

- ولكن... عفواً. شكراً أيتها الأم. ولكن هل أستطيع أن أطرح سؤالاً؟

- تستطيعين؟

- أنا...

- سوداء جداً، نعم. سيكون كل شيء على ما يرام. فأنت تتحلين بالصبر وباللطافة. وستشرحين لهم. لقد خدمت قبل ذلك في الاستقبال وتعرفين ما يجب فعله.

- قليلاً...

- وقد مر الأمر بشكل جيد، أعرف ذلك.

عضّت بخيتة على شفتيها، وانفجرت الأم العليا ضاحكةً.

- ما أريد قوله: إن الأمور تمت بشكل جيد، ورآك الناس وقد انتابهم الرعب، ولكن بعد عدة أيام انحلت كل الأمور!

- نعم...

- ستستقبلين التلميذات واليتيمات والمعلمات وعائلات الراهبات، ومتعلمات الدين المسيحي ومفتشي المدارس. وحتى السباكين والرسامين ومسلمي الطرود وعامل الحديقة! إنها مسؤولية كبيرة.

خفضت بخيتة وجهها للدلالة على القبول. عليها أن تشكرها وتطيعها. ولكن العمل كبوابة للدير يعني أن تكون دائماً عند الباب معرضةً لمرأى كل من يأتي ليرن الجرس من الخارج. يجب أن يبقى باب نساء الدين مفتوحاً للجميع وفي أي وقت. هي تعلم ذلك ولامت نفسها على شعورها بالخوف أكثر من شعورها بالامتنان.

- شكراً أيتها الأم.

ثم أضافت الجميلة الوحيدة التي تجعلها تطمئن:

- إنها إرادة الرب...

- طبعاً هذا ما يريده الرب، سيدك أيتها الأم موريتا!

إنه لمن الغريب أن يذكّرها أحد بشكل عفوي بأنها لاموريتا ما إن تذكر الرب. ومع ذلك فإن الكنيسة تستخدم كلمات مثل السيد والخادمة دون أن يعني ذلك شيئاً يخص العبودية أو لون البشرة.

- متى أباشر العمل؟

- في الأسبوع القادم. بعد سبعة أيام.

- جيد

استندت إلى ذراع الأريكة لكي تنهض ولكن الأم العليا أمسكتها قائلةً:

- أتذكرين عندما بدأت الأم فابريس بكتابة قصتك؟

- قصتي؟

- ذكرياتك من إفريقيا.

- آه... بالطبع.

- وفي العام الماضي عندما أكملت معك الأم ماريا توركو كتابتها، قد ساعدك ذلك في استعادة الذاكرة، أليس كذلك؟

- نعم...

- نود أن نعاود الأمر.

- آه... شكراً أيتها الأم؛ ولكني استعدت ذاكرتي، شكراً.

- ذلك جيد، ولكن الأم ماريا تشيبولا، أمنا العامة تعلقت كثيراً... برحلتك وبما أنت عليه. وطلبت أن نرسل كتابات الأم فابريس إلى فينيسيا إلى إيدا زانوليني التي تكتب لمجلتنا "الحياة الكنسية". أتفهمين؟

- نعم.

- وجدت السيدة زانوليني مذكراتك... حقاً، مؤثرة جداً. إلا أنها تعتقد أنك تستطيعين الذهاب لأبعد منذ ذلك. لأبعد من ذلك بكثير.

- أبعد؟

- في الذكريات لاسيما تلك المتعلقة بالعبودية.

نزلت هذه الكلمة كصفعة على وجهها، فهي تعرفها دوماً، ولكنها لم تدري مايمكن أن ترويه أكثر من ذلك، وما هم بحاجة إلى سماعه. ربما تكون قصتها فقيرة جداً بالنسبة لتلك السيدة التي تكتب في المجلة.

- لماذا أيتها الأم، لماذا أروي المزيد؟

- لأن السيدة زانوليني وهي امرأة مثقفة جداً ومعلمة مشهورة ومسيحية جيدة، ستكتب قصتك على شكل مقال متسلسل. أتعرفين مامعنى ذلك؟

- قصة. مكتوبة عدة مرات.

- بالضبط. إنه لشرف لك أيتها الأم جيوزيبينا. ولكن لا ينبغي أن تتكبري نتيجة ذلك. ستغادرين غداً صباحاً إلى فينيسيا. ولدى عودتك ستستلمين منصبك في إدارة البوابة.

- البندقية؟

- عند كنسيي دير القديس ألفيس. ستنتظرين هناك السيدة زانوليني. أيتها الأم جيوزيبينا... إن دير دورسودورو يعود حالياً إلى الراهبات الساليزيان، فلم يعد هناك أية راهبة كنسية في دير الواعظين، أتعرفين ذلك؟ لا تتوقعي أن تجدي أحداً تعرفينه في فينيسيا.

- ولكن أين هنّ؟ الراهبات، أين هنّ الآن؟

- لا تشغلي نفسك بهذا. اذهبي الآن.

مَن غيرها يأمرونها بأن تروي قصة حياتها على الملأ؟ مَن غيرها يفرضون عليها أن تنسخ شؤونها الخاصة بشكل مباشر وتصبح مباحة للعامة؟ من غيرها إن لم تكن أمة قديمة أنقذتها إيطاليا؟ زنجية اعتنقت الكاثوليكية؟ نحن الآن في عام ١٩٣٠، ازدادت كثافة العمليات العسكرية في ليبيا، ووضع النساء والأطفال والعجائز في مخيمات في محيط بنغازي، فماتوا هناك من الأمراض ونقص الغذاء. ألقى جيش موسوليني على البلد غاز الخردل. إنها "ساحة الشمس"، "الاستيلاء على البحر الأبيض المتوسط". إنها إفريقيا التي كانت حلماً للزعيم موسوليني ولشعبه الراضخ، إنها إفريقيا البرابرة والشحاذين الوسخين التي باحتلالها سيحظى الإيطاليون بالشرف، وسيستعيدون مجدهم الضائع. إنها إفريقيا التي صدرت عنها البطاقات البريدية والأفلام والروايات والأغاني؛ وحتى الدعايات التي تسّوق للقهوة وللتأمينات وللبيرة. إذاً لم لا يصدر مسلسل صحفي يحكي عن قصة رهيبة تخص الأم جيوزيبينا التي كانت في السابق تدعى بخيتة؟ لم إخفاء هذه الشهادة الحية التي تُخرج إيطاليا بأبهى صورة لها؟

ما إن عادت إلى فينيسيا حتى شعرت مباشرةً بشوق إلى ميميّا. تلك الرضيعة التي كانت تلتصق بها في الشوارع المعرضة للرياح والتي تقطعها أشعة الشمس الحادة، فكانتا تنسحران بجمال قصر يظهر أمامهما فجأةً، أو بشرفة واسعة تغزوها الأزهار أو بشجرةعملاقة وسط ساحة صغيرة. عادت إلى فينيسيا وكأنها المرة الأولى التي تزورها. تبلغ الآن أكثر من ستين

عاماً، إلا أنها شعرت وكأنها في العشرين من عمرها، وبرفقة تلك الفتاة المحتمية بها والتي تمنحها الفرح والرغبة بالحياة. كانتا تمشيان متلاصقتين وتشعران أنهما تمتلكان الساحة وحدهما وتشعران بالحماية والسعادة. لم يمر يوم دون أن تصلي لميميّا وتدعو الرب ليحميها، وتقول لها: إنها كانت تحبها ومازالت تكنّ لها حباً لايزول طالما هي حية. وصلت إلى الساحة الصغيرة التي تقع مواجه المعبد في قلب حي كاناريجيو. بدت الكنيسة المبنية من القرميد الأحمر حاضرةً وضخمةً كقصر بلا نوافذ. رنّت خطواتها المتعثرة على البلاط واصطدمت بالمنازل الواقعة تحت أشعة الشمس. استعادت رائحة الملح والسمك التي تفوح في المدينة، وذلك الشعور بالحماية. فالتواجد في جزيرة يشبه التواجد في راحة يد؛ فيمنح الشعور بالثقة. كان نور الشمس جميلاً جداً والرجال يذهبون ليركبوا سفنهم وكأنهم يركبون قوارب خشبية، فيبدون فريدين وعزيزي النفس. قبالة الشاطئ القريب منها، استعادت بخيتة ذكرى هذه الحياة المفتوحة على السماء، والأفق الذي لا يمكن لشيء إيقافه. ابتسمت لأنها وجدت في فينيسيا القليل من المساحة بعيداً عن التحفظ الموجود في إفريقيا. صلّت كثيراً الليلة الماضية ولم تنم وهي تعلم أن الرب يطلب إليها أن تتحدث عن كل أولئك الذين لم تقدم لهم يد العون، وتركتهم يلقون حتفهم على أرض مسلوبة.

التقت بإيدا زانوليني في رواق مصلّى القديس ألفيس. وقعت الشابة تحت أثر المفاجأة... فبخيتة هي أول سوداء تلتقيها. ارتبكت حتى إنها لم تعرف كيف تلقي عليها السلام. انحنت وقبّلت *الأم المتألمة* في ميداليتها الكنسية، ثم ابتسمت لها بارتباك عاطفي. كانت امرأة ملتزمة ومرحةَح فهي

معلمة علمانية موهوبة في مهنتها وفي العمل الكاثوليكي. ذهبت لتجلس مع بخيتة في صالة الاستقبال الصغيرة الموجودة في المصلى. وسرعان ما فهمت بخيتة أنه بإمكانها التحدث مع هذه المرأة بحسب إيقاعها، أن تتكلم كما هي تسمعها. واعتقدت أنها ستخبرها عن معنى أن تنجو هي دون البقية. ظنت أنها تكلمت بما فيه الكفاية عن القرية المحروقة والأخت المخطوفة، والمطواة في يد الخاطفين الموضوعة على رقبتها. ولكن إيدا كانت تستمع إليها دون أن تكتب ودون أن تطلب إعادة ما تقوله، أو أن تحدد كلمة ما، أوأن تعيد صياغة، أو أن ترتب أحداث قصتها على نحو أفضل. ذلك لأنها لا تستمع إلى الأم جيوزيبينا، بل هي تستمع إلى المرأة التي لم تعد تذكر اسمها، وتخبرها عن ماضيها كما لو أنها تحكيه من قبل. باحت بالألم والإخفاقات والخجل والشعور بالنقص الذي لم يملأه أي تعويض كان.

لدى عودتها إلى غرفتها مساءً، سجلت إيدا كل ما سمعته بسرعة كبيرة حتى إنها وجدت صعوبة بإعادة قراءة ما كتبته. كتبت بفيض، وكان الصوت الخشن الخجول الخارج من هذه الصغيرة الأتية من قبيلة داجو هو من يقود كتابتها. لم تمر بذلك من قبل. لم تلتقي يوماً بأحد مثلها. فهي مضطربة ومع ذلك تتمتع بقوة أكثر من مستوى البشر، متوهجة ولا يمكن تصنيفها ، ذكية ومتحفظة. لا تعلم بعد إلى أين ستقودهما كلتيهما هذه الكتابة؛ ربما لو عرفت إلى أين لما تجرأت أبداً على الكتابة. لو أنها أدركت حجم الانتشار والتهافت شبه الجنوني الذي ستسببه هذه السلسلة من القصص المنشورة في المجلة الكنسية، لكانت ربما قد اعتذرت من المرأة التي

كرست نفسها لها طوال ثلاثة أيام، والتي كادت أحياناً تختنق من البكاء، والتي كانت تستدرك بالحديث كأنها تتعلق بالصخرة الأخيرة في الجبل الأخير، وذلك لكي تحكي عن الشهادة وعن الأطفال على وجه الخصوص، الأطفال "أتفهمين: الأطفال، العبيد الأطفال، الجنود الأطفال، أتفهمين. أنا لم أفعل شيئاً ولا أنت، من يستطيع أن يفعل شيء، أخبريني، من سيستطيع يوماً ما فعل شيء؟" هذا ما كانت تقوله بلهجتها *الخليط* التي بالتوضيح فهمتها بسهولة.

في اليوم الأخير قادت إيدا بخيتة إلى شارع ١٠٨ في دورسودورو، حيث دير الواعظين القديم. عادت لتجد المكان بعد ثمانية وعشرين عاماً من خروجها منه. أعلمت الراهبات السالزان بمجيئها، فأخفين قدر استطاعتهن مفاجأتهن برؤية لاموريتا الأكثر سواداً من كل الصور والرسومات التي عرفنها عن الإفريقيات. فتحن الأبواب على مصراعيها. دخلت في الرواق الصغير؛ هذه الحديقة الصغيرة المربعة التي يسود فيها الصمت تحت السماء الصافية، وخالجها ذلك الشعور العنيف بأنها في منزلها. هذا الدير هو المكان الأول الذي قالت فيه لا. دخلت إلى قاعة الاستقبال الواسعة والخالية، التي مازال يتردد فيها صدى بكاء ميميّا ولعنات أمها وهي تقول "جاحدة! جاحدة!". ارتدى المكان ثوب الظلال والأصداء التي احتفظ بها، فشعرت بخيتة بأن الماضي أصبح قريباً للغاية في بريق تلك الأوقات المختلطة. تذكرت ستيفانو وقلة صبره والتزامه، فهمت جيداً بعد ذلك الألم الذي كان يعانيه في دفاعه عنها، أما الآن فقد كُتب كل شيء. وهو

أمر منصف بحقه. ربما سيقرأ أطفاله السلسلة المكتوبة. وماذا بخصوص ميميّا؟ لم يأتيها أي خبر عنها، إلا أنه بإمكانها أن تعرف بسهولة أين تعيش مربيتها القديمة. ربما هي تعلم أين تعيش ولم تأتي.

دخلت بخيتة إلى المصلى الذي بدا فقيراً وخالياً من الأثاث. اقتربت من أجران التعميد وأرتها لإيدا بإشارة من يدها قائلةً:

- هنا أصبحت ابنة الرب.

لامت إيدا نفسها عند معرفتها أنه عليها أن تكتب هذه الكلمات بالغة الحميمية. جلست بخيتة قبالة العبد المصلوب التي كانت تعرفه قبل أن تعرف من هو. سمعت صوت الأم فابريتي وهي تقول: "طوبى لمن يبكون، فهم سيجدون العزاء"، فشعرت وكأنها عادت إلى أصولها وكأن هذا المكان يحتفظ أيضاً بطفولتها مع أهلها، ويحتفظ بحالات الارتباك والحب التي اعترتها آنذاك. أدركت أن فينيسيا أنقذتها لأن هذه المدينة تنتمي إلى البحر فهي أرض مدّ وجزر، أرض مباحة للاجئين وللتجار و"للخليط" وللحالمين. شعرت في هذه المدينة وكأنها في وطنها. كم سحرها وأربكها غناء الفجر المرتل على شفاه الراهبات يومها خلف الستارة المخملية.

تنحّت إيدا جانباً ولم تستطع منع نفسها من النظر إليها متسائلةً بأي لغة تتحدث مع نفسها؟ هل هناك لغة تستخدمها لإفريقيا ولغة أخرى لإيطاليا؟ هل من لغة تستخدمها للحديث مع الرب؟ ولغة أخرى للحديث مع النجوم التي أخبرتها أنها تراقبها كل مساء منذ طفولتها؟ هل هي حقاً نسيت اسمها الأول أم هو سرها الأخير؟ تخشى أن تخونها أو أن تجرحها

بكتابتها عن هذه الطفولة الآتية من قرن مضى. برغم ذلك شعرت بأنها تستمر في سرقتها. نظرت إلى بخيتة وهي تشعر بالسرقة؛ فهي تجردها من كل شيء، حتى من خلوتها في المصلّى. هناك ما لا يُرى بل نتكهن به، وكل الأسئلة التي لم تطرحها عليها بخصوص عنف الأسياد وسلطتهم الأبدية على الفتيات الصغار وعلى النساء. إنها تخشى ذلك، ولن تقول لها شيئاً بما أن ذلك قد دُفن كالشعور بالذل والموت من الداخل، إنه جزء محروق. نظرت لبخيتة التي انحنت قليلاً من التعب، وتضايقت من معرفتها بظهور آثار الجلدات والوشم على ظهرها. وتضايقت على الأخص من أن القراء سيطلعون قريباً على كل هذا. تصورت كلماتها وجملها المصفوفة كالحبال الأكثر صلابةً من السلاسل، وجدتها تقيدها وتنتهك خصوصيتها. لم تخبرها بذلك، يجب أن تخبرها بالطبع. "الناس سيقرؤون هذا أيتها الأم جيوزيبينا، أتفهمين ذلك؟ سيعرفون وهم ليسوا كثر. هم منا ولكنهم سيعرفون". لا تحظى مجلة *"الحياة الكنسية"* بجمهور عريض. ولكنها تعلم في داخلها وتعرف ماهية عدم النزاهة في الكتابة، وترفض الاعتراف الشفهي المسجّل والمنشور والمكرر، فقالت لنفسها: "يمكن لهذا أن يقع بأيدي الكل". كان ذلك حدساً أتاها وسرعان ما طردته من مخيلتها وخبأته بمفاجأة. فاليوم ستقوم بمفاجأة الأم جيوزيبينا. ستبرّئ نفسها مسبقاً مما قد يحدث؛ ما إن تُنشر القصة في المجلة التي تعلم أنها مسؤولة عنها.

ركبتا معاً الدراجة النارية وغلفتهما الرياح القوية، الأمر الذي أضحك بخيتة، فهي أحبت هذه الدورة القصيرة وسط ضجيج المحرك وتمايل العجلات ورأت الحركة الواسعة، بيد تمثال عذراء الماثل في أعلى القبة

القرميدية كما لو أنها تقدم لهما السماء هديةً. كان نهاراً سعيداً؛ فهي تركت فينيسيا لتعود وتجدها قد كبرت في بعدها عنها. "كم هذا جميل!" صرخت بخيتة، فأشارت لها إيدا بالإيجاب وهي تمسك وشاحها فوق شعرها الذي يتطاير من تحته.

وصلتا إلى جزيرة جيوديكا، إلى الدير الجديد للطفولة المتروكة. كانت مفاجأة لبخيتة ومفاجأة أيضاً لتلك التي أتت لرؤيتها، ألا وهي الأم فابريتي. فتحت لهما الباب الراهبة *البوابة* وهي فتاة شابة بدت طفلة في عيني بخيتة، وقالت أنها تعمل هنا منذ خمسة عشر عاماً وكأن ذلك برهان يشرفها. احمر خداها عندما تكلمت بخيتة معها، وفي عينيها نظرة فخر كونها رأت بأم عينيها الأمة القديمة التي رويت قصة هدايتها لجميع التلميذات. أخبرتها أن الأم فابريتي لم تعد تبرح مكانها، وأنها استدعت إحدى الأخوات للمبيت معها في غرفتها. جلست بخيتة منتظرةً. هل ستتعرف الأم المسنّة إلى طفلتها؟ هل يمكن أن تعرفها بعد قرابة "ثلاثين عاماً من الغياب. عشرة، هناك عشرة أعوام إضافية" هذا ما شرحته إيدا بيديها المفتوحتين. لم تعرف شيئاً ولم تجد أحداً تعرفه على الإطلاق.

تبعت كلاهما الأخت التي قادتهما عبر ممرات طويلة ممسوحة بالشمع، ترن فيها صرخات الأطفال وهم يلعبون ويرتطمون بالنوافذ العديدة. أمسكت إيدا بذراع بخيتة لتساعدها على المشي دون أن يظهر ذلك واضحاً، فتفاجأت بثقل هذا الجسد الذي يمشي وكأنه يُنتزع من الأرض انتزاعاً. فكرت طويلاً بهذه الكيلومترات التي اجتازها هذا الجسد في الصحاري

والهضاب. وأمام النظرات المرعوبة لمن يلتقي ببخيتة، فكرت إن كان من الممكن التمتع بالحرية لدى امتلاك جسد أسود كهذا.

توجهت بخيتة إلى الأريكة التي تجلس عليها الأم فابريتي متكومةً على نفسها ومنحنيةً كأنها تصلي، ذقنها يلامس صدرها فبدا عنقها ضعيفاً. ركعت لتصبح عند مستواها فوجدت نفسها عجوزاً مثل هذه التي تلتقيها بعد شعورها بألم نتيجة هذه الحركة. أصبح وجهاهما قريبين من بعضهما وامتزجت أنفاسهما، لم تتكلما بل نظرتا إلى بعضهما مطولاً. ثم قامت كل منهما بحركة بطيئة ولطيفة، إذ أحنت بخيتة رأسها ووضعت وجهها على ركبة الأم فابريتي. داعبت يد العجوز تسريحة شعرها ببطء مع تنهيدة في بادئ الأمر خرجت متحشرجة بصعوبة، تلتها سعلة؛ فهناك شيئ عالق في حلقها. خرج صوت بكاء حاد بلا توقف من وجه بخيتة المخبأ.

خرجت إيدا على أطراف أصابعها تاركةً المرأة العجوز وابنتها لتستعيدا استقلاليتهما من جديد بشعور من الحرمان والتعلّق، وهي تعلم أنه لايتعلق بالرب؛ ولكنه يعيد للبشر بعضاً من هذا الحب المختار الذي يكنّانه بشكل شخصي، والذي يجعل من المرء شخصاً فريداً.

- يجب أن نلتقط صورة أيتها الأم جيوزيبينا، صورةً لك لنضعها على غلاف الكتاب.

- ولكن أي كتاب؟

- سيصدر الكتاب بعد نشر القصة في المجلة، لقد أخبروك. ألم يخبروك؟

- وجهي المخيف؟ على غلاف كتاب؟

- كلا! لقد اعتاد الإيطاليون أكثر على وجوه الزنوج. سترين البطاقات البريدية يا إيدا؛ فهناك الآن الكثير من البطاقات الجميلة. أتعرفين البطاقة التي تظهر فيها الشابات الإيطاليات الراكعات أمام الفتاة الزنجية الصغيرة؟ بلى تعرفينها، تلك البطاقة التي تظهر فيه المطرقة! الصبي الصغير الراكع وهو يكسر سلاسل أمة شابة. لقد أراني أبناء أختي البطاقة. إنها مؤثرة حقاً!

أوصلت إحدى الأخوات الأم جيوزيبينا وإيدا من جزيرة جيوديكا إلى فينيسيا. وكان صوتها الحاد يغطي على صوت العربة البخارية. نظرت إليها بخيتة وهي مقطّبة العينين.

- وأنت أيضاً أيتها الأم؛ ستظهرين على غلاف الكتاب.

- أنا؟ ولماذا؟

- الراهبات الكنسيات يظهرن دوماً اثنتين، ولا أستطيع أن أظهر وحدي في الصورة.

ضحكت الراهبة للدلالة على الرفض المرح. فقد حدثوها كثيراً عن حس الدعابة لدى الأم موريتا. تركتها مع إيدا عند رصيف ميناء كاناريجيو، وعادت حالاً إلى الدير وهي سعيدة بلقاء هذه الأم السوداء ذات القصة الأسطورية حسب ما تعرف. ابتعدت ثم وضعت يديها على فمها على شكل بوق وصاحت بإيدا زانوليني:

- اكتبي لنا قصة جميلة!

صُورت بخيتة وحيدةً وهي واقفة وراكعة وتحمل كتاباً، وهي تضم يديها، وهي تصلي، وهي تبتسم بتحفظ، وهي تنظر إلى البعيد. حافظت على وقفتها ثابتةً إذ يجب أن ترفع رأسها وألا تتحرك. كانت تتحلى بتلك الكرامة وبتلك الأناقة الطبيعية التي تربك أولئك الذين ينبغي عليهم أن يختاروا من الصور. همسوا إلى بعضهم بأن مظهرها يعود إلى أن أباها كان أخا زعيم القرية كما أخبرت إيدا زانوليني. من يعرف؟ لو أنها كانت أميرةً إفريقية؟ آه... ما من شيء يضحك، إن حياتها... حياتها! كيف يمكن أن نقول؟ إنها.... نعم! إنها مثل عنوان القصة: رائعة. إن حياتها رائعة، أجل إنها حقاً *قصة رائعة*. يجب أن يعرف قصتها الصغار الإيطاليون كلهم، لكي يعرفوا ما يعانيه الأطفال في إفريقيا. عندها سيكونوا سعداء جداً بخدمة الزعيم موسوليني.

في شهر كانون الثاني من عام ١٩٣١، صدرت الحلقة الأولى من *القصة الرائعة* للأم جيوزيبينا، أي بخيتة، في المجلة الكنسية. وفي كانون الأول أصبح الكتاب في المكتبات. وهو يحكي عن جحيم العبودية، عن اللقاء المنقذ مع القنصل الإيطالي، عن حياتها في إيطاليا وصولاً إلى تعلم الدين. لم يثير الغلاف خوف أحد، فقد كان وجه بخيتة الأملس والحكيم بتسريحتها الكنسية مرسوماً على الخارطة الإفريقية الواسعة. كان وجهاً صافياً شبه ملون. في داخل الكتاب، تفسح الصورة المجال لنرى سواد بشرتها القاتم، إذ يلزم القارئ الإيطالي وقتاً ليعتاد الأمر. بعد أن تكلمت إيدا زانوليني في المقدمة عن التأثر بلقائها، أضاف الناشر عدة أسطر تحدث

فيها عن السبل المحببة التي أرادت بخيتة بطيبتها "الاهتداء بها من الصحراء البعيدة المظلمة المليئة بالشعوذات وبالبربريات، وصولاً إلى الربّ إلى نور المسيح وإلى أمجاد النعمة الإلهية في الكمال الديني". كانت هذه الكلمات الأخيرة تهدف للعمل التبشيري.

لم يحظ الكتاب بالنجاح فحسب، بل شكل ظاهرةً وسرعان ما نفد وأعيدت طباعته سنوات عدة، حتى عام ١٩٣٧. أعيدت طباعته عند انتهاء الحرب في إثيوبيا. لم تفهم شيئاً في البداية. لم تفهم لِمَ يرنّ جرس الدير طوال اليوم وأحياناً يرن ليلاً. ومع ذلك كانت تفتح *البوابة*، فتجد الناس قد جاؤوا من كل حدب وصوب ليس فقط من القرى المحيطة أو من المدن الصغيرة في فينيسيا، بل أتوا من تريستي وفيوم وفينيسيا وتورين، أتوا لرؤيتها ولمسها ولتلمسهم هي بدورها، لكي يحصلوا على المباركة والعلاج والعزاء. بعضهم كان يرتمي عند قدميها باكياً. وبعضهم الآخر كان ينظر إليها بذهول ويلمس ميداليتها، ويقبّل أسفل ردائها طالباً إليها أن تصلي من أجله. هناك منهم من هو مشرد أو مشعوذ، ومنهم من يمتلك روحاً جريحة. وهناك من هو فضولي أو ذليل أو هائج. وبالقرب من الأم البالغة السواد *موريتا*، وضعت الراهبات صندوقاً، فقد نُصح بعد لقاء الأم جيوزيبينا بمنح المال للبعثات الكنسية، فتسهم كل هبة ممنوحة بشراء عبد. وبهذا الشكل يشعر الناس الأكثر فقراً أنهم يشاركون بتوسيع الحزب. فالإيطاليون، أغلبهم أناس منفيون يعزفون على آلة المندولين. ولم يعودوا أولئك الفلاحين

الأميين والسكارى. بل هم أناس كرماء يعملون على إنقاذ الشعوب التي لم تعرف الحضارة بعد.

"هذا ما يريده الرب...". عندما يأتي المساء وتبقى وحيدةً في حجرتها، تفتح النافذة لتطل منها على الليل وتردد: "الرب يريد هذا" وترجوه أن يشرح لها ما يبحث عنه الجميع. فالأم العليا ضحكت عندما سألتها عن سبب مجيء الجميع لرؤيتها مع أن لديهم صورتها على غلاف الكتاب. ضحكت الأم ولم تجبها. تغيرت الأمور في الدير قبيل صدور الكتاب منذ صدور القصة، وطلبت إليها الراهبات ذات يوم أثناء فترة الراحة أن تنشد لهنّ أغنيةً إفريقية. لكنها لم تتذكر شيئاً من الأغاني الإفريقية. إلا أنهن ألححن بطلبهن قائلات: أنه يمكنها أن تبذل بعض الجهد. لم تتذكر سوى أغنية إفريقية واحدة. أغمضت عينيها، كان الوقت صباحاً من شهر نيسان والضوء شاحباً، كان الطقس مشرقاً، ولم تتمكن من تذكر الأغنية؛ الأمر الذي أصاب الأخوات بخيبة أمل وتركهنّ متأسفات خجلات كما لو أنها كذبت عليهنّ؛ كما لو أنها لم تأتي حقاً من "هناك". فهي لم تجلب معها شيئاً من إفريقيا، ما خلا لون بشرتها الشبيه بالشيطان رأت الشك والريبة في أعين بعضهنّ وهن يهمسن: لقد روت قصة حياتها ومع ذلك لم تتذكر أغنية واحدة؟ عذبها الأمر أياماً عدّة، ثم ذهبت محنية الرأس لتنشد بداية لحن لا يؤدي إلى شيء، محاولةً أن تلحّن بفمها وأن تتذكر صوتاً من الطفولة، أو موسيقا أمها التي لم تعد تزورها في أحلامها منذ أن كُتبت قصتها في الكتاب. لم تعد بخيتة تتذكر شيئاً عن أمها كما لو أنها قد تركت جذع شجرة الباوباب المنحني أرضاً، (وهي خصوصية احتفظت بها لنفسها). وكما لو أنها انهارت

في مكان آخر لا يمكن الوصول إليه. وربما تكون روح أمها وروح أبيها طلبتا إليها أن تحكي عن هزيمتهما. الطفلة الأمة هي الطفلة التي لم يجداها. صلّت من أجل هذا أيضاً، لكي يسامحها أهلها. ولدى سماعها صوت رنين المال وهو يسقط في صندوق البعثة الكنسية، لم تستطع منع نفسها من التفكير في بيناه وكيشمه وفي كل الأخريات. لذا فقد قبلت أن تكون تلك "الحيوانة النادرة" كما تقول هي. أحياناً كان التعب كبيراً والإنزعاج والضيق يجعلانها مشلولةً. سألت: "ليرتان من أجل شراء كتاب، ومن أجل رؤيتي؟" كم كانت تساوي؟ كم كان سعرها يوماً؟ لو أنها كانت في الستين من عمرها تعيش في السودان عند الأسياد لما استطاعت أن تقدم أية خدمات تذكر. تخيلت نفسها في شوارع الخرطوم المغبرّة والحارقة، جالسةً جنب جدار عار تشحذ كالآخرين. وتخيلت أيضاً نفسها في إيطاليا تتعرض للملاحقة والضرب من قبل الفاشيين الذين تلتقيهم بابتسامتهم المجنونة، وبانزعاجهم من كونها لا تزال في هذا العالم. شعرت بنفسها قريبة من ذلك، ولكن الرب أراد شيئاً آخر. ذات يوم تذكرت أغنيتها "عندما يولد الأطفال في ليون"، أعلنتها للأخوات بلهجة مواسية كطفلة ذات ضمير حيّ. فرحن كثيراً بالأغنية وكن فضوليات كثيراً حتى إنهن طلبن أن تنشدها لهن فوراً حتى وإن لم تكن ساعة الاستراحة قد حانت. فأنشدتها هناك في قاعة الطعام؛ حيث قمن بدفع الطاولات قبل أن يجلسن لكي يستمعن إليها ولكي يشاهدنها أيضاً: "يجب أن تصفقي وترقصي أيضاً أيتها الأم جيوزيبينا!"، لقد شاهدن الأفلام ويعرفن كيف يتم الأمر. غنت بخيتة أغنيتها كفتاة صغيرة مع أنها شعرت بأنها عجوز مسنة. هذه الأغنية التي غنتها للأطفال المتحلقين من حولها، البريئين وغيرعابئين بشيء. كانت هذه الأغنية مزيجاً

من اللهجات العربية والتركية. قامت بما تستطيع أن تفعله، فهي لم تعد تعرف لغتها الأم منذ وقت طويل. في البداية تضايقت الأخوات، فهذا الصوت أجش وهذه الكلمات ثقيلة، وهاتان اليدان اللتان تصفقان وهذا الجسد الذي يتحرك. لم يجرؤنَ على النظر إلى بعضهنّ، ولُمْنَ أنفسهن على الارتعاش. وعندما أغلقت بخيتة عينيها لتنهي الغناء، ورفعت يديها عالياً وظلت ثابتةً وضخمةً، شعرن بالخوف من أن يدخل أحد ويرى هذا الألم الذي لم يفهمن منه شيئاً.

بعد ذلك ولإنهاء حالة الضيق التي اعترتهنّ، قررن أن يضحكن من الأمر الذي تحول إلى عادة في فترة الاستراحة، فأصبحن يطلبن إلى الأم موريتا أن تنشد لهن أغنيتها لكن دون أن تغمض عينيها، أن تغني "بالإفريقية" حتى النهاية وهي تفرقع بيديها وترقص ناشرة الفرح طوال الوقت. بدأت بخيتة تشعر بألم كبير في رجليها وفي ظهرها وحتى في ذراعيها، فقالت لنفسها: إنها لو كانت اليوم في الخرطوم لأصبحت متسولةً حتماً. ولا استطاعت أن تخدم في أي منزل. ولما طلبت إليها أية سيدة صغيرة أن تغني أو أن تقلد القرد لتسلي ضيوفها.

كل أولئك الناس الذين أصبحوا يأتون لرؤيته، يعرفون بالطبع ما ينتظرهم؛ فهم قرؤوا الكتاب وتملّكهم الفضول والحيرة ولكن لم يعد الخوف يتملكهم. أصبح الوضع اليوم أفضل مما كان عليه في بداية عملها *كبوابة* عندما كانت تثير الخوف في نفوس الأطفال في الأيام الأولى من المدرسة التي كانت الأسوأ. لم يكن الصغار يريدون أن تلمسهم، وكان بعضهم ينفجر بالبكاء لدى رؤيتها، بينما يظل آخرون جامدين أمامها. كانت حقاً تشبه

زوجة *الرجل الأسود*، شيطان القصة، ذلك الشبح الأسود الذي كان أهاليهم يهددونهم به عند ارتكابهم أدنى حماقة. هل لها رجلان تحت ثوبها؟ هل تنفث الدخان من أسفل جسمها؟ هل تختبئ ليلاً تحت أسرّتهم؟ إضافة إلى ذلك الخوف الدائم من أن توسخهم، أو تنقل لهم العدوى أو تخطفهم لتأكلهم. تذكرت الصبر الذي كان عليها التحلّي به لتهدئتهم، هؤلاء الأطفال الذين كبروا مع خوفهم، والذين أبدل ذووهم اللباس الموحد التابع للحزب الفاشي؛ ثيابهم عبارة عن فساتين وتنانير وقمصان سوداء اللون، مع هذه الرغبة في القيام بأداء جيد وفي أن يكونوا مثل الآخرين يتمتعون بالقبول وبالمصداقية. لم تكن تريد سوى شيئ واحد: أن تستقبلهم بأفضل ما لديها، أن تكون البوابة الأفضل على الإطلاق. تعلم أنه من المهم أن تعرف كيف تبدأ يومها. فهي تُجلس الصغيرات قبل أن يرن الجرس وتروي لهنّ قصة حياة يسوع وقصة حياتها. كانت تود أن تتوقف عن السرد وعن الإجابة، بل كانت تفضل أن تروي قصة العبد المصلوب، كيف كان الناس يرغبون في اتباعه وفي الاستماع إليه، كيف كان يحب الفقراء والمرضى والأطفال الصغار. ولكن الكثيرين كانوا يفضلون كتاب موسوليني المشروح للأطفال، أو تلك القصائد التي تقرؤها التلميذات بمنتهى السرعة وهنّ يصفقن بأيديهنّ: "كان اسمها روزا، اسم معناه الأشواك ولكنه كان وردتها، بينيتو، ابنها، قالت له وهي تقبّل جبينه: أنت لي! وهي تعلم أنه لإيطاليا وللرب". إنها لعبة وطريقة جديدة للعيش، أن يكونوا متجمعين بمجموعات حول القائد الذي ينهض بإيطاليا، بعد أن جعلت منها الحرب الكبرى بلداً "أسوأ من مأوى للمجانين أو من قبيلة إفريقية".

استمرت باستقبال الأطفال في الدير والزائرين حتى عام ١٩٩٣، وظلت ترد على النداءات المستمرة لقرّاء قصتها *الرائعة*، سواءً أكانت في الدير أم في المدرسة أو في الكنيسة. ما إن يرن الجرس حتى تذهب إليهم؛ إما لتعترف بتلقيها معاملة سيئة من جلد ووشم، أو لتتكلم عن المشي الطويل وعن الجوع والعطش، فلم يعد جسدها يقوى على المزيد. استسلمت في اللحظة التي كانوا يحتاجون إليها بشدة. كان جسدها يريد التوقف عندما كان عليها أن تركض لتلبي طلبهم، ولطالما فكرت في أن عليها أن تلبي النداءعندما يطلبونها. ولم تكن دوماً تفهم ما المطلوب؟ ولم هذه الحاجة إلى الاقتراب منها؟ لماذا هم يقرؤون قصتها بهذا الكمّ من الشغف؟ ألا يرون ما يجري هنا؟ ألا يرون الفلاحات الصغيرات؟ ألا يعرفون أنه يوجد في الدير الكثير من الأطفال الذين لا يعرفون تاريخ ميلادهم؟ لماذا لا يطلبون إلى اليتيمات أن يروين قصتهن الرائعة، أولئك اليتيمات اللواتي وصلن إلى الدير بلا ملابس داخلية متسخات وصامتات بعد تعرضهن لمعاملة سيئة ومشينة؟ لم تفهم، ثم قبلت بألا تفهم، فهي تلك المرأة المتدينة التي تحمل قصتها على جلدها كالندبة، وتخبئ قدر استطاعتها آلامها في رجليها الممتدة حتى آخر ظهرها. لم تطلب يوماً أن يفحصها طبيب بالسماعة ولم تظهر للممرضة يوماً الكتل الصغيرة الغريبة التي تظهر على ندوبها وتحرق جلدها.

أخطرت ذات يوم بأن عليها الرحيل، لقد بلغت الرابعة والستين من عمرها، وعليها أن تغادر مدينة شيو. جعلتها الأم العليا تلتقي الأم ليوبولدا بينيتي التي عادت من الصين في بعثة استمرت أكثر من ثلاثين عاماً.

- أتعرفين أين تقع الصين أيتها الأم جيوزيبينا؟

أشارت بخيتة بالنفي؛ فهي لا تعرف الصين، وابتسمت قدر المستطاع للأم بينيتي التي نظرت إليها بكثير من الفضول.

- الصين بعيدة جداً. أبعد من إفريقيا.

هزت الأم بينيتي رأسها كأنها تقول "آه... نعم! هذا ممكن إنه بلد أبعد من إفريقيا!".

أخبرتها الأم بينيتي أنها قرأت الكتاب. فهزت بخيتة رأسها. الكتاب، أجل، لماذا يطلب منها الجميع التكلم عنه، وهل يتكلمون معها عن شيء غيره منذ صدوره؟ أجل، استمعت إليها وهي تتحدث عن نفسها وعن طفولتها، وعن اعتناقها الدين؛ ومن ثم عن البعثات التي، كما تعلم، أصبحت أكثر انتشاراً في أفريقيا والسودان و ليبيا. استمعت إليها منتظرة الطلب الذي يليه؛ فهناك دوماً طلبٌ في نهاية الحديث.

- كل هؤلاء العبيد الذي ينتظرون إعادة شرائهم. كل هذه الحيوات التي تنتظر إنقاذها.

- نعم.

- وأنت...الإيطاليون يحبونك كثيراً.

- أنا؟

اعتذرت الأم العليا من براءة بخيتة قائلةً:

- بخيتة هي التواضع ذاته. أيتها الأم جيوزيبينان؛ وتستطيعين أن تساعدي مبعوثينا.

- ولكن كيف؟

- الناس يأتون من إيطاليا كلها لرؤيتك أليس كذلك؟ إذاً الآن أنتِ من سيذهب إليهم للقياهم.

- سأرحل؟

- نعم سترحلين.

- ألن أبقى؟ سأرحل؟

طُردت هذه المرة أيضاً، إنه خطؤها؛ فهي باحت بالكثير، وأصبح المكان الذي تحتله خانقاً لا يطاق. تعرف ذلك وتشعر أحياناً بأنها علم واسع منصوب أمام الدير. خبأت كل ما تبقى من العمل الخاشع والصبور الذي كان يقوم به الآخرون، وتذكرت السعادة التي اعترتها عندما عملت في المطابخ وفي خدمة الدير. تذكرت السعادة في ذلك الزمن السابق للحرب عندما كانت الصغيرات تناديها في الباحة: "مويتا الحلوة! تعالي!" لم يعد ينبغي أن تجمعهم وتروي لهم قصة الأمة الصغيرة الفارّة، النائمة على الأشجار والناجية من الحيوان المفترس، هكذا بدأ كل شيء.

- أتسمعينني أيتها الأم موريتا؟ أتريدين أن تساعدي على إعادة شراء العبيد؟ أتساعدين على إنقاذ أخوتك الإفريقيين؟

- في إفريقيا؟

فردت الأم بينيتي خارطة إيطاليا على المكتب. كانت بخيتة قد رأتها أيام الحرب، هذا البلد الطويل المليء بالجبال والبحار.

- سنرحل أنا وأنت لنعلن عن الكلام الجيد. أنا وأنت...والكتاب. سنقطع إيطاليا مارّتين بكل الأديرة الكنسية في البلد، وسنجمع مبلغاً من المال من أجل مبعوثينا.

- عليّ أن أقول أيتها الأم، عذراً... فأنا أمشي بصعوبة بالغة.

لم تفهما فوراً، فالرحيل بالنسبة إلى بخيتة يعني أن تمشي. وعندما فهمتا قصدها رغبتا في الضحك وفي احتضانها في الوقت نفسه بحركة ملؤها الحماية والعرفان. لأن الفكرة التي طرحتها الأم ماريا تشيبولا الأم العامة كانت حقاً فكرة جيدة: "تغيير نظام الدير وذلك بجعل الأم جيوزيبينا تدور إيطاليا بأكلمها. وبهذه البساطة في الفكر وبهذه البراءة، ستكون فعلاً ممثلة جيدة للشعب الإفريقي!

عزمتا على ركوب القطارات، عشرات القطارات التي تمر بالبلد كله على مدى ثلاثة أعوام. قبل أن ترحل بخيتة، باحت لإلفيرا بأنها منزعجة من فكرة التحدث عن كتاب لم تكتبه، لاسيما وأنها تجد صعوبةً في القراءة. طمأنتها إلفيرا قائلةً: إن الأم بينيتي (الصينية كما يسمونها) ستقوم بترجمة لهجتها الفينيسية، وأن كل شيء سيجري على مايرام. فالناس يحبونها كثيراً، هم يحبونها دون أن يعرفوها. حاولت إلفيرا تهدئتها في الوقت الذي ودت لو تقول لها لا تذهبي. فمن حقها أن ترتاح ومن حقها أن تكون كالآخرين، امرأةً متدينة متعبة ومحبوبة من قبل تلميذاتها القدامى، ومن المعلمات العلمانيات واليتيمات وكل من عاش وكبر معها.

- سألقاك أيتها الأم، سآتي لأراك أعدك بذلك.

- معلّمتك لاتريد ذلك.

- لا تقلقي بخصوص معلّمتي!

- كم من الوقت سأغيب، تعتقدين؟

- لا أعلم.

- عصا لأمشي، أستطيع أن أحمل واحدةً.

- سأطلب إليهم ذلك.

ظلتا برهةً بلا كلام، كانت إلفيرا تنظر إلى لوحتها المتروكة هناك، كانت تختلف عن اللوحات التي يرسمها الآخرون عن بخيتة. فهذه الصورة التي تم تداولها تظهرها حكيمة جداً بشفتيها المغلقتين، وبقلبها الصامت عن كل العذابات المخفية. وكأنها تكهنت بأفكارها، قالت لها بخيتة معترفةً:

- أتعرفين يا إلفيرا، لقد عادت أمي. فهي سامحتني على الكتاب.

- أرأيتها؟ في الحلم؟

- ليس في الحلم. لقد قبّلتني.

كانت إلفيرا تحب بخيتة جداً عندما يبدو عليها وكأنها في الخامسة من عمرها، عندما تعض على فمها وتمسح رموشها، وتظهر نجمة زرقاء صغيرة في نظرتها المندهشة.

- كيف هذا، كيف قبّلتك؟

- كان الطقس بارداً، كنت نائمةً. أتت وقبلتني على خدي، وسامحتني.

- نعم يا أمي العزيزة الصغيرة، لقد سامحتْكِ والآن لن تتركك مطلقاً.

- أتظنين؟

- من يريد أن يتركك؟

ضمتها إليها وهمست:

- دعي الصينية تحمل حقيبتك، اتفقنا؟

لدى شعورها باهتزاز بخيتة ضاحكةً على صدرها، علمت أنها بعيدة عن فهم ما ينتظرونه منها. فهي آتية من إفريقيا حقيقية. أما هم فسيسألونها عن بلد مخترَع. أمها تأتي لتقبّلها ليلاً في حين أنهم سيطلبون إليها أن تروي قصة امرأة حبشية برية. كان الخطاب الرسمي يهدف إلى إظهار أفضل ما لديهم عن إيطاليا، فالاطمئنان والأمل قد مرّا عبر أصوات البسطاء المتوجهة إلى مخاوف الشعوب، إلى خوف الآخرين، إلى أولئك البرابرة.

على مدى أعوام كان الناس يأتون بالآلاف في مجموعات مدرسية وجامعية، إلى جانب الكثير من الأطفال المرضى و الحجاج، أتوا للاستماع إليها، ولرؤيتها على وجه الخصوص. زارت الكنائس والمسارح والمدارس، وفي دير كاستانديلو أتى أناس لم يدخلوا كنيسة في حياتهم، ليقبلوا يديها، وليعودوا وهم يبكون. التقت بالكاردينال مرة واحدة في كل من فلورانس وبولونيا وأنكون، وفي لودي التقت بالأسقف الذي استقبلها بمعزوفة خاصة. وفي ترينت التقطت لها صور رسمية. وفي ميلان التقت بالأطفال الآتين من المنزل الكنسي الذي يتم فيه تعليم الأطفال الصم والبكم. هرب

الأطفال لدى رؤيتها، ولكن اقتربت طفلة منها، ووضعت إصبعها عليها ووجدت أنها لم تتسخ، فأشارت للآخرين بالمجيء. اقترب المجميع وضمتهم بين ذراعيها وطلبوا أن يقبلوها، وبقيت معهم طوال فترة بعد الظهيرة. أروها لغة القرود فردت بحركاتها العشوائية، وشعرت معهم بأنها مفهومة. وفي فينيسيا تمت دعوتها للإحتفال بمئوية تأسيس الدير. وفي معهد تعليم المبتدئين في فيميركاتي طُلب إليها أن تتولى عدة أيام العمل في *البوابة*. رفض أهالي الطلبة المبتدئين العودة طالما أن هناك راهبة بيضاء لم تظهر. وازدحمت طرقات المدينة بالناس الراغبين في رؤيتها لدرجة أن الترامات امتلأت بالكامل، ونزل إلى الشوارع أربعة آلاف شخص. وفي أماكن أخرى صعد الناس على المنابر مطالبين بحضورها للوعظ. الجميع كان بانتظارها في المحطات، ولدى وصول القطار كان بعض الناس يرددون التراتيل، وينشد بعضهم الآخر الأكثر التزاماً بالسياسة، أغنية "الوجه الأسود" التي تقول: "وجه صغير أسود، حبشية صغيرة ستقودنا إلى روما المحررة، ستقبلك شمسنا، وستكونين نقية بالقميص الأسود". سألوها إن كانت تعرف جوزيفين باكر التي كان عشيقها من صقلية والتي مرت بدورتها الكبيرة عبر إيطاليا. سألوها إن كانت قد قرأت هذا الكتاب الذي يتكلم عن الفضيحة *"سامبادو، الحب الأسود"* الذي أمر موسوليني بمنعه لأنه يشكل إهانةً لكرامة العرق. (يظهر غلاف الكتاب امرأة بيضاء تقبّل رجلاً أسود، وفي نهاية الرواية تعترف المرأة الإيطالية بهمجية عشيقها، ويعود هذا الأخير إلى قبيلته). إنها تمثل إفريقيا، وقيل إنها "لون إفريقيا". أما هي فستعترف بكل بساطة بعد وقت طويل قائلةً: "كنت أشعر بأنني أقع في العدم".

كان ما طُلب إليها بسيطاً جداً في الأصل، وكانت سلسلة اللقاءات صادقةً. تكلمت الراهبة المبعوثة الأم بينيتي عن البعثات الكنسية وعن النقص بالأموال، وعن حالات اعتناق الدين وعن العبيد الذين يعاد شراؤهم، وعن حياة المبعوثين، وخاصةً عن موتاهم نتيجة المرض أو حالات العنف أو الفقر. ثم طلبت أن تنضم إليها. وكانت تلك هي اللحظة التي ينتظرها الجميع والتي أتوا من أجلها، وكانوا مضطربين حتى قبل البدء. تقدمت بخيتة من المنصة ودخلت في مجال الضوء، ثم تركتهم ينظرون إليها قليلاً، لأن هذا مايريدونه وهي تعلم ذلك. بعد أن مضى شعورهم بالدهشة وبلذة هذه الدهشة أخذوا يبحثون فيها عن الفتاة الصغيرة الموجودة في الكتاب، عن الفتاة النصف عارية في سوق العبيد في الخرطوم. التزموا الصمت وكان ترى من وقت إلى آخر ذلك العصفور الأبيض الذي كان يحلق فوق مدينة العُبيد عندما يطلب الشاري رؤية البضاعة، عندها يتوجب عليها أن أن تلتقط العصا، وتركض وتنزل أرضاً، وتظهر أسنانها، أما اليوم فلم يعد بمقدورها أن تفعل ذلك لا هنا ولا على الملأ. لم تعد تستطيع سوى أن تستند إلى عكاز لكي تمشي. أبقت العكاز في غرفة الملابس وتقدمت وهي تعرج ببطء لتصبح قبالتهم. بعد ذلك، طلبت إليها الأم بينيتي أن "تقول الكلام من القلب". ستتكلم وهي تعلم أن صوتها سيفزعهم، وأنهم سيحبون هذا الخوف الذي يعبر هو أيضاً بشكل جيد عن "إفريقيا". حيّتهم وبلهجتها السيئة من البندقية وشكرتهم جميعهم قائلةً: "سأتذكركم في صلواتي". وأحياناً كانت تضيف قائلةً: "أريد أن أراكم جميعاً في الجنة". ثم نزلت من على المنصة. لم تكن تريد، لكن ذلك كان أمراً

فأطاعته. "(أيتها الأم جيوزيبينا، هناك ثلاثة أشياء؛ أولاً: ما من عكاز خلال اللقاءات. ثانياً: لا تترددي باستخدام لهجتك الإفريقية. وأخيراً: لا تترددي أبداً بالنزول وسط الحضور وبفعل ما يطلبونه"). وقّعت الكتاب وتلقت التبريكات، وجلست وسط من يريديون "تحديدات" حتى إنها أرتهم الندوب على ذراعها عندما أصروا على ذلك كثيراً. وبأيقونة العذراء قامت بمباركة الأطفال المرضى، وأثناء التبريك صلّت من أجل كل أولئك الذين شهدت موتهم في السودان وفي إيطاليا. وأبدت حنانها الكبير اتجاه هؤلاء الأطفال الذين لم يطلبوا شيئاً. فهم كانوا ينظرون إلى أمهاتهم متمنين أن يحصلن هنّ أيضاً على مواساة الأم جيوزيبينا. أولئك الأمهات التي رغبت بخيتة في احتضانهنّ ولكنها لم تفعل.

وهكذا فقد اختلطت بالحشود وتكلمت مع الطلاب والصحفيين المحليين، ومع الفضوليين ومع الصادقين، وأخبرتهم مايجري بأثيوبيا.

في الثاني من شهر تشرين الأول عام ١٩٣٥، ذهبت إلى ساحة بيرغام للانضمام إلى التجمع حيث سيستمع الجميع لخطاب الزعيم موسوليني، الذي سيبث مباشرة عبر المذياع. أشارت الأم بينيتي إلى مكان خروج الصوت من المكبرات المعلّقة في الأشجار قائلةً:

- الزعيم موجود في قصره في روما، ومع ذلك فهو سيتحدث، وسنسمعه في كل إيطاليا وفي كل الساحات، سيكون الأمر نفسه. العالم بأسره سيسمعه.

- نعم.

- لا يجب أن تظهري أي علامة على عدم الفهم أو عدم الموافقة.

- أعلم.

- لا يجب أن يبدو عليك أي شيء. وما لم تفهميه سأشرحه لك لاحقاً.

- نعم.

- لنتنحّ جانباً قليلاً.

فهمت بعد ذلك لماذا كانت الأم بينيتي تحميها من فضول الحشود. فما كان سيُعلن في ذلك الخطاب ليس من الواجب أن يكون المرء أسود ليسمعه وسط كل هذه الجموع المبتهجة. من الأفضل أن تجلس بعيدةً بعض الشيء، على مقعد في ظل شجرة زيزفون تخفيها عن الأنظار قليلاً.

سمعت عزف الأوركسترا قبل الخطاب ثم صياح الجماهير، ثم إعلان وصول الزعيم، ولم تنسى أبداً موسيقا موسوليني. كانت تستمع بانتباه من يبحث عن كلمات يفهمها ويتلقى معنى الكلام. كانت تسمع عبارات "ثورة!" "كل إيطاليا!" "وحدة الوطن!" "المصير!" "تحديد!" "الكل موحّد!". كان الإيقاع بطيئاً متقطعاً في البداية كقصة تبدأ أحداثها تتصاعد محمّلةً أولاً ببطء ثقيل، وبعبارات قصيرة يقطعها صياح الجموع الآتي صداها من المذياع ومن ساحة بيرغام. كان بخيتة تسمع نبرة الغضب في صوت الزعيم التي جلبت الغضب إلى كل الإيطاليين وفي جميع الساحات. ثم تغير إيقاع الخطاب فأصبح حديث الزعيم أكثر هدوءاً، وانخفض صوته العميق إلى أدنى مستوى كغناء كاروسو. وفجأ اشتعل صوته وتصاعدت

حدته، ثم انخفض من جديد فبدا خشناً مثقلاً بالتمرد وهو يردد حرف (الراء) بقوة تضرب كقرع الطبول. كانت جمله مليئةً بالغضب والحنق، وبدا أحياناً أن الزعيم على وشك البكاء ولكنه كان يعود ليزأر من جديد بذلك الهياج الذي لا يمكن إيقافه، والذي يمنحه تلك الطاقة الرهيبة. بعد ذلك سمعت بخيتة تواريخ وأرقاماً صرخ بها الزعيم مغذياً ثورة الجموع المنهكة والمهتاجة، هي أرقام أشعلتهم وبدوا وكأنهم في طريقهم إلى الحرب، ولهذا أخذوا يرددون "الحرب!!!" "إيطاليا البروليتارية والفاشية!!!". وجد الرجال في الساحات أنفسهم أمام هذه الكلمات وكأنها هي ما كان ينقصهم في حياتهم. في نهاية الخطاب امتزجت صرخاتهم مع أصوات الأزيز المنبعثة من المذياع. كان موسوليني في داخلهم، دمه يجري في شرايينهم، ظل صوته يرنّ في آذانهم وقتاً طويلاً بعد إطفاء مكبرات الصوت. لم تدري بخيتة مافعله الزعيم موسوليني عقب خطابه الموجه لكل إيطاليا في الوقت نفسه. ومن مقعدها الموجود بجانب الساحة رأت الفرح يعم في الأناشيد والصرخات، والبكاء العناق بين الناس من كل الأعمار ومن الجنسين. أما الأطفال الذين يرتدون القمصان السوداء، وأقل فهماً لما يجري، فقد كانوا سعداء لأن الجميع سعداء. كانت إيطاليا الفاشية تتقدم في وحدة أصواتها معلنةً عودة المدى الحيوي إليها، ومنتقمةً من الظلم الذي كانت ضحيته منذ وقت طويل. لن تكتفي بالفتات من الوليمة الاستعمارية، هذا ماأعلن عنه الزعيم الذي صرخ قائلاً: "آه... أثيوبيا، منذ أربعين عاماً ونحن صابرون. والآن يكفي!". كان آنذاك فرح الإيطاليين عنيفاً كما لو أنهم التقوا بأحد

يشتاقون إليه وكان من المستحيل أن يعيشوا من دونه. ولكنهم يشتاقون لأنفسهم ويعتقدون أنهم وجدوها بقتالهم ضد "تلك الكلاب الحبشية"؛ لأن الاستعمار سيجعل منهم أناساً أغنياء ومحترمين.

عندما تكلمت مع كل هؤلاء الآتين بأعدادهم الكبيرة ليستمعون إليها (وليروها أكثر من أن يسمعونها، وليلمسوها أكثر من أن يرونها ببساطة)، عندما قامت بهذا التواصل مع الإيطاليين، علمت بخيتة أن أثيوبيا، ذلك البلد القريب جداً من بلدها، هو بلد لا أخلاقي ولكنه يتمتع بثروات لم تُستثمر بعد كالبترول والذهب والفضة والبلاتين والنترات والكبريت والحديد. فيها كل شيء وهم سيستولون على كل شيء، سيجتاحون وينقّبون ويحفرون هذا البلد الغرائبي والبربري. إنهم يعرفونه جيداً وقد رأوا تقارير مرعبةً تتكلم عن التبزيم وعن تقديم الأطفال كقرابين. وتداولوا سراً فيما بينهم صوراً ممنوعة عن إفريقيين يظهرون ببشرتهم كالشياطين. لا تحوي أثيوبيا ثروات لا تعد ولا تحصى فحسب؛ بل تحوي أيضاً أوهامهم ورغباتهم المكبوتة منذ وقت طويل، وسفنهم البخارية المرسلة إلى هناك محمّلةً بالجنود والفلاحين والعمال ورجال الدين والمبعوثين التبشيريين. إضافةً إلى إيطاليين مهمتهم بإنشاء مواخير إيطالية لكيلا يختلط العِرق الأبيض؛ ولكي تتجه كل هذه الرجولة إلى المكان الصحيح.

كتب أندريا فابياني إلى صحيفة رعوية بسيطة طالباً، على غرار الكثيرين غيره، إجراء مقابلة مع بخيتة. جعلها تعيد ما كُتب سابقاً في الكتاب، وأن تعيد حديثها الذي قالته للجموع. قالت وكأنها تتلو شيئاً، وكان بإمكانها أن تروي كل شيء تقريباً بالإيطالية طالما أنها سمعت الأم

بينيتي تروي قصتها باللغة الرسمية، ألا وهي لغة الكتاب. إلا أنها عملت جاهدةً لكي تكون حاضرة لما تفعل، ولكي تروي القصة وكأنها تفعل ذلك للمرة الأولى ولكن دون الألم الذي اعتراها آنذاك. استفاد أندريا فابياني من لحظة غياب الأم بينيتي، فطرح سؤالا على بخيتة بصوت منخفض، وبسرعة إلى حدّ أنها لم تفهمه، فردت بابتسامة اعتذار، وبدا على الصحفي بعض الخجل.

حفظت بخيتة الكلمات وأخبرتها غريزتها أنهم خطيرون، وأنه يجب أن تقترب منهم بحذر. وبهذا الحذر سألت الأم بينيتي، في القطار الذي ركبتاه ليقلّهما من دير إلى آخر، سألتها عن معنى كلمة "زرنيخ".

- زرنيخ؟ إنه سمّ. ولكن لم تسألين عن الزرنيخ؟

أغمضت بخيتة عينيها، كانت تشعر بحرّ فظيع، وكانت يداها ترتعشان وهما تضمان مسبحتها. ظنت الأم بينيتي أنها تصلّي. مشت في الحقول الأثيوبية بالقرب من بحيرات فيها أسماك ميتة، وأنهار مسمّمة فيها جثث متخشبة. عبّرت كلمات أندريا فابياني عن هذا المشهد القاتل بقوله: "لقد أطلقوا الغاز على أهالي البلد، أتفهمين ما معنى غاز؟ رموهم بقذائف فيها الزرنيخ وغاز الخردل. الزرنيخ، أنت تعرفينه طبعاً؟ فعلاً سمعت ذلك عبر إذاعة أجنبية".

حاولت إخفاء ألمها بقيادته وتوجيهه، واحتفظت به لنفسها. وفي المساء في حجرتها الواقعة في الدير الذي استقبلها للمبيت فيه، جلست تبكي، فقد كانت تشهد حالة الفوضى الهوجاء التي تجتاح العالم ولم تدري أين يمكنها أن تضع تمردها.

سمعته يتحدث في المذياع، وأصبحت تعرف الصور والرسومات والصحف والتقارير والبطاقات البريدية. ورأته يروض أسداً ويمتطي حصاناً، ويعتلي المدافع ويعمل بالمعول ويضع البذور، ويقف عاري الجذع ليدرس القمح أو ليتزلج. رأته وهو يقبّل الأطفال ويراقب الجيوش، ورأت صورة وجهه على خريطة إفريقيا، مثل صورتها التي وضعت على غلاف *القصة الرائعة*. أصبحت أثيوبيا اليوم إيطالية، وسوف تلتقي اليوم بالزعيم في مكان إقامته الخاصة في قصر فينزيانو الذي يتحدث منه إلى إيطاليا كلّها.

كان الطقس بارداً في الحادي عشر من شهر كانون الأول عام ١٩٣٦، كانت روما آنذاك مليئةً بالساحات الواسعة وبتيارات الهواء وبالأنقاض والشوارع المظلمة، كانت عكازتها تنزلق على البلاط المجمّد الذي وجدت صعوبة بالسير عليه. تقدمت وهي منحنية وتستند إلى اثنتين من الراهبات تمسكان بها بتأثر كما لو أنهما مقرّبات إليها. صحيح أن الغرباء باتوا يعرفونها الآن. حدثته عن أبيها وعن ليلة هروبها وعن المرعى، وكلما تحدثت عن حياتها أكثر، غدت هذه الحياة بعيدةً عنها. عندما باحت بقصتها لإيدا زانوليني، كانت تجهل أن قصتها ستوثّق في كتاب وأنه سيُطلب إليها أن تهدي هذا الكتاب لزعيم حرب. لو أنها عرفت ذلك وهي تهمس في الرواق الصغير لكنيسة القديس ألفيس، لو أنها تعلم أن ما ينتزع منها سيُباع بليرتين في البلد كلها، لكانت حقاً احتفظت لنفسها بخصوصيتها، لكانت تحدثت عن الأطفال والعبيد وعن الشهداء بأعدادهم التي لا تحصى. ولكن لم تملك القوة لتتحدث عن الآخرين، عن أخيها وعن أختها التوءم أو عن كيشمه، ولا عن الصغار الذين كانت تروي لهم القصص وتغني لهم الأناشيد، وهم أطفال قريتها. لكانت حمتهم من هذا، لكانت حمتهم من قصر موسوليني.

تقدمت والرياح المجمدة تلسعها؛ تصفر وتدفعها، مشت منحنية ولم تكن ترى سوى قدميها وعكازها، لديها ثلاث أرجل غبية تتحرك بصعوبة. لم تتمكن من اللحاق بالجموع المكونة من الراهبات المزمع إرسالهنّ كمبعوثات إلى أديس أبابا، ويعتريهنّ الفضول والخوف من فكرة اكتشاف هذا البلد الذي أنقذه الزعيم. توقفت فجأة والتقطت أنفاسها ورفعت رأسها، كانت هناك قبالة القصر وكأنها بالغة الصغر. رأت الشرفة التي كان يطل منها ليلقي خطابه، هو مستعد للبكاء ولقتلهم جميعاً وهي تعلم ذلك، فهذا الرجل يملك صوتاً مرعباً تعرفه جيداً، آه نعم هي تعرفه جيداً. كادت أن تنحني ولكن الأخوات أمسكنها قائلات: "لا تركعي الآن أيتها الأم، انتظري لتصبحي أمامه". أصبح نظرها ضبابياً، وأخذت الرياح تضرب رداءها وتلسع رجليها المتضررتين. تذكرت اختباءها مع بيناه خلف شجرة الأكاسيا الضخمة عندما هربتا وسمعتا صوت الحارس تحمله الرياح وهو آت يقترب باحثاً عنهما. وتذكرت صوت السلاسل البطيء وصوت تنفس العبيد. نظرت إلى الشرفة الصغيرة التي يرفرف فيها علمان إيطاليان. استدارت نحو الراهبة المبعوثة وقالت لها:

- الشيء الأول الواجب فعله مع الأطفال...

تحدثت بخيتة بصوت منخفض جداً، فلم تسمعها الأخت بسبب الرياح القوية، لهذا صرخت وهي تشدد على الكلمات:

- لا أفهم ما تقولين؛ لنستعجل!

قبضت بخيتة على عكازها وهزت رأسها، ثم قالت لنفسها بصوت منخفض:

- أول ما يجب فعله مع الأطفال، هو تقديم الشراب لهم.

ثم دخلت مع الأخوات المبعوثات إلى منزل الأفاعي الواسع.

ستقابل بعد عدة أيام قضتها مع مبعوثات دير الإحسان الحادي عشر الذي سيشكل القمة في جولتها. وظنت بعد ذلك أنها ستعود إلى شيو؛ لكنهم وضعوها *بوابة* في دير راهبات الإحسان الكنسيات في مدينة فيرميكاتي القريبة من ميلان التي زارتها سابقاً، والتي تتحضر الطالبات المبتدئات فيها للرحيل في بعثة تبشيرية. كانت تشبه جسراً يصل القارتين؛ وتطمئن الأهالي القلقين الذين يشهدون رحيل فتياتهنّ الصغيرات المتحمسات والجاهلات لكثير من الأمور. كانوا يخافون من فقدانهنّ ولم يكونوا مخطئين. فأثيوبيا حاولت عبثاً أن تكون إيطاليا كما أن الأثيوبيين مازالوا أناس أفارقة تمردهم بعمليات انتقامية دامية من قوة عسكرية لا يساوون شيئاً في مواجهتها، الأمر الذي تجهله إيطاليا كلياً. ولكن لا يمكن السكوت وقتاً طويلاً عن أعمال القتل والنفي ومعسكرات الاعتقال. والناس يمررون الأموال والبنادق. هناك شقوق في الجدران من أجل من يرغب في رؤيتهم بشكل جيد، ووُضعت ظلال كبيرة لتقي الزعيم من الشمس. أما أولئك الذين عادوا من أثيوبيا سواءً أتكلموا أم رفضوا الحديث، فهم اعترفوا ربما رغماً عنهم بتعرضهم للإهانة. إلى جانب النية الطيبة لدى المبعوثات، هناك تجارة الرجال والأطفال والفتيات الصغار الذين يعاد شراؤهم، ويتم إهداؤهم أو تركهم في الطريق أثناء العودة إلى إيطاليا. فمن جهة هناك الالتزام الصادق، أما من الجهة الثانية فهناك عمليات النهب. كان موسوليني منتشياً بقوته ويقود جيوشه التي من شأنها

أن تدعم القوميين التابعين للجنرال فرانكو "للدفاع عن الحضارة المسيحية". فهو كان جائعاً والعالم ملك يمينه ويريد احتكار كل شيء. كان رجلاً لا يمكن تدميره؛ رجلاً ثملاً ومختلاً. سافر بعد فترة قصيرة في رحلة رسمية إلى ألمانيا حيث صعد هناك إلى شرفة أخرى، وأطلق خطاباً آخر بالهياج نفسه وهو يتكلم عن العمل وعن الشباب وينعت الشيوعية بالإهانات نفسها، مشيراً بغطرسة إلى التطابق الموجود بين النازية والفاشية.

في شهر أيار من عام ١٩٣٨، حضر هتلر إلى روما بعيد ذكر موضوع العرق في الصحافة الإيطالية والمتعلق بقضية اليهود.

بقيت بخيتة لعامين في فيميركاتي وذلك بين عامي ١٩٣٧ و١٩٣٩. أدركت أن الحرب خالدة لا تخبو مطلقاً. أصبحت بخيتة الآن امرأة مسنّة وأصبحوا يتوجهون بالحديث معها على أنها المرأة *التي تعرف*. لم تعد في فيميركاتي تثير الخوف والفضول كما كانت. هي في بلد يرحل منه الجميع، وكانت الطالبات المبتدئات وذووهنّ يطلبون منها أن تصلي من أجلهم وأن تهيئهم للرحيل. تحدثت عن بلد الطفولة الشبيه ببلد أي إنسان آخر. أخبرتهم أن الناس هناك يباركون الناس، ويحترمون الليل ويشكرون الطبيعة. "الأمر سيان في بلدكم، أليس كذلك؟" بالنسبة إلى الأم والأب ومن أنجبهما، وأولئك المنتظر مجيئهم إلى العالم. "الأمر سيان في بلدكم، أليس كذلك؟". أثار كلامها اضطرابهم، وخافوا أن يتعرفوا إلى أنفسهم في حياة الأفارقة، وأن ينخرطوا فيها ويضيعوا في آمال وإحباطات الآخرين الشبيهة جداً بآمالهم وإحباطاتهم. تلقّت هدية لا تقدر بثمن، فقد التقت بأختها في دير كريمون منذ بضعة أيام، وقررت كل منهما أن تكون للأخرى،

فهناك إمكانية أن يكون الأمر صحيحاً. فالأم أغوستينا من عمر أختها كيشمه ولها لون البشرة الأسود نفسه الآتي من السودان، وتعرضت للإختطاف ولسنوات من العبودية. ثم اعتنقت الدين المسيحي على غرار بخيتة بعد أن اشتراها الأب دون بيادجيو فيري، وهو "داعية الفتيات الإماء" و "داعية التلميذات". لم ترى بخيتة امرأة أو رجلاً من لون بشرتها منذ ثلاثة وخمسين عاماً. ثلاثة وخمسون عاماً كانت خلالها تلك الغريبة المخيفة والوحيدة في العالم. عندما اقتربت من ماريا، فهمت من خلال بشرتها ويديها والطريقة التي يتحرك فيها جسدها وتنظر فيها عيناها، أنها تنتمي لمعتقداتها ولعاداتها نفسها، وأنها سارت في القافلات نفسها، وخضعت لتجار العبيد أنفسهم، وعملت لدى الأسياد أنفسهم. فهمت أنهما كانتا أختين وفقدتا كل شيء. انتُزع منهما كل شيء، ورأتا كل شيء وظل قلباهما ينبضان بغرابة. تعانقتا مطوّلاً دون أن تنطقان بكلمة، وتعرفت كل منهما إلى الثانية، وضمتها إليها بقوة شاعرةً بأنها تضم نفسها بجسدها الأسود المعصوم، الشرعي والخالي من العار. تكلمتا بلغة استعادتاها، لغة مضطربة متنافرة وتالفة. ضحكتا وبكتا شاعرتين بمواساة كبيرة شبيهة بالحب، كما شعرتا بالاشتياق الكامن في داخل كلّ منهما. كان لديهما الكثيرُ من الأشياء تقولانها، وخلف كل كلمة وكل موقف كان هناك اللطف نفسه والحياء نفسه. البداية والنهاية وما يمكن لحياتهما أن تؤول إليه، ثم ما الذي قادهما ليلتقيا ببعضهما هنا في هذا الدير الإيطالي. تحمل كل منهما على صدرها صليب المسيح وأيقونة العذراء التي تحمي الأطفال المخطوفين. بعد عامين من التجوال، كان لقاء بخيتة مع الأمة السودانية ماريا أغوستينا التي أضحت أختاً لها، بمثابة علامة تخبرها أنها عملت بشكل جيد، وأن الرب

يشكرها على هذا. لم تعد حياتها نفسها كما كانت فقد أصبحت تشعر - ربما للمرة الأولى في حياتها - أنها جديرة به، وعلمت أنه ما من شيء سيثير خوفها بعد اليوم، لا شيء سيء أو مجهول يمكنه أن يصيبها بأذى. أصبحت محميّة من كل شيء.

في شهر تموز من عام ١٩٣٨، صدرت القوانين العنصرية التي أسست دعامات النظام الفاشي. بعد وقت قصير، أتت جوليا، وهي صديقة إلفيرا، إلى فيميركاتي حاملةً رسالة إلى بخيتة يتوجب عليها حرقها ما إن تقرؤها.

- اقرئيها لي.

- ولكن أيتها الأم... لقد قرأتِها أنت للتو.

- لم أفهمها.

- بلى، لقد فهمتها جيداً، للأسف.

كانت فترة الظهيرة في بدايتها، والجو جافاً وحاراً والنوافذ مغلقة. غطت الحجرة ظلال ساعات القيلولة التي تسيطر فيها الشمس بأشعتها. أخذت بخيتة تمسّد بأصابعها المشوهة رسالة إلفيرا مرة تلو الآخرى، كما لو أنها تريد تمليس قماشة أو محو الكلمات.

- يجب أن تحرقيها أيتها الأم، لقد وعدتها بذلك.

- كيف عرفت ذلك؟

- إنها يهودية؟

- نعم.

- لقد أتى صديق جدتها وأخبرها بذلك. أخبرها أن جدتها من أمها، تلك التي ربتها، أتعلمين، كانت يهودية. هذا ما قاله.

- ولكنها كبرت في كنفنا في مدينة شيو. ترعرعت عند الكاثوليك.

قالت جوليا أنه عليها الرحيل، وستعود لتوافيها بالأخبار ما إن تعلم شيئاً، وما إن تصبح إلفيرا بأمان في سويسرا حيث تنتظرها أمها حسب قولها.

- صلي من أجلها أيتها الأم.

- نعم، وسأصلي من أجل الآخرين.

نهضت جوليا لترحل، وتناولت بخيتة عكازها، فمنعتها قائلة:

- لا ترافقيني أيتها الأم.

فتحت بخيتة الباب وتناولت ذراع جوليا. كان الدير ساكناً، سارتا ببطء في الممر الذي تعلوه ستائر شاحبة من نور الشمس، يصدر من خلفها صوت أزيز الذباب والزنابير العالقة بين طياتها. توقفت بخيتة لتلتقط أنفاسها وطلبت إلى جوليا أن تفتح النافذة. كان الهواء حارقاً، وبدلاً من الشعور ببعض البرودة في وجهيهما خارجاً، بدا كأنهما دخلتا للتو إلى غرفة حارة جداً.

- انظري، إنها ميلان، كم هي جميلة!

- نعم... أيتها الأم.

- برغم ذلك فالرجال يختبئون، أترين ذلك.

نظرت جوليا مطوّلاً ولكنها كانت بعيدةً جداً عن ميلان لتلاحظ فيه أي شيء آخر غير أسهم الكاتيدرائية وأسقف الشبابيك وأسطح المدينة.

- عذراً يا أمي؛ ولكني لا أرى شيئاً.

التفتت بخيتة إليها وقالت:

- لأنهم مختبئون جيداً.

ابتسمت كأنها قالت دعابةً للتو، ولكنها لم تكن دعابة. وضعت يدها على قلب جوليا قائلةً:

- هنا يختبئ الرجال. في القوة، أخبري إلفيرا بذلك، القوة.

ثم استدارت متّجهةً إلى حجرتها، واختلط صوت أنفاسها بأزيز الزنابير والذباب. كانت تعلم أن العالم كله يشارك هنا في فيميركاتي؛ ففيها المذياع والصحف والحوارات بين الناس، جميعهم يعلمون أنه عصر متوهج. نشرت صحيفة إيطاليا مقالاً عنوانه "الفاشية ومشكلة العرق" أكد فيه عشرة رجال علم أن الأغلبية الساحقة من الإيطاليين تنحدر أصولهم من العرق الآري، وأنهم يشكلون الحضارة الآريّة. كان البيان يشجع الإيطاليين على "الظهور بعنصرية بكل فخر". كما يؤكد أن اليهود هم الشعب الوحيد الذي لم يندمج في إيطاليا. عاد الخوف يسيطر على النفوس من جديد، هو خوف أصحاب "العرق الأسمى" من أصحاب "العرق الأدنى" ألا وهم اليهود والزنوج. كان أصحاب العرق الأول فاسدين؛ أما أصحاب العرق الثاني فهم طفوليون، وكلاهما يهدد نقاء البلد، إذ كان يجب تعليم الأطفال أنهم أعلى شأناً من السود ومختلفون عرقياً عن اليهود. كان وزير التعليم

القومي يؤكد الطابع الذي هو "في منتهى الروحية" لدى الفاشيين أعداء السامية. كانت الصحف والمجلات تتناوب على نشر صور كاريكاتورية ومقالات نقدية، إذ نشرت مجلة *لا ديفيزا ديلا لاتزا* (الدفاع عن العرق) على أغلفتها صوراً تظهر اليهود والزنوج متجمعين ضد إيطاليا. كما نشرت صوراً تظهر نساء زنجيات عاريات الصدر، ويهوداً معقوفي الأنف متربصين خلف طفل رضيع أبيض يرسم تحية السلام الروماني. ونشرت أيضاً صورة تمثال روماني ملطّخ بدهان أسود، ووضعت على رأسه نجمة داوود، والكثير الكثير من الصور؛ مثل صورة الإمرأة الزنجية الملازمة دوماً للرجل اليهودي. وفي الوقت الذي كانت إيطاليا ترسل بعثات تبشيرية إلى أثيوبيا، كانت تُقصي اليهود من الجامعات والمدارس، ومن معظم المهن ومن الفضاء العام.

في ذلك اليوم، لم تحرق بخيتة رسالة إلفيرا. وضعتها بين صدرها وثوب الراهبة الذي ترتديه، عند قلبها الذي يخفق بالقوة التي تبقت له. وكانت صلواتها موجهةً إلى الرب وإلى أطفالها بالمقدار نفسه. كانت تصلي لهذه الأسرة الممزقة، القاسية والضائعة، التي تخطو خطاها نحو الدمار والكره.

بلغت بخيتة عامها السبعين، علمت أن القطار الذي استقلته هو الأخير. كان يأخذها إلى منزلها في شيو إذ أخبروها أنه الآن حان الوقت لكي تستريح في وقت الحرب. كانت إيطاليا تحارب إلى جانب ألمانيا في حرب أعلن الحاكمون أنها هذه المرة أيضاً كانت سريعةً وسهلة. أصبح الناس يرون الوقت في ساعات اليد وفي التقويم، ويرون العالم في الخرائط ومن نوافذ الطيارات. كانت تعتقد أن الناس أصبحوا يرون كل شيء من بعيد

جداً، وتعلم أن ذلك سيدوم طويلاً، طويلاً جداً ربما أطول من الحرب نفسها. سيأتي يوم يسجل فيه التاريخ المجازر التي حدثت بحق الأحياء والتي ستنتقل أخبارها إلى أحفادهم، ولكن من سيواسي هؤلاء الأطفال الآتين من زمن السلام؟ هل سيحملون ألم آبائهم غير المرئي؟ هناك ذكرى وأثر في الكون لا يمكن أن يُمحيا أبداً. لا يمكن إخفاء شيء أو محوه. فكرت في إلفيرا التي لم تعد تردها أخبار عنها، فكرت في الشابات المبعوثات التائهات بين حب المسيح والخوف من الشعوب "البربرية". لقد أمضت أعواماً كثيرة واجتازت بلداناً كثيرة، ولكنها لم ترى سوى المشهد نفسه: مشهد الرجال الضائعين والنساء المغتصبات والأطفال المجردين من البراءة. توقف القطار بفرامله القوية فجأةً مصدراً صوت صرير طويل. وقعت حقيبتها على قدميها فأسرعت الأخت التي ترافقها قلقة عليها، هل هي بخير؟

- نعم أنا بخير.

لم يقلع القطار ففتح الناس النوافذ، فقد كان الطقس حاراً والهواء ثقيلاً جداً. الطقس في حالة تغيير، سيكون من الجيد أن تهطل الأمطار وترعد السماء. فُتحت الأبواب ونزل المسافرون إلى الحقول. سمعت بخيتة نداءات الناس وضوضاءهم.

- إنها أيلة...

- نعم... سيتطلب منهم بعض الوقت لسحبها.

- ولكن ماذا ينتظرون؟

كان الجميع يتحدثون وتختلط أحاديثهم. بينما بقيت بخيتة جالسةً وأذناها تطنّان وتصفران باستمرار. أصبح يحدث لها ذلك باستمرار، تشعر دوماً بأزيز يفصل بينها وبين العالم من حولها. ما من شيء تفعله. فجأة أخذت تمطر بقطرات كبيرة حارة نشرت رائحة التربة في المكان. أخرج الأطفال أيديهم خارج النوافذ فزجرهم ذووهم وأغلقوا النوافذ. أصبح الجو خانقاً ومازال القطار واقفاً.

- ولكن حركوا هذا الحيوان من مكانه!

- ماذا يفعلون؟

- انطلق عيار ناري حاد طغى على طنين أذني بخيتة. وساد فجأة صمت تملؤه الدهشة تلته حالة من الحماس الكبير.

- ماذا إذاً؟

- أخبرونا ما الذي جرى؟

بعد ذلك تحرك القطار ببطء، وصعد المسافرون على عجالة مبللين بالمطر. أخذوا يتضاحكون ويهزون ثيابهم، ويخلعون قبعاتهم. لقد انتابهم الخوف دون أن يستحق ذلك. كان من المستحيل إزاحة الأيلة عن الطريق دون قتلها، فقد كانت قوائمها مكسورةً. بدأ طفل يبكي من القلق فقبلته أمه وقدمت له قطعة خبز. جلس على ركبتيها ثم نظر إلى بخيتة، تلك المرأة العجوز ذات الوجه المحروق. ابتسمت بخيتة لهذا الطفل الآتي ليدخل في زمن الحرب.

أما هي فستدخل إلى عالم الشيخوخة في مدينة شيو، حيث لن يعود لديها أية وظيفة ولا ساعات محددة. لقد أصبحت في الفاقة التي يسببها المرض. تشوهت أصابعها بفعل التهاب المفاصل والتهاب الغشاء المفصلي، واحمرّ معصماها وانتفخا بسبب الوزمات، وأصبحت ركبتاها ووركاها وكتفاها متقصلين ومشدودين. استولى الألم عليها، وبدأت شيئاً فشيئاً تفقد بصرها تحت تأثير الماء الزرقاء في عينيها. أصبحت تتوه في الممرات، وتستند إلى الجدران وتتجه نحو الضجة، ولكن أذنيها كانتا تصفران؛ فتختلط الأصوات عليها، ويتبدد وضوح العلامات. انكمش جسدها وضعف تنفسها. أصبحت تمضي وقتها في المصلى، على غرار ماعاشته كل الراهبات المسنات والمريضات، في الصلاة وفي التحضّر لما سيأتي لاحقاً من ليل أو من نهار. كانت تتنقل ببطء في الدير من مكان إلى آخر، تجهد نفسها في تغسيل وتنظيف أيدي الأطفال الذين يصلون متسخين ومهملين. فتمنح حصتها من الخبز والفاكهة إلى التلميذات الجائعات واللواتي يخفين جوعهن. تقدم طعامها إلى هؤلاء الأطفال المتعبين الذين يتنحّون جانباً ليراقبوا الآخرين وهم يلعبون بنظرتهم الحالمة الدالة على الشرود. كانت تغسل بيديها كل يوم بياضات القداس وترتب قاعة الطعام، وتحوك وتخيط وترتّق وتطرز. ولم يكن يجرؤ أحد على إخبارها بأن عملها غير متقن؛ فهي لا ترى جيداً وأصبحت وأصابعها مشوهة جداً إلى درجة بدت وكأنها على وشك أن تتكسّر مثل قطع خشب صغيرة. كانت تتلقى الزيارات في قاعة الاستقبال الهادئة أو في حجرتها وأيقن الجميع مع مرور الوقت أنها أصبحت عمياء تقريباً. ولكنها تتمتع ببصيرة مدهشة، فتخبرهم بعلاج أحد الأقرباء

المرضى، وتتنبأ بعدوى إحدى الراهبات بمرض ما، أو تخبرهم بكل بساطة عن مكان رسالة ضائعة. كانت في الثالثة والسبعين من عمرها عندما وقعت للمرة الأولى، ثم وقعت مرة ثانية ومرة ثالثة. عندما انهارت أمام الراهب طلب إليها ألا تفعل ذلك مرةً أخرى، ألا تسجد على الطريقة الشرقية أمامه. طلبت أن يساعدها على النهوض، فرفعها على أريكة بعجلات، وهي أريكة ضخمة مصنوعة من الخشب تشبهها، سوداء وخشنة. كان يحصل أن يصطحبونها إلى القداس ثم لم يعودوا يفعلون ذلك، فتظل متكومةً في أريكتها، منسيةً في الكنيسة. بعد ذلك بوقت قصير أصبحت تتنفس بصعوبة وتعاني من التهاب القصبات الذي اتخذ شكل الربو، وأصبحت تُعرف من الصخب الذي تصدره إذ كانت أريكتها المتحركة على عجلات تقرقع، وتنفسها يصفر وهي تسعل وتبزق في منديل يرتعش في يديها. أصبحت تمضي معظم أيامها في غرفة العناية الطبية. لم تعد تتمكن من التماسك وأصبح من المستحيل أن تتمدد، كما أن الجلوس كان يكسر قفصها الصدري فينزلق جذعها ببطء وينهار. كانوا يمددون رجليها على كرسي خارج السرير، لأنها أصيبت بداء الفيل. أصبحت الراهبات يأتين لتمضية الوقت معها فتطردهن، وتشعر بالضيق من ذلك وتخشى كثيراً من أن تعتقد الممرضة أنها لا تعتني بها جيداً.

في الثامن من شهر كانون الأول عام ١٩٤٣، تم الاحتفال باليوبيل الذهبي لمضي خمسين عاماً على حياتها المتدينة، منح الجميع أنفسهم ساعة من السلام وسط صخب الحرب. بعد القداس بقيت جالسةً صامتة في ركن قاعة الطعام، تنظر إلى الجموع التي أتت بأعداد كبيرة للاحتفال بيوبيلها. لم

يحتفل الدير وحده؛ بل شاركت المدينة كلها بالاحتفال. لقد أمضت خمسين عاماً بين الراهبات اللواتي في معظمهنّ الآن بَدَون لها في ريعان الشباب. ماالذي دفعها لتؤكد لهن يوماً بقولها: "لن أخرج، سأبقى"؟ هن لن ينجبن هنا أطفالاً ولن يتعلقن بشخص، ولن يمتلكن شيئاً بل هن في طاعة لكل شيء. "لن أخرج، سأبقى". فالسجن يكمن خارجاً، والبقاء في المصلى يعني الحرية. توجد قواعد صعبة وقاسية وظالمة أحياناً. ولكن هذه القواعد تطمئنها وتجعل الراهبات يتمسكن بها، وتعلم بخيتة أن المصلى يوجد هنا في الداخل، في داخل المرء. لم يفهمها أحد في بادئ الأمر واستغرق منهم الأمر سنوات لإيجاد مكانه. أخذت تنظر إليهن، للمبتدئات وللشابات المتدينات، أولئك النادمات قليلاً، وغيرهن اللواتي تملكهن التعب منذ الآن، والأخريات اللواتي يشع النور منهن. جميعهن يعشن معاً ليلاً نهاراً، ويجدن أحيانا صعوبةً في تحمل بعضهنّ بعضاً، فتحدث بعض المشاحنات والمنافسات والصداقات التي لاتجد مكاناً لها. كانت المحبة تمر من خلال بعض المواقف التي تدل على الاهتمام، وبعض الاعترافات أحياناً فيما بينهنّ كما كان يصل إلى مسمع بخيتة. فالراهبات يتحدثن إليها، ويجدن من الأسهل لهن الاعتراف لامرأة أكثر من الاعتراف للمعرّف في الكنيسة. من الأسهل لهنّ أن يبحن للاموريتا التي رأت كل شيء ويمكن أن تسمع كل شيء. نظرت بخيتة إلى كل أولئك الذين أتوا من أجلها، كانت حاضرة وغائبة في الوقت نفسه، مسيطرة وممحوّة في حضورها. ودت لو تشاركها إلفيرا هذه اللحظة، لم تصلها أخبار عنها ولكنها تعلم أن اليهود تسللوا إلى هذا العالم، وتشعر بما سيجري. هي ليست عرّافة كما يظنون. ولكنها

تعرف بكل بساطة القليل من هذا العالم. تعرف أن ما سيحدث لنا مكتوب في داخلنا، وأن ما سيجري للعالم أمر مكتوب. لن تعد لرؤية ميميّا وإلفيرا مطلقاً. ستكونان جزءاً من هذا الجانب المنتزع منها كالجلد المحروق، المؤلم والضائع.

بدأت حملات الغزو، ولكن لم يكن الزنوج هم الهدف هذه المرة، بل كان اليهود هم من تم سبيهم. قبل الانضمام إلى الحلفاء في صقلية، أوقف الملك موسوليني وحرره هتلر، وقاد تحت إمرته الجمهورية النازية-الفاشية في سالو شمالي البلاد. في شهر أيلول رحل الموكب الأول إلى أوشفيتز.

سقطت القنابل على العالم، على إيطاليا وعلى شيو. لم ترغب بخيتة مطلقاً في أن يحملوها إلى الملاجئ. قالت: لن تقع أية قنبلة على الدير، لكن يتوجب حماية الأطفال. أما هي فستظل في المنزل كحارسة، كامرأة مسنة مكسورة تستمع لضجيج الهجمات. وقع عدد من القتلى والجرحى، وحدث تدمير فظيع بالقرب من *المعمل الكبير*. كانت السماء ترعب الأطفال. لمن ستُري الآن جمال العالم من النافذة المفتوحة؟ تحول النهار ليلاً. أخذت تصلي راجيةً ألا يخاف الأطفال كثيراً في المخابئ في الأسفل، وألا يعانوا من الضعف والمرارة في حياتهم الآتية. رجت الربّ قائلةً: "سيدي، امنحهم القوة". وتساءلت من يقرر أنه يمكن ترك الأطفال يموتون. من يقرر قتل الأمومة. كانت تقول للأطفال الذي كانوا يصرخون لدى سماعهم صوت الطائرات: "أعزائي الأطفال، هذه الضجة آتية من صوت عربة تمر، أتسمعون؟" وهذا صحيح إذ كان يُسمع بين هدير الطائرات صوت حوافر الأحصنة على بلاط الشارع. لايجب أن نخاف من العربات لأنها ترحل

دوماً، أتعرفون ذلك يا أعزائي؟". أما الصغيرات فكنّ ينظرن إلى هذه السيدة العجوز التي تملؤها التجاعيد والسوداء كلياً، والتي يبدو عليها الفقر المدقع والقوة البالغة في الوقت نفسه، دون أن يجبن بشيء. فيصدقنها وينزلن إلى الملجأ في "وقت مرور العربات". كانت بخيتة تتساءل بعد حدوث القصف: "كيف يمر الأمر على الصغيرات؟ هل روى أحدهم قصصاً لهنّ؟ هل غنى لهنّ أحد؟".

ثم عاد السلام ليحل بعد أن تدمر العالم بحرب خلفت وراءها خمسين مليون قتيلاً والكثير الكثير من المفقودين. كانت بخيتة تحلم بإلفيرا أحياناً وتتشبّه عليها الآخريات، وتحلم بأختها التوءم أو بإماء ظنت أنها نسيتهنّ، فيظهرن من جديد في أحلامها بأسمائهنّ المحددة، وبوجوههنّ التي تعرفت إليها. كانت تعرف أنهنّ يبحثن عنها، وأن حياتها على وشك الانتهاء. إنها نهاية حياتها هذه المرة. أصبحت تنغمس في أحلامها بحدة أكثر من وجودها في غرفة العناية الطبية التي كانت فيها تحت الرعاية ليلاً ونهاراً. تورّم لسانها وضعف تنفسها، وانتفخت أعضاؤها بالماء وتمددت ندوبها، وبدا أن جسدها على وشك التمزق. تعاظم الألم بعد حياة كاملة أمضتها وهي تصارعه. هل كانت تسمع الصلوات المهموسة وكلمات الرأفة؟ هل كانت يا ترى تعلم أنها ليست وحيدةً؟

تمددت ذات مساء في سريرها شاعرةً بأن قدميها تدوسان على الرمل؛ فقد كان الجو حاراً و والشمس مائلةً وناعمة. استعادت الاحساس برجليها الرقيقتين وبفخذي الطفلة التي تمشي. استعادت الشعور بالضيق؛ وبثقل هذا الضيق. صرخت:

- السلاسل! السلاسل!

كانت صرختها ضعيفة جداً فاقتربت الأخت التي ترعاها وقالت لها:

- ماذا تقولين أيتها الأم؟ أية سلاسل! أيتها الأم؟

- إنها ثقيلة جداً...

أمسكت الأخت بيدها وخافت قليلاً من هذه الكلمات. ماذا باستطاعتها أن تفعل؟ ماذا يمكنها أن تقول؟ "إنها تعاني من الحمى..." "إنها راحلة..."، "يا إلهي!".

بدأت الصلوات يومين وليلتين فوق رأس بخيتة. كانت الراهبات تبللن شفتيها بقليل من الماء، ويمسكن بيدها كما لو أنهن يمنحن المرأة العجوز ما كانت تحتاجه طوال طفولتها. تلقت بخيتة المسحة الأخيرة بالزيت المقدس، وسهر المصلى بأكمله على حالتها، وتوقفت الدروس مؤقتاً وأخذ الجميع يصوم. وأضرب العاملون في معمل لانيروسي للصلاة لها بخشوع. وفي الكنيسة تناوب أهالي شيو ليلاً ونهاراً للصلاة. المدينة بأكملها اجتمعت من حولها منتظرةً ما سيطرأ. تم إخطار راهبات فينيسيا وإيدا زانوليني وأطفال ستيفانو، وكل الأديرة التي كانت قد تنقلت فيها. إضافةً إلى دور رعاية اليتامى والبعثات والمصليات. لدى دنو ساعة موتها، رغب الجميع في الالتزام الصمت، وبالخضوع للمرة الأولى لإيقاعها، وهو إيقاع داخليّ مرتبط بالعالم وفهموا أنها قد جلبت للعالم أكثر من مجرد حياة واحدة.

- ماما! آه! ماما....

اقتربت الراهبات منها، لقد صرخت الأم جيوزيبينا، لكن ما الذي قالته؟ بدا صوتها المشروخ آتياً من أحد غيرها، ولم يستطع أحد الجزم فيما إن كانت صرختها تعبر عن الفرح أم عن الخوف. كان احتضارها هو صراعها الأخير.

- أعتقد أنها نادت العذراء.

- ماذا؟

- أقول: إن الأم قد نادت القديسة العذراء!

انتشر الخبز في المصلى وفي الدير وفي المدينة، ثم في المدن الأخرى: الأم جيوزيبينا قد رأت في احتضارها القديسة العذراء. لقد كانت سعيدة بذلك. عندها انحنى الجميع وأضاؤوا شموعاً أخرى عند قدمي تمثال العذراء، وعزف الأورغ لحن *السلام الملائكي*.

لم تكن تسمعهم، لم تكن تسمع أو ترى شيئاً سوى أمها الواقفة خلفها، وتضع يدها الناعمة على شعرها المضفور. كانت تضيف إليه بعض اللآلئ الصغيرة الملونة الآتية من أمها. ومن البعيد رأت أيضاً جميع نساء هذه العائلة المنحدرة من قبيلة داجو، والتي كانت تعيش على ضفاف النهر من زمن بعيد. شعرت بفم أمها يطبع قبلةً على عنقها، كانت شفتاها باردتين ومبللتين، وقبل أن تقبلها عضت على بشرتها الجديدة، وهمست في أذنها بطريقة فريدة وسعيدة وأكيدة، اسمها لدى ولادتها.

في يوم السبت الثامن من شهر شباط عام ١٩٤٧، توفيت المسماة الأم جيوزيفا، مارغريتا، فورتوناتا، ماريا، وبخيتة عن عمر ناهز الثامنة

والسبعين وذلك في مدينة شيو. نُقل جثمانها في اليوم التالي إلى غرفة التسجية مدة يومين لرؤيتها وذلك في موكب هائل.

في يوم الثلاثاء الحادي عشر من شهر شباط، بعد انتهاء القداس في غرفة التسجية الموجودة في الدير، دُفنت في مقبرة شيو في قبر عائلة غاسباريلا الثرية كبادرة عرفان.

في عام ١٩٥٥، فتحت الكنيسة قضية اعتيادية يتم بموجبها تطويب بخيتة.

في عام ١٩٦٩، استُخرج جثمانها وتم نقله إلى غرفة التسجية الموجودة في دير بنات الإحسان الكنسيات في مدينة شيو.

في الأول من شهر كانون الأول عام ١٩٧٨، وقّع جان بولص الثاني على مرسوم ينص على اعتبار فضائلها بطولات. وبعد إجراء الأبحاث اعتبرت بخيتة شخصاً مقدساً بسبب جهودها البطولية التي بذلتها لكي تتعايش مع الإنجيل وتكون وفيةً للكنيسة.

في السادس من شهر تموز عام ١٩٩١، وقّع جان بولص الثاني مرسوماً ينص على تطويبها.

في السابع عشر من شهر أيار عام ١٩٩٢، أعلن جان بولص الثاني أنها كانت سعيدةً بترك "رسالة التسامح والغفران الإنجيلي في عالم مقسم ومجروح من الحقد والعنف".

في عام ١٩٩٥، أعلنها جان بولص الثاني سيدةً للسودان.

في الأول من شهر تشرين الأول عام ٢٠٠٠، أعلنها جان بولص الثاني قديسةً. فأصبحت بذلك بخيتة القديسة السودانية الأولى، وأول إمرأة إفريقية تترعرع في كنف أمجاد الكنائس دون أن تكون شهيدةً. قال جان بولص الثاني فيها: "لا أحد سوى الرب يمكنه أن يعطي الأمل لمن هم ضحايا أشكال العبودية القديمة والجديدة".

لإعلان أحدهم طوبويّاً أو قديساً، تطلب الكنيسة من الأشخاص غير الشهداء أن يقدموا معجزةً من أجل تطويبهم، وتطلب معجرةً أخرى من أجل رفعه إلى مصاف القديسين. كانت المعجزة الأوى المأخوذة عن بخيتة تتعلق بأنجيلا سيلا، وهي راهبة كنسية من بافيا. في عام ١٩٤٧، عشية عمليتها الجراحية (كان من المقرر بتر رجلها)، شفيت من الدرن في ركبتها بعد أن صلت للمتوفاة الأم جيوزيبينا بخيتة. أما المعجزة الثانية فتتعلق بإيفا دي كوستا، وهي برازيلية أصيب في عام ١٩٩٢ بداء السكري وتفاقمت حالتها واضطر الأمر إلى بتر ساقها اليمنى. ثم شفيت بفضل صلواتها للقديسة الأم جيوزيبينا بخيتة.

شكر خاص ل:

شكراً لأوديل بلاندينو الذي تابع وشجع عملي بصداقة يقظة وفرحة وأكيدة.

شكراً لإيلينا فيتزاديني التي أجابت بكثير من الصبر عن أسئلتي حول العبودية في السودان في نهاية القرن التاسع عشر.

شكراً للراهبات الكنسيات في شيو وفينيسيا ولاستقبالهم وإصغائهم

شكراً للراهبات السالسيات في فينيسيا لفتحهن باب المصلة في دورسودورو.

شكراً لكلير ديلانوي ولريتشارد دوكوسيت ولفرنسيس إيسميرنارد لثقتهم ولحضورهم

فهرس

الصفحة

الإهداء ٥

-١-

من العبودية إلى الحرية ٧

-٢-

من الحرية إلى القداسة ٢٧٦

الكاتبة: فيرونيك أولمي

(١٩٦٢ - ...) كاتبة فرنسية**.**

من أعمالها المسرحية**:**

- حديقة المظاهر

المترجمة: آلاء أبو زرار

- مترجمة سورية.

- فازت بجائزة سامي الدروبي للترجمة في دورة ٢٠١٧.

من أعمالها المترجمة:

- ثلاث دقائق من التأمل.

الطبعة الأولى / ٢٠١٩م

كلمة الغلاف

هذه الرواية صرخة جديدة في وجه العبودية والعنصرية بكل أشكالها سواءً الجسدية أم المعنوية. بخيتة هي رمز لكلّ امرأة عانت من الاضطهاد والعنف، وسُفكت دماء طفولتها وأمومتها على بلاط ظلم الإنسان لأخيه الإنسان. تجعلنا هذه الرواية نقف مشدوهين أمام ما يمكن أن تصل إليه وحشية البشر بعضهم ضد بعض، فلا يمكننا عندئذ إلا أن نكفكف الدموع أمام هذا الكمّ من المشاعر الإنسانية من حبّ وحنين وعنف وقهر وذلّ وصبر وخشوع. تسلّط الرواية الضوء على أحداث تاريخية وشخصيات حقيقية سياسية ودينية ما بين نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؛ لتنفي أي احتمال للخيال في خلق ما فيها من ألم وجمال على حدّ سواء.